الآثار الكاملة



السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني

الشيخ محمد عبده

٢ - ٣

رسائل في الفلسفة والعرفان

الرسائل والمقالات

إعداد وتقديم: سيد هادي خسرو شاهي

مكتبة الشروق الدولية

بسم الله الرحمن الرحيم

رسائل في الفلسفة والعرفان

الكتاب : **رسائل فى الفلسفة والعرفان**
المؤلف : السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني
إعداد وتقديم : سيد هادي خسرو شاهي
الطبعة الأولى ـ القاهرة
تاريخ النشر : ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م



القاهرة ـ كوالالمبور ـ جاكارتا ـ لوس أنجلوس

تليفون وفاكس : ٢٥٦٥٩٣٩ ـ ٤٥٤٤٤٦٧ ـ تليفون : ٤٥١٩٦٢٨
Email : adel almoalem<shoroukintl@Yahoo.com>

الآثار الكاملة

(٢)

السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني

رسائل
في الفلسفة والعرفان

إعداد وتقديم

سيد هادي خسرو شاهي

مكتبة الشروق الدولية

الفهرست

الموضـــوع	الصفحة

حول بعض الرسائل

للسيد جمال الدين الحسيني

سيد هادي خسروشاهي

رســائل
في الفلسفة والعرفان

منذ خمسين عامًا وأنا أتابع وأدرس كل ما كتبه السيد جمال الدين الحسيني - المشهور بالأفغاني - من كتاب أو مقال أو رسالة . . . وأجمع كل ما كُتبَ عنه وبأيّ لغة في العالم . . . وكانت حصيلة هذه المتابعة المتواصلة، مئات من الكتب والمقالات والصور والرسائل والوثائق القيّمة، المطبوعة منها والمخطوطة . . . وقبل سنة كنت أبحث عن الرسائل والوثائق المتبقية من السيد جمال الدين الحسيني في إيران، والمودعة في مخزن خاص بمكتبة مجلس الشورى الإسلامي بطهران، فوجدت بينها رسالتين مخطوطتين في الفلسفة والعرفان :

إحداهما : «مرآة العارفين» في ٢٢ صفحة بالقطع الصغير وقد قام السيد جمال الدين بتأليفها حين كان في أفغانستان وكتب في نهايتها : «كتبه عبدالله جمال الدين الأفغاني الكابلي في بلدة قندهار في يوم الأحد ٢ شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢٨٣» . (راجع الوثيقة الأولى، وهي الصفحة الأخيرة من هذه الرسالة) .

ثانيتهما : رسالة «الواردات في سرّ التجليات» وهذه الرسالة المخطوطة، تقع في ٥٣ صفحة من القطع الصغير وهي بخط «إبراهيم اللقاني»، حيث يكتب في آخرها : «كملت على يد كاتبها إبراهيم بن علي اللقاني المصري، المجاور بالجامع الأزهر وذلك يوم الخميس سلخ صفر سنة واحد وتسعين ومائتين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام والتحية» (راجع الوثيقة الثانية) . وقد حرر هذه الرسالة الأستاذ الشيخ محمد عبده في سنة ١٢٩٠هـ، من السنوات الأولى التي قضاها بصحبة الأفغاني، وكان السيد جمال يحسبه تلميذه الخاص، فيما كان الشيخ

عبده يبادله الشعور نفسه ويعتبره مرشده الروحي ووالده الحقيقي، حيث يقول: «. . . إنَّ أبي وهبني حياةً يشاركني فيها علي ومحروس، والسيد جمال الدين وهبني حياةً أشارك فيها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين. . . » (زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص٢٩٣).

ورسالة الواردات رسالة صغيرة تتألف من مقدمة للشيخ محمد عبده، تليها اثنتا عشرة «واردة» في المسائل الفلسفية المهمة وهي على قدر كبير من العمق، تعكس قدرة فائقة وتمكّنًا غير عادي لدى صاحبها على البحث في هذا الموضوع الصعب وارتياد هذا المجال الذي لا يقدر على ارتياده إلاّ النزر اليسير من المفكرين والعلماء. .

يقول الشيخ محمد عبده فى كيفية تأليف هذه الرسالة: «. . . إنّى كنت مشتغلاً بطلب العلوم، فبينما أنا حول الرياض أحوم إذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية فشغفت بها حبّا ولكن لم أجد من هي له طوية. . وكلما سألت أجابوني بأن الاشتغال بها حرام. . . وبينما أنا كذلك، إذ أشرقت شمس الحقائق فوضح لنا بها دقائق الرقائق بوفود حضرة الحكيم الكامل والحق القائم أستاذنا السيد جمال الدين الأفغاني. . فرجوناه في شيء من ذلك فأجاب والحمد لله على ذلك وكان ذلك في سنة ١٢٩٠ فنلنا بذلك طرائف التحف فأومأ إلينا بكليات هذه جزئياتها وآيات هذه بيناتها. . » (مقدمة الرسالة، راجع الوثيقة الثالثة. . .).

وبذلك يشهد الشيخ، بأن هذه الرسالة ناتجة عن فكر جمال الدين الحسيني الأفغاني ولقد كان دوره فيها، هو التحرير والتأليف، أو الجمع والصياغة والتبييض. . .

بعد الاطلاع على هذه الرسالة المخطوطة، راجعت كتاب: «تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده» والذى قام بتأليفه وجمعه الأستاذ السيد محمد رشيد رضا ويحتوي على كل مقالاته ورسائله، في أجزائه الثلاثة، وطالعت الجزء الثاني، ـ قسم المنشآت ـ ولكنني لم أجد الرسالة، بل وجدت في المقدمة، كلاما غريبا عن السيد رشيد رضا، حيث يصرح بأنه قد حذف الرسالة في الطبعة الثانية من

الكتاب، لأن الناس لا يفهمونها! . . . يقول: «تنبيه: تزيد هذه الطبعة على الأولى عدة مقالات ورسائل وحكم منثورة وحذفنا منها رسائل الواردات. لقلة من يفهمها» (صفحة ل، من مقدمة الجزء الثاني، كتاب تاريخ الأستاذ الإمام، الطبعة الثانية، مطبعة المنار بمصر، سنة ١٣٤٤هـ)!

. . . ثم قمت بالبحث والفحص عن الطبعة الأولى من الكتاب، فى مكتبات قم وطهران، العامة منها والخاصة، ولكنني لم أحصل عليها . . . وقد أراد في الصيف الماضي ولدي الفاضل، الصالح، السيد محمود خسروشاهي، السفر إلى خراسان فكلّفته للتحقيق في الموضوع . . . فزار مكتبة «آستان قدس» في المشهد الرضوي عدة مرّات، فوجد الطبعة الأولى من الكتاب بمساعدة الأخ المشرف على المكتبة، السيد غلام رضا شاكري المحترم، حيث أهدانا نسخة مصورة من الرسالة (الوثيقة الرابعة، وهي قسم من الصفحة الأولى والأخيرة للرسالة، المطبوعة في القاهرة، سنة ١٣٢٢هـ).

ونحن إذ نشكره على هذه الهدية الغالية، نرى من الضرورى أن نشكر الأستاذ الحائري، مدير مكتبة المجلس أيضا، حيث لم يضجر من مراجعاتنا المتكررة، بل قد ساعدنا في الحصول على صورة من هذه الرسالة المخطوطة، كما زوّدنا برسائل ووثائق مخطوطة أخرى غير منشورة، وجدتها بين وثائق السيد الخاصة . . . وسوف ننشرها في المجلدات الأخرى من «الأعمال الكاملة» للسيد جمال الدين . . .

. . . واليوم إذ ننشر هذه الرسالة الفلسفية المعمّقة، بعد التطبيق بين النسختين المطبوعة والمخطوطة، ـ ورسالة «مرآة العارفين» وبعض الرسائل العربية الأخرى من التراث الفلسفي والفكري للسيد في هذه المجموعة ـ نبشّر القراء الأعزاء والأساتذة الكرام، بأننا سنقوم بواجبنا في نشر «موسوعة جمال الدين الأفغاني» باللغة العربية ـ في ستّة مجلدات ـ زهاء ٢٠٠٠ صفحة ـ كما سننشر موسوعة أخرى باللغة الفارسية، تحتوي على مقالات ورسائل السيد بهذه اللغة . . . وستحتوي الموسوعتان على كل ما كتبه السيد، أو نشر منه في الصحف والمجلات، أو بقي منه بين أوراقه ووثائقه الخاصة، أو ما يدور حوله من الوثائق الموجودة في الوزارة

الخارجية البريطانية أو الإيرانية . . . وستكون الموسوعة الثانية في عشرة مجلدات في أكثر من ثلاثة آلاف صفحة من القطع الكبير . . . وسيتم نشر الموسوعتين (بإذن الله) بمناسبة «المؤتمر العالمي حول جمال الدين الأفغاني» والذي سينعقد في طهران، في الذكرى المئوية الأولى على استشهاده في اسطنبول . .

* * *

وبهذه المناسبة، ندعو كل الإخوة والأساتذة، في البلاد العربية والإسلامية، أن يزودونا بما عندهم، عن السيد جمال الدين، من مقالات ورسائل أو صور ووثائق، لتكون الموسوعة كاملة وشاملة. ولاشك أننا سننشر كل ما يصل بأيدينا بأسماء الأساتذة الذين زودونا بالوثائق أو المقالات . . . وشكراً لهم سلفاً.

والله الموفق وهو المعين

سيد هادي خسروشاهي

مدير مركز البحوث الإسلامية

قم ١٤١٧هـ

سنذكر في الفروع لكل حرف من حروف البسملة
والفاتحة ولكل سورة اجمالاً ولآياتها وكلماتها وحروفها
تفصيلاً دائرة مقوسة بقوسين وبرزخ جامع بينهما
وذلك لا يسع في هذا المختصر الذي في جميع العالم كما قال
الله تعالى ولو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر
قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً الآية
فاكتفينا على ما رقمنا ووقفنا عند ما قصدنا والله
يقول الحق وهو يهدي السبيل وهو حسبنا ونعم
الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد سيد الانبياء
والمرسلين وعلى آله واصحابه اجمعين

كتبه عبده ... بلدة قندهار
في يوم الاحد ٢ شهر محرم الحرام
سنة [illegible]

الوثيقة الاولى...

العبيد فانه لا تخالف بينهما في الحقيقة لله
فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد
فاعل من حيث الرب فاعل والوجود في
جميع مراتبه مختار والحمد لله وحده .
كملت على يد كاتبها ابراهيم ابن علي اللقاني
المصري المجاور بالجامع الازهر وذلك يوم
الخميس سلخ شهر سنة واحد وتسعين وماتين
والف من الهجرة النبوية على صاحبها افضل
السلام والتحية

الوثيقة الثانية...

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواجب وجوده العام جوده والصلوة والسلام على احكم حكماء العالم ومن عمر الدهر الزمين خاتم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

اما بعد فيقول محمد بن عبده ابن حسن الجبرتي الحنفي الناشئ باقليم مصر المحروسة نسمي كنية نصر خادم خدمة الحكمة المعروف نحو الكلام والحكمة المتعالي عن فيه نبات الطرق اولاه اقتناص صيد المعارف الالهية مشتغلا بطلب العلوم تبينها انحول الزهر احوم اذ عثرت بآثار العلوم الخفية بحثت بها حبا ولكن لم اجد من هو مطلوبه فحررت حرية واحدة اجيز ذكري وكلما سألت اجابوني ان

الاشتغال

الاشتغال بها حرام اذ قد رأى عمنا علماء الكلام فتعجب بشدة العجب وغفلة الناقدين العجب فتفكرت في سبب ذلك فرأيته انه من جنس ما يطلع ومن اخذ عن العلي باباه فوجدتهم كمن عليه بلسانه ورق اللعاب فلا يدري مرارة الحنظل ولا حلاوة العسل وبينا انا كذلك اذ اشرقت شمس الحقائق هو وضع لنا رقائق الحقائق بورود حضرة الحكيم الكامل وكونها ثم اي سادتنا السيد جمال الدين الافغاني زاد ... لنا بالاجمال حاذقا فرجوناه في شيء من ذلك فاجاب ... عني ذلك وكان ذلك في سنة ... بعد الالف فلما بدا للنظر ... الحق فوما الينا بكليات هذه جزئياتها وآيات

الوثيقة الثالثة...

رسالة الواردات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواجب وجوده، العام جوده، والصلاة والسلام على نبينا أحكم حكماء العالم، ومن هو لأساطين الالهيين خاتم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

أما بعد فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله، الناشيء باقليم مصر، بخطة البحيرة بقرية تسمى محلة نصر، خادم خدمة الحكمة، المعرض عن نحو الكلام والكلمة، المتخلي عن قيد لباس الطوائف، الى فضاء اقتناص صيد المعارف، اني كنت مشغلا بطلب العلوم، فبينما أنا حول الرياض أحوم، اذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية، فشغفت بها حبا ولكن لم أجد من هي له طوية، فحرت في أمري وأخفيت أجيل فكري، وكلما سألت أجابوني بأن الاشتغال بها حرام، أو قد نهى عنها علماء الكلام، فتعجبت شدة العجب، وغفلة الباقين أعجب، وتفكرت في سبب ذلك فرأيته أن من جهل شيئا عاداه، ومن أخلد عن العلا يأباه، فوجدتهم كمن علك بلسانه ورق العناب فلا يدري مرارة الحنظل، ولا حلاوة العسل، وبينما أنا كذلك إذ أشرقت شمس الحقائق، فوضح لنا بها رقائق الدقائق، بوفود حضرة الحكيم الكامل، والحق القائم، استاذنا السيد جمال الدين الافغاني لا زال لظلم العلوم جانيا، فرجوناه في شيء من ذلك، فأجاب والحمد لله على ذلك، وكان ذلك في سنة ١٢٩٠ فنلنا بذلك طرائف التحف فأوصل الينا ... وآيات هذه بيناتها ونحو ذلك على فترة من ... في هذه الأوراق الى أنه وقع ... وسميتها الوا... (ردات) ولا نقطت فيما أدرجت الى أن الافعال هل هي لله خاصة أو بقدرة العبد فاعل من خاصة؟ ولا نقطت فيما أدرجت ان الافعال هل هي لله خاصة أو بقدرة العبد فاعل من حيث العبد فاعل، والعبد فاعل من الصالح بين الطائفتين العظيمتين في أن الأفعال هل هي لله خاصة أو بقدرة العبد فاعل من حيث الرب فاعل والوجود في جميع مراتبه مختار والحمد لله رب العالمين وحده.

قال مؤلفها تم تبيضها يوم الاربعاء سادس عشر شعبان المكرم سنة تسعين ومائتين بعد الألف اهـ

(٤ – تاريخ الاستاذ الامام ج ٢)

الوثيقة الرابعة:..

جمال الدين الأفغاني
التغيير في الوقائع والقيم

الدكتور: علي زيعور

في مناسبة الذكرى المئوية الأولى لرحيل جمال الدين الأفغاني (ت١٨٩٧)، صدرت في طهران، (١٤١٧، ١٩٩٧) الطبعة الأولى من: «رسائل في الفلسفة والعرفان» إعداد وتقديم الأستاذ السيد هادي خسروشاهي. تثير تلك المناسبة التي تغيب عنها الاهتمام الأكاديمي اللبناني، دافعًا إلى غسل التأثيم الذاتي الآخر الناجم عن تغييب ثان، وثالث، وآخر. فنحن لم نشارك، في شباط الماضي، في تكريم عبدالرحمن بدوي الذي أعطى أوسع تأرخة وأدقها للفضاء الفلسفي المشترك بين الفلسفات العربية الإسلامية واليونانية الوثنية واللاتينية المسيحية أو الوسيطية ونلتقط التقاعس عينه، ثم التأسف واللوم الذاتي في إقصاء الاهتمام بتكريم للد. م. ع. أبو ريان، جرى في الإسكندرية (٢٦ و٢٧/ ٣/ ٩٧).

إن استعادة جمال الدين إلى دار «أهل النظر والبرهان»، ولا سيما إدراكه كمنعطف أو معيد لتعضية وبنية الفلسفة العربية الإسلامية، تسقط منهج القراءة الذي يراكم الإعجاب والثناء ويكدس التوصيفات والداحضات.

النقدانية والإدراك الندبي

أما تحريك النقدانية التثميرية فيعيد إلى صب النظر ليس على هوامش سلوكيات أو على إفناء الذات، عند الأفغاني، بل حول العقل وطرائقه في الإنتاج والمقاضاة وخفض توترات الحقد. بتحكيم النقدانية، وتثمير أدواتها وأولياتها، قد يتحقق

التعلم من التجربة الفكرية للأفغاني مع الوجود والمعرفة والعلائقية. كما قد يتحقق أيضا، بعد ذلك التعلم واكتساب الخبرة، الاستيعاب ومن ثم التجاوز. . وهكذا فإن القراءة الفلسفية للأفغاني، تؤسس على أنها فلسفة، وتتحصن مدافعة عن منهجيتها ومبتغاها بكونها علما له ميدان وغرض، ومتمتعا بمرجعية ومصطلحات بل بقوانين يتفاعل فيها ـ بتكافؤ وتذبذب بين نقيضين ـ المحلي وما بعد المحلي، الحاضر والمستقبلي، المحايد والموضوعي.

ما دام العقل (أو الفلسفة) نقداً ممنهجًا ممذهبًا، وما دام النقد عقلانية شمولانية، فإنه محتم أخذهما معًا، وحتى في وحدة أو كبنية واحدة حية. بذلك، ولذلك، ينداح الإدراك الندبي النادب، ويأخذ معه إلى الظل والقيعان التلوينات المأساوية والقراءة التقريعية والتجريمية للذات والحقل المعادي.

لا أحد من الجناح العربي في الفلسفة الإسلامية المعاصرة (عبده، عبد الرازق، إلخ)، أو من الجناح الهندي (السيد أحمد خان، إقبال. . .)، تألم وقاسى كالأفغاني الذي كان، بمفرده، مأساة متنقلة وبطل مسرحية احتدامية يعي جيداً أنه وحيد وخاسر! ومجاهد في سبيل الحق براية عجفاء، و مبشر نذير بلا معين أو مستمع. هذا صحيح! لكنه إطار حياة فكر وليس فكراً، والشخصي عند صاحب النص وليس نصا ولا هو فلسفة.

مرآة العارفين والواردات

تكشف «مرآة العارفين» أن الفلسفة صارت تدرس في مصر بفعل سلطة الأفغاني؛ وعلى يديه استعادت حضورها في تركيا أيضًا ومن ثم مكانة وإعادة تنظيم مع جدة. فعلى هامش آخر صفحة منها (ص ٢٤) نقرأ ما يفيد أن تلك الرسالة الفلسفية معروفة في مصر منذ ١٢٩٢هـ، وفي إستنبول أيضًا وقبل ذلك سنة ١٢٨٨هـ.

إن «مرآة العارفين» خطاب في الحكمة، في ذلك القطاع الأسمي داخل الفكر العربي الإسلامي، فتلك «المرآة» نظر في الوجود، وفي علائقية الحق (الله) مع الإنسان الكامل (الذات البشرية)، كما هي أيضًا تدبر وتثمير لمصطلحات الدين

الكبرى والأفـهومـات الصـوفيـة والعـرفانيـة التي ترسـخت على أيدي الفـلاسـفـة (الفارابي، ابن سينا، إلخ)، وكبار الصوفيين (الغزالي، ابن عربي . . .) في ثقافات الإسلام المتـعددة . تتـميـز هذه الرسالة بالوضـوح في رؤيتـهـا للإنسـان منظوراً إليه بشـبكة من الأفكار الدينيـة ومقـولات الحكمـة المعـهودة، فـهو قـد يزعم أنه «جـرم صغير»، لكنه ينطوي فيه «العالم الأكبر». ولم أقرأ في النص ولا في ثناياه ما ينبئ عن أن الإنسـان مـسـحـوق، وليس هو أيضًا مـجـرد منفـعل أو مـتلق مـتلقن تجـاه الألوهية، وأمام القضاء والقدر أو الشروط الموضوعية . ولعله ليس قليل الوضوح، ولا بغـيـر نفع أو دلالة، القـول إن أسلوب الكتابة يبدو هنا فلسـفـيا أو ترضـى عنه الفلسفة التي لعلها آنذاك، وبتأثير الأفغاني/ عبده، كانت أشـهر العـوامل في كـسر الأسلوب التعبيري الذي كـان يتغذى باللفظانية، وبالنزعة المصطنعة نحو التنميق وتمجيد المترادف و الفضفاض وحتى الثرثار الأجوف!

وتؤكـد الرسـالـة الثـانيـة، وهي «الواردات في سـر التـجليـات»، التي هـي بخط إبراهيم اللقاني سنة ١٢٩١، صفة الصوفية (العرفانية) للحكمة والفلسفة في الفكر الإسلامي، والطبيعة الاستمرارية لتلك الحكمة والفلسفة من حيث مصطلحاتهـما (المرآة، العـارف، الواردات، التـجليـات، الإنسـان الكامل، الأحـدية . .) ومقاصـدهما، ورؤيتـهـما للألوهية و الإنسـان وطرائق تدبر الوجـود والـقيم . ومما يدعم دعـوانا في أن الفلسـفـة انتـعشت على يد الأفـغـاني وتجـددت هـو أن رسـالـة «الواردات . . » تبدأ بقول هو تأرخة لما قلت إنه يشبه المنعطف، ومفادها : أن الشائع آنذاك كـان يرى «أن الاشتـغال (بالفلسفة) حـرام، أو قـد نهى عنهـا علمـاء الكلام . فتعجبت (محمد عبده) أشد العجب، وغفلة الناقلين أعجب» (ص٢٧).

قد يكون الأهـم ماثلاً في تعقب مـوضـوعـات (= ثيمـات، الأفكار أو المقـولات الأشمل والأعم) الفلسفة وإشكالياتها أو حقلها وأدواتها .

ولا صعوبة في الاستنتاج أن هذه الموضـوعـات هي التي كـانت الأساس والمجـال للفلسفة عند الفارابي وابن سينا وأمثالهما، كالشيرازي أو المعتزلة وابن رشد . .

اعتزالي سيناوي

تظهر في رسالة «القضاء والقدر» (٦١ ـ ٧٢) النزعة الصدامية والمبادئ الاعتزالية في أيديولوجيا الأفغاني؛ إذ هو يدافع عن عقيدة يقول هو نفسه عنها إنها «تعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحقة» (ص ٦٤). فيرفض «لفظ المغفلين من الإفرنج»، ويرمي بأقوالهم فيها إلى سلة الظنون والمزاعم.

الأهم لنا هنا ليس عرض تلك العقيدة أو التصورات؛ فلا شك عندي في أن جمال الدين ـ وهو اعتزالي وسيناوي ـ يتدبر جيداً أهمية الشروط الموضوعية أو البيولوچية والمجتمع مثلما التاريخ في تكوين الأنا. ولعل الفلسفة والعلوم، في الزمن الحاضر وفي المستقبليات، تساعدنا على الإقرار بدور ما للذات الفاعلة أو لعقل الإنسان وللحرية النسبية، في التفاعل مع العوامل الخارجية وعلى أكثر من صعيد (قا: تحديد المعتزلة لدور الشرع والعقل في الإنتاج والقديم).

يبقى أن ما يقوله الأفغاني، في هذه الرسالة، توضيحيا ويؤكد لي أن أحكام بعض الجارحين على الفكرة المذكورة ليست دقيقة بقدر ما هي من قبيل القول الغرضي والمختلق، أو التخيلي و المتحرك باللاتعاطف والنقص في المحبة واحترام الإنسان (را: قول سبينوزا، أوهيغل، في الإيمان بالقدر والمكتوب عند اليونان والمسلمين والمسيحيين). لكأن هذه الرسالة للأفغاني، وحتى رسالة «العلم وتأثيره في الإرادة والاختيار» (ص ٩١ ـ ١١٢) ذات وظيفة دفاعية هجومية؛ ومن ثم فنحن هنا أمام بدايات ردود الفلسفة الإسلامية المعاصرة، على الفلسفة الأوروبية في استمرارها للفكر اللاتيني ـ الوسيطي.

يحمل الأفغاني بشدة على «من وكلوا أنفسهم إلى التوكل الكاذب» فذوو «البطالات ومن رفضوا الأسباب» مرفوضون (فلسفة الصناعة، ص ٨٧ ـ ٨٨)، ويبدو جليا أنه فسر الوضع الحضاري الحالي للإنسان بالتطور من حال بدائية (٨١ ـ ٨٤). كما أنه بين وأثبت أن « الإنسان نوع من أنواع الحيوانات الأرضية. . (وكان) يتفيأ ظلال الأشجار، ويستكن في الحجر والأوكار» (م. ع. ص ٨١). يعني هذا القول التاريخي في الإنسان، عند جمال الدين، ثقة بالعقل البشري وقدرته على

ترويض البيئـة وتثمير الظروف من أجل تعـزيز حـريته النسبية وتكيفه الإسهامي المنفتح . .

أما رفض رافضي الأسباب ، أي قول الأفغاني بالسببية ومن ثم بالتفسير تبعًا للسنن الكلية أو القوانين ، فيستدعي رد ابن رشد على مقولة الغزالي في اعتبار السببية مجرد عادة أو اقتران ، وتجاور غير ضروري وغير حتمي بين العلة والمعلول ، أو السبب والنتيجة . وفي تلك المعمعة الفكرية ، بين الأشاعرة والمعتزلة (ومع هؤلاء الأخيرين يقف الفلاسفة) يختار الأفغاني/ عبده الأخيرين بزعامة ابن سينا ، وخطاب ابن رشد .

العقـل العـلمي

يشد الأفغاني ، في رسائله الأخرى المتوفرة والأشهر ، الفلسفة صوب المجتمع والالتزام بحقوق النحن ، وبالتكليف الإيجابي داخل العالم القوي السلاح والفكر والصناعة ، فالعقل العملي هو الذي أنتج ، داخل المدرسة الفلسفية الإسلامية المعاصرة التي أسسها السيد جمال الدين ، جديدًا في تحليل الوقائع وطرح الحلول الاستراتيچية . في تلك المجالات تبدي الانفصال و«القطيعة» النسبية حيال الفلسفة التأسيسية ممثلة ، على نحو خاص عند الأفغاني ، بالفارابي/ ابن سينا . وهنا أيضا ، في «فلسفة الصناعة» (ص ٨١ ـ ٨٩) كما في «فلسفة التربية» تنزاح المدرسة الفلسفية السيناوية ، على يد أبرز ممثليها أو منتجيها المعاصرين ، نحو المنزع الواقعي وحيث التحرك بالاجتماعي والمتجذر في التاريخي والسياسي والعلاقة مع الأمم القوية . لقد تحولت الفلسفة بذلك إلى تفسير المجتمع و الإنسان والمعرفة ، وإلى صياغة شمولية الرؤية للمعنى الجديد وللتغيير الاستراتيچي في الوقائع والحقائق والقيم .

معروف جيدًا ، في تاريخ الفلسفة الإسلامية المعاصرة ، مقال الأفغاني في الدهريين . فالداروينية البيولوچية ثم ، على يد هـ . سبنسر ، الداروينية الاجتماعية ، فرضيتان أو «نظريتان» حاربتهما الحكمة والفلسفة والثقافة في معظم المجتمعات وحتى مدة غير بعيدة . لا تبدو لي الداحضات التي يقدمها جمال الدين ، والفكر

العام والذين يخشون التطور والجديد، كافية للإقناع. فما هو «براهين» (وحجج أو ذرائع) تجيِّش لنقض النظرية الداروينية في الحياة (البيولوجيا، علم الحياة)، تعجز عن أن تكون أدلة فلسفية أو موضوعية التوجه.

لا يفصل الأفغاني بين العلمي والإيماني؛ ولذلك فهو يقدم أحكامًا معيارية، ورؤية أيديولوجية محكومة بالمسبق والجاهز، بل وبالخوف اللامبرر على الإيمان والروحانيات.

العرفان المحدث

ويتضح دفعة واحدة، على نحو فوري، أن النظرية الفلسفية عند جمال الدين غير موقدة بمناهج و ثمرات العلوم الطبيعية و الإنسانية التي كانت، في القرن التاسع عشر، تقدم حقائق وتعيد التصور عن المتعاليات والوقائع، وعن معنى العلم وثقل الفلسفة لم تكن الفلسفة عندنا متقبلة منفتحة، ولا ساعية إلى التعلم والتثمير أو إعادة التسميات والمعنيات. لقد بقيت المصطلحات الكبرى، في نظرية الأفغاني الفلسفية، سيناوية اعتزالية؛ فهي نظرية لم تحاور الأنساق التي طرحها كنط، أو هيغل، أو ماركس، أو غيره من مدققين فرنسيين في مجال الفكر الأعمِّي الأشملي. تتجلى تلك الروحية «التقليدية»، المحافظة والاستمساكية، في العرفان «المحدث» بخاصة في تمثلات الأسد آبادي حول الصناعة، والعمل، والدين، وتطور الوعي، والحس التاريخي، والعقل، والألوهية والنبوة. . فما هو العلم، ولا سيما الصناعة في تلك المدرسة الفلسفية الإسلامية، وفي ذلك «العرفان المحدث»، اللذين ألحفنا أعلاه على أن السيد جمال الدين كان الحارث الباني والمؤسس المنظم؟

وهو يستعيد ما كان، عند ابن سينا، الإطار العام والألفاظ التقنية، بل حتى الجملة أحيانا والمثل أو التشبيه (را: سينا، الإلهيات، ج٢، الفصل الأخير). وليس دقيقًا أن يكرر الأفغاني أقسام الصنعة وضرورة المهن وتكاملها (فلسفة الصناعة، ٨٥ ـ ٨٩) غير مستند إلى الواقع المتحرك بقدر ما كان مستندًا إلى ابن سينا «رسالة في

السياسة المنزلية: سياسة القوت وسياسة الولد»، والطوسي «أخلاق الناصرية»، والدواني «الأخلاق الجلالية». . .

ويبدو أن المقصود بالعقل عند الأفغاني/ عبده ليس مجموعة الطرائق المفسرة، ولا القوالب أو الأجهزة المنتجة المحاكمة للمعارف الدقيقة والتكنولوچية. . فهو ليس متنوعًا تاريخيا بقدر ما قد يظهر بمثابة أيسة، أو أفهوم متعال يتمايز عن الشروط الموضوعية والحقل وغير خاضع أو محتاج للتعريف والنقد.

* * *

. . . أخيراً، ما تزال صحيحة دقيقة المحاكمة التي تقضي بأن «رسائل في الفلسفة والعرفان»(*) تشكل نهضة وإعادة نظر جديدة. وهذا، على الرغم من الروحية المعهودة الاستمرارية التي تعيدنا إلى التجربة الفلسفية التأسيسية. لكأن إعادة الصياغة، أو التوجهات المستحدثة، لم تفلق الوثوقي عند الأفغاني. كان على الفكر أن ينتظر سيول «المدرسة العربية الراهنة في الفلسفة» أو تنويراتها و توتيراتها.

الدكتور علي زيعور

بيروت ـ لبنان(**)

(*) رسائل في الفلسفة والعرفان ـ جمال الدين الحسيني الأفغاني. إعداد وتقديم: سيد هادي خسروشاهي ـ الطبعة الأولى.
ـ طهران، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي بالتعاون مع: مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية ١٤١٧ هـ. ص١٨٤، ٦٥٠ تومان.

(**) «نهار الكتب» الملحق لجريدة «النهار» اليومية، الصادرة في بيروت. العدد ٦ ص ٦ ـ نيسان ١٩٩٧م.

رسائل في الفلسفة والعرفان

جمال الدين الأفغاني فيلسوفًا

الدكتور: عبدالرحيم حسن

رافق الذكرى المئوية لوفاة السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني تجدد الاهتمام بتراثه الفكري والفلسفي، وقد جرى عقد مؤتمرين عن الأفغاني خلال العام الحالي، واحد في طهران والثاني في القاهرة، وتم التركيز في البحوث التي قدمت على النشاط السياسي والإيقاظي لهذه الشخصية المذهلة ولم يجر تناول أعماله الفلسفية بشيء من التوسعة. وكان هناك اعتقاد بأن الأفغاني لم يترك نتاجًا فلسفيا مهما، سوى رسالته في الرد على الدهريين، ولكن الباحث والمحقق، حجة الإسلام السيد هادي خسروشاهي - مدير مركز البحوث الإسلامية في الحوزة العلمية بقم - إيران - الذي وقف جزءًا كبيرًا من نشاطه لسنوات كثيرة، للبحث عن تراث الأفغاني وتوثيقه، عثر على رسائل فلسفية لم تنشر من قبل، تدور كلها حول الفلسفة والعرفان وقد صدرت الرسائل في كتاب بعنوان: «رسائل في الفلسفة والعرفان»، وهو يضم أيضًا رسالة الرد على الدهريين. ويمثل الكتاب إضافة جديدة إلى المكتبة العربية، كما أنه يلقي الضوء على نوعية البحث الفلسفي في المدارس الدينية في القرن الماضي.

وضع العلامة الباحث، خسروشاهي مقدمة للكتاب، بين فيها قصة عثوره على رسالتين للأفغاني: «مرآة العارفين» و«الواردات في سر التجليات» وذلك أثناء مراجعته لأوراق ووثائق الأفغاني المحفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي الإيراني، ولكنه لم يعثر على ذكر لرسالة الواردات في الطبعة الثانية

من كتاب «تاريخ الأستاذ محمد عبده». الذى ضم تراث عبده وعني به الشيخ محمد رشيد رضا، بل وجد بدلا من ذلك، قولا للشيخ رشيد، يعتذر فيه عن عدم إدراج رسالة التجليات، وقد كانت موجودة في الطبعة الأولى، بأنه صعب على الناس فهمها! وقد راجع المحقق الطبعة الأولى، فوجدها واستفاد منها في عملية التحقيق.

والمشكلة التي أراد المحقق توضيحها هي نسبة الرسالة إلى الأفغاني، وقد وجد اعترافًا من الشيخ عبده في مقدمة الرسالة ذاتها، يقول فيه: «إني كنت مشتغلاً بطلب العلوم، فبينما أنا حول الرياض أحوم إذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية فشغفت بها حبا ولكن لم أجد من هي له طوية، وكلما سألت أجابوني بأن الاشتغال بها حرام، وبينما أنا كذلك إذ أشرقت شمس الحقائق فوضح لنا بها دقائق الرقائق بوفود حضرة الحكيم الكامل والحق القائم أستاذنا السيد جمال الدين الأفغاني، فرجوناه في شيء من ذلك فأجاب والحمد لله على ذلك، وكان ذلك في سنة ١٢٩٠ فنلنا بذلك طرائف التحف فأومأ إلينا بكليات هذه جزئياتها وآيات هذه بيناتها».

ونجد في إحدى الواردات قول كاتب الرسالة: «ومن لطائف الوقائع ما وقع للفاضل الأستاذ في الإستنبول مع جماعة من الطبيعيين..» وفي هذا دلالة على أن الشيخ عبده يقرر أقوال أستاذه وينشئ على أفكاره، وأن الرسالة هي عمل مشترك إن صح التعبير، ولكن طبيعة المباحث الموجودة فيها، والتي هي مباحث فلسفية كلامية، فيها تفصيل لم يعهد تدريسه في الأزهر الشريف تدل على نسبة قطعية للأستاذ لا للتلميذ.

و«مرآة العارفين» عبارة عن رسالة مختصرة شرح فيها الأفغاني بعض التصورات الكلية، اعتمادا على سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب، وضاهى بينها وبين المعرفة الإنسانية وصلتها بالعالم، وصلة الله جل وعلا بالإنسان والعالم معا. ومن الأفكار التي تنطوي عليها الرسالة هي أن الفاتحة تضم الكتاب المنزل برمته، وأن «جميع ما في الكتاب مفصل فهو فيها مجمل، وما فيها مجمل فهو في الكتاب مفصل، والفاتحة في البسملة، والبسملة في الباء، والباء في النقطة مندرجة، فهي في أم الكتاب وجميع الكتاب كائن فيها». وكذلك الله تعالى من حيث صلته بالكون،

حيث «إن الحق مبدأ الكل ومعاده، وإليه يرجع كله وإلى الله عاقبة الأمور، ولا بد أن يكون الكل فيه قبل كونه، ولا بد أن يكون في الكل هو «ولكن من غير حلول ولا اتحاد» لأن الاتحاد يحصل من الوجودين، وكذا الحلول والصيرورة، وأن لا وجود إلا وجود واحد». وأن آيات الكون كلها مندرجة في النفس الإنسانية على نفس المنوال الذي وصفت به سورة الفاتحة «فمن عرف نفسه فقد عرف ربه وعرف جميع الأشياء». وهذا تأصيل لعلوم العرفان وفلسفته.

أما رسالة الواردات فهي رسالة أوسع بعض الشيء، وتأخذ بتفصيل العقيدة والبحث في الوجود بتأسيس النظر إلى وجوده سبحانه وتعالى وصفاته، ثم صلته بخلقه، وبعثه للأنبياء، وطريق الوصول إليه سبحانه. وتتضمن الرسالة إعادة النظر في التعريفات الدارجة لمصطلحات علم الكلام، من ذلك رفضها لتعريف الممكن بأنه «ما يحتاج إلى غيره في الوجود» وتعريفه بأنه «المقيد» وأن «كل مقيد فهو محتاج إلى المطلق والقيد، فهو معدوم في ذاته، فلا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح، والمطلق الذي لا قيد فيه بوجه من الوجوه ليس بممكن، إذ لا يفتقر إلى موجد، وإلا لكان قيداً له، فكل مقيد ممكن، وكل ممكن مقيد، ولا شيء من المطلق الحقيقي بممكن». وهذا واحد من الاستدلالات اللطيفة والمجددة.

ثم يأخذ بمباحث القصد منها تنزيه الذات الإلهية عن كل شرك، من حلول واتحاد، وإظهار أن لا وجود حقيقي إلا وجود واحد منزه عن كل قيد. ومن جملة التنزيه، القول بأن العلم الإلهي هو عين الذات، و«هو علم بجميع شئونه وأطواره، وأن جميع ما تشرف بالبروز فإنما هو على ما في العلم، ولكن لضيق الخارج عن أن يسع المراتب غير المتناهية. حصل الترتيب في تلك التجليات». وأن إرادته هي عين فعله، وأن فعله منزه عن الغرض. وأن العالم خلق وفق مراتب تتخللها حركة دائمة و«العالم في الترقي على حسب تقادمه في الوجود». وأن متطلبات الكمال الإنساني هي العلة في إرسال الرسل، لأن الرسول هو «الرجل الكامل». وأن النفس الإنسانية تخلد وتتحمل في العالم الآخر عاقبة أفعالها، وأما أفعال العبد في الدنيا «فالله الفاعل من حيث العبد فاعل، والعبد فاعل من حيث الرب فاعل،

والوجود في جميع مراتبه مختار». وتحتاج هذه المباحث إلى توسعة؛ ليتضح للقارئ المراد منها وبيان التقليد الكلامي الذى جاءت منه والنقاش الذي ترد في سياقه.

وقد ألف الأفغاني رسالة أخرى في «القضاء والقدر»، أقر فيها القول بهما واعتبره من مقومات الشخصية الإيجابية؛ لأن «الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر، يتبعه صفة الجرأة والإقدام».

كما أن هناك رسالة موجزة عن الأفغاني في «العلم وتأثيره في الإرادة والاختيار» وهي ذات منحى سيكولوجي يرى فيها المؤلف أن «الإرادة هي تابعة للأثر العلمى في الروح الإدراكي، أو هي صورة أخرى لذلك الأثر» وأن «الأخلاق والملكات ناشئة عن كثرة توارد الانفعال النفسي الإدراكي من نوع واحد، حتى صارت هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال الجزئية الملائمة لها».

وهناك رسالتان أخريان في فلسفة التربية والصناعة، وربما كانتا مقدمتين لبحوث لم تنجز أو أنجزت ولم يصلنا خبرها بعد. . والكتاب كما أشرنا، يضم أيضًا رسالة «الرد على الدهريين» مع إيضاحات من العلامة المحقق، الخسروشاهى. وهذه الرسالة طبعت عدة مرَّات من قبل، وترجمت إلى لغات متعددة، منها: العربية والتركية، والأردية، والإنجليزية(*).

الدكتور عبد الرحيم حسن

لندن ـ بريطانيا

* مجلة «العالم» الأسبوعية ـ لندن.

١

مرآة العارفين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أخرج من النون ما أدرج في القلم، وأبرز على الوجود بالجود ما أكنز في العدم، وفتق ما رتق، وأظهر ما كتم، وعلم بالقلم ـ الملقب بأم الكتاب واللوح المحفوظ المسمى بالكتاب المبين ـ ما لم نعلم، وفصل وقدر في النفس ما في العقل أجمل، وقضى وحكم وأخرج اللوح بيمينه من يسار القلم، كما أخرج حواء من جنب آدم، كما قال الله تعالى وتقدس: ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ـ وهي العقل ـ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ـ وهي النفس ـ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾[١] وهي العقول والنفوس، ففتح بالهباء الموسوم بالهيولي والعتقاء صورة العالم، وفتق السموات من الرتق المكنى بالعنصر الأعظم، فسبحان من عين الأعيان بالفيض الأقدس الأقدم، وكون الأكوان بالمقدس المقدم، وأظهر القدم بالحدوث والحدوث بالقدم، ونشر الرق[٢] المنشور، وكتب الكتاب[٣] المسطور بمداد الوجود المبرز ما كمن في باطن المتكلم عن الحروف والكلمات التامات وأتم[٤]، وأثبتهما فيه وأرقم[٥]، ورتبهما ونظم، وكملهما وتمم، وفي الفاتحة ما فصل في الكتاب أدرج وأدغم، وما في الفاتحة في البسملة، وما فيها ستر في الباء، وما فيها أبطن في النقطة وأضمر[٦] وأبهم.

وصلى الله على الاسم الأعظم، والرداء المعلم والممد الهمم بالقول الأقدم، محمد فتح به الكتاب وختم، وميز الباطل من الحق والنور من الظلم، وعلى آله وأصحابه وسلم.

---

(١) النساء: ١.

(٢) في الأصل: رقّ.

(٣) في الأصل: كتاب.

(٤) في الأصل: وأتمم.

(٥) كذا، والصحيح: «ورقم» بتشديد القاف وتخفيفها.

(٦) كذا، والصحيح ظاهراً: «أضمر» بدون العطف بالواو.

أما بعد، فإني أجبت سؤالك - أيها الولد الصالح - لما سألتني أن أثبت وأرقم لك - في هذا المختصر - شيئًا مما قدر الله لي في فاتحة الكتاب - التي هي أم الكتاب - بلسان أهل الله وخاصته، وسميته بـ «مرآة العارفين في ملتمس زين العابدين»، وأسأل العون من موجد الكون، فإنه المستعان وعليه التكلان.

اعلم أيها الولد الصالح المؤيد، أن العالم عالمان: عالم الأمر وعالم الخلق، وكل واحد منهما كتاب من كتاب الله، ولكل فاتحة، وجميع ما في الكتاب مفصل في الفاتحة مجمل، فباعتبار إجمال ما فصل في الكتاب فصل فيها سميت بأم الكتاب، وباعتبار تفصيل ما أجمل فيها فيما يلي مرتبتها سميت مرتبة التفصيل بـ «الكتاب المبين»، وكل موجود في العالم حرف باعتبار، وكلمة باعتبار، ومركب باعتبار، وسورة باعتبار؛ لأنا إذا نظرنا في ذات كل موجود - من غير أن ننظر في وجوهها[(١)] وخواصها وعوارضها ولوازمها - وجدناها مجردة عن الكل، فباعتبار تجردها عن الكل سميناها حرفًا، وإذا نظرنا إلى وجوهها[(٢)] وخواصها وعوارضها ولوازمها، وأضفناها إليها، فباعتبار إضافة الكل إليها سميناها كلمة، وباعتبار تجرد كل موجود عن المضافات والمنسوبات وتميز بعضها عن بعض سميت حروفًا مقطعة مفردة، وباعتبار عدم تجردها عن المضافات والمنسوبات، وعدم تميز بعضها عن بعض، بل تداخل بعضها في بعض، سميته ألفاظًا مركبة، وباعتبار تميز كليات المراتب بعضها عن بعض، ووقوع كل موجود في مرتبته، سميت سورة.

فإذا علمت هذا فاعلم أيضًا أن الحق مبدأ الكل ومعيده، وإليه يرجع كله وإلى الله عاقبة الأمور، ولا بد أن يكون الكل فيه قبل كونه، ولابد أن يكون في الكل هو، وإذا ثبت أنه كان ولا شيء معه، وهو الآن كما كان، فذات الحق سبحانه وتعالى باعتبار ما اندرج[(٣)] فيها هي أم الكتاب، وعلمه هو الكتاب المبين، وباعتبار تفصيل ما اندرج في الذات التي[(٤)] قلنا فيها: إنها[(٥)] أم الكتاب وظهورها كمن

---

(١) و (٢) يحتمل في الأصل: «وجمها»، والمناسب ما أثبتناه.
(٣) في الأصل: اندراج.
(٤) في الأصل: الذي.
(٥) في الأصل: إن.

فيها، فعلمه بذاته مستلزم لعلمه بجميع الأشياء؛ إذ جميع الأشياء كانت مندرجة [فيها][(١)] كاندراج الشجرة في النواة، فالعلم ـ الذي قلنا فيه إنه هو الكتاب المبين ـ مرآة الذات التي[(٢)] قلنا فيها: [إنها][(٣)] أم الكتاب، والذات ظاهرة[(٤)] فيها؛ لأن العلم هو أول ما تعين به الذات، فالذات هي أم الكتاب من الحقائق[(٥)] الإلهية، والعلم هو الكتاب المبين من الحقائق الكونية، فبين الذات والقلم مضاهاة من جهة الإجمال والكلية، وكون الأشياء فيها على الوجه الكلي، وكذلك بين اللوح والقلم مشابهة من جهة التفصيل، وظهور الأشياء فيهما على الوجه الجزئي، فالقلم من هذا الوجه في مرتبة الكونية مرآة الذات، فما في الذات مندرج على الوجه الكلي والإجمال، فهو في القلم مودع على الوجه الكلي والإجمال، واللوح المحفوظ أيضًا من هذا الوجه في المرتبة الكونية مرآة القلم، فما في القلم على الوجه الجزئي والتفصيل، فهو في اللوح ظاهر على الوجه الجزئي والتفصيلي.

فلما علمت أن لعالم[(٦)] الأمر كتابًا مجملاً ملقبًا بأم الكتاب، وكتابًا مفصلاً موسومًا بالكتاب المبين، والكتاب المجمل هو العقل، والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ، فاعلم كذلك [أن][(٧)] لعالم الملك كتابًا مجملاً، وهو العرش، وكتابًا مفصلاً و[هو][(٨)] الكرسي، فباعتبار اندراج ما يريد أن يفصل في الكرسي ما كان في العرش مجملاً، يقال له: أم الكتاب، وباعتبار تفصيل ما كان في العرش مجملاً في الكرسي يقال له: الكتاب المبين، فبين العرش والقلم مضاهاة من جهة الإجمال وكون الأشياء فيهما على الوجه الكلي، وكذلك بين الكرسي واللوح مناسبة من جهة مظهريتهما، ومن جهة تقسيم الأمر الواحد فيهما بالقسمين، ومن جهة ظهور الأشياء فيهما على الوجه الجزئي والتفصيلي، فالعرش[(٩)] من هذا الوجه

---

(١) و (٢) إضافة يقتضيها السياق.
(٣) في الأصل: الذي.
(٤) في الأصل: ظاهر.
(٥) في الأصل: الحق.
(٦) في الأصل: العالم.
(٧) إضافة تقتضيها سلامة التعبير.
(٨) إضافة يقتضيها السياق.
(٩) في الأصل: كالعرش.

في المرتبة الحسية مرآة القلم، فما في القلم مندرج على الوجه الكلي والإجمالي، فهو في العرش مندرج على الوجه الكلي والإجمالي كذلك، والكرسي - أيضًا - من هذا الوجه في المرتبة الحسية مرآة اللوح المحفوظ، فما في اللوح المحفوظ ثابت على الوجه الجزئي والتفصيلي، فهو في الكرسي على الوجه الجزئي والتفصيلي، فالقلم - المكنى بالعقل - أنموذج الذات ومرآتها ومظهرها ومنصتها ومجلاها، واللوح - المسمى بالنفس - أنموذج القلم ومرآته ومظهره ومنصته ومجلاه، والعقل نسخة الذات، واللوح نسخة القلم، والعرش نسخة القلم، والكرسي نسخة اللوح، وأما الإنسان الكامل فهو نسخة جامعة لجميع النسخ، وهو المستخرج والمستنبط من الكل، وهو الجامع بين الإلهية والكونية، [فحيث][1] إن ذات الحق كتاب جملي، وأم جامع لجميع الكتب قبل تفصيلها، وعلمه تعالى بنفسه كتاب تفصيلي، مفصل مبين فيه ما كان في الذات مضمراً، كذلك الإنسان الكامل كتاب جملي، وأم جامع لجميع الكتب بعد تفصيلها، وعلمه بنفسه كتاب تفصيلي، مفصل مبين فيه ما كان في الإنسان الكامل مجملاً، فعلم الإنسان الكامل بذاته مرآة لذاته، ذاته ظاهرة فيه ومميزة به، كما أن علم الحق بذاته مرآة لذاته، وذاته ظاهرة به متعينة به، فبين ذات الحق سبحانه وذات الإنسان الكامل، مضاهاة من جهة الكلية والإجمال، وكون الأشياء فيهما على الوجه الكلي والإجمالي، وبين علم الحق وعلم الإنسان الكامل، مضاهاة من حيث مظهريته لتفصيل ما أجمل، فالإنسان الكامل مرآة تامة للذات بسبب[2] هذه المضاهاة، والذات متجلية عليه على الوجه الكلي والجملي، وعلم الإنسان الكامل مرآة لعلم الحق، وعلم الحق متجل[3] عليه وظاهر به، فما في الذات مندرج على الوجه الكلي، وما في علم الحق ظاهر على الوجه الجزئي والتفصيلي، فعلمه علمه، وذاته ذاته بلا اتحاد معه، ولا حلول فيه، ولا صيرورة هو؛ لأنها محال لأن الاتحاد يحصل من الوجودين، وكذا الحلول والصيرورة، وما ثم إلا وجود واحد، والأشياء موجودة به معدومة بنفسها، فكيف يتحد من هو موجود به ومعدوم بنفسه، ولو نسمع الاتحاد[4] الذي قلنا فيه: إنه يحصل من

(١) في الأصل: «فلما».
(٢) في الأصل: لسبب.
(٣) في الأصل: متجلي.
(٤) الصحيح: ولو سمعنا بالاتحاد.

الوجودين؛ إذ ليس مرادهم بالاتحاد إلا شهود الوجود الواحد المطلق الذي الكل به موجود، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيء موجودًا به ومعدومًا بنفسه، لا من حيث إن له وجودًا خاصا به الكل، فإنه محال، ولهذا الوجود الواحد ظهور، وهو العالم، وبطون وهو الأسماء، وبرزخ جامع فاصل بينهما؛ ليتميز به الظهور من البطون، وهو الإنسان الكامل، فالظهور مرآة الظهور، والبطون مرآة البطون، وما كان بينهما فهو مرآة جمعًا وتفصيلاً.

وإذا تقرر هذا فلنرجع إلى ما كنا بسبيله، فنقول: كما أن بين ذات الحق وذات الإنسان الكامل وعلم الحق وعلمه مضاهاة، وأن كل ما فيها مجمل فهو فيها مجمل، وكل ما فيه مفصل فهو فيها مفصل، كذلك بين القلم وروح[١] الإنسان، واللوح وقلب الإنسان، والعرش وجسم الإنسان، والكرسي ونفس الإنسان، مضاهاة، وكل واحد منهما مرآة لما يضاهيه، فكل[٢] ما في القلم مجمل فهو في روحه مجمل، وكل ما في اللوح مفصل فهو في قلبه مفصل، وكل ما في العرش مجمل فهو في جسمه مجمل، وكل ما في الكرسي مفصل فهو في نفسه مفصل.

إن الإنسان كتاب جامع لجميع الكتب الإلهية والكونية، كما قلنا في حق الحق: إن علمه بذاته مستلزم لعلمه بجميع الأشياء، وإنه يعلم جميع الأشياء من علمه بذاته؛ لأنه هو جميع الأشياء إجمالاً وتفصيلاً، فمن عرف نفسه فقد [عرف][٣] ربه وعرف جميع الأشياء، ففكرك يا ولدي فيك يكفيك، فليس شيء خارجًا منك، كلا.

قال أمير المؤمنين:

دَواؤُكَ منكَ وما تشعُرُ ... وداؤُكَ فيكَ وما تُبصرُ[٤]

أتزعمُ أنكَ جِرْمٌ صغيرُ ... وفيكَ انطوَى العالمُ الأكبرُ

وأنت الكتابُ المبينُ الذي ... بأحرُفه يظهرُ المضمَرُ

---

(١) في الأصل: الروح.

(٢) في الأصل: فلكل.

(٣) إضافة يقتضيها السياق.

(٤) في الأصل: داؤك فيك وما تشعروا ... دواؤك منك وما تبصروا.. والصحيح ما أثبتناه.

فلا حاجة لك من خارج، وفكرك فيك وما تفكر، أما تسمع لقول[١] الحق ـ عز وجل ـ: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٢]، فمن قرأ هذا الكتاب فقد علم ما كان وما هو كائن وما هو يكون، فإن لم تقرأه[٣] بتمامه فاقرأ ما تيسر منه؛ ألا ترى كيف يقول الحق سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٤]وكيف يقول سبحانه: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٥]، وكيف يقول سبحانه: ﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٦] الألف يشار به إلى الأحدية الذاتية؛ أي الحق من حيث هو أول الأشياء في أزل الآزال، واللام يشار به إلى الوجود المنبسط على الأعيان، فإن اللام له قائمة، وهي الألف، وله ذيل، وهي دائرة النون، والنون عبارة عن دائرة الكون، فاتصال القائمة بالذيل دليل انبساط الوجود على الكون، والميم يشار به إلى الكون الجامع، وهو الإنسان الكامل، فالحق والعالم والإنسان الكامل كتاب لا ريب فيه.

وكذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[٧]، فهذا يا ولدي هو الكتاب، وعلم الكتاب، وأنت الكتاب كما قلت، وعلمك بك علم الكتاب، ﴿وَلَا رَطْبٍ ـ أي عالم الملك ـ وَلَا يَابِسٍ ـ وهو عالم المكونات ولا أعلى منه ـ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٨] وهو أنت.

وأما الكتاب الذي أنزل على الإنسان الكامل فهو بيان المراتب الكلية الجملية والجزئية والتفصيلية الإنسانية، فهو بيان الكتاب، والإنسان الكامل مرتبة وحدته وجمعيته، وقد فصل مراتب تفصيله؛ لأنه يبين الفرق بين مقاماته ومراتبه وأطواره وأدواره وذاته وصفاته وأفعاله؛ لأنه يحكي عن الذات والأسماء والصفات والأفعال، وعن العوالم وأهلها، ومراتب العوالم وأهلها، وأحوال العوالم وأهلها في كل موطن من المواطن، وعن اقتضاء أهلها إجمالاً وتفصيلاً، وهذه تفاصيل

(١) في الأصل: بقول.
(٢) الإسراء: ١٤.
(٣) في الأصل: تقرأ.
(٤) فصلت: ٥٣.
(٥) الذاريات: ٢١.
(٦) البقرة: ١، ٢.
(٧) الرعد: ٤٣.
(٨) الأنعام: ٥٩.

مراتب الإنسان، وهو مجموع جمعها، فثبت أن هذا الكتاب معرف الإنسان، ومبين المراتب(١) الكلية والجزئية.

وإذا تقرر هذا فاعلم أن لهذا الكتاب المنزل على الإنسان الكامل فاتحة تسمى بأم الكتاب وجميع ما في الكتاب مفصل فيها مجمل، وما فيها مجمل فهو في الكتاب مفصل، والفاتحة في البسملة، والبسملة في الباء، والباء في النقطة مندرجة، فهي في أم الكتاب وجميع الكتاب كائن فيها: الحروف المقطعات والمتصلات والألفاظ والكلمات والسور والآيات، والكتاب عبارة عن انبساطها وتعينها بجميعها، واندراج الكل فيها عبارة عن عدم انبساطها؛ إذا ما ثمة شيء غيرها، فمن عرف ما قلنا، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾(٢)، فمد الظل عبارة عن انبساط النقطة الوجودية وتعينها بتعينات الحروف والكلمات الإلهية والكونية، والسكون عبارة عن عدم انبساط النقطة الوجودية وتعينها بتعينات الحروف الإلهية والكونية وبقائها على بساطها المنبتة عليها في قوله تعالى: «كنتُ كنزا»، فهذه النقطة البائية إشارة إلى النقطة الوجودية، وباء البسملة إشارة إلى أم الكتاب الثاني، وهو القلم، ولا ريب أنه كان فيها مندرجًا، والبسملة إشارة إلى أم الكتاب الثالث، وهو العرش، ولا شك أن العرش كان مندرجًا في العقل الذي هو القلم، والفاتحة إشارة إلى أم الكتاب المبين الجامع، وهو الإنسان، ولا شك أن الإنسان قبل ظهوره، كان مندرجًا في جميع المراتب كاندراج الكل فيه بعد ظهوره وانبساط النقطة في ذاتها إشارة إلى الكتاب(٣) المبين الأول، وانبساط الباء بالسين إشارة إلى الكتاب(٤) المبين الثاني، وتفصيل حروف البسملة وتداخل بعضها في بعض إشارة إلى الكتاب(٥) المبين الثالث، وتكرار ما في البسملة في الفاتحة فتناظر بعضها للبعض إشارة إلى الإنسان الكامل، وبيان جميع القرآن عين الفاتحة إشارة إلى مراتب العالم وأجزائها، فافهم.

---

(١) في الأصل: مراتب.
(٢) الفرقان: ٤٥.
(٣) و (٤) و(٥) في الأصل: كتاب.

وإذا تقرر هذا فاعلم: أن الفاتحة تنقسم بقسمين وتنصف بنصفين، وثالثهما جامعهما كما روى. .[١] ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم الكتاب فهي خداج[٢]» أي غير تمام[٣]، فقيل لأبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: إنا نكون وراء الإمام. قال: اقرأها في نفسك، فإني سمعت[٤] النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «قال الله تعالى جل شأنه: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله تعالى: مجدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[٥] قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل. من أولها إلى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ متعلق بالحق الصرف، ومن ﴿اهْدِنَا﴾ إلى آخر الفاتحة متعلق بالعبد الصرف، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فمتعلق بالحق والعبد».

ولتحقق هذه[٦] الأقسام الثلاثة وتبينها رسمنا دائرة، وقسمناها قسمين[٧] بسبب خط مار بينهما، وجعلنا قسمًا للحق، وقسمًا للعبد، وقسمًا جامعًا بينهما، وهي هذه:

جبروت

ملكوت	**ملك**

(١) هنا بياض في الأصل، والظاهر أنه «أبو هريرة» بقرينة ما سيأتي.

(٢) أي ناقصة.

(٣) كذا، والظاهر أنها تفسير منه، والصحيح: غير تامة

(٤) في الأصل: «سمعت قال النبي . . .»، ولا يخفى زيادة كلمة «قال» هنا.

(٥) سورة الفاتحة

(٦) في الأصل: «هذا».

(٧) في الأصل: «بقسمين».

واعلم أن هذه الدائرة الكلية مشتملة على جميع الموجودات: جبروتها وملكوتها وملكها وما بينهما، وما يتعلق بالحق منها يسمى بالجبروت، وما يتعلق بالعبد ينقسم إلى قسمين[١]: قسم يسمى بالملكوت، وقسم يسمى بالملك، فإن للعبد روحًا وجسمًا، روحه شامل للملكوت[٢]، وجسمه شامل للملك[٣]، وما يتعلق بالحق والعبد معًا سمي بالحقيقة الكلية الإنسانية، والقسم الذي يتعلق بالعبد كلما قسم بقسمين، ويسمى كل بما بليتم؛ لذلك خصص قسم بأهل السعادة والهداية، وهو من ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وقسم بأهل الشقاوة والضلالة، وهو من ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخره؛ وذلك لأن عالم الجبروت جامع للجمال والجلال، ولا بد أن يكون لهما مظهران؛ ليظهر بهما أحكامهما وأخلاقهما وأعمالهما، ولهما الجنة والنار، ومجموع ذلك مندرج في القسم الذي يتعلق بالعبد.

وأما القسم الذي يتعلق بالحق والعبد معًا ـ الذي سمي بالحقيقة الإنسانية ـ فهو مرتبة أهل الكمال، ومقام المطلع، ومنزل الإشراق على الأطراف، وموقع الأعراف، وفيه رجال، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾[٤]، لأنهم محيطون بالكل[٥]، ولهم الكمال المتعلق بالذات، والجمال والجلال مندرجان في الكمال، وأرباب هذا الموقف العارفون الموحدون.

فإذا تقرر هذا فاعلم أن في البرزخ يتصف الحق بصفات العبد: من الضحك، والبكاء، والبشاشة، والفرح، والمكر، والاستهزاء، والمرض، والجوع، والعطش.. وما أشبه ذلك، والعبد يتصف بصفات الحق: من الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والإحياء، والإماتة، والانبساط، والقبض، والتصرف في الكون والأكوان.. وغير ذلك، فهذا البرزخ

---

(١) في الأصل: «بقسمين».
(٢) في الأصل: «بالملكوت».
(٣) في الأصل: «بالملك».
(٤) الأعراف: ٤٦.
(٥) في الأصل: «على الكل».

هو مرتبة نزول الرب؛ ليتصف الرب فيها بصفات الربانية، فهي العماء المذكور في الحديث المشهور، ولولا أني أخاف من التطويل والإعراض عن التوجه لبسطت في هذه المرتبة البرزخية العمائية وأسرارها، فأخذت لذلك[١] عنان الكلام، واكتفيت بما[٢] يليق بهذا المختصر.

فثبت على ما قررنا: أن فاتحة الكتاب الجامعة لجميع المراتب والعوالم التي هي الكتاب أو الكتب، وجميع المراتب والعوالم فيها مندرجة، ولذلك سميت بأم الكتاب.

وأما البسملة الموسومة بأم الفاتحة، وهي ـ أيضًا ـ على قسمين: قسم منها يتعلق بالذات، وهو «الله»، وقسم يتعلق بالصفات وهو «الرحمن الرحيم»، وما بينهما وهو جامع القسمين وقابلهما، وهما فيه جميع، وهو «الله».

وإن شئت أن ترسم دائرة فارسم، واجعلهن قوسين بسبب تخطيط[٣] خط مار في وسطها فأثبت الـ «بسم» في القوس الأيمن، و«الرحمن الرحيم» في القوس الأيسر، و«الله» في البرزخ؛ لأنها اسم الذات الموصوفة بجميع الصفات والأسماء، وهي برزخ من حيث جمعيتها[٤] للقسمين.

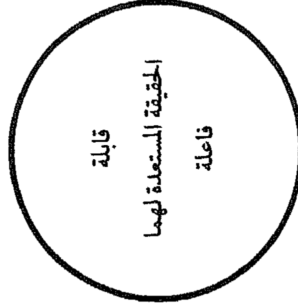
---

(١) يحتمل في الأصل: «كذلك» ولكن الظاهر أنها صححت بما أثبتناه.
(٢) في الأصل: «على ما».
(٣) كذا، والمناسب: «رسم».
(٤) كذا، والمناسب: «جامعيّتها».

بسم الله الرحمن الرحيم

إن البسملة ـ أيضًا ـ مشتملة على ثلاثة أسماء، وهي: الله، والرحمن، والرحيم.

أما «الله» فهو مشتمل على جميع الأسماء الفاعلة والقابلة والحقيقة المستعدة للفاعلية والقابلية، فارسم فيها[1] دائرة أخرى كما قلت، وأثبت الفاعلة في اليمين، والقابلة الأيسر[2]، والحقيقة المستعدة لهما في البرزخ، كما تراه فاشهد:



الرحمن[3]: فهو اسم للحق باعتبار انبساط الوجود وعلى الإنسان، والرحيم اسم له باعتبار اختصاصه من كل عين بحصة[4] من حصص الوجود، فالحق بنفسه يرحم برحمته الامتنانية العامة المخصوصة بالرحمن، وبالرحمة الوجودية الخاصة المتصلة بالرحيم يريد ظهور المرحوم؛ ليظهر به رُحْمَهُ بأعمال المرحومين عند عطاء الجزاء برحمته، فوقعت نسبة الرحمية بين المتنسبين، وهما الرحيم والمرحوم، فافهم.

---

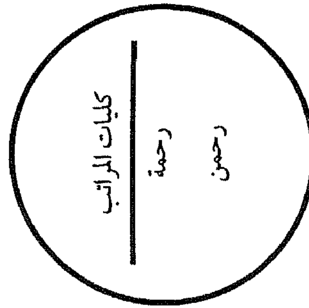
(١) كذا، والمناسب: «لها».

(٢) كذا، والصحيح: «في اليسار».

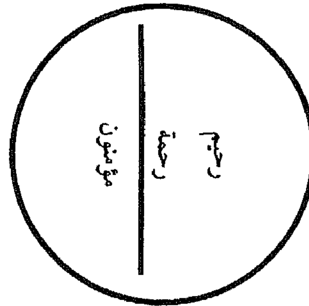
(٣) كذا، والمناسب: وأما «الرحمن».

(٤) في الأصل: «يخصه».

فإذا فهمت فأدر دائرة اسم «الرحمن»، وافعل فيها ما فعلت في غيرها، وأثبت اسم الرحمن في القوس الأيمن، وكليات المراتب في الأيسر؛ لأن رحمة الرحمن وسعت كل شيء، وكل من وسعت رحمته إياه[1] فهو مرحوم، وأثبت الرحمة في البرزخ كما تراه:



وافعل في «الرحيم» ما فعلت في الرحمن، إلا أن رحمة الرحيمية وجوبية متعلقة بالعمل، فمرحومهما المؤمنون الذين يعملون الصالحات، فأثبت الاسم «الرحيم» في الأيمن، وأسماء المؤمنين في اليسار، والرحمة في البرزخ كما تراه:



(١) كذا، والصحيح: «وكل من وسعته رحمته فهو مرحوم».

وهذا باعتبار حكم الأصول سيرى فى الفروع لكل حرف من حروف البسملة والفاتحة ولكل سورة إجمالاً، ولآياتها وكلماتها وحروفها تفصيلاً، دائرة مقوسة بقوسين وبرزخ جامع بينهما، وذلك لا يسعه هذا المختصر(١) ولا جميع (٢) العالم، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(٣) فاكتفينا بما(٤) رقمنا، ووقفنا عند ما قصينا(٥)، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد سيد النبيين والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كتبه عبد الله جمال الدين الأفغاني الكابلي

في بلدة قندهار في يوم الأحد ٢ شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢٨٣*

---

(١) في الأصل: «لا تسع في هذا المختصر».

(٢) في الأصل: «ولا في جميع».

(٣) الكهف: ١٠٩.

(٤) في الأصل: «على ما».

(٥) كذا، والصحيح: «ووقفنا على ما قصصنا».

(*) في الهامش: در شهر رجب در شهر إستنبول در قرب جامع فاتح در محل مكتب نشسته ام. سنة ١٢٨٨. جمال الدين الحسيني.

در شهر محرم الحرام سنة ١٢٩٢ در محروسه مصر قرب قلعه مسغول تدريس فلسفه ميباشم.

٢

الواردات
فى
سر التجليات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواجب وجوده، العام جوده، والصلاة والسلام على نبينا أحكم حكماء العالم، ومن هو للنبيين[١] الإلهيين خاتم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

أما بعد، فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله، الناشئ بإقليم مصر بـ«خطة البحيرة» بقرية تسمى «محلة نصر»، خادم خدمة الحكماء، المعرض عن نحو الكلام والكلمة، المتخلي عن قيد لباس الطوائف، إلى فضاء اقتناص صيد المعارف:

إني كنت مشتغلاً بطلب العلوم، فبينما أنا حول الأرض[٢] أحوم؛ إذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية فشغفت[٣] بها حبا، ولكن لم أجد من هي له طوية، فحرت في أمري، وأخذت أجيل فكري، وكلما سألت أجابوني، أن الاشتغال بها حرام، أو[٤] قد نهى عنها علماء الكلام، فتعجبت شدة العجب، وغفلة الناقلين أعجب، وتفكرت في سبب ذلك، فرأيته أن من جهل شيئًا عاداه، ومن أخلد عن العلى يأباه، فوجدتهم كمن علك بلسانه ورق العناب، فلا يدري مرارة الحنظل ولا حلاوة العسل، وبينما أنا كذلك إذ أشرقت شمس الحقائق، فوضح لنا بها رقائق الدقائق؛ بوفود حضرة الحكيم الكامل والحق القائم، أستاذنا السيد جمال الدين

---

(١) في بعض النسخ: «لأساطين».

(٢) في بعض النسخ: «الرياض».

(٣) في المخطوطة: «فهمت».

(٤) في بعض النسخ: «إذ».

الأفغاني، لازال لثمار المعالي[١] جاني[٢]، فرجوناه في شيء من ذلك، فأجاب ـ طال بقاؤه ـ على ذلك، وكان ذلك في سنة تسعين ومائتين بعد الألف، فنلنا بذلك طرائف التحف، فأومأ إلينا بكليات هذه جزئياتها، وآيات هذه بيناتها، وذلك على فترة من الحكمة، فهو غيث أرسل لإحياء تلك النعمة، وسميتها بـ «الواردات في سر التجليات» فأقول وبالله التوفيق:

* * *

(١) في بعض النسخ: «العلوم».

(٢) كذا ما تقتضيه ضرورة السجع، والصحيح: «جانيًا».

واردة

كثيرًا ما قرع سمعك لفظ «الممكن»، وكأنك ما فهمت مدلوله، أو شنفوا سمعك بأن الممكن ما يحتاج إلى غيره في الوجود، أو ما لا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح، ونحو ذلك من الألفاظ المترادفة، لكنك لا تدري خارج هذا المفهوم، كسامع لفظ «الماهية» لا يدري على أي الأفراد صدقت، فسفينة فكره في بحر التعيين غرقت، فاسمع قولاً قليلاً في ذلك:

لعلك تدري أن المقيد ذات مطلقة، قد ضم إلى تلك الذات قيد، فالمقيد أمر مركب من قيد وذات مطلقة قيدت بذلك القيد، فللقيد مفهوم، وللمقيد مفهوم، ولكل ما صدق، وللمجموع ما صدق، ولا يصح اتحاد شيء منها مع الآخر في الماصدق أو المفهوم وإلا لما صح التقييد؛ إذ لسنا نعني بالقيد الوصف الصادق، كالناطق في الحيوان الناطق، بل نعني به مبدأ ذلك الوصف، الذي يعبرون عنه: تارة بمبدأ الاشتقاق، وتارة بالوصف القائم، فإذا نظرت إلى نفس القيد ونفس الذات المطلقة وجدت كلا منهما مستقلاً بالثبوت بالنسبة إلى المجموع، أي لو قطعت النظر عن تركبهما لوجدت لكل ثبوتًا في نفسه مفهومًا وماصدقًا، وإذا نظرت إلى الكل المركب منهما ـ وهو الذيّ تسميه بالمقيد ـ نظرًا ذاتيا، مقطوعًا فيه النظر عن شيء من الذات والقيد، لم يكن له ثبوت[1] في ذاته؛ إذ متى قطع النظر عن شيء من الذات المطلقة وقيدها، فقد انعدم المركب؛ لانعدام الكل بانعدام شيء من أجزائه، فإذن المجموع محتاج في تحققه إلى كل من المطلق، والمقيد وانضمام كل منهما إلى الآخر، بل ليس المركب إلا عبارة عن هذا، فليس ثبوته إلا ثبوت كل مع

(١) في الأصل: «ثبوتًا» والصحيح ما أثبتناه.

التركيب، فليس للمقيد في ذاته استقلال، بل هو في اعتباره مستند إلى كلٍّ من الذات والقيد، بل اعتباره عين اعتبارهما، بخلاف كلٍّ منهما.

ولنضرب لك الأمثال؛ كي لا يلتبس[١] عليك المقال، فانظر فيما بين يديك من البيت المركب من الأضلاع الأربعة، فإن كل ضلع لو بني بدون انضمام بقية الأضلاع إليه لكان قائمًا بذاته موجودًا، وكذلك أجزاء الضلع المركب هو منها كالأحجار والجص مثلاً، فإن كل واحد منهما بدون أن يركب مع الآخر موجود في ذاته، لا يحتاج إلى تركبه مع الآخر، وكذا الجص أو الحجر بالنسبة إلى أجزائه التي بها قوامه، ولكن ليس للبيت وجود إلا بالأضلاع الأربعة، ولا للضلع إلا بالحجر والجص ـ مثلاً ـ ولا للجص بدون ما يقومه، فإذا وجد كل من الأجزاء منضما إلى الآخر فهو المركب، فليس المركب إلا الأجزاء مع هيئة اعتبارية لتلك الأجزاء، بل ليس المركب إلا هذه الهيئة الاعتبارية؛ أي فيكون اعتباراً من اعتبارات الأجزاء، ووجودها هو وجوده، لكن بقيد الانضمام على وجه خاص، فافهم.

ومثل هذا يقال في الأمور المعقولة، كالعقول والنفوس، فإنها ذوات منضمة إلى مبدأ التمايز بينها وبين غيرها، فأنت إذا نظرت إلى مطلق الذات وجدت ثبوته في ذاته، أي بقطع النظر عن كونه عقلاً أو نفسًا، وكذا مبدأ التمايز لا يتوقف ثبوته في ذاته على كونه لعقل أو نفس، أي يصح النظر إليه في ذاته بالنسبة[٢] إلى العقل أو النفس، بخلاف العقل أو النفس، فليس يصح اعتباره وجودًا إلا بوجود كلٍّ من الذات ومبدأ الامتياز، وليس يصح لك أن تقول: يجوز أن يكون مبدأ الامتياز هو الذات المطلقة، فإن هذا ينافي التقييد بالقيد الخاص؛ إذ المطلق لا يقتضي لذاته قيداً معينًا لاستواء القيود بالنسبة إليه، فلا بد من انضمام شيء إليه حتى يتميز بالمميز الخاص، وذلك معلوم.

فقد علمت أن كل مقيد فهو محتاج إلى المطلق، والقيد، فهو معدوم في ذاته،

---

(١) في الأصل: «يلبس»، وفي بعض النسخ: «يلبث»، والصحيح ما أثبتناه.
(٢) في الأصل: «في ذاته بالنظر لنسبة إلى»، والصحيح ما أثبتناه.

فلا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح ، والمطلق الذي لا قيد فيه بوجه من الوجوه ليس بممكن ؛ إذ[١] لا يفتقر إلى موجد ، وإلا لكان قيداً له ، فكل مقيد ممكن ، وكل ممكن مقيد ، ولا شيء من المطلق الحقيقي بممكن .

فيا أيها المقيد بقيد التقليد : اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس ، واخرج عن غياهب ظلمات جهلك ، ففلق الصبح قد تنفس .

* * *

(١) الكلمة في الأصل غير واضحة ، فأثبتناها استظهاراً .

واردة

تسمعهم مرة يقولون: ثبوت الواجب بديهي لا يحتاج إلى البرهان، ثم يعارضون منكريه[١]، ويزعمون أنهم ينبهون عليه، ومرة يقولون: بأنه نظري يحتاج إلى الدليل، ويستدلون عليه ببراهين مبنية على مقدمات مسلمة فيما بينهم يمجها الذوق السليم، وينبو عنها الفكر المستقيم، فاسمع[٢] ما ينفعك في ذلك.

من المعلوم: أن الممكن يحتاج إلى مرجح[٣] في الوجود؛ لما أنه ليس له من ذاته وجود، كما سمعت في الفصل السابق، ووجوب افتقاره إلى الموجد مستلزم لاستحالة وجوده من الغدم الصرف.

بيان الملازمة: أن صدور المعلول عن العلة يستدعي نسبة خاصة بين المعلول والعلة[٤]؛ حتى يصح صدور المعلول عن العلة[٥] إذ لو لم يكن بينهما تعلق وارتباط، وجميع الأشياء بالنسبة إلى العلة على السواء، لكان صدور هذا المعلول دون بقية الأشياء عنها ترجحًا[٦] بلا مرجح، وهو محال، وأيضًا لو لم يكن بينهما نسبة لكانا متباينين تباينًا تامًا، فلو وجد المعلول لوجد بدون ربط بينه وبين آخر، فقد وجد بدون موجد. هذا خُلْف.

---

(١) في الأصل: يعارضون مع منكريه.

(٢) في الأصل: «فأنفع سمع»، والأصح ما أثبتناه من نسخة أخرى.

(٣) في بعض النسخ: «المرجح».

(٤) تجنبًا للتكرار ينبغي أن تكون العبارة هكذا: يستدعي نسبة خاصة بينهما.

(٥) الكلمة غير واضحة، فأثبتناه استظهارًا.

(٦) في الأصل: «ترجح»، والصحيح ما أثبتناه.

فـلا بد بين المعلول والعلة من النسبـة والعـلاقـة الخاصـة[١]، وإذا قلنا بـوجـوب النسبـة والتـعلق فـلأن التـعلق والنسبـة لا تتـحقق إلا بين طرفين، لا بد من وجـود الطرفين[٢] حتى يتحـقق منشأ النسبة، فـلا بد من وجود المعلول مع العلـة لتـحقق النسبة الموقوفة عليها العلية، فقد وجد الممكن قبل تحقق العلية بالمرتبة، فوجـد قبل وجوده. هذا خلف.

وبالجملة: فـالبداهة قـاضية بأنه لا نسبة بين الـوجود والعـدم الصـرف، وأيضًا قولك: بأن الشيء موجود من العدم إذا كان حقيقيا، فلا بد أن يكون العدم أينًا له أو متى أو جوهرًا، موضوعًا أو مادة. . . إلى آخر الوجوديات الممكنة، فيلزم وجـود العدم والمعدوم. هذا خلف.

فإذن حدوث شيء من العدم الصرف محال، وهذا حكم بديهي نبهناك عليه.

فإذن جميع ما صدق عليه مفهوم الممكن محتاج إلى علة ليست تلك العلة مباينة له بالمرة، وتلك العلة تنتهي إلى مرجح خارج عن ماهية الإمكان، وهـو الـواجب الحقيقي الذي وجود لذاته، وكل مقيد فهو محتاج إليه، وهو منتهى التقييدات ومرجعها، ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾[٣]، ومع كون المعلول ليس مباينًا، كـذلك ليس عين العلة، ولكن طور من أطـوارها، [و][٤] شـأن من شـئـونهـا، لا وجـود له إلا وجودها.

فتبين: أن كل ممكن فهو اعتبار من اعتبارات علته، ليس لـه وجود إلا وجـودها، فإذن ليس في الوجود الحقيقي الذاتي إلا ذات مطلقة واحدة، لا تعدد فيها إلا بتعـدد اعتباراتها، [و][٥] لا تقيد فيها بوجه من الوجوه، وهو واجب الوجود، فافهـم.

فليس في الإمـكان أوسع من هذا البيـان، وتوضيح الواضـح مـشكل، فـالحق بين يديك ظاهر، فلا تشغل فكرك بإبطال التـسلسل، فـهـو يحتـاج إلى أوهام ملء[٦] الأكوان.

---

(١) في الأصل: «والخاصة».

(٢) كذا، والمناسب: من وجودهما.

(٣) هود: ١٢٣.

(٤) و (٥) إضافة يقتضيها السياق.

(٦) في الأصل: «ملا».

واردة

لا تستبعد أن المعلول شأن من شئون علته، فإنك تغفل عن كون البيت شأنًا لأجزائه واعتباراً من اعتباراتها، والشجرة طور الحبة وشأن من شئونها، والأمواج طور للبحر وشأن من شئونه، وهكذا جميع الأمور، والعجب للمتكلمين والحكماء المقلدين (لما عجزوا عن الارتقاء إلى درجة الكمال كيف اتخذوا الأعدام سُلّمًا لتطلع الحقيقة)(١)، ويزعمون أن هذا تنزيه لحضرته، ولكن نحن نقول ليس وجود إلا وجوده ولا وصف إلا وصفه، فهو الموجود وغيره المعدوم.

قال الأمراء الأولون ـ رضي الله عنهم ـ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي: «ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله أو بعده أو فيه أو معه». كل واحد ينسب إلى واحد منهم، ولا يقعن في وهمك أن هذا قول بالحلول، فإن الحلول إنما يكون بين وجودين: أحدهما حال في الآخر، ونحن نقول: لا وجود إلا وجوده.

تنبيـــه

أظنك في هذه الكلمات تحققت بأن هذا الواجب واحد؛ إذ لو كان واجبين لكان كل منهما ممتازًا عن الآخر، وإلا كان عينه، وامتيازه إنما يكون بقيد ليس في الآخر، فيكون مقيداً، فيكون ممكنًا. هذا خلف.

وقد يستدل على استحالة تعدد الوجود مطلقًا، وأنه ليس إلا وجود واحد: بأنه لو كان هناك وجودات، فإما لا امتياز بينهما، فيلزم كون الاثنين واحدًا. هذا خلف.

---

(١) في الأصل: «كيف ركبوا الإله له من جميع القيود العدمية»، والأصح ما أثبتناه من نسخة أخرى.

وإما بينهما امتياز، فإما بوجود مغاير لهما، فننقل الكلام إليه، ونطلب المميز له عنهما. . وهكذا، فيتسلسل، وهو محال.

وأيضًا لو كان كذلك لزم أن يكون لشيء واحد مميزات غير متناهية، لكل منها مميزات غير متناهية، والبداهة، والبداهة مشاهدة ببطلانه[1].

وإما بعدم[2] فيلزم امتياز الوجود بالعدم، والعدم لا تميز له في ذاته حتى يميز غيره. هذا خلف.

فإذن ليس هناك إلا وجود واحد حقيقي لا قيد فيه بوجه من الوجوه، والكل نسبُه. وهذا معلوم مما سبق.

* * *

(١) هنا في الأصل كلمة غير مقروءة لا تخل بالمعنى.
(٢) عطف على قوله قبل أسطر: فإما بوجود مغاير لهما. .

واردة

كأنك تدرك أن الكمال هو الوجود، وأن النقص هو العدم، فإنك تعلم أن كل شيء لو بلغ غايته فيما يلزم لذاته ـ في جميع أحواله من حيث ذاته ـ فهو الكامل، وكلما لم يكن كذلك فهو الناقص، على قدر درجته في عدم بلوغ غايته، فإن ترتب على شيء نقص في آخر، فالشيء كامل، والآخر ناقص، وقيل للشيء ناقص[1]، لا لأنه ناقص في ذاته، ولكن من حيث لزم عليه ما هو نقص، وهو العدم، وذلك سهل عليك تحصيله، فإن أوردنا المثال يطول المقال، والمقام ضيق.

إذا تحصل عندك هذا، فقد عرفت أن كمال الشيء بقدر ما له من جهات الوجود، ونقصه بقدر ما له من جهات العدم، فهلا تحققت من هذا: أن ما هو وجود الكل ـ الذي لا وجود إلا من وجوده، بل لا وجوده إلا وجوده، وكل ما سواه عدم ـ هو الكمال لذاته؛ حيث لا عدم له في شيء من جهاته، وأن كل كمال فهو بروز كماله، وكل نقص فهو عدم، والعدم غيره، فهو الكمال، وغيره النقصان ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[2]، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3].

ولعلك تميل إلى التنزل عن هذا المقال، فنقول: وصف شيء بشيء يقتضي أن يكون ذلك الشيء منشأ لذلك الوصف أو في ذاته ما هو كذلك؛ وذلك لأن جميع

---

(١) في بعض النسخ: «نقص».
(٢) الرحمن: ٧٨.
(٣) الصافات: ١٨٠.

الصفات بالنسبة إلى جميع الذوات من حيث هي صفات وذوات مستوية، فما لم يكن في ذاته مقتضي صفة لا يتصف بتلك الصفة، وإلا لزم اتصافها بجميع الصفات، أو الترجح بلا مرجح، وصفات الواجب وكمالاته منشؤها. إما ذاته أو في ذاته، والثاني باطل؛ لعدم التركيب فيه، فمنشؤها ذاته، فهو كامل لذاته، بل كمال لذاته، وحديث الغير باطل لا يسمع؛ إذ لا غير إلا منه، فكيف يرجع المعلول على علته بالعلية.

* * *

واردة

واجب الوجود عالم، لما أشرقت في قلبك أنوار وجوده وأنه الحق، وكل ما سواه محتاج إليه في الوجود، وكل من ظهور ذاته، فيجب لك بذلك إدراك أنه عالم، وذلك لما تراه من الإحكام والترتيب وملاحظة الدقائق ورعاية المصالح، كما هو مشاهد في كليات العالم، وكما تعلمه إذا اطلعت على علم تشريح الحيوان والنبات والأرض مما يطول بسطه، وفي ترتيب المسببات على أسبابها، فأعط كل شيء حقه، وأنزله منزلته، إذا نقص السبب نقص المسبب، وإذا كمل كمل، وإذا زال زال، فلا يليق بك مع شهود هذا الإحكام أن تنكر علمه.

وأيضًا هلا تبين لك فيما سبق، أن مظاهر الممكنات طلسم ذاته وصفاته، ألا إن العلوم من الممكنات الظاهرة، فهي طلسم لعلمه الحقيقي، فعلمك طلسم، وعلمه باطنه، فهو العالم، وعلمك على ذلك شهيد، والعالم بغيره أولى أن يعلم ذاته.

وأيضًا لما كان الحق هو الوجود من كل جهة، والجهل عدم محض، فيستحيل عليه الجهل، ويجب له العلم، فهو العالم بذاته لذاته وكل ما نشأ عن ذاته.

واردة

قال مقلدو الحكماء - وإليه ذهب رئيسهم -: إن علم الباري تعالى بالكليات بارتسام الصور في ذاته.

فنقول: إن قلتم بأن العلم هو نفس تلك الصور:

أولا: يلزم أن يكون علم الباري تعالى زائدًا على ذاته، وهو من كمالاته، فيكون الباري كاملاً بغير ذاته، والكامل بغيره ناقص لذاته.

وثانيًا: لا يصح لعاقل - فضلاً عن حكيم - أن يقول بأن مجرد الصورة في شيء علم ذلك الشيء لصاحب تلك الصورة وإلا لكان الجدار عالمًا بالأسد المرسوم صورته عليه.

وثالثًا: هذه الصور أمر طارئ[1] على الذات؛ أي زائد عليه: فإما قديمة بالذات، وهو محال؛ لاستحالة تعدد واجب الوجود، وإما حادثة عن الذات، فيلزم أن لا يكون الذات عالمًا قبل تلك الصور بالمرتبة، فقد كان الجهل جائزًا عليه لذاته مستحيلاً لغيره.

وأيضًا يلزم قيام حوادث لا نهاية لها بذاته تعالى.

هذه صور على أنحاء شتى بنظام وترتيب معتبر، تستدعي علم صانعها، فيلزم أن يكون عالمًا قبلها، لا بها. هذا خلف.

---

(١) في الأصل: «طارٍ» بالتخفيف.

على أنه لو كـان عـالمًا قبلهـا ، فإما بصـور لتلك الصـور ، وننقل الكلام إليهـا . . وهكذا ، وهو ظاهر البطلان .

وإما بعلمه بذاته الذي هو عين ذاته لاستدعاء العلم بالعلة العلم بالمعلول ، فليكن علمه كذلك .

وإن قلتم ، بأن علمه شيء آخر غير تلك المصور ، فإن كان غير ذاته نتكلم فيه مثل الأول ، وإن كـان عين ذاته فهـو علمـه بذاته ، فـلا معنى للقـول بارتسـام الصـور في ذاته . تقدس عن ذلك .

* * *

واردة

في علمه بالجزئيات: لما كان تحقيق الحق موقوفًا على نفي ما عداه، أردنا نقل ما وصل إلينا من المذاهب في تلك المسألة، فنقول:

كثر النقل عن الشيخ الأشعري - رضي الله عنه - في ذلك، ومع ذلك ما تقرر رأي الناقلين على شيء يعتمد عليه في ذلك، بل كلما نقلوا قولاً أكثروا فيه من القيل والقال، واختلفوا في فهم معناه، ونحن نأخذ بما اشتهر من مذهبه، وهو أنه يعلم الجزئيات.

فنقول: إن أراد أن يعلمها بوصف الجزئية فذلك بما يكون بعد وجودها الخارجي؛ إذ الشيء ما لم يوجد في الخارج لم يتشخص، والصور العقلية وإن قيدت بألوف القيود[1] لا تمنع الصدق على الكثير، فهي كلية، فإن كان علمه كذلك أزليا:

أولاً: لزم أن يكون جميع الجزئيات الحادثة موجودًا في الأزل، وهو باطل.

وثانيًا: مجرد حضور الشيء عند الشيء لا يكفي في كونه عالمًا به فلا بد من طروء شيء من المعلوم على العالم حتى يدركه، وذلك الطارئ هو الصورة، فتكون تلك الصور مرتسمة في ذاته، وهو مستلزم لكون ذاته ذات[2] طول وعرض؛ حتى يكون محلا لصور الماديات التي هي كذلك.

وإن لم يكن علمه أزليا، بل بعد وجود الحادث:

---

(١) في الأصل: «قيد».

(٢) في الأصل: «ذا».

فأولاً: يلزم جهله به قبل وجوده.

وثانيًا: يلزم عدم إرادته في خلقه لعدم العلم؛ إذ الإرادة من توابع العلم، ما لم يكن لم تكن.

وثالثًا: ما تقدم من كون ذاته ذات[١] طول.. إلى آخره.

وكل ذلك محال.

وإن أراد أن يعلمها على وصف الجزئية، بل يعلم أن في زمن كذا عند حادثة كذا يوجد ذات بصفة كذا، فهذه التصورات إنما تكون[٢] بارتسام الصور في ذاته، فإن كانت حادثة بالحدوث الزماني، فيلزم أن لا يكون عالمًا قبلها، وطروء الحادث على ذاته، وهما محالان.

وأيضًا هي مخلوقة له مسبوقة بعلم، وتكون بصور أخرى، فننقل الكلام إليها فيتسلسل:

وإن كانت قديمة بالزمان، فإن كانت قديمة بالذات أيضًا لزم ما لا يتناهى واجب الوجود، وإن كانت حادثة بالذات مستندة إليه في الوجود، فيلزم قدم حوادث غير متناهية غير الذات والصفة، وهو خلاف مذهبه.

وأيضًا لابد في خلقها من الإرادة الموقوفة على العلم، فيكون عالمًا بتلك الصور أيضًا قبل خلقها، ويكون ذلك بصور أخرى، وننقل الكلام إليها، فيتسلسل.

فإن تجاوز عن هذا كله، وقال: إن علمه ليس بالارتسام فقد قال بعلم ذاتي هو عين ذاته، وهو علمه بذاته، وقد برهن هو على بطلانه، والله أعلم.

وقال مقلدو الحكماء: إنه يعلم الجزئيات بوجه كلي، أي بمثل ما تقدم في الترديد الثاني من قول الأشعري، ومثلوا له بعلم المنجم بأنه في سنة كذا في ساعة كذا في درجة كذا، يحصل كسوف، وهو لا يقع إلا جزئيا وإن كان في تعقله كليا؛ إذ الشيء ما لم يوجد في الخارج لا يتشخص وإن قيد بغير المتناهي من القيود.

---

(١) في الأصل: «ذا».

(٢) في الأصل: «يكون».

ويلزم على هذا المذهب ما لزم على الشق الثاني من ترديد قول الأشعري، فإنهم قائلون بأنه بارتسام الصور، وذهب الصوفية إلى أن جميع جزئيات الممكنات حاضرة لديه في الأزل، موجودة بوجودها الخارجي، قائلين بأن الزمان شأن من شئون الحق، وجميع الكائنات الداخلة تحت حكم الزمان موجودة في ذلك الزمان، بمنزلة النقاط المرسومة على الخط المستقيم، ولما ظهر الحق بهذا الشأن الواحد فقد ظهر بجميع ما فيه، فالكل موجود عنده حاضر لديه منكشف له.

واستشهدوا لذلك بأنه كما أن[1] نسبته إلى جميع الأمكنة على السواء، فكذا نسبة الأزمنة إليه على السواء، ليس عنده حال ولا ماض ولا استقبال، وإنما نحن لا ندرك ما يأتي من بعد أو ما مضى إدراك الحال؛ لقصوُر نظرنا، كنملة تمشي على خيط ملون بألوان مختلفة، فهي لا تدرك لونًا حتى تتجاوز اللون الذي قبله لقصور حاستها عن الاطلاع على جميع الألوان دفعة، وهي تظن بأن هذا حادث وذاك انعدم، مع أنا نراه دفعة، فكذا نحن.

وهذا المذهب هو الذي حمل عليه صاحب «المحاكمات» مذهب الحكماء في قولهم: يعلمها على وجه كلي، فقال: أي لم يعلمها معدومة ثم موجودة، بيضاء ثم سوداء، وهكذا يتجدد في علمه، بل يعلمها على تغيرها دفعة، ومثل بهذا المثال، واستشهد بذلك الاستشهاد، وكأنه قول بما يحكم صريح العقل بخلافه؛ إذ كل عاقل يحكم بأن اليوم المستقبل معدوم الآن، موجود فيما بعد بجميع ما يحدث فيه في طرفي الوجود والعدم، وليس هذا بمنحط عن درجة السفسطة، مع أنه لا يسلم من القول بالارتسام والتمثيل والاستشهاد في لون بين الممثل والمستشهد له.

ولنرجع لتحقيق الحق فنقول: أنت تعلم أنه لما لم يكن وجود إلا لذاته، فحقيقته حقيقة الحقائق، وذاته ذات الذوات، وجميع ما تتوهمه إنما هو من الاعتبارات لتلك الذات، فلابد أن نقول: إن علمه عين ذاته، وهو عين علمه بذاته، وهو علم بجميع شئونه وأطواره، وإن جميع ما تشرف بالبروز فإنما هو على ما في العلم، ولكن لضيق طرف الخارج عن أن يسع المراتب غير المتناهية ـ التي يقتضيها على حسب ما

---

(١) في الأصل: «أنه».

لكل شيء في ذاته ـ حصل الترتيب في تلك التجليات، فكما أن ذاته واحدة بالذات، والكثرة إنما وقعت في عالم التجليات، فكذلك علمه بالكل واحد بالذات، وكثرته في عالم التجليات، فما برز في الوجود إلا ما كمن في العلم الذاتي، ولا فصل إلا ما أجمل فيه، فهو العالم بكل شيء (لا يعزب[١] عنه مثقال ذرة)، فدقق النظر، وإياك أن تحجبك الكثرة عن ذات الوحدة، فإن البحر لو علم بذاته فليس يحتاج إلى علمٍ آخر يعلم به أمواجه.

وهذا قد يوافق من وجه قول بعضهم: إن العلم قديم وتعلقه حادث، ولكن قد ضل عن السبيل، فوقع في تيه الأباطيل.

وأيضًا يقرب مما يقال: إن للأشياء وجودًا علميا، ووجودًا شهوديا، ومما يقال: إن للشيء وجودًا بحسب ذاته، ووجودًا في ذاته[٢].

فتفطن وطبق إن كنت من أهل النظر.

* * *

---

(١) أي: لا يغيب عنه ولا يبعد ولا يخفى.

(٢) في الأصل هكذا: في ذاته ت العلة.

واردة

كأني بك إذا[١] التفت لنفسك وقد وجدت علمك بنفسك عين نفسك، وهذا غير عسير، ثم إذا دققت علمت أنك لا تدرك غير نفسك، فإن الإدراك، إن كان هو مجرد ارتسام الصور فقد تكرر غير مرة أنه لا يصح موجبًا للعلم.

وإن كان الانفعال بتلك الصور فهو هو، أو قريب منه، وحكمه حكمه.

فليس الإدراك إلا تجلي نفسك بالصور على حسب الاستعداد، فإدراكك لنفسك في تلك الحالة إدراك لتلك الصور بعينه، فأدركت نفسك بنفسك وما أدركت خارجًا عنك، ولكن بالتجوز نقول أدركت زيدًا الخارجي، ولكنك ظهرت بمطابقة، فقلت: ظهرت به، وهذا دقيق، فافهم.

كأنك فيما ألقي إليك أدركت أن الحق مريد في شأنه ولكن ليس بشتاق ويتفكر ثم يوجد على حسب ما يؤدي إليه فكره، بل إرادته عين فعله، أي لا تخلل بين الإرادة والفعل ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٢]، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٣]. فانظر إلى حصر الأمور في الفعل في جواب الإرادة، أي ليس لنا شأن من الشئون المتعلقة بذلك الشيء إذا أردناه إلا قولنا له: كن، وذلك كما إذا تصورت زيدًا الذي تعرفه من قبل، فتصورك له فعل من أفعالك ومرضيّ لك ومراد، ولكن ما تعلقت إرادتك بتصوره، ثم فعلت ذلك التصور، بل إن فعلك ذلك تجلي إرادتك، فمعنى كونه مريدًا أنه لا جابر له، بل تجليه عن علمه مرضي لذاته، لا يقع في ملكه إلا ما يريد، فتأمل فليس ما يفهمونه في الإرادة ينبغي[٤] في حضرة الألوهية.

---

(١) كذا، والمناسب: «إذ».

(٢) النحل: ٤٠.

(٣) يس: ٨٢.

(٤) كذا، والمناسب: لائقًا وصحيحًا.

واردة

الحق جواد: أي يعطي كل شيء ما ينبغي له من حيث إنه ينبغي، أي ينزل المراتب منازلها، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾[1]، فلا يفيض في مرتبة ما تستحق أخرى، ولا يحجب عن مرتبة ما لها في ذاتها، وذلك على حسب ما تقتضيه مراتب التجلي في عالم التنزلات، وهذا لا يخفى عليك من المباحث السابقة، والقوم قد وقع النزاع بينهم في أن أفعاله تعلل بالأغراض أم لا، وكل من الطائفتين أيد ما يدعيه، ولكن الجمهور على أنها لا تعلل، وإلا لزم أن يكون للباري غرض لا يتم إلا بغيره، فيحتاج إلى الغير في إتمام غرضه، بل هو يفعل بدون غرض.

فلما أورد عليهم: أنه يلزم أن يكون عابثًا.

أجابوا عن ذلك: بأنه وإن لم يلاحظ الغرض وإن لم يكن له باعث على الفعل، لكن جميع أفعاله لا تخلو عن الحكم والمصالح.

والعجب لهم كيف دفعوا العبث بهذا؟! مع أنا نعلم أن من لعب برجله ـ مثلاً ـ بدون قصد شيء، فترتب على ذلك موت ثعبان مثلاً، فهو عابث لا يقال له: أحسنت وفعلت صوابًا. ومن غرائب الاتفاقات ما وقع في بعض البلدان الشمالية: أنه اجتمع خمسة سراق في محل ليسرقوا منه، فسمعوا صوت صبي داخل بيت في تلك الدار فأخرجوه؛ خوفًا من أن يوقظ أهله صياحه، فوضعوه في صحن الدار، فصاح فاستيقظت أمه وأيقظت أباه، وخرجا لأجل الولد، ثم دخل السراق البيت، فأخرجوا المتاع إلى الصحن ـ أيضًا ـ ليأخذوه، فلما دخلوا لأخذ ما بقي من المتاع

---

(١) طه: ٥٠.

انهدم البيت عليهم، فهلكوا جميعًا، ونُجى أهل المنزل مع غالب أمتعتهم، فهل يقال لهؤلاء السراق إنهم حكماء محسنون، وهذا الفعل من جميل أخلاقهم؛ حيث أنجو هؤلاء من هلاك الهدم، وترتب على فعلتهم هذه المصلحة الكبيرة؟! كلا، بل لا يقول به عاقل.

فليس الأمر إلا ما سمعت، فوجود ذاته عين الحكمة والغرض لذاته، فلا تكن من الغافلين.

* * *

واردة

كيف بدأ الله الخلق؟ من القضايا الأولية: إذ الطفرة محال، أي كونك في مكان لم تكن فيه لا يمكن طفرةً، أي بدون قطع مسافة ـ على أي وجه كان ـ من المكان الذي كنت فيه إلى ما لم تكن فيه، وإلا لزم عدم المسافة وكونك فيه قبل كونك فيه، وهكذا في كل شيء له بداية ونهاية، لا يمكن الوصول إلى الغاية إلا بقطع المراتب المتوسطة، ومنه اللطف والتكثف والقلة والكثرة والإطلاق والتقييد ونحو ذلك، فإن الكثرة لا يمكن تحققها إلا بتحقق آحادها ولا يخفى عليك مثل هذا البديهي، غاية الأمر أنه يتفاوت القطع بالسرعة والبطء، فإذن الارتقاء من مرتبة الإطلاق وإلى أقصى مراتب التقييد، لا بد فيه من قطع مراتب التقييد إلى أن يصل أقصاها، وإلا لزم عدم المراتب، والفرض وجودها؛ لما علمت من ثبوت المبدأ والمنتهى، ولما تبين لك أن الأكوان شئون الوجود ودرجات تنزله وأطواره، فاعلم أن تنزله إلى غاية التقييد من مرتبة غاية الإطلاق، لا بد فيه من قطع مراتب التقييدات التي بين المبدأ والمنتهى، فقد وقع التجلي على مراتب التنزل، الألطف فاللطيف.. وهكذا إلى آخر مراتب التنزل، وهو العالم الهيولاني الطبيعي، فجميع المراتب التي قبل هذا العالم هي التي نسميها بالملائكة والسرادقات، ونسمي البعض عقلاً والبعض نفسًا.. وهكذا، فكل مرتبة طلسم وصورة للتي قبلها، والتي قبلها حقيقتها وباطنها، والقائم بها إلى حقيقة الحقائق، وأقربها إلى الوجود، هو المسمى بالعقل؛ لما أنه أمام جميع المتعينات، ومتلقي فيضها من المبدأ الأول، وفي كلام الحكيم الإلهي صلى الله عليه وسلم: «أول ما خلق الله العقل»، وباقي المراتب قبل الناسوت هي النفوس الكلية، وأشعتها المنبثة عنها في المراتب العرضية هي النفوس الجزئية، وهذا هو المسمى بعالم المجردات.

ثم على حسب ما وصل إليه نظرنا، وانتهى إلينا من حضرة الحكيم الإلهي، أن النفوس الكلية المربية لعالم الناسوت الظاهرة فيه على ما تقتضيه مرتبته في التنزل أربع نفوس، وهي الحاملة لعرش الرب الذي هو هذا العالم:

نفس «ميكائيلية»، وهي التي تركب كل ذرة من ذرات الوجود مع الأخرى لأمر يقتضيه، وهذا هو الرزق العام، ومنه الجذبات العمومية الكائنة بين ذرات الوجود.

ونفس «إسرافيلية»، وهي التي بها حصل الحياة في كل ذرة من ذرات الوجود، ومنها فيض الحياة العام.

ونفس «جبرائيلية»، وهي المفيضة للإدراك في كل ذرة من ذرات الوجود.

ونفس «عزرائيلية»، وهي القابضة روح الحياة عن بعض ذرات الوجود لأمر يقتضيه، المحللة لبعض الأجزاء عن البعض، المخلية لبعض المراتب عما كان له، كل ذلك في كل شيء بحسبه.

ثم إنه كما يحصل ذلك في الذرات الجزئية يحصل في المركبات، ومن ذلك قبض حياة الحيوان بالنفس «العزرائيلية» ورزقها «بالميكائيلية» وحياتها «بالإسرافيلية» وإدراكها «بالجبرائيلية».

والمرتبة «الجبرائيلية» كما حصل منها التعليم الباطني للجزئيات والكليات كذلك قد يحصل منها التعليم الظاهري، كما حصل لبعض القديسين[1]، مثل الأنبياء، وهذه المرتبة كثيراً ما جاء ذكرها على الألسنة الإلهية خصوصاً على لسان نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء: أنه رآه وقد سد الأفق، ومرة أن له ستمائة ألف جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، وليس هذا إلا رمزاً لما قررناه، وإشارة إلى ما أوضحناه، ولا تستبعدن مثل هذه الأفكار، فإنه قد تكلم قوم بالسيال الكهربائي في العالم، وليس يظهر إلا آثاره، وهو كلام حقيقي مبرهن، فقل أنت بالسيال الروحي في العالم. وليست هذه المراتب متباينة متفارقة، بل كل شيء في كل شيء، ولفظة «في» ضيق عبارة..

ولنرجع إلى إتمام ما نحن بصدده، فنقول:

---

(١) في المخطوطة: «القدسيين».

فلما انتهى التجلي إلى عالم الناسوت، وقد كنت تعلم أن التنزل ليس إلا عبارة عن تنقل الوجود في الأطوار، وليست تدرك منه إلا الحركة، ولكن لست تعلم كيفيتها، والباطن حقيقة الظاهر، والظاهر تجليه، فبرزت جميع المعنويات في الحسيات في هذا العالم الحسي على ما يقتضيه مراتب التجلي، فكانت الحركة اللاكيفية حركة كيفية، فبرز هذا العالم شيئًا واحدًا بسيطًا ليس فيه تجزؤ ولا تركيب، وهو الذي يسمونه بالهيولي، ثم بواسطة هذه الحركة اللازمة بالترتيب حصل في ذلك البسيط جزر ومد، وفتق بعد رتق، فمنه اللطيف والكثيف والمتفاوت في المرتبتين، ووقعت كل كرة حيث أدت بها الحركة كيف كانت ولم يزل هذا العالم متحركًا بهذه الحركة، لكنا لا ندرك إلا حركة الجزئيات الحاضرة بين أيدينا لأنا لسنا كل العالم حتى ندرك حركته الكلية، فالحركة واحدة ونراها متكثرة بتكثر[1] أجزاء المتحرك، ومن ثم لا تجد إلا متحركًا، ولا حادثًا إلا عن حركة؛ وذلك لعدم توقف الفيض في لحظة من اللحظات لعموم الجود، وكان العالم في الترقي على حسب تقادمه في الوجود، وهذا من مقتضيات الترتيب، وقد علمت ما يحتاج إليه العالم في نظامه العام من النفوس الكلية.

أما النظام الخصوصي لكل ذرة ـ أي المبدأ القريب لهذا ـ إنما هو بالنفوس الجزئية المنبعثة عن النفوس الكلية، فلا تزال الكلية في تربية الكل، والجزئية في تربية الجزء، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

ولعلك على ما تحققت من لزوم الترتيب في عالم التركيب تقول: إن أول ما ظهر في هذه الكرة النباتات على تفاوتها في الدرجات من متناقص الخلقة جدا، ثم يتكامل شيئًا فشيئًا حتى انتهت إلى غايتها، ثم الحيوانات كذلك، ثم نتيجة الكل وغاية منتهى السير هو الإنسان، ثم كذلك بتفاوت مراتبه في الوجود من غاية التوحش إلى أدنى منها، ثم وثم، ولا يزال هكذا، وقد نطق بهذا كتابنا، وأشار إليه في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾[2] فهذا قليل تستغني به عن كثير، وإجمال يغنيك عن لبس التفاصيل.

---

(١) في المخطوطة: «بتكثير».

(٢) نوح: ١٧.

واردة

قد تبين: أن الحق فياض مطلق ينزل كل شيء منزلته التي تنبغي أن يكون عليها في ذاته، ولما أوجد هذا النوع الإنساني جعل فيه إدراكات وأخلاقًا على حسب لوازم فيه وآلات تقتضي ذلك بحسب النوع، ثم إن الآلات الجزئية تقتضي الاختلاف في الاقتضاء على حسب اختلافها في الأشخاص بالعوارض الطارئة[١] على الحقائق الناشئة عن الأسباب الجزئية في هذا العالم، فكان اللازم على اختلاف الأخلاق وتباين الآراء - على حسب ما تقتضيه تلك المراتب الشخصية - أن يأخذ كل طرفا غير الذي يأخذه الآخر[٢]، و(كل يعمل على شاكلته) ومن مقتضيات هذا التنافر أن يترتب عليه النزاع؛ إذ يناقض البعض البعض الآخر في قصده، ويذوده عما هو بصدده، فيلزم تغلب البعض وقهره للبعض الآخر وهو منشأ الفساد والفتن؛ لوقوع العداوة بينهم بذلك، فنشأ عنها المحاربات والمقاتلات التي ينشأ عنها فناء هذا النوع، ثم الاستغراق في عالم الحس الذي هو مقتضي رتبة هذا العالم، يستلزم الغفلة عما يؤول إليه أمره بعد مفارقته هذا العالم، فيبوء بظلمة الجهل وضيق كدرة الأخلاق ورذائل الأعمال، كل ذلك على حسب ما تقتضيه مراتب الوجود في هذا العالم الطبيعي.

ولما أمدهم الحق بما فيه إصلاح أبدانهم من جميع لوازم تعيناتهم، وبما فيه بقاء هذا النوع من الاستيلاد، لزم أن يمدهم من جوده وفيضه بما يكون سببًا في تربية عقولهم وتزكية نفوسهم، وطبيبًا لبواطن أمراضهم؛ بأن يبعث فيهم منهم ذا نفس قدسية مطهرة عن جميع شوائب الغفلة، منكشفة لها الأسرار والحقائق على وفق

---

(١) في المخطوطة: «الطائرة».

(٢) في المخطوطة: «يأخذ من الآخر».

الحكمة بأصل الفطرة لا يحتاج فيما يقصده إلى الفكر والنظر، وحيه من نفسه، زكي الأخلاق، رفيع الهمة، قد بث فيه شوق خلقي ونور جبلي إلى تربية من أرسل إليهم يفدي بروحه لذلك[1]، ولا يبالي في هداية شخص باقتحام المهالك، قد جلس على منصة البلاغة حتى يحكم بالبيان إبلاغه، فيكون أخلاقه ميزانًا لأخلاقهم، وأعماله ميزانًا لأعمالهم، وذلك إنما يكون على حسب احتياج النوع إلى ذلك بقدر الاستعداد واستحكام مواد الفساد، فهذا الشخص المتصف بهذه الصفات هو النبي.

ولما بلغ العالم إلى درجة في اكتساب المعلومات ووجوه المعارضات، وجالوا في ترتيب الأفكار، وكانوا في استعداد للتنبه والاستبصار، بعث فيهم نبيا كاملاً، عمومي الفكر، صادق اللهجة، في أعلى طبقات الكمال، وختم الأمر به وتم؛ لعدم احتياجهم إلى غيره؛ إذ كلما تقادم الزمان قويت دواعي العرفان، وقد بين لهم إجمالا ينبئ عن تفاصيلهم، قد أحاط بجميع مهماتهم على اختلاف أحوالهم في أعصارهم صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه.

ولا يخفى على عاقل أن مثل هذا الرجل الكامل، لا بد منه في عالم الوجود لهذه الترقية على ما هو مقتضى العالم، وترتيبه على الأسباب والمراتب.

ومن لطائف الوقائع ما وقع للفاضل الأستاذ في الإستنبول مع جماعة من الطبيعيين، وقد كانوا يسخرون بالأنبياء، وذلك أنه قال لهم: يجب على من أنكر الألوهية ـ فضلاً عمن أثبتها ـ الاعتقاد بالنبوة؛ وذلك لأن الطبيعة قد اقتضت للشخص كبدًا وقلبًا وروحًا لأجل بقاء وجوده، واقتضت أشياء، مثل تقعير الكف وتقويس الحاجب وهدب الأشفار ونحو ذلك؛ لكماله في وجوده، واقتضت للنوع آلة تكون سببًا في بقائه، والأسباب كثيرة، فإذا لم يكن هذا الرجل الكامل لهذا العالم بمنزلة الروح للشخص، فهلا كان مثل تقعير الكف وتقويس الحاجب وهدب الأشفار ونحو ذلك، فسكتوا وقبلوه.

هذا لسان الحكيم في هذا الباب.

---

(١) كذا، والمناسب: «يفدي روحه لذلك»، أو «يفدي بروحه ذلك».

وبلسان آخر نقول: لما حصل للوجود في مراتب تجلياته بعد عن نفسه في مراتب تجرده، تجلى من نفسه لنفسه بتجل يدعو لنفسه على ما يقتضيه اختلاف التجلي، وليس ببعيد، بل كما يشاهد فينا من زجر أنفسنا لأنفسنا وحثها إياها، وفيض هذا التجلي بالالتفات إلى مبدئه الحقيقي، فإذا استغرق في دعوة التجليات حصل له الالتفات من عالم المجردات، فتفكر واستشار، ولما تنفس صبح الحقيقة والناسوتيون في سنة من جهالتهم، بعث مناديًا: هلموا إلى النجاح، فقد طلع الصباح، فالناس في الإجابة على اختلاف درجاتهم في سنة الغفلة، ومن استيقظ من غفلته واستنار شمس حقيقته ناب عن الداعي في دعوته، لهذا تم العقد برسالته، وهو لسان النضوف. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

واردة

لعلك فيما سبق لك تنبهت إلى أن المجرد ليس محتدا للتغير والتبدل والكون والفساد؛ لتنزهه عن الحركة الحسية المقتضية لذلك، فالنفوس الناطقة الإنسانية باقية ببقاء الوجود، ولما كان الوجود في جميع مراتبه فعالا، فللنفس الناطقة من الأفعال على حسب رتبتها، وهو في بدنها ليس إلا التدبير، أما بعد مفارقتها البدن الإنساني فافترقت الطوائف في حكمها.

فمن قائل بأن النفس ليس لها حالة إلا وهي مدبرة لبدن الإنسان، فلا تتدنى عنه إلى الحيوان والنبات، ولا تفتر عن التدبير، وكلما خلق ثوب لبست آخر من هذا النوع بعينه، فهو مظهر خيرها وشرها وعذابها ونعيمها.

ومن قائل بأنها إذا تعطل البدن ظهر لها ملكاتها وإدراكاتها، فكان لها بذلك إما الحزن والأسف، وإما الفرح والابتهاج، فلا تتعلق ببدن ما دامت تلك الملكات فيها، فإذا زالت تلك، وصارت ساذجة، تعود إلى تدبير النبات، وتترقى إلى الإنسانية وهكذا؛ لشوقها إلى مرتبتها من التدبير لهذا العالم.

ومن قائل ـ وهم الحكماء ـ: إن النفس قد تفارق هذا البدن إلى غير النهاية، ولما كان الحق في جميع مراتبه فعالاً كما سبق، وكان للنفس بذلك رتبة الفعل، فتمام ظهورها يكون في عالم التعقل والتخلق، كولد سلطان يشتاق إلى مرتبة أبيه، ولكن لقصوره ينزوي إلى بعض الجهات، ويظهر سلطنته فيها، وبه يتسلى، ويكون متلذذًا مبتهجًا يعزل ويولي، ويعز ويذل، فكذا النفس في عالم التعقل والتخلق، فإن أصلحته ورتبته على ما هو عليه[١]، كانت بعد فراق البدن وجودًا في عالمها

(١) كذا، والصحيح: فإن أصلحتها ورتبتها على ما هي عليه . . .

متلذذة بمرتبتها مبتهجة بسلطنتها، وعلى قدر النقص في ذلك يكون العذاب والألم.

ومن قائل ـ وهم الصوفية ـ : إن الحق لما نادى شئونه على لسانه النبوي إلى الدخول في حضرته، وأمرهم أن يتلبسوا عند ذلك بملابس تليق بتلك الحضرة، وأن يتخلوا عن غير ذلك، فمن فهم الرمز وحل اللغز وفني بالفناء المطلق، واتصل بحضرة الجود، ولم ير إلا نفس الوجود، فلذته نور الوجود، وهو لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، ومن نظر إلى ظاهر الحال وعمل بما فهم من مدلول المقال غرست له في أرض نفسه أشجار النعيم، فكل عمل عمله بزر له ـ عند خراب البدن ـ لذاته على حسب ما كان يعهد ويتلذذ، وكان له من ذلك الحور والولدان والأساور والتيجان، ومن توجه نحو الطريق، ولكن غفل عما يروم الفريق، وتقاعد عن السير، ولبس ملابس الضير، ظهرت له تلك النقائص حيات وعقارب وسلاسل وأغلالا، ولا يزال كذلك حتى يتقدس، فيكون أحد السابقين، ومن أعرض عن الطريق بالمرة، وشغل بالأغيار عن تلك الكرة، فهو لا يزال معذبًا بظهوره متألما بفجوره، فإذا هبت عليه نسمة من نسمات اللطف والرحمة، كان العذاب عذبًا والرحيم ربًا.



واردة

هلا تفطنت فيما أدرجت لك في هذه الأقوال إلى أنه وقع الصلح بين الطائفتين العظيمتين في أن الأفعال هل هي لله خاصة، أم بقدرة العبيد؟ فإنه لا تخالف بينهما في الحقيقة، فالله فاعل من حيث العبد فاعل، والعبد فاعل من حيث الرب فاعل، والوجود في جميع مراتبه مختار والحمد لله وحده.

* * *

كملت على يد كاتبها إبراهيم بن علي اللقاني المصري المجاور للجامع[١] الأزهر، وذلك يوم الخميس سلخ صفر سنة واحد وتسعين ومائتين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام والتحية.

---

(١) في المخطوطة: «المجاوز بالجامع».

٣

القضاء والقدر

القضاء والقدر

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانًا على الأعمال البدنية، فما يكون في الأعمال من صلاح أو فساد، فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بينا في بعض الأعداد الماضية(*)، ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار، فيتبعها عقائد ومدركات أخرى، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها في النفس، ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال، إذا عرضت على الأنفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع، فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها، أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة، فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم، أو على خبث الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده، والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة، ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الأديان غالبًا، بل هو علة البدع في كل دين على الأغلب، وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع، منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به إلى الهلاك وبئس المصير، وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الأديان أو عقيدة من العقائد الحقة؛ استناداً إلى أعمال بعض السذج المنتسبين إلى الدين أو العقيدة.

من ذلك عقيدة «القضاء والقدر» التي تعد من أصول العقائد في الديانة

(*) من مجلة «العروة الوثقى» الصادرة من باريس.

الإسلامية الحقة، كثر فيها لغط المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة، وحكمت فيهم الضعف والضعة.

ورموا المسلمين بصفات، ونسبوا إليهم أطواراً، ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر، فقالوا: إن المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوة الحربية والسياسية عن سائر الأمم، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق، فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض، وتفرقت كلمتهم، وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون، ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة، ولكن متى أمكن لأحدهم أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى، رضوا بكل عارض، واستعدوا لقبول كل حادث، وركنوا إلى السكون في كسور بيوتهم، يسرحون في مرعاهم، ثم يعودون إلى مأواهم، الأمراء فيهم يقطعون أزمنتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيئًا. يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم إسرافًا وتبذيراً، نفقاتهم واسعة، ولكن لا يدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة، يتخازلون[1] ويتنافرون، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة؛ كل منهما يخذل صاحبه، ويستعدي عليه جاره، فيجد الأجنبي فيهما قوة فانية وضعفًا قاتلاً، فينال من بلادهما ما لا يكلفه عدداً ولا عدة، شملهم الخوف وعمّهم الجبن والخور، يفزعون من الهمس، ويألمون من اللمس، قعدوا عن الحركة إلى ما يلحقون به الأمم في العزّة والشوكة، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم، مع رؤيتهم لجيرانهم - بل الذين تحت سلطتهم - يتقدمون عليهم، ويباهونهم بما يكسبون، وإذا أصاب قومًا من إخوانهم مصيبة، أو عدت عليهم عادية، لا يسعون في تخفيف مصابهم، ولا ينبعثون لمناصرتهم، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لا جهرية ولا سرية، يكون من

---

(١) يتقاطعون ويعوق بعضهم بعضًا.

مقاصدها إحياء الغيرة، وتنبيه الحمية، ومساعدة الضعفاء، وحفظ الحق من بغي الأقوياء وتسلط الغرباء.

وهكذا نسبوا إلى المسلمين هذه الصفات وتلك الأطوار، وزعموا أن لا منشأ لها إلاّ اعتقادهم بالقضاء والقدر، وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الإلهية، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة، ولن ينالوا عزّا، ولن يعيدوا مجدا، ولن يأخذوا بحق، ولن يدفعوا تعديا، ولن ينهضوا بتقوية سلطان، أو تأييد ملك، ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم، ويركس من طباعهم، حتى يؤدى بهم إلى الفناء والزوال ـ والعياذ بالله ـ يفني بعضهم بعضا بالمنازعات الخاصة، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الأجانب.

واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر والاعتقاد بمذهب الجبرية، القائلين: بأن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله، وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل، ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا خيار لهم في قول ولا عمل، ولا حركة ولا سكون، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة، وقدرة قاسرة، فلا ريب تتعطل قواهم، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى، وتمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم.

هكذا ظنت طائفة من الإفرنج، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق، ولست أخشى أن أقول: كذب الظان، وأخطأه الوهم، وبطل الزاعم، وافتروا على الله والمسلمين كذبا، لا يوجد مسلم في هذا الوقت ـ من سني وشيعي وزيدي وإسماعيلي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزاء اختياريا في أعمالهم، ويسمى بالكسب، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية، والنواهي الربانية، والداعية إلى كل خير، الهادية

إلى كل فلاح، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي، وبه تتم الحكمة والعدل.

نعم كان بين المسلمين طائفة ـ تسمى بالجبرية ـ ذهبت إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ، وبين أن يتحرك بقفقفة[1] البرد عند شدته، ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة، وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة، ولم يبق لهم أثر، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون.

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع، بل ترشد إليه الفطرة، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقاربه في الزمان، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها، وأن لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم، وإرادة الإنسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة، وليس الإرادة إلا أثرا من آثار الإدراك، والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس، وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات، فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله، فضلا عن عاقل، وأن مبدأ هذه الأسباب ـ التي ترى في الظاهر مؤثرة ـ إنما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته، وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزاء له، خصوصا في العالم الإنساني.

ولو فرضنا أن جاهلا ضلّ عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم، فليس في إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الإرادات البشرية، فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنّها الله في خلقه؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق، فضلا عن الواصلين، وإن بعضا من حكماء الإفرنج وعلماء سياستهم التجأوا إلى الخضوع لسلطة القضاء، وأطالوا البيان في إثباتها، ولسنا في حاجة إلى الاستشهاد بآرائهم.

---

(١) اضطراب الحنكين واصطكاك الأسنان من البرد. تاج العروس ٦ : ٢٢٦ مادة «قف».

إن للتاريخ علما فوق الرواية، عني بالبحث فيه العلماء من كل أمة، وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها، وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها، وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والأخلاق والأفكار، بل في خصائص الإحساس الباطن والوجدان، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم، وتكون الدول، أو فناء بعضها واندراس أثره.

هذا الفن ـ الذي عدوه من أجل الفنون الأدبية وأجزلها فائدة ـ بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر، والإذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر للكائنات، ومصرف للحادثات، ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع، ولا ضعف قوي، ولا انهدم مجد، ولا تقوض سلطان.

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر، يتبعه صفة الجراءة والإقدام، وخلق الشجاعة والبسالة، وبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها قلوب الأسود، وتنشق منها مرائر النمور، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات، واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلي الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلي عن نضرة الحياة، كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذي يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟! وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد، على حسب الأوامر الإلهية، وأصول الاجتماعات البشرية؟!

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[1] اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلطون عليها، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوخوا الدول وقهروا الأمم،

(١) آل عمران: ١٧٣، ١٧٤.

وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا إلى جدار الصين، مع قلة عدتهم وعددهم، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة، وطبائع الأقطار المتنوعة، أرغموا الملوك، وأذلوا القياصرة والأكاسرة، في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة. إن هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات.

دمروا بلادا، ودكدكوا أطوادا، ورفعوا فوق الأرض أرضا ثانية من القسطل، وطبقة أخرى من النقع، وسحقوا رءوس الجبال تحت حوافر جيادهم، وأقاموا بدلها جبالا وتلالاً من رءوس النابذين لسلطانهم، وأرجفوا كل قلب، وأرعدوا كل فريصة، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر.

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء، ويضيق بها بسيط الغبراء فكشفوهم عن مواقعهم، وردوهم على أعقابهم.

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق، وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب، وهو الذي حملهم علي بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم، لا يخشون فقرًا، ولا يخافون فاقة.

هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم - ومن يكون في حجورهم - إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم، كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم - بالتوكل على الله - أمانا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم، وخدمتها فيما تحتاج إليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح، ولا تأخذ النساء رهبة، ولا تغشى الأولاد مهابة، هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حدّ كان ذكر اسمهم يذيب القلوب، ويبدد أفلاذ الأكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب، يقذف به في قلوب أعدائهم فينهزمون بجيش الرهبة، قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم.

بكائي على السالفين، ونحيبي على السابقين، أين أنتم يا عصبة الرحمة وأولياء

الشفقة؟! أين أنتم يا أعلام المروءة، وشوامخ القوة؟! أين أنتم يا آل النجدة، وغوث المضيم يوم الشدة؟! أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؟! أين أنتم أيها الأمجاد الأنجاد، القوّامون بالقسط، الآخذون بالعدل، الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة؟! ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم؟! انحرفوا عن سنتكم، وجاروا عن طريقكم، فضلوا عن سبيلكم، وتفرقوا فرقا وأشياعا، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفا، وتحترق الأكباد حزنا، أضحوا فريسة للأمم الأجنبية، لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم، ولا دفاعا عن حوزتهم؟! ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل، ويوقظ النائم ويهدي الضال إلى سواء السبيل؟ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(١).

أقول ـ وربما لا أخشى واهما ينازعني فيما أقول ـ: إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشري إلى اليوم ما وجد فاتح عظيم، ولا محارب شهير، نبت في أوسط الطبقات، ثم رقي بهمته إلى أعلى الدرجات، فذللت له الصعاب، وخضعت الرقاب، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب، ويبعث الفكر لطلب السبب، إلا كان معتقدا بالقضاء والقدر، سبحان الله، الإنسان حريص على حياته، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة، فما الذى يهون.عليه اقتحام المخاطر، وخوض المهالك، ومصارعة المنايا، إلاّ الاعتقاد بالقضاء والقدر، وركون قلبه إلى أن المقدر كائن، ولا أثر لهول المظاهر.

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي «كيخسرو» ـ وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الأقدمين ـ ما تسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة، إلا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر، فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول، ولا توهن عزيمته شدة، وأن إسكندر الأكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة، وجنكيز خان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، بل كان نابليون الأول بونابرت الفرنساوي من أشد الناس تمسكًا بعقيدة القضاء، وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة، فيتهيأ له الظفر، وينال بغيته من النصر.

---

(١) البقرة: ١٥٦.

فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الإنسانية من رذيلة الجبن، وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقته أيا كانت، نعم إننا لا ننكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر، وربما كان هذا سببًا في رزيئتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها الحوادث في الأعصر الأخيرة، ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر، أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون، وينشروا بينهم ما أثبتته أئمتنا ـ رضي الله عنهم ـ كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا في العمل، لا في البطالة والكسل، وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا، وننبذ ما أوجب علينا، بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين، الحائدين عن الصراط المستقيم، ولا يرتاب أحد من أهل الدين الإسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف، وليس بين المسلمين وبين الالتفات إلى عقائدهم الحقة التي تجمع كلمتهم، وترد إليهم عزيمتهم، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول، إلا دعوة خيرٍ من علمائهم، وأن جميع ذلك موكول إلى ذمتهم.

أما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر، فليس منشؤه هذه العقيدة، ولا غيرها من العقائد الإسلامية، ونسبته إليها كنسبة النقيض إلى نقيضه، بل أشبه ما يكون بنسبه الحرارة إلى الثلج والبرودة إلى النار. نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر. وثمل من العز والغلب، وفاجأهم ـ وهم على تلك الحال ـ صدمتان قويتان: صدمة من طرف الشرق، وهي غارة التتر من جنكيز خان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب، وهي زحف الأمم الأوروبية بأسرها على ديارهم، وأن الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة، وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسد الأمر فيهم إلى غير أهله، وولي على أمورهم من لا يحسن سياستها، فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم، فتمكن الضعف من نفوسهم، وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لا

تتجاوز لذته الآنية، وأخذ كل منهم بناصية الآخر، يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب، لا لعلة صحيحة ولا داع قوي، وجعلوا هذا ثمرة الحياة، فآل الأمر بهم إلى الضعف والقنوط، وأدى إلى ما صاروا إليه.

ولكني أقول - وحق ما أقول -: إن هذه الملة لن تموت ما دامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح في أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم، وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلي، فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة، ويعود الأمر كما بدأ، وينشطوا من عقالهم، ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في إنقاذ بلادهم، وإرهاب الأمم الطامعة فيهم، وإيقافها عند حدها، وما ذلك ببعيد، والحوادث التاريخية تؤيده، فانظر إلى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية - حروب التتر والحروب الصليبية - وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم، واتسعت لهم ميادين الفتوحات، ودوخوا البلاد، وأرغموا أنوف الملوك، ودانت لسلطانهم الدول الإفرنجية، حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الأكبر.

ثم ارجع البصر تجد هزة في نفوسهم وحركة في طباعهم، أحدثها فيهم ما توعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب، حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الأنحاء شرقًا وغربًا، وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع، والسعي بغاية الجهد لبث أفكارها، وجمع الكلمة المتفرقة، وضم الأشتات المتبددة، وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية؛ لتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم، وتنقل إليهم بعض ما يضمره الأجانب لهم، وإنا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يومًا بعد يوم، نسأل الله تعالى نجاح أعمالها، وتأييد مقصدها الحق، ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عمومًا، وللمسلمين خصوصًا.

٤

فلسفة التربية
و
فلسفة الصناعة

فلسفة التربية

في ليلة الأحد الماضي[١] انعقد درس الأستاذ جمال الدين الأفغاني، وانتظم في سلكه جم غفير من نبهاء طلبة العلم وفضلائهم، وكثير من الأفندية مستخدمي الدواوين، بمحضر هؤلاء وأولئك، شنف المسامع بمقال جليل في شأن تربية الأمة، وما يلزم أن يسلك من سبلها. ولما فيه من عظم الفائدة، رغبت في نشره في الجرائد الوطنية[٢] تعميمًا للفوائد، وبيانًا لما انطوى عليه من حسن المقاصد، قال ما معناه:

إذا وجه العقل نظر الاعتبار إلى الأجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الإنسانية، علم أن قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها، تفاعلاً متناسبًا، بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالغلبة على باقيها، غلبة تقضي[٣] بظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية، فبذلك التناسب يتم للبدن الحي ما يسمى بالمزاج المعتدل الحاصل لروح الحياة، فإن غلب أحد العناصر على سائرها، واضمحلت خواص بقيتها فيه، انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال، واستولى المرض على الجسم، وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ما سواه منها، كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه، كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية، والحر الشديد الموجب للاحتراق، وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهي إلى[٤] اليبس، نذير الموت والفناء.

---

(١) كان ذلك في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ أول يونيو «حزيران» سنة ١٨٧٩م.

(٢) نشرها في جريدة مصر التي كانت تطبع في الإسكندرية، وكانت مظهر أفكار السيد ومَجْلى حكمته وميدان أقلام مريديه.

(٣) في الأصل: تقتضي.

(٤) في الأصل: إليه.

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري؛ ليبحث في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم، ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه، ويعاد به المزاج إلى حالة الاعتدال إن خرج عنها؛ لتتم حكمة الله ـ تعالى ـ في بقاء الأنواع إلى آجالها المحددة بحكم الحكمة الأزلية.

فالنباتيون يعينون الأراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات، ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه، ويوضحون مواد التسميد، وغير ذلك مما لا بد منه في تربية النباتات.

وكذلك الأطباء يبحثون عن مواد الأغذية، وماذا يجب أن يتخذ منها لكل مزاج؟ ومضار الأهوية ومنافعها، ويقفون بتجاربهم الصادقة على الأدوية النافعة لرد البدن إلى حالة الصحة، وآلات العلاج المفيدة حتى تحفظ بذلك على البدن صحته ويرجع إليها إن انحرف عنها.

ولكن لا يكون الطبيب طبيبًا يترتب عليه غايته، حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعي وعلوم النباتات؛ ليعلم خواصها، ويميز نافعها من ضارها، وعلى بصيرة من اختلاف الأمزجة ومقتضياتها، وما يلائم كل واحد على حسبه، وخبيراً بعلل الأمراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف، وتاريخها من قدم وحدوث؛ حتى يعالج كلا بما يليق به.

فإن جهل من ذلك شيئًا كان فقده خيراً من وجوده؛ فإن الطبيب الجاهل رسول ملك الموت؛ إذ بجهله يستعمل من الأدوية ما عساه يهيج المرض، ويعين من الأغذية ما يساعده على قسوته، فيفضي ذلك إلى هلاك المريض، وقد كان بدونه محتمل الشفاء بمقاومة الطبيعة لولا مساعدة الجاهل وعونه.

وكما يلزم للطبيب أن يكون عالمًا بجميع ما قدمنا، يجب أن يكون شفيقًا رحيمًا صادقًا أمينًا، ولا يكون قصارى عمله ما يناله من جعل المعالجة، فإنه إن كان قسيا عديم الرأفة، أو كان خائنًا، فلربما صار آلة في أيدي أعداء المريض، يستعملونه لهلاكه بإلقائه السم في الأدوية مثلاً، أو إهماله في العلاج بما يقدمونه إليه من

العرض الفاني، وكذلك إن قصر همه على ما ينال من الدينار والدرهم، فإنه إن كان على تلك الصفة لم يكترث بحال المريض ما دام يوفى أجر عمله، فإن هلك فقد نال ما يزيد من مكافأته، وإن امتد المرض زاد الإيراد بتوارد الأوقات، فعدمه أيضًا خير من وجوده.

وكما أن روح الحياة البدني إنما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة، ينشأ من تغالبها مزاج معتدل كامل، وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى، كذلك روح الكمال الإنساني إنما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة، يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن لبيت سعادة الإنسان، وعليها مدار حياته الفاضلة، فإن تغلب أحد الخلقين على الآخر، فسد نظام الفضيلة، واستحكمت الرذيلة، وبات شقيا سيئ الحال، وسقط في مهواة التعب والعناء، المفضيين إلى الحين والهلاك.

ألا ترى أن النفس الإنسانية لا بد لها من خلق الجرأة وخلق المخافة، وهما متضادان، ومن مقاومتهما على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع، تتحقق الشجاعة، التي لو فقدت بتغلب المخافة، لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه، ولم يستطع عن نفسه دفاعًا، وكانت حياته تحت خطر يتهدده في جميع أوقاته. ولو أن الجرأة تغلبت على المخافة حتى ذهب أثرها، كانت تهورًا وعدم اكتراث بالمهالك لحق ولغير حق، بدون تبصر ولا مراعاة حكمة، فيلقي بروحه في مهاوي الهلكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه.

وكذلك لا بد من خلق الإمساك والبذل، وهما متخالفان متعارضان، يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء وهي البذل في موضع الاستحقاق - إذا اعتدلا -. ولو أن الإمساك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لأمسك عن قضاء لوازمه الضرورية، فلا يأتي باللائق من الأغذية والألبسة مثلاً، فيضر ببدنه، ولم يوف حقوق[1] مشاركيه في المعيشة كزوجته وولده، أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده، فيقع الشقاق بينهم، ويتأذى به إلى شقاء دائم، وغير ذلك من مفاسد البخل التي لا

(١) في الأصل: «بحقوق»، والصحيح ما أثبتناه.

تنحصر . ولو تغلب البذل لأنفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد ، حتى يصبح فقيراً فلا يجد ما ينفقه في ألزم لوازمه فيهلك .

وهكذا جميع الملكات الفاضلة الإنسانية ، إنما هي واسطة لطرفين متضادين لا بد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة ، وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ، ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ، ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك .

وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس ، يقع أيضًا بتغلب أمر خارج عن مزاج الفضيلة ، كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد ؛ بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة ، وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لأعمالهم ، وتقلدها بعاداتهم ، أو باستماع إغواء ذوي الأهواء ، وتمويهات أرباب الأغراض الفاسدة الدنيئة ، المذيعين للأفكار الرديئة ، المؤيدين للعقائد الباطلة ، التي ينبعث منها سوء الأخلاق المؤدي إلي فساد المعيشة . فللنفوس علل وأمراض ، كما للأبدان ذلك .

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب ؛ لتحفظ على النفس فضائلها ، وتردها عليها إن اعتلت وانحرفت عنها إلى جانب النقص والاعوجاج ، كما وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة البدن كما بينا ، فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والإرشاد ، وبيان مفاسد الأخلاق ومنافعها ، وتحويل النفوس من حالة النقص إلى حالة الكمال ، بمنزلة الأطباء ، وكما لزم للطبيب أن يكون عالما بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات ، وعلل الأمراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف ، كذلك يلزم للحكيم الروحاني طبيب النفوس والأرواح ـ إذا رقي منبر الإرشاد ـ أن يكون عالما بتاريخ الأمة التي قام بإرشاد أبنائها ، وتاريخ غيرها من الأمم أيضًا ، وأن يكون مطلعًا على درجات ترقيها ودركات تدنيها في جميع الأزمان ، وأن يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ؛ ليعلم أسباب أمراضها النفسية ، ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم ، وأنه حديث أو قديم ، قوي في النفوس أو ضعيف ، وما هو العلاج اللائق بكل صنف ، وكما أنه يجب على الطبيب البدني أن يكون على علم تام بمنافع

الأعضاء وغاياتها، كذلك على الطبيب الروحاني أن يكون عالما بمنافع الأخلاق ومضارها على طبع ما في نفس الأمر الواقع، وكما يلزم أن يكون الطبيب شفيقًا رحيمًا صادقًا أمينًا، لا ينظر إلى الدنايا، ولا ينحط إلى المقاصد السافلة، كذلك على النصحاء والمرشدين أن يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم، أولي مقاصد عالية، لا يبيعون الفضيلة بحطام الدنيا، ولا بالتقرب والتزلف إلى الأمراء والكبراء.

أولئك هم المرشدون الحقيقيون، فإن رزقت الأمة بمثلهم فبشرها بالسعادة، وإن رزئت بمتطببين(١) لا أطباء؛ بأن صعد على منابر النصح فيها الجهلة والأغبياء، والسفلة والأدنياء، فأنذرها بالعناء والشقاء، فإن المرشد الضال والنصوح الجاهل يودع النفوس رذائل الأخلاق باسم أنها فضائل، ويغرس فيها جراثيم الشر باسم أنها أصول الخير، ولربما كان مقصده حسنًا ولا يريد إلا خيراً، ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه، ويبعده عن اتخاذ وسائله، فتقع الأرواح في الجهل المركب، وهو شر من الجهل البسيط، فإن ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث إن فتح له أن يلجه، وصاحب الأول قد بعد عن المقصد بمراحل، واستتر تحت نقع الرذيلة، واعتقد ذلك ظلا ظليلاً، فلا يمكن العدول عما وقع فيه إلا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل، فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيراً من وجودهم.

وكذلك إن كان خائنًا أو دنيئًا ينحط إلى سفاسف الأمور، أو عُدم الشفقة والإنسانية، فإنه يتخذ النصيحة سُلَّمًا للوصول إلى أغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية، فلا يبالي أوقع الأفراد في خير أو شر، صفت النفوس أو تكدرت، ارتفعت الآداب أو انحطت، صحت الأرواح أو اعتلت، فيكون آلة بيد الأشرار وأولي الأهواء، يستعملونه في فساد الأمة والعشيرة لقضاء أوطارهم.

ألا وإن القائمين بأمر الإرشاد يحصرون في قبيلين: قبيل الخطباء والوعاظ، وقبيل الكتبة والمصنفين، ومنهم أرباب الجرائد، فإن كانوا على نحو الأوصاف

---

(١) في الأصل: بمطببين.

الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم، فقد استحقوا التعظيم والاحترام والتبجيل والإجلال، واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص، وقاموا بخدمة أوطانهم وبناء بلدتهم، وإلا استحقوا الرفض والطرد والإبعاد، ووجب على من يهمهم أمر الإصلاح أن يقذفوا بهم من البلاد؛ كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي، الذي لا يقتصر ضره على المبتلى به، بل يتعداه بالسراية إلى كل ما سواه.

* * *

فلسفة الصناعة

قد عاد حضرة الأستاذ الفاضل، والفيلسوف الكامل، السيد جمال الدين الأفغاني إلى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة، فابتدأ - حفظه الله - يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية، وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولاً جليلة، غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة، إلا أنها نبتت فروعها في المغرب، واجتنيت ثمارها لغير غارسيها، ولم تزل في بلادنا على كليتها وإجمالها لم تخرج نتائجها العقلية من حيز القوة إلى الفعل، إلا أن هذا السيد الفاضل قد جمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين، وبسط الغربيين، يجمع إلى الأصول فروعها، وإلى المقدمات نتائجها، وإلى المجملات تفاصيلها، بانيًا جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القويمة.

ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد، جمة الثمرات للعموم، رأيت من الواجب - قيامًا بالخدمة الإنسانية - أن أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها، وأنشر طيب وفدها في صحف لتعم الفائدة، والله يتولى التوفيق.

بين حفظه الله وأثبت أن الإنسان نوع من أنواع الحيوانات الأرضية - لا كما يزعمه أرباب الأوهام كالصينيين وقدماء الفرس من أنهم من أبناء السماء، فليتذكر من له فطنة - وأنه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها، ينشأ نشأتها، ويسير في عيشة سيرتها، يتفيأ ظلال الأشجار، ويستكن في الحجرة والأوكار، ليس له شعار ولا دثار، ولكن خفيف أشعار، يقتات بنباتات وثمرات تحضرها له القدرة الإلهية، على يد القوى الطبيعية، لا تمسها يد صناعية، ولا تربية أجنبية، ليس له من المكر والتحيل إلا ما لا يداني فيه الثعلب، ولا من العلم والتدبير إلا ما

يبعثه على الغدو لطلب قوته من الأعشاب وثمار الأشجار، والرواح للاستكنان في كن يواريه عن أعين الحيوانات العادية، والفرار من المكاره الحسية، كما تفر الشاة من الذئب، والأرنب من الثعلب. ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطنة الوجود، ويقيمه متحكمًا في كل موجود، ويدعوه للحكم بأنه خلاصة العالم ومنتهى سير الحقائق وعماد عالم الكون، وأن جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لأجله، والكواكب السيارات إنما تتحرك لخدمته، بل كان ضعيفًا عاجزًا جاهلاً حافيًا عاريًا يزعجه كل حادث، وتستفزه كل نبأة، ويتهيب من كل شكل وهيئة، والشاهد على ذلك ما تحكيه لنا أحوال الأمم التي كأنها قريبة عهد بالإنسانية في جنوب إفريقيا، والقبائل المستمرة في قمم الجبال والأجم والغابات البعيدة عن العمران البشري المعروف، الذين لم تضطرهم الحاجات ولم تسقهم الضرورات إلى الانتقال من مكان إلى مكان، فإنهم لم يزالوا على سذاجة الحيوانية وبساطة الفطرة، لا يفهمون خطابًا، ولا يحسنون جوابًا، إلا ما كان متعلقًا بضرورة الحياة، كجلب قوت بسيط، ومدافعة عاد من الحيوانات، وجميع ما يعده الإنسان المتمدن كمالاً وإنسانية فهم بعيدون منه، عارون عنه، مع بعد تاريخهم وامتداد زمن وجودهم على سطح الأرض.

إلا أن مبدع الكون - جلت قدرته - لما اختص هذا النوع من بين الأنواع الحيوانية بخاصة العجز والفقر والحاجة؛ حيث جعل جميع لوازم حياته خارجة عنه، لا تحصل إلا بالتحصيل، وليس تحصيلها إلا بعد الكد والعناء؛ وهبه قوة عاقلة كلية التصرف، عامة القبول، ووكل تربية هذه القوة إلى تعليم مدرسة الوجود الكلي، فكان لكل نبات وحيوان بل لكل موجود مشهود، حق الأستاذية وسابق الفضل على نوع الإنسان، فاسترشد بأعمالها، واهتدى بآثارها، والتقط درر الحكم من فعلها وانفعالها، وتدرج في ذلك شيئًا فشيئًا، تارة يخطئ وتارة يصيب، وطورًا ينجلي له الحق وآخر عنه يغيب، مرة تعوقه العوائق القدرية والإرادية عن إدراك الحقائق والوصول إليها، وأخرى تجذبه الجواذب اضطرارًا للوقوف عليها، حتى وصل إلى ما تراه من أحواله الغريبة وآثاره العجيبة.

ثم بين ـ حفظه الله ـ كيف كان يتقلب الإنسان في سيره هذا، ويقطع عقبات المصاعب، ويخترق حجب الجهالات، منقاداً في جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة، يأتمر أمره ويتبع سيره، تارة يتدرج إلى الكمال فيقعده مقعد رئاسة الكون وسلطنة الوجود؛ بما يرشده إليه من التفنن في الفنون واختراع الصنائع، وأخرى ينحط به إلى قعر جحيم الأوهام، ويقذف به في جب الخرافات، ويكبله بقيود الاعتقادات السخيفة. ويغل يديه بسلاسل العادات والأفكار الرديئة، على أن جميع اعتقاداته الفاسدة الباطلة، إنما نشأت له من قياس حوادث الكون وظواهره على ما يصدر عن ذاته (الشريفة) حيث جعل لها غايات تحاكي غاياته على تفصيل طويل في ذلك، مستشهداً في تبيانه بشواهد أحواله الآنية المشهودة، مستدلا بجميع أعماله المنقولة المعهودة.

وأنه في جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين الموجودات إلا بدعائم الصنائع، التي هدته إلى اختراعها تلك القوة العاقلة الكلية؛ لتكون له عوضاً عما سلبه من اللوازم الضرورية والحاجية والكمالية، التي منحت لغيره من الحيوانات بأصل الفطرة، وليس ذلك بخاف على ذي شعور، فإن صنعة الحياكة ـ مثلاً ـ قائمة مقام القوة السامكة للجلود الغليظة المفرزة للأشعار والأوبار، الواقية لما أحاطته من صولة البرد والحر، بل القائمة مقاس ترس يحفظ جوهر بدنه من تمزيق عادية غيره، وصناعة الحديد والأسلحة منزلة منزلة القوة المولدة للمخالب والبراثن والأنياب للسباع والضباع وعوادي الطيور، وهكذا بقية الصنائع، وما لم يقم منها مقاما ضروريا أو حاجيا قام مقاما كماليا على ما يتضح لك بعد.

وإذا كانت الصنائع هي قوام هذا النوع وعليها مدار بقائه في أي مرتبه كانت، رأينا من الواجب أن نعرف الصناعة ونقسمها إلى أقسامها الأولية على ما قرره الحكماء الأقدمون، وأوضحه الفلاسفة المتأخرون؛ ليتبين شرف كل صناعة على وجه الإجمال، فنقول:

الصناعة: قوة فاعلة راسخة في موضوع، مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات.

فالقوة منشأ الأثر مطلقًا، فعلاً كان أو انفعالاً، فالمعلم ـ مثلاً ـ ذو قوة الفعل، والمتعلم ذو قوة الانفعال، إلا أن قوة التأثر والقبول لا تعد صناعة، ومن أجل ذلك قيدت بالفاعلة، وليست كل قوة فاعلة صناعية ما لم تكن تلك القوة راسخة في موضوعها، تصدر عنها أعمال مستمرة على وجه منتظم. فالقوة الحالية التي تعرض آنا وآنات ثم تزول ليست منها في شيء، وما لم يكن فعلها تحت سلطان الفكر فلا تدخل في مفهوم الصناعة، كالأفعال الطبيعية من إحراق النار، وتمديد الحرارة، وتجميد البرودة، وما شاكل ذلك. فإن لم يكن الفكر صحيحًا، كفكر السوفسطائي المنكر لبديهيات العلوم، أو كان نحو غرض غير محدود الذات، كأعمال الجدلي الذي أخذ على نفسه أن لا يقر قولاً لقائل أيا كان، حقا أو باطلاً، فليس له حد يقف عنده، بل قوته متوجهة إلى معارضة مقابله، فإن كان نافيًا كان هو مثبتًا، وإن كان مثبتًا كان هو سالبًا، فليس بصناعة.

ثم إن من نظر في عالم الوجود الكلي، علم علم اليقين أنه وإن وقع كثير من صوره وكمالاته تحت قوًى طبيعية، كقوى النمو والجذب والدفع، أو قوى إحساسية كقوى طلب الغذاء ـ مثلاً ـ في الحيوانات، أو الهرب مما يؤلم الجثمان، إلا أن عامة أفعاله واقعة على ترتيب عقلي محكم، ونعني بالترتيب العقلي ما يكون مبنيا على مراعاة الغايات والحكم وفوائد الكمال، التي تعود على نظام الكل وتبقى ببقائه، فإن العقل على خلاف الحس إنما ينظر إلى الكلي الباقي أولاً، ثم يتدرج منه إلى الجزئي، لا العكس.

وإن واضع هذا النظام العام قد خول الإنسان من قوة العقل ما لم يخوله غيره، وجعلها محور صلاحه وفلاحه، إن وجهها صوب وجهتها الحقيقية، فإن استعملها لغايات طبيعية أو حسية، أي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لا تفيد سواه، كأن يطلب بها تنمية بدنه، أو جلب ما يلائم ذائقته أو نهامته، وما يشبه ذلك، فقد أضاع تلك القوة العالية الشريفة، وسلخ عنها ثمرتها، وانحط إلى درجات الحيوانات، بل النباتات، التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة، وأما من حفظ نفسه من السقوط، وأمسك عليها حق تلك الخاصة ـ أعني العقل ـ فهو الذي ينظر إلى كلية العالم

الكبير، فيعلم أن نوع الإنسان وسائر الأنواع من لوازم كماله أو متمماته، فيتوجه نحو حفظ ذلك الكمال، ويوقن أن نوع الإنسان لا يحفظ بقاءه في عالم الوجود، إلا بحفظ أشخاصه على التعاقب، كما نبأنا اللطيف الخبير بما أودعنا من القوى المولدة والمصورة، ويتحقق أن حفظ أشخاصه وأفراده إنما يكون بالاجتماع والالتئام؛ لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن أن يأتي عليها في الأزمنة المتطاولة، مع اضطراره إلى جميعها في الآن الواحد، كما تراه في مواد الأغذية، التي لا تحصل إلا بزراعة وحصاد ودرس ثم طحن ثم عجن وخبز وطبخ وهلم جرا، وجميعها - أيضًا - يتوقف على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ونحوهما ولوازم الاكتساء من العرى، وضروريات المدافعة والمكافحة مع ضواري الحيوانات، كل ذلك لا يكون إلا بأعمال تستفرغ أجل الشخص الواحد في تعلمها، فضلاً عن تحصيل غايته منها، فكيف به أن يستقل وهو محتاج إلى ثمرات جميعها يومًا بيوم، بل ساعة بساعة؟! فلا بد من التعاون في الأعمال، فيعتاض كل عن ثمن عمله بثمرة عمل الآخر، فيكون المجموع الإنساني كبدن ذي أعضاء، يعمل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبته لنفسه؛ إذ لو طلب الاختصاص - مع أنه لا بقاء له إلا في ضمن المجموع - فقد طلب فقد نفسه من حيث لا يشعر، فإذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضواً حقيقيا وركنًا ثابتًا يقوم بأداء عمل يعود على كلية الأفراد أولاً من طريق كليتهم، ويعود إلى شخصه[1] ثانيًا.

ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة، فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الإنساني، ويعين على انتظام الهيئة الكلية، فهو كالعضو الأشل لا فائدة منه على البدن، إلا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من إزالته، فالأولى إبانته وقطعه، بل إن كان لا يعمل ويسعى إلى بقية الأفراد في عدم العمل كالإباحية الذين يعتقدون أنه لا ملكية لأحد في مال ولا عرض؛ حيثما جاءوا أكلوا، أو شبقوا واقعوا، ويبثون أفكارهم بين أفراد النوع ليقتدوا بأعمالهم، ويسيروا بمثل سيرهم فيتركون الأعمال اتكالاً على ما بيد الغير حيث إنه مباح لهم، فإن تغلبت أفكارهم

---

(١) في الأصل: «شخصيته».

بطلت الصنائع، وذهب ما بيد الغير وما بأيديهم، فيحتاجون إلى الضروري من الأقوات وغيرها، ولا يجدون فيهلكون[١].

فأولئك كالأمراض السارية ـ مثل الجذام والزهري ـ لا بد من قطع العضو المئُوف[٢] بها وإلقائه في النار؛ لئلا يتعدى ضرر مرضه إلى سائر البدن، ومن هذا القبيل الفساق والفجار وإن لم يكونوا إباحيين، فإن أعمالهم قد تكون قدوة لغيرهم فيأتي من ضررهم ما أتى من أولئك، فينبغي أن يعاقبوا ويؤدبوا، ويحال بينهم وبين أعمالهم هذه بكل ما يمكن ـ وإن كان بالتعذيب ـ حتى يستقيموا [أو يقاموا][٣].

ومن الناس من مثله مثل الأمراض غير السارية والأعضاء الزائدة، كمن أصيبوا بالآفات المانعة لهم من تعاطي الأشغال كالكسحاء والبله والمعاتيه، فلا بد أن يتحمل ثقلهم، إن لم يمكن استشفاؤهم؛ فرارًا من ألم القلب عند اختزالهم واقتطاعهم؛ لما لهم من العذر القائم، إذ إن مدبر الكون قد حرمهم عطاء العقل، أو عطل فيهم آلات خدمته، فهو غير مطالب لهم بأداء فروضه أو قضاء حقوقه، إلا أن الحق الأعلى قد بث في النفوس وأودع في القلوب النفرة الكلية من هؤلاء وأولئك، الذين لم يقوموا بالواجبات التي تقتضيها منهم صورة الإنسانية، فهم مبغوضون في النفوس، مطرودون من زوايا القلوب، ساقطون عن نظر الاعتبار، بل هم ملعونون من أنفسهم أيضًا، إذ يجد كل واحد منهم من نفسه ـ عندما يخلو بها ـ أنه خسيس منحط الدرجة رديء العاقبة، وإن كان شقاؤه يغلب عليه فيما بعد، فانظر إلى حكمة ربك كيف تنبه الغافل، وتؤيد العاقل، ولكن أكثرهم لا يعقلون.

---

(١) قد ظهر بعد الحكيمين الأفغاني والمصري صنف من غلاة الاشتراكية الشيوعية، يسمون البلاشفة، ويسمى مذهبهم البلشفي أو البلشفية، تغلبوا على القيصرية الروسية، فخربوا عمرانها، وأفسدوا أديانها، وقضوا على أرواح الملايين من أهلها، ثم شرعوا يبثون دعايتهم في العالم كله، وهم أولى بما قاله الحكيم في الإباحية*. رشيد رضا

* . . ثم هلكوا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي الكامل في عصرنا الحاضر . .

(٢) المصاب بآفة. اللسان ٩ : ١٦ مادة «أوف».

(٣) في الأصل: «أو لا يقيموا».

وأما ذوو البطالات ومن رفضوا الأسباب، ووكلوا أنفسهم إلى التوكل الكاذب؛ إذ لم يتحققوا معنى التوكل، وظنوا أنه عبارة عن معارضة سنة الله التي قد خلت في عباده، ودعوا ذلك تبتلاً وانقطاعًا عن عالم الظاهر، مع أخذهم لكشكول التكفف، وخلعهم لجلباب التعفف، فهم بمنزلة شعر الإبط لا ينشأ عن تكاثفه سوى عناء الحك واستجلاب بعض العفونات إن لم يتعهد بالتطهير، ويستحب إزالتهم وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم، فإن بلغ من أمرهم أن يتخذوا ذلك أمرًا يدعى إليه، وذهبوا في الناس يحولون وجوههم عن الأعمال، ويقلدون أعناقهم سبح المكر والحيلة بسرابيل التمويه والتزوير، ويغرونهم بتأبط هراوة الشر واقتناء قدح الطمع، يودعون نفوسهم أخلاق الشيطان؛ من حب الرئاسة الكاذبة، وطلب الدنيء من الدنيا من كل وجه، والحقد، والحسد، والعداوات، وغير ذلك، ويحجبون ذلك بأستار من التلبيس غير المنتظم، ثم يوصونهم أن أخرجوا أيديكم من تحت تلك الأستار، طالبين انتهاب أموال الناس والاستئثار بثمرات اكتسابهم باسم أنهم، وأنهم، وأنهم. . كما ترى، وجب إلحاقهم بالإباحيين، وتحتم على كل ذي شعور من بني النوع أن يسعى لقطع دابرهم واستئصال شأفتهم؛ كي لا يفسدوا أفكار العامة وأعمالهم، ويعود ويل ذلك كله على العامة والخاصة معًا.

وبالجملة: حيث تبين أن لا قوام للإنسان إلا بالصنعة، فمن أخل بوظائفها، أو رامها بالنقد، فقد عمد إلى هدم بنيان الإنسانية، فعليها أن تطرده من أبوابها وتمحو اسمه من كتابها.

أقسام الصنعة وشرفها:

ثم إن الصنعة على التعريف المتقدم ـ تنقسم إلى أقسام: إما نافعة ضرورية، أو غير ضرورية، وإما أن تكون كثيرة النفع، أو قليلته، أو متممة لفعل الطبيعة، أو مزينة له.

فالقسم الأول: كالحدادة؛ لأنها مما يحتاج إليه جميع الصناعات العملية.

والثاني: كقصر الثياب مثلاً.

والثالث: هو ما يكون الغاية منه نفع الإنسان لا غير، كالحكمة التي هي مقننة القوانين وموضحة السبل، وواضعة جميع النظامات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والرذائل، وبالجملة: فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية، ومن هذا القسم الحكومة العادلة.

والرابع أي الذي هو خير بالواسطة، كالزراعة والكتابة، فإن لها غايات سوى نفس الإنسان، لكنها تؤول إليه.

والخامس: وهو الكثير النفع، كالنجارة والتجارة مثلاً.

والسادس: كصناعة الصيد وما شاكلها.

والسابع: كعلم الطب المتمم لأفعال القوى الحيوانية، المساعد لها على إتمام وظائفها.

والثامن: كالصباغة والنقش والتلوين وغير ذلك.

ثم إن شرف كل صناعة وكل فن بعموم موضوعه وشمول غايته، وإن أعم الأقسام موضوعًا هو صناعة الحكمة؛ لما بينا من أنها الباحثة عن كل ما يلزم للإنسان اتخاذه في أعماله وأفكاره وأخلاقه، فهي أشرف الصناعات والحدادة وإن كانت عامة، لكنها من الحكمة بمنزلة الخادم المنقاد من السيد الحاكم الآمر.

* * *

٥

العلم وتأثيره فى الإرادة والاختيار

العلم وتأثيره في الإرادة والاختيار(١)

سألني أحد الأفاضل عن سلطة الفكر والتعقل على(٢) الإرادة، وسلطة الإرادة عليهما، فلم أجد بدا من المذاكرة معه في هذه المسألة، وتوضيح ما وصل إليه عقلي نقلاً عن العلماء المحققين، واستنباطًا من كلامهم، ولظني أن في ذلك نوعًا من الفائدة لقراء جريدة «الوقائع» رأيت من اللائق نشره على لسانها حكاية لآراء العلماء، وما أداهم إليه التدقيق في هذه المسألة.

ولا بد قبل الكلام في الفكر والتعقل من تقديم مقدمة في العلم، ولا نتكلم في العلم من جهة ما نقول ويقول المرشدون من أنه نور العالم الإنساني، وشمس وجوده، وروح حياته، وأنه وسيلة التقدم في المدنية، وكمال الحقيقة الإنسانية، وهو سيف القوة، وينبوع الثروة، وما شابه ذلك من الأوصاف الحقة التي أجمع عليها العقلاء، بعد أن صدر به النطق الإلهي على لسان الرسل والأنبياء، والصديقين والأصفياء، فإن هذه الأوصاف إنما تثبت للعلم من جهة أنه مطابق للواقع، ومثال للحقائق الثابتة، وحاك عن الأوضاع الإلهية في عالمنا الوجودي.

أما كلامنا الآن فهو في مطلق الإدراك المعبر عنه بالشعور الذهني، الذي يشمل جميع التصورات والتصديقات من حيث هي:

اختلفت كلمة العلماء في مسمى لفظ «العلم»، فمنهم من قال: إنه الصور المنطبعة في النفس آتية من طرقها المعلومة ـ الحواس الخمس ـ أو حاصلة من تأليف بعض تلك الصور الآتية مع بعض آخر.

---

(١) نشرت في العدد ١٢٧١ الصادر في ١١ من المحرم سنة ١٢٩٩ ـ ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١.
ـ هذه المقالة لأحد المفكرين المشتغلين بالعلوم العقلية.

(٢) في الأصل: «عن».

ومنهم من قال: إنه انفعال النفس بتلك الصور، أي التأثر الذي يحصل فيها بورود الصور عليها.

ومنهم من قال غير ذلك: من كونه نسبة بين العالم والمعلوم، مجهولة الحقيقة، أو اتحاد العالم بالمعلوم.. إلى غير ذلك من الأقوال التي لا حاجة بنا إلى ذكرها.

لكن القولين الأولين هما الأقرب إلى العقل، والأشهر في النقل، ويكاد الخلاف[1] بينهما يكون لفظيا؛ لاتفاقهما على أن النفس المدركة تنطبع فيها الصور، فهي متأثرة بها، إلا أن الخلاف في كون العلم هل هو الصورة نفسها، أو تأثر النفس وانفعالها بها؟ والأقرب للحقيقة هو الرأي الثاني، وهو ما يرشد إليه الوجدان الذي يدركه كل متعقل من نفسه.

فالعلم ـ بناء عليه ـ انفعال في هذا الجوهر المدرك الذي تخفى علينا حقيقته، لكنا نعرف آثاره، وهو الروح الحيوي، والقوة المودعة في المخ والأعصاب من الحيوان، أو المعبر عنه بالنفس الناطقة في الإنسان. فالضياء الذي قال العلماء إنه يحمل الصور إلى الباصرة مثلاً، ليس المراد أنه ينقل صور المرئيات ـ كما ينقل أحدنا الشيء ـ من المكان إلى البصر فيودعها فيه؛ إذ هذا من المحالات الأولية، فإن صورة الشيء الذي نراه لا تفارقه بالضرورة، بل المراد أن الضياء للطفه عند مروره على الصور والأشكال يتشكل بها، فيكون أيضًا بنفسه قد حدث فيه شكل يشاكل هيئة ما مر وانطبق عليه على حسب حالة الانطباق، ولما فيه من الحركة السريعة المستمرة، ينعكس إلى البصر بشكله، فيؤثر في الروح اللطيف ـ أشد لطفًا من الضياء بكثير ـ المودع بالحكمة الإلهية في مركز الإدراك، بمثل ما تأثر الضياء من المرئي عند انطباقة عليه.

وهكذا يقال في تموج الهواء بالنسبة إلى المسموعات، وفي الملموسات والمشمومات والمذوقات يتأثر الروح المنبث في الأعصاب الإدراكية من نفس الكيفيات التي تتصل به، فيحصل فيها مثل هيئتها التي خالطته.

---

(١) في الأصل: الخلف.

فالعلم والإدراك أثر في الجوهر الدراك يحدث فيه المؤثرات الأخر المحيطة به كسائر الآثار التي تحدث في الأشياء من اتصال بعضها ببعض، وانفعال كل منها بما في الآخر من الكيفيات والصفات التي يمكن أن ينفعل بها، كالحرارة يكتسبها الماء عند اقترابه منها، والماء يكتسب شكل الإناء عند وضعه فيه، وما شابه ذلك.

وهذا الأثر بحكم الوضع الإلهي - الذي لا تصل إلى كنهه العقول - يثبت في جوهر المدرك، مستتبعًا جميع لوازمه التي لا تفارقه، فصورة الإنسان - مثلاً - يتشكل بها الروح على هيئتها التي تشكل بها الضياء، وهي في مكانها المخصوص، ووضعها المعين، فكما صارت تلك الصورة في الروح يكون فيه - أيضًا - حيزها ومكانها التي كانت حالة فيه عند الرؤية، ومقدار البعد بينها وبين الأشياء التي أحاط بها الضياء وأتى بها معها.

وبالجملة: فإن الشيء يكون في العقل كما هو في الوجود مع كافة لوازمه وتوابعه على حسب ما اتصف به الموصل، وما قبل الروح المدرك بحكم استعداده الفطري، حتى ذهب كثير من المحققين إلى أن الحقائق بنفسها موجودة بذاتها في العقل كما هي موجودة في الخارج، لما رأوه من التماثل التام بين صورة العلم والمعلوم، فكأن عالم الإدراك وما يوجد فيه هو بعينه عالم الشهود وما احتوى عليه، وكما أن حركة الموجودات - في العالم الخارج عن نفوسنا - تدعو إلى اتصال بعضها ببعض، فيتألف منها أجسام على نمط منتظم أو غير منتظم، يكون لها من الخواص والصفات بعد تألفها ما لم يكن لها قبل التألف، فإن حركة الأجزاء الغذائية - مثلاً - وانضمامها إلى البدن الإنساني أو الحيواني، يكسبها من صفات الحياة ما لم يكن لها قبل اتصالها بالبدن، كذلك حركة الجوهر المدرك فينا تفضي إلى انضمام بعض الأشكال الإدراكية فيه إلى بعض آخر، فيتألف منها شكل ثالث يكون له من الخواص العقلية في ذلك الجوهر ما لم يكن للشكلين الأولين، ونريد من الأشكال أنواع الحركات الحادثة في جوهر الروح، فإن انضمام بعضها إلى بعض يحدث أنواعًا أخر من الحركة.

وكما يرى في عالم الشهود أن بعض أجزاء العالم يجذب بعضًا، وبعضها يطرد بعضًا آخر؛ لتمام مناسبة أو تمام منافرة بينهما، كذلك بعض المعلومات في العقل إذا

حصل يوجب انضمام معلوم آخر إليه أو انفصاله عنه، وفي كلا الحالين أحدث في النفس أثرًا جديدًا، ومن ذلك تذكر الشيء بعد الذهول عنه لوجود ما يلائمه أو يضاده بالكلية، وقد يكون في الحالين مع سرعة تارة، ومع بطء تارة أخرى، كما يحصل ذلك في الموجودات المشهودة بلا فرق، ومعنى هذا أن تأثر جوهر الإدراك بحالة، قد يوجب تأثره بحالة أخرى لرابطة بين التأثرين، سواء كانت تلك الرابطة ناشئة عن المناسبة أو المعاكسة.

ومن المعلوم المقرر عند كل عاقل أن هذا الجوهر الروحي هو المتسلط على الأبدان التي صارت باستعدادها الطبيعي مظهرًا لآثاره، بمعنى أن حركات هذا الروح في أجزاء الأبدان توجب مطاوعة تلك الأجزاء له، فهذه التأثرات والانفعالات التي تحدثها فيه حركات الموجودات الواصلة إليه، توجب في هذا الروح حركة مخصوصة على حسبها، شأن سائر المؤثرات الطبيعية العادية، وبحكم حركة هذا الروح تتحرك الأجسام والأبدان بآلاتها المخصوصة، على ترتيب ونظام مخصوص يشبه حركة الروح الناشئة عن تأثرها، وهذا ما نسميه بالحركة الإرادية، وهي التي يندفع بها البدن إلى طلب شيء أو الهروب منه عند العلم بملاءمته أو منافرته، أي عند انفعال الذهن بصورته مع لازمها الذي هو الملاءمة أو المنافرة، حسب الشكل الذي حدث في الجوهر الروحي - المعبر عنه بالذهن - يتحرك في الأجزاء المعدة لحركته فيها، فتتحرك هي - أيضًا - بحركته، إما طلبًا، وإما هربًا، جذبًا أو طردًا.

وقد يتعارض أثران في الجوهر المدرك الذي هو الروح، وبعبارة أخرى قد تختلف صورتان علميتان في العقل: إحداهما تقتضي اندفاع الروح، وحركته نوعًا من الحركة، والأخرى تطلب نوعا آخر منها، فيقف، وهي حالة التردد، فإذا عرض من الآثار الإدراكية أو الصور العلمية ما يقوي أحد الأثرين تحرك إلى ما يوافقه، وإلا فهو في مركز الوقوف، ويبقى أثر ضعيف في الإدراك للصورة المرجوحة عندما يغلب على الروح أثر الصور الأخرى.

فالإرادة إنما هي تابعة للأثر العلمي في الروح الإدراكي، أو هي صورة أخرى لذلك الأثر، بل الفعل الصادر عن الروح في البدن - أعني الحركة البدنية نفسها - إنما

هو ظهور الأثر الإدراكي في الروح، فيكون حاصل القول: إن المتصل بالروح أثر فيها أثرًا - وهو العلم - أوجب حركتها في أجزاء البدن، فكان عنها حركة البدن نفسها.

وإن شئت قلت: تشكل الروح - وهو في الأجزاء - بشكل ما اتصل به، فظهر ذلك الشكل بعينه في الأعضاء بالحركة الفعلية، وهذا ما يقول العلماء: «إن الإرادة تنزل العلم، والفعل تنزل الإرادة»، ومعناه: أن حقيقة الأثر واحدة ظهرت في الأشياء المتعددة بمظاهر مختلفة.

وقد يكون تأثير الإدراك في أعضاء البدن وأجزائه - والمواد التي يتركب منها - خارجًا عن الطور الذي نسميه بالإرادة، وذلك كفعله في الدم عندما ينتقش بصورة فعل منافر، وفي الإمكان دفعة، فيفور الدم ويغلي وينتشر في جميع العروق، ويدور فيها دورة غير اعتيادية، فإذا اشتدت الدورة تحرك البدن إلى الإيقاع بمن صدر عنه الفعل غير الملائم، وهذه هي الحالة التي نسميها حالة الغضب، فإن تأثير الأمر المغضب في الدم ليس في حد الإرادة والاختيار، وإن كان التحرك للإيقاع واقعًا تحت الإرادة، لكن ربما إذا أمعنا النظر نجده خارجًا عنها، وإنما نعده داخلاً تحتها عندما نلاحظ أن عندنا أثرًا علميا آخر يدافع طلب الانتقام، ويرد النفس عنه، وهو صورة عاقبة الفعل الانتقامي وما يخشى من خطرها، فلوجود هذا الأثر عند الغضب نحسب الحركة الغضبية حركة إرادية، وإلا فالغضبان يحس من نفسه أنه مغلوب لإدراكه.

ومثل ذلك تصور العاشق وصل المعشوق، فإنه يفعل في الدم حركة وفي القلب خفقانًا، خصوصًا إذا كان المعشوق بمرأى منه وبمشهد من أعماله، ويتبع ذلك ارتعاد خفيف في الأعصاب والأربطة البدنية ربما يفضي إلى الرعشة، وليس هذا التأثر داخلاً تحت الإرادة ولا هو منها في شيء، ولكن قد يتبعه فعل إرادي مثل الفعل الذي يتبع الغضب، وإنما يعتبر الفعل إراديا ما إذا كان ناشئا عن إدراك آخر، سواء كانت المنازعة على وجه المدافعة أو المقابلة، ومرادنا من المقابلة تصور الشيء وضده، وترجيح غايته على غاية الضد، كتفضيل الحياة على الموت عند تصورهما.

وقد يفعل الإدراك في الدم وقفة وانقباضًا، ربما يؤدي إلى الجمود وفقد الحياة، كما نشهده فيمن فجع بموت ولده أو صديقه، أو تصور خطرًا وخطبًا جسيما، فإن قوة هذا الأثر الإدراكي وفعلها في جوهر الإدراك، قد تتسلط على الدم فترده من العروق بحركة جوهر الروح وشدة انقباضه، أو توقف دورته، وربما ينشأ عن ذلك موت المفجوع والأيس، ويتبع ذلك من الأعمال الإرادية قبل ذهاب الحياة سكون أو تحرك غير منتظم.

وقد يؤدي إدراك من الإدراكات ـ كتصور أمر مخيف ـ إلى ذهاب الإدراك، وسلب الشعور بالكلية، وهو ما يعبر عنه بالإغماء والغشي؛ وذلك لاستيلاء أثر الصورة المخيفة على الجوهر المدرك في البدن، فلا يشغله[١] سواها، فتضمحل جميع الانفعالات المعبر عنها بالإدراكات، وتفنى في نوع هذا الإدراك والانفعال الشديد.

وهذه الأحوال التي نجدها من أنفسنا ترشدنا بلا شبهة إلى أن التأثر الإدراكي من الانفعالات الطبيعية، التي تتأثر بها الجواهر اللطيفة من الضياء والكهرباء وغيرهما، وأن ما ينشأ عن التأثر الإدراكي، إنما هو كيفيات تتبع الحالة التي صار عليها الجوهر المدرك بعد التأثر الذي عرض عليه، أي ما نسميه علمًا وإدراكًا.

* * *

(١) في الأصل: يسفله.

الملكات والعادات

إن هذا الجوهر الروحاني المتعلق بأبداننا الذي يتأثر من كل واصل إليه، وينفعل أشكالاً من الانفعال لكل متصل به، يأخذ - بتوارد أنواع التأثرات - هيئات مخصوصة تثبت فيه، مستتبعة لوازمها حتى تصير كأنها من أصل خلقته لكثرة ما وردت عليه، وهي التي نسميها ملكات إدراكية وعلومًا ثابتة في النفس لا تزايلها، ويتبعها السجايا والطبائع والأخلاق النفسانية الملائمة لتلك الملكات الإدراكية، ويلزمها الأفاعيل البدنية المعبر عنها بالعادات.

فليست الأخلاق والعادات إلا توابع ومستلزمات للعلم والإدراك، الذي هو أثر في جوهر الروح يتبعه الأثر الفعلي، فمن عرض للنفس مؤثر، أو وقف على أبواب الإدراك وارد غريب عن ملكاتها السابقة، وبعيد عن الهيئات الإدراكية التي أخذ الجوهر شكلها، عسر على الذهن إدراكه، وتعسر على النفس فهمه، ومانعت الأعضاء البدنية أثره، فهذه الأخلاق والملكات ناشئة عن كثرة توارد الانفعال النفسي الإدراكي من نوع واحد، حتى صارت هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال الجزئية الملائمة لها، كلما عرض عليها أثر جزئي من نوع الهيئة الكلية، فسجية الكرم - مثلاً - ثبتت في نفس الكريم؛ لكثرة انفعال عقله وإدراكه بصور الغايات الشريفة التي تتبع الكرم، والفوائد الجليلة التي يكتسبها باذل المال، أو باذل الهمة في سد حاجات المحتاجين، فبتكرار هذه الصور والإدراكات على العقل، وصدور الأثر الإرادي عنها، وطول الزمن على ذلك، تمكنت في النفس هيئة مخصوصة إدراكية، وهي اليقين - الذي خالط الروح - بأن الكرم جميل مفيد، ويتبعها انطباع النفس بالأمر(١) التام لحركة الإعطاء، وإيصال الخير إلى من يحتاج إليه، فإذا أخطر

---

(١) في الأصل: «بالنهي».

ببال الكريم وصاحب هذه السجية ـ التي تولدت فيه عن انتقاش نفسه بصورة فائدتها ـ فعل لبخيل مناع للخير، رأيت عقله يبعد عن إدراك هذا الفعل، ويجد من روحه انقباضًا وتعاصيًا عن الانفعال به، بل يجد جوهر عقله يطارد هذا الانفعال الذي تجلبه إحدى الحواس، أو يذكر به راوي العمل وحاكيه، فإذا كلف صاحب هذا الخلق بأن يعمل عمل البخلاء، رأى من نفسه ـ بعد الإباءة الإدراكية والمصادرة العقلية ـ انحطاطًا بدنيا وارتباطًا في الأعضاء، حتى كأنه يجد عاقدًا يعقد كل طرف بآخر، ومانعًا يمنعه من نفسه عن تحريك عضلاته، بل يحس من ذاته كأن القوة المحركة إلى هذا العمل الخبيث، مفقودة[١] بالكلية.

وهكذا يقال فيمن تعودت نفسه إدراك غوائل الفقر والحاجة، وتكاثر عليها الانفعال بصورة العجز والضعف عن الكسب، وتهيأ جوهره الإدراكي بصورة الانخذال والانهزام من صدمات الحوادث، فهذا الذي أحاط بإدراكه جميع المزعجات، تراه قد رسخ في قوته الروحية أشكال من هذه الانفعالات، وانطبعت نفسه ومبادئ الحركة فيه على الميل إلى ما يلائم إدراكه الثابت، فهذا الراسخ هو ملكة العلم بفوائد البخل والإمساك عنده، وهذا المنطبع سجية البخل، وعنهما تصدر الإرادة بالأفاعيل الناقصة التي هي عنوان هذه الملكة وتلك السجية، ولئن ذكر لصاحبها طرف من أحاديث البر والإحسان، وما ينشأ عنهما من الفوائد لمن تحلى بهما، رأيته ينفر من ذلك نفور الوحش، ويطلب سد أبواب الإدراك على نفسه حتى لا يتكدر خاطره ويتألم بهذه الصور الرديئة المستبشعة.

[و] من جملة هذه الملكات التي ترتكز في جوهر النفس المدركة ملكات الصناعة كالكتابة والإدارة والرسم والحدادة والنجارة، وغير ذلك من أنواع الصنائع التي ترتسم في ذهن المدرك صورها الآتية إليه من إحدى الحواس، مقترنة بما يلزم تلك الصنائع من الفوائد والثمرات التي يجتنيها العامل فيها، وتارة لا تأتي إليه صورة الصناعة من طرق الحاسة، ولكن يضطره الإحساس المؤلم العارض له من المؤثرات الجوية إلى طلب الخلاص منه، فيندفع إلى التأمل في الموجودات المحيطة به لعله

(١) في الأصل: «فاقدة».

يجد منها ملجأ، فينفعل بصور منها على هيئات مختلفة انفعالا يلائم الانفعال الأصلي، أعني طلب الخلاص من الألم، فيتحرك للعمل فيها على غير انتظام، ولا حالة تمام وكمال في مبدأ الأمر، ثم يلجئه ركوز الفائدة المقترنة بهذه الهيئة - ولزوم الحاجة لمداومة الأعمال فيها - إلى جبر الأعضاء والآلات البدنية على حركات واهتزازات خاصة - إن كانت الصناعة بدنية - حتى تلين تلك الأعضاء، وتكون في غاية المطاوعة لهيئة الروح المدرك، أعني أنها تكون في حركاتها مثالاً لما ارتسم في الروح من الهيئة التي رآها أو لمسها - مثلاً - مع لازمها من الفائدة والغاية الملائمة؛ حيث أثر ارتسامها في الروح أثرًا خاصا، وبه سرى في الأعضاء على هيئة وكيفية خاصة، ويصعب أول الأمر أن تكون على طبق ما ارتسم من كل وجه، ولكن باستحكام الأثر ومداومة العمل، تنطبع الهيئة بتمامها في الأعضاء كما انطبعت في مركز الإدراك، ومثل ذلك الهيئة المخترعة التي دعت الضرورة إلى ارتسام الذهن بها.

فإن كان العمل غير بدني كالإدارة والسياسة - مثلاً - من الأعمال الفكرية، التي لا يراد من العامل فيها سوى تأليف صور فكرية معقولة تنطبق على الواقع، ويمكن - بسهولة - الجري[1] على مثالها، وهو ما نعبر عنه - في اصطلاح الحكومة بالتنفيذ - فملكتها إنما تثبت في العقل، وتنطبع في الروح، حتى تكون كهيئة فطرية له - كما في سائر الملكات - بتوارد صور كثيرة مختلفة الأنواع والأشكال من صور المضار والمنافع والمصالح والمفاسد ثم يوجد عنده انفعال وتأثر[2] بغاية وداعية تبعثه على المقارنة بين تلك الصور، والحركة في تطلاب لوازمها الكامنة فيها. فإذا استحكمت هذه الغاية في النفس صيرت الروح كالبحر المائج والأشكال العلمية أمواجه، أو كالضياء لا ينفك عن الحركة يؤلف بين عدد من الصور، ثم يفرق بينها، ثم يجمع بين المتفرقات في نقطة، ولا تسكن له حركة حتى يستقر في ملتقى المنافع، وهي الصورة المنطبقة على غايته الملائمة له؛ أي التي تأثر وانفعل بها، فانبعث لطلبها بحكم ذلك الانفعال.

---

(١) في الأصل: «بالسهولة الإجراء».

(٢) في الأصل: «وتأثير».

وفي مبدأ الأمر لا تأتي هذه الحركات بالمطلوب على وجه السرعة، لكن متى استحكم في الروح الأثر الباعث على هذا العمل الفكري، استمرت الحركة العقلية مرة تحاذي الغاية، وأخرى تنحرف عنها، فتحفظ للانحراف أثرًا يبعدها عنه مرة أخرى حتى يكون الاتجاه إلى وجهة الطلب كطبع جبلي فيها. وهذا إجمال في القول ربما نأتي على تفاصيله فيما بعد.

ومن تأمل حال سير الإنسان، بل طريق ترقيه وتدنيه في أعماله واختلاف عاداته وأخلاقه واعتقاداته وكافة شئونه، وأنه قلما يتفق جيلان من الناس ـ بل قبيلتان، بل فخذان ـ على استحسان شيء أو استقباحه، بل إذا تنزلنا إلى النظر في الجزئيات، رأينا هذا الاختلاف بين كل شخص وشخص حتى المولودين في بيت واحد، هذا يستحسن شيئًا، وذاك يستقبحه ويستهجنه، ومن يدقق نظره في ذلك يوافقنا على أن هذه الأحوال الإدراكية ـ التي تتبعها الملكات والأعمال التي نسميها بالعادات ـ إنما منشؤها الانفعال من المؤثرات الخارجية، التي تختلف على الشخص باختلاف موقعه، وما يحيط به من مؤثرات الطبيعة، ومن يكتنفه من أبناء جنسه، وما ينشأ عليه من نوع المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما يطرق أذنه من الأصوات ساذجة ولفظية مستعملة ومهملة، وما يراه من الصور والأشكال متعاقبة بعضها إثر بعض، وما يذهب إليه إدراكه من جميع ذلك مستعقبًا ومستتبعًا لوازمه، فإن جميع ذلك يتشكل به الروح المدرك، ويكون هيئة فيه، وما تكرر منه ثبت شكله فيه؛ أي انطبع الروح بطابعه؛ أي صار الروح على ذلك الشكل، فهو في حركته الطبيعية يكون على ذلك المثال، وهو ما نعني، من تقرر الملكة وثبوت العادة، وما لم يتكرر يذهب أثره بغلبة بقية الأشكال عليه.

ويعرف العلماء الملكة بهيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بدون فكر ولا روية، وليس مرادهم من كونها بدون فكر ولا روية أنها غير إرادية بالمرة، أو أنها رمي بدون رام، تارة يخطئ، وتارة يصيب، ولكن مرادهم أن الروح ينطبع عليها، فالإرادة موجّهة إلى ما يكون على مثالها بدون احتياج إلى جولان بين الصور وترجيح بعضها على بعض، وبعد تمكن الملكة في النفس وانطباع الفكر أو الأعضاء على محاذاتها في الحركة، يكون من الصعب ـ بل ربما كان من المتعذر ـ أن يتحول

الإنسان عنه إلا بقاهر تشتد وطأته على النفس فيوصل إليها من المؤلمات أو يخيل لها من المخوفات ما يؤثر فيها أثرًا قويا يلويها عن الأثر الأول ويقودها إلى الأثر الجديد، ثم يستمر ذلك أزمانًا - وإن شئت قلت أجيالاً - حتى تضمحل الهيئة الأولى، وتثبت الهيئة الأخرى، ومن ذلك الحديث الشريف: «إذا سمعتم أن جبل كذا انتقل من مكانه فصدقوا، وإذا سمعتم أن فلانًا تحول عن خلقه فلا تصدقوا» يشير بذلك إلى صعوبة الانتقال عن الأخلاق والعادات الثابتة من تلقاء النفس بدون أن يضطرها لذلك قاسر أو زاجر، وهيهات أن ينال المطلوب مع ذلك.

ومما يرشد إلى أن تكرر الانفعال على النفس يحدث فيها هيئات فكرية وعملية، ما حكاه عبد الوهاب (لعله عبد اللطيف) البغدادي من حوادث سنة ٥٩٥ هجرية في مصر أن شدة القحط وفقد المطعومات في الديار المصرية بذلك الوقت، اضطر بعض الناس لأكل بعض آخر؛ لسد الرمق وإلهاء كلب الجوع، وفشا ذلك فاستبشعته النفوس ونفّرت منه، حتى إن بعض الناس انزعج لهيئة أكل الإنسان فمات من بشاعة المنظر، ثم لما عم ذلك غالب الأفراد زالت البشاعة شيئًا فشيئًا، حتى صار من المألوفات أن يأكل الرجل أحد أقربائه، والمرأة ابنتها أو أحد أقاربها، وكانوا يطبخون لحم الآدمي بالتوابل والبهارات كما يطبخون لحم الحيوان.

فانظر إلى الانفعال الذي حدث في النفس من غائلة الجوع، كيف غلب على الاعتقاد وكان في غاية الاستحكام، وانقلب القبيح حسنًا، إلا أنه بعد زوال العارض عاد الاعتقاد الأول إلى مكانه؛ لارتفاع الضرورة، لكن لم يعد إلى حالته الأولى على وجه الكمال إلا بعد أزمان.

نظن أنك التفت - فيما ألقينا إليك من المقدمات السابقة - إلى أن العلم والإدراك - الذي يستولي على الإرادة - إنما هو الانفعال بالصورة الواردة إلى الروح الدراك إذا قارنها الانفعال بصور الغايات اللازمة لها، ملائمة لذي الروح أو منافرة، ولا يتحرك بها الروح على هيئتها الثابتة فيه منبثا في الأعضاء أو ما تجافى مركزه الفكري؛ لينفعل بصور مركبة من الانفعالات البسيطة أو المركبة، إلا إذا لم يعارضها انفعال يلوي الروح إلى ضد الحركة التي تطلبها تلك الانفعالات؛ إذ عند المعارضة لا يكون للهيئة الأولى تمام الثبوت والركوز في النفس، ومتى قوي ارتسام

الصورة الإدراكية، وتغلب على سائر الإدراكات الأخرى، وكان الارتسام بمطلوب أو مهروب منه، اندفع الروح إلى الحركة ـ كما مر بك بيانه ـ وعن ذلك تكون الأعمال التي باستمرارها تثبت الملكات أو العادات.

ويوجد علوم يسميها أرباب الاصطلاح علومًا، وأرى لهم في التسمية حقا؛ لأنها نوع من التأثرات النفسية الإدراكية، وإن كانت لا أثر لها في باب الإدراك يصح اعتباره إلا من وجه أنها أشكال مؤلفة من خواطر النفس لا غير، وهي ما تخيله التعاليم والألفاظ الموضوعة بإزاء معان يمثلها المعلمون للذهن بالتمثيل والتشبيه، ويقربونها إلى الجوهر الدراك[1] بتذكير بعض المألوفات، فيحدث منها في المخيلة أنواع من الأشكال بسائط ومركبات، أي يتشكل الجوهر الدراك بهيئات تناسب التقريبات التعليمية، تحضر عنده بالتذكر وضم بعض المذكورات إلى بعض، وذلك كما يوصف للأعمى هيئة الأفلاك والكواكب وحركاتها، ويمثل له ذلك بكرة الصبيان موضوعة في مستديرات كمحيط الغربال، إلا أنها في السعة على نحو كذا، وفي التدوير على كيفية كذا. . إلى آخر الأوصاف.

وكما يقرب للبخيل حقيقة الكرم وكيفية بذل الحق لصاحبه ومنحه لمستحقه، وصرف ثمرات الكسب فيما يؤثل المجد، ويعلي شأن الحسب وأشباه ذلك، فإنه يتمثل في ذهنه هيئة مركبة من مجموع الأوصاف التي كانت بسائطها ثابتة فيه، وإنما التعريف أحدث هيئة اجتماعها مسماة باسم واحد هو «الكرم» مثلاً، إلا أنها لا تجاوز المركز الإدراكي، فهي ترتسم فيه من حيث التمثيل والتعليم، فإن تواردت عليها الأشباه والمذكرات من وجه التعليم والتذكر بقيت ثابتة، ويقال لمن هي عنده: إنه عالم بتلك الصفة، وقادر على تعليمها كما أخذها على النحو الذي حضرت به عنده.

ومن ذلك كل ما يتعلمه الشخص من القواعد العلمية قصد أن يتعقلها؛ أي أن توجد في جوهر روحه صور مؤتلفة علي نوع خاص من الائتلاف، وترجع إلى وجهة واحدة في الجنس، كعلم النحو وعلم العروض مثلاً، أو فن الأخلاق والسياسة.

---

(١) في الأصل: «الدرك».

وقد يحصل عند الشخص من ذلك شيء يسمى بالملكة، لكنه ليس من نوع الملكات التي بينا كيفية حدوثها عند النفس فيما سبق من الكلام، وإنما هو نوع من رسوخ تلك الصور في المدركة، بحيث إذا وجد جزئي من الجزئيات يرد على الذهن من الخارج، فربما ينتبه المدرك إلى كون هذا من نوع بعض الصور، وليس من نوع البعض الآخر، ويكون لصاحب هذه الملكة أنه يولد في عقله من هذه الانفعالات انفعالات أخرى تحاكيها محاكاة تامة أو غير تامة، ويطابق بين الأصل وما تولد عنه، كل ذلك في عقله، لا يراعي فيه الانطباق على الواقع أو عدم الانطباق، فإن لاحظ ذلك فهو على شريطة أن لا يباين الأصل الذي تلقاه، فهذا إنما هو نوع من حركة الروح على مركز واحد حركات متشابهة أو متعاكسة. ومن تأمل في المسائل الاختراعية التي استولدها بعض علماء الفنون العقلية، وذهبت عقولهم خلفها، فاستحدثوا لها في أذهانهم لوازم لم يقفوا فيها عند حد، تبين حقيقة ما قلنا، فمثل هذا النوع من العلوم لا يؤثر في الإرادة شيئًا سوى أنه يحولها إلى إجابة الفكر فيه، فلا يكون له هم إلا تأليف الأشكال العقلية وتفريقها، وهذا نوع من تسلط الإرادة على الإدراك بعد تسلطه عليها.

مثلاً: الذي درس علم التهذيب لقصد الوقوف عليه ليس إلا، بعد أن صار كهلاً بين قوم بعيدين عن التهذب، وتلقفت إحساساته من أحوالهم ما انطبع عليه روحه الدراك، وسرى به في الدم والعروق، وجرت به الأعمال العضوية، ومرنت عليه حتى صارت في النفس ملكة وللبدن عادة، وحفظ جميع ما حوته الكتب الشهيرة في هذا الفن، فإن قواعد الفن وصور أصوله تكون جاثمة في مركز الإدراك، وأشكالها ثابتة فيه، لكنها حيث لم تقترن بغاية هذا التحصيل، وهو العمل، وإنما كان القصد مجرد العلم حتى يمكنه أن يعلمه ويلقيه كما تلقاه، فإن العقل والنفس يقفان به عند هذا الحد فقط، فإذا انضم إلى ذلك غايته، وهي أن يقدر على تأليف جمل منه وفصول يعبر عنها باللسان أو بالكتابة، تحرك الروح في لسانه، وتضامت الأشكال في مخيلته على الترتيب الذي يريد في عقله، فيتمكن من ذلك بالتعويد حتى يصير هذا النوع من العمل ملكة له، وتكون الإرادة تابعة لإدراك هذا النوع من التبعية.

ومثل هذا من يتعرف أعمال العبادة المسيحية، وهو مسلم أو بالعكس، لا لقصد العمل، ولكن لقصد أن يتكلم أو يكتب ما يدل على تلك الأعمال وفروعها، فالإرادة تابعة للانفعال الإدراكي بالداعية والباعث إلى الحركة، فإن كانت الداعية مجرد التصور وقفت عنده، أو انضمام الترتيب والتأليف في الألفاظ والأرقام تجاوزت إلى هذه الغاية، وهي إلى هذا الحد لا تفيد في حال الشخص وصفاته الحقيقية ـ التي هو بها جزء من هذا الوجود ـ شيئًا يعتد به، وأرباب هذه الحالة يعرفون ـ في الاصطلاح ـ باللفظيين تشبيهًا لعلومهم بأشكال الهواء والأصوات المقطعة المسماة بالألفاظ، لا أثر لها إلا بالعرض.

ومن ذلك الذين يتكلمون كثيراً بالحكم العالية والأصول النظامية الجليلة، لكنهم في أعمالهم لا يراعون شيئًا مما يقولون، وما ذلك إلا لكون تصوراتهم إنما هي تأليف أشكال خيلها لهم الممثلون والمقربون، فوجد لتأثر أذهانهم بها نوع من الارتياح للطف الأشكال المؤلفة منها في حد ذاتها، فانبسطت نفوسهم لاستثباتها، وانضم إلى ذلك إحساسهم بإجلال الناس لمن ينظمها في سلك العبارات أو الأرقام، فوجهوا الإرادة إلى ذلك فلم ينالوا سواه.

وعلى هذا المثال من يعرف قواعد النحو بالتمثيل والتقريب، إلا أنه إذا قرأ لا يتذكر شيئًا منها، وإذا كتب جال قلمه خارجًا عن دائرتها، وأولئك هم المبتدئون الواقفون على عتبة التعليم، ولا يصح أن يقال لهم بالحقيقة عالمون بشيء مما يقولون، ولو علم النحوي ـ مثلاً ـ قواعد النحو حق العلم، أو عرف السياسي أصول السياسة كمال المعرفة، وانطبع بها روحه الدراك على النحو الذي أسلفنا، لتبع ذلك الانفعال غايته؛ فإن الغاية من الأصل المدرك التي ما وضع الأصل إلا لها من لوازمه لا تفارقه، فعدم تمكنها في النفس دليل عدم تمكن الأصل نفسه فيها، ومتى تمكنت الغاية انطلق الروح في الآلات العلمية لتحصيلها، فيعوج في السير ويستقيم حتى ينطبع شكل الأصل وغايته في الروح المنبثة في كافة الأعضاء، فتصدر لذلك الأعمال تابعة للأصل الثابت بدون عسر، وهنالك تمام العلم وكماله.

أفلا يرى أن مدرس السياسة عندما يقبض على زمامها لإجراء العمل بما علم

يلتبس عليه الحال الواحد، لا يدري يطبقه على أي أصل من الأصول الثابتة عنده، أليس هذا جهلاً بنفس الأصل؛ حيث لم يقف على نوع جزئياته؟! لكنه بعد التطبيق وظهور العاقبة الحميدة يجد من نفسه أنه فُتح له باب جديد من العلم، وكذلك إن حدث منه أثر رديء، فهذا الارتباك الأول والرشاد الثاني شاهدان على نقص الإدراك قبل تمكن الملكة النفسية والأعمال التعويدية، وكماله بعد تمكنها.

ومن هذا القبيل أحوال كثير من الناس يزعمون أنهم يعتقدون شيئًا، ويعلمونه حق العلم، بل ويدافعون عنه، ولكنهم يعملون على خلاف ما يقتضيه، مع زعمهم التيقن بأن النجاة في اتباعه، والهلاك في العدول عنه، وقد تبين أنهم في الحقيقة لا يعلمون.

الإدراك الراسخ في النفس الذي يكون هيئة ثابتة لها، وملكة تصدر عنه الأفعال بدنية كانت أو فكرية لها أثر واقعي، لا مجرد الأثر التصوري، هو المعروف في الاصطلاح بالاعتقاد؛ لأنه بانطباعه في جوهر الروح المدرك كأنه عقد في النفس بحث يعسر انحلاله وزواله، والنفس بكثرة مزاولته وتكرار انفعالها به قد اعتقدته وارتبطت به، وما عدا ذلك هو المخيل والموهوم يحوك في النفس، وتظهر صورته فيها عند عروض مذكراته، وموجبات انفعال النفس به، فإذا هب الروح لحركته الذاتية بورود الموجب، رأيت المعتقد قد احتوى على الروح، فتحرك به وتوجه إلى وجهته، وزال ذلك الموهوم كأن لم يكن، وإنما مثل الموهوم في النفس مع المعتقد، كمثل جسم غريب حل في شكل الشعلة المخروطي، فأثر في انحرافه عن المخروطية، فإذا قويت الشعلة حتى أحرقته عادت إلى تمام الشكل، ولا يحصل انحراف الشكل إلا عند عروض عارض آخر، فالصور الاعتقادية في الروح تكون كالأشكال الطبيعية، وما دونها لا يؤثر فيها أثرًا حقيقيا ثابتًا، وفي ذلك يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن» ولست أريد تفصيل ذلك.

تأمل إلى من جلس أمام منبر الخطابة يستمع الوعظ بكل إنصات، ويهز رأسه هزة الهائم بجمال ما يسمع، وتارة يذرف الدمع من عينه لما حاك في نفسه من الانفعالات الروحية التي أحدثتها مذكرات الخطيب، ويكون ذلك الوعظ في

تخفيض شأن الدنيا وتهوين أمر الحياة، وأن كل طويل فيها قصير، وكل سرور فيها مشوب بمكدرات وشرور، وأن لا غنيمة فيها سوى ما يقدمه العاقل بين يديه من طيبات الأعمال ليكسب بها نعيمًا مؤبدًا، حتى إذا انفض المجلس، وانتشر القوم لطلب الرزق، رأيت ذلك الباكي يقترب من موارد الشهوات، ويدنو من مساقط الدنيئات، ويستعمل لذلك أنواع الحيل التي طبعتها في جوهر إدراكه فواعل الاحتياطات التي ألمت به، أو وردت عليه صورها ملمة بغيره، مع العجز عن افتتاح طرق الكسب من وجه يلائم مقال الواعظ، ويتفق مع إرشاد المرشد، فيكون عمله على ضد ما يزعم اعتقاده؛ حيث إن هذه الطرق لم تألف إحساساته، ولم تنتقش في مداركه على النحو الذي يبث الروح في الأعضاء، فيحركها على مشاكلة تلك الرسوم الجميلة.

فقد وضح لنا من هذه الآثار التابعة للإدراك أن الصور التعليمية التي تحضر الذاكرة دائمًا أو في بعض الأحيان، غير مصحوبة بالغاية العملية، لا تعد في الحقيقة معتقدات، وإنما هي مخيلات تظهر في جوهر النفس عند عروض المذكرات فقط، ثم لا يترتب عليها أثر حقيقي في جوهر الروح يثبت فيه، ولكن ينشأ عنها أعراض وقتية.

تبين من هذا الذي أوردناه ـ من التقريبات في باب تأثير الإدراك في الإرادة ـ أنه يعم جميع الإدراكات والإرادات، سواء كانت مطابقة للصواب، جالبة للسعادة الحقيقية، مانعة من الشقاء، أو لم تكن كذلك، وأن ذلك لتابع لما يصل إلى المدرك من المؤثرات الخارجية، التي تحدث فيها آثاراً تناسب هيئتها التي وصلت بها إليه، ولم يخرج في ذلك الانفعال الإدراكي عن سائر الانفعالات الطبيعية إلا من حيث الكيفية والنوع المخصوص، فاختلاف العادات والملكات والأخلاق والأعمال في النوع الإنساني، تشهد لنا ـ بناء على تلك المقدمات السابقة ـ أن منشأها هو اختلاف الآثار الواردة على مركز الإدراك من الأكوان الطبيعية المكتنفة بالمدرك وعوارضها، وهذا الاختلاف إما أن يكون لتباين الحوادث، وتخالف الطبائع الخارجة من حيث الخلقة الأصلية والوضع الإلهي، وإما أن يكون لاختلاف حالة المدركين أنفسهم في قبول التأثرات من جهة الاستعداد المجبول عليه جوهر الإدراك.

أما الوجه الثاني ـ أعني اختلاف الآثار لاختلاف الاستعداد الممنوح بأصل الخلقة لجوهر الإدراك ـ فهو يأتي من حيث التركيب الجسماني، والعناصر الداخلة فيه، والوضع الذي أبدعته يد القدرة الإلهية عليه، فعناصر التركيب البدني وجودتها ورداءتها ووضعها فيه، وكيفية تأليف الأعضاء، ونسب الأجزاء بعضها لبعض، مما له دخل في ظهور الجوهر الإدراكي بآثاره، وبعبارة أخرى في شدة انفعاله بالمؤثرات الواردة عليه وضعفه، وفي قوة استثبات الصور المنفعل بها، وضعف تلك القوة، وغير ذلك من صفات الإدراك التي لا تخفى على مدرك، وهذا الدخل مما لا يشك فيه.

وأما الوجه الأول ـ أعني اختلاف الآثار بواسطة تباين الحوادث، وتخالف الطبائع الخارجة عن ذات المدرك ـ فهو يظهر من اختلاف العادات والأخلاق والإدراكات باختلاف الأقطار والبقاع، وتنوعها بتنوع أحوال التربة والجو الذي تنشأ وتنمو فيه، ويمتاز بعضها عن بعض بتميز حالة التعيش، وطرق اكتساب الرزق، ووقاية الوجود من الخطر، والإحساس من الألم، التي تستدعيها طبيعة الأراضي، فالذي يقتضيه كسب الرزق الضروري لحفظ الحياة من طريق الصيد البري، وتدعو إليه المحاماة عن النفس بمدافعة الوحوش الكاسرة والسباع الضارية، أو يبعث إليه التأثر من شدة البرد، ويبوسة المنشأ، وجدب المكان، كل ذلك غير ذلك الذي يقتضيه كسب الرزق من طريق الزراعة، والفرار من المهلكات بالاستكنان في بعض الأكواخ؛ لسهولة الأرض وخلوها من المفترسات، وبعدها عن المؤثرات الجوية الشديدة، وتوسطها في الحر والبرد، وما يلائم ذلك من موجبات السهولة في تطلب الأرزاق، فإن تأثر الجوهر الدراك بالأخطار الأولى، يبلغ من الشدة مبلغًا يحدث فيه سرعة الحركة الروحية التي تتبعها الحركة البدنية على أنحاء توصل إلى المطلوب، أعنى التخلص من تلك الأخطار، وبتكرارها وكثرة تواردها على النفس تودع فيها ملكة عملية تصدر عنها الأعمال على ذلك النحو المتقدم.

مثلاً: إذا نشأ الإنسان في أرض جبلية كثيرة الغور والنجد، غزيرة الغابات، وعرة المسالك، قليلة الخصب، تسكنها أنواع الحيوانات المفترسة، ومع ذلك تكون

في جو شديد البرد كثير الصواعق سريع التقلب، فلا ريب أن الانفعالات التي تعرض على إحساساته من هذه الأشياء المكتنفة به ـ وكثرة ما تدعوه إلى المقاومة والمصادمة واحتمال المصاعب في دفع المصائب، وتجشم المشاق يتخلص بها من المهلكات ونحو ذلك ـ تجعل في الأعضاء قوة على العمل، ثم ترسخ منها في النفس ملكة الشجاعة والإقدام، وتتجه بذلك قوة الإدراك إلى البراعة في الكر والفر، وفنون الدفاع والهجوم، وتثبت فيها ملكة الحذر والتيقظ، وملكة النشاط في السعي لطلب المعيشة، وملكة الثبات في العزائم، وملكة حب التآلف، والاجتماع؛ للتعاون على دفع المضار وجلب المنافع المشتركة، وملكة القسوة والتهاون بالدماء، وعدم الاكتراث بإتلاف النفوس وإزهاق الأرواح، وملكة الغضب الشديد الذي يحمل صاحبه على شدة الانتقام، وملكة الغدر التي تتولد دائمًا من الاضطراب وعدم الاطمئنان للحوادث، ويتبع هذه الملكات ملكات أخرى، ويتبع الجميع عادات وأفعال تناسبها.

وهذا بخلاف ما إذا نشأ في سهولة العيش، وخصب الأرض، وهشاشة التربة، وخلوها من الغابات واستواء سطوحها، واعتدال هوائها، وصفاء جوها، وخلوها من الحوادث المخيفة، فإن ذلك لا يحدث في النفس إلا صوراً لطيفة، تتبعها ملكة اللين والمساهلة والكرم وحسن الطاعة وسلامة النية والنزاهة عن الضغائن، والبعد عن الطمع، والرضا بالقليل، وما يتبع ذلك من الصفات التي لا تتخلف عن مناشئها الواقعية إلا بالطوارئ العرضية التي نذكرها فيما بعد فانتظرها[1].

(١) وعد الأستاذ بإتمام هذا البحث القيم الفلسفي، والذي نشر في خمسة أعداد من «الوقائع المصرية»، وقد تصفح مؤلف كتاب «تاريخ الأستاذ الإمام» السيد رشيد رضا، سائر أعداد الوقائع المصرية فلم يجد فيها تتمة البحث.

٦

الرد على الدهريين

تأليف:

السيد جمال الدين الأفغاني

ترجمها عن الفارسية :

الشيخ محمد عبده

بمساعدة : أبو تراب، عارف أفندي

مقدمة
الأستاذ الإمام محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على الهداية، ونعوذ به من الغواية، ونصلي ونسلم على خاتم رسله، وآله وصحبه هداة سبله.

وبعد فقد أتيح لي الاطلاع على رسالة فارسية في نقض مذهب الطبيعيين، من تصنيف العالم الكامل، محيط المعرفة الشامل، الشيخ جمال الدين الحسيني الأفغاني.

أما الشيخ فله من لسان الصدق، ورفيع الذكر، ما لا يحتاج معه إلى الوصف.

وأما الرسالة، فعلى إيجازها قد جمعت لإرغام الضالين، وتأييد عقائد المؤمنين، ما لم يجمعه مطول في طوله، وحوت من البراهين الدامغة، والحجج البالغة، ما لم يحوه مفصل على تفصيله.

دعاه إلى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان في البلاد الهندية، عندما رأى حكومة الهند الإنجليزية تمد في الغيْ جماعة من سكان تلك البلاد، إغراء لهم بنبذ الأديان، وحل عقود الإيمان، وأن كثيراً من العامة فتنوا بآرائهم، وخدعوا عن عقائدهم، وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ما تدعيه تلك الجماعة الضالة، وممن سأله عن ذلك حضرة الفاضل مولوي(١) محمد واصل، مدرس الفنون الرياضية بمدرسة

(١) المولوي: نسبة إلى «المولى»، وهو هنا السيد والزاهد والمالك والمنعم، ويطلق على ضد ذلك كالعبد والمعتق - بفتح التاء - والمنعم عليه.

الأعزة بمدينة حيدر آباد الدكن من بلاد الهند، فأجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بإنشاء رسالة في بيان ما كثر السؤال عنه.

وقد حداني[١] علو الموضوع، وسمو منزلة الرسالة منه، إلى الاجتهاد في نقلها من لغتها إلى اللغة العربية، فتم لي ذلك بمساعدة عارف أفندي الأفغاني[٢]، تابع الشيخ المؤلف، ورجونا بذلك تعميم الفائدة، وتكميل العائدة إن شاء الله.

وإنا نذكر ترجمة الرقيمين، مبتدئين برقيم مولوي محمد واصل، وهو:

(١) يقال: حداني، وحدا بي، والمعنى: ساقني.

(٢) ابن أخت السيد جمال الدين رحمه الله، وهو المشهور بأبي تراب، وكان يلازم السيد جمال الدين أينما رحل إلى أن نفي السيد جمال من مصر في عهد توفيق إلى الهند، فبقي عارف أفندي في مصر، ولكن لما نفي الأستاذ الإمام إلى سورية، رافقه إلى هناك. (عن محمود أبي رية).

رقيم مولوي محمد واصل

١٩ محرم سنة ١٢٩٨هـ، ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٠م بعد رسوم المخاطبة.

يقرع آذاننا في هذه الأيام صوت «نيتشر» . . «نيتشر»[١]! وإنه ليصل إلينا من جميع الأقطار الهندية، فمن الممالك الغربية والشمالية، و«أوده» و«بنجاب» و«بنجاله» و«السند» و«حيدر آباد الدكن». ولا تخلو بلدة أو قصبة من جماعة يلقبون بهذا اللقب، ينمو عددهم على امتداد الزمان، خصوصًا بين المسلمين، ولقد سألت أكثر من لاقيت من هذه الطائفة: ما حقيقة النيتشرية؟ وفي أي وقت كان ظهور النيتشريين؟ وهل من قصد هذه الطائفة بمسلكها الجديد عندنا أن تقوم عماد المدنية، ولا تعدو هذا المقصد، أو لها مقاصد أخرى؟ وهل طريقتهم تنافي أصول الدين المطلق، أو هي لا تعارضه بوجه ما؟ وأي نسبة بين آثار هذا المشرب وآثار مطلق الدين في عالم المدنية، والهيئة الاجتماعية الإنسانية؟

فإن كانت هذه الطريقة من النحل القديمة، فلم لم تنشر بيننا؟ ولم لم نعهد لها دعاة إلا في هذه الأوقات؟ وإن كانت جديدة، فما الغاية من إحداثها؟ وأي أثر يكون عن الأخذ بها؟

ولكن لم يفدني أحد منهم عما سألت بجواب شاف كاف، ولهذا ألتمس من جنابكم العالي، أن تشرحوا حقيقة النيتشرية والنيتشريين، بتفصيل ينقع الغلة[٢] ويشفي العلة، والسلام.

---

(١) كلمة «نيتشر» Nature معناها: الطبيعة.

(٢) الغلة: حرارة العطش، ونقع الماء العطش: أي أسكنه وقطعه.

جواب جمال الدين

وهذا رقيم السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني، جوابًا عن الرقيم السابق:

محبي العزيز:

«النيتشر»: اسم للطبيعة، وطريقة «النيتشر» هي تلك الطريقة الدهرية التي ظهرت ببلاد اليونان في القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح، ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان، ووضع أساس الإباحة، والاشتراك في الأموال والأبضاع[١] بين الناس عامة.

وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا، وبالغوا في السعي إليه، وتلونوا لذلك في ألوان مختلفة، وتقلبوا في مظاهر متعددة، وكيفما وجدوا في أمة أفسدوا أخلاقها، وعاد عليهم سعيهم بالزوال.

وأيما ذاهب ذهب في غور مقاصد الآخرين بهذه الطريقة، تجلى له ألا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية، وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية؛ إذ لا ريب في أن الدين ـ مطلقًا ـ هو سلك النظام الاجتماعي، ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين البتة، وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان وطرح كل عقد ديني.

وأما عدم شيوع هذه الطريقة، وقلة سلوكها مع طول الزمن على نشأتها، فسببه أن نظام الألفة الإنسانية ـ وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية ـ كانت له الغلبة على أصولها الواهية، وشريعتها الفاسدة، وبهذا السر الإلهي انبعثت نفوس البشر لمحو

(١) البضع ـ بضم الباء ـ النكاح والمباضعة والإبضاع ـ بكسر الهمز ـ المجامعة بين الرجل والمرأة.

ما ظهر منها، ومن هذا لم يبق لهم ثبات قدم، ولم تقم لهم قائمة أمر، ولا شأن لهم في وقت من الأوقات.

ولتفصيل ما ذكرنا، نتقدم لإنشاء رسالة صغيرة، أرجو أن تكون مقبولة عند العقل الغريزي لذلك الصديق الفاضل، وأن تنال من ذوي العقول الصافية نظرة الاعتبار.

* * *

الفصل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ⑰ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[١].

الدين قوام الأمم وبه فلاحها، وفيه سعادتها وعليه مدارها.

«النيتشرية» جرثومة الفساد، وأرومة الإداد[٢] وخراب البلاد، وبها هلاك العباد. شاع لفظ «النيتشرية» حتى طبق البلاد الهندية في هذه الأيام، وأصبحت هذه الكلمة دائرة في المحافل، سيارة في المجامع، وللعامة والخاصة فيها مذاهب وهم، وطرائق وهم[٣]، فالغالب منهم يخبط على بعدٍ من حقيقتها، في غفلة عن أصل وضعها.

لهذا رأيت من الحق أن أشرح مفهومها، وأكشف المراد منها، وأرفع الستار عن حال النيتشريين من بداية أمرهم، وأعرض للناظرين شيئًا من مفاسدهم، وما ألحقوا بالنوع الإنساني من المضار التي خبث أثرها، وساء ذكرها، مستندًا في ذلك على التاريخ الصحيح، آخذًا من البرهان العقلي بدليل يثبت أن هذه الطائفة على اختلاف مظاهرها، لم يفش رأيها في أمة من الأمم إلا كان سببًا في اضمحلالها وانقراضها.

---

(١) الزمر: ١٧، ١٨.

(٢) الإداد: جمع الإد، وهو الداهية والويل والأمر الفظيع، والمنكر الشديد.

(٣) الوهم: خواطر القلب والتخيل، والوهم: الطريق الواسع.

النيتشرية والنيتشريين:

أثبت ثقات المؤرخين أن حكماء اليونان انقسموا في القرن الرابع والثالث قبل المسيح إلى فئتين:

ذهبت إحداهما إلى وجود ذات مجردة عن المادة والمدة[1]، مخالفة للمحسوسات في لوازمها، منزهة من لواحق الجسمانية وعوارضها، وأثبتت أن سلسلة الموجودات مادية ومجردة، تنتهي إلى موجود مجرد واحد من جميع الوجوه، مبرأ الذات عن التأليف والتركيب، ومحال عند العقل تصور التركيب فيه، وجوده عين حقيقته، وحقيقته عين وجوده، وهو المصدر الأول، والموجد الحقيقي، والمبدع لجميع الكائنات، مجردة كانت أو مادية.

واشتهرت هذه الطائفة بالمتألهين «الخاضعين لله»، ومنهم: فيثاغورث، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو ومن أهل مذهبهم كثير.

وذهبت أخرى الطائفتين إلى نفي كل موجود سوى المادة والماديات، وأن وصف الوجود مختص بما يدرك بالحواس الخمس لا يتناول شيئًا وراءه، وعرفت هذه الطائفة بالماديين. ولما سئلوا عن منشأ الاختلاف في صور المواد وخواصها، والتنوع الواقع في آثارها، نسبه الأقدمون منهم إلى طبيعتها، واسم الطبيعة في اللغة الفرنسية «ناتور»، وفي الإنجليزية «نيتشر»، ولهذا اشتهرت هذه الطائفة عند العرب بالطبيعيين، وعند الفرنسيين باسم «نتوراليسم»، أو «ماتييراليسم»، الأول من حيث هي طبيعية، والثاني من حيث هي مادية.

ثم اختلف هؤلاء بعد اعتماد أصلهم هذا في تكوين الكواكب، وتصوير الحيوانات، وإنشاء النباتات:

فذهب فريق منهم إلى أن وجود الكائنات العلوية والسفلية، ونشأة المواليد على ما نرى، إنما هو من الاتفاق وأحكام المصادفة، وعلى ذلك فإن إتقان بنائها، وإحكام نظامها، لا منشأ له إلا المصادفة، كأنما أدت بهم سخافة الفهم إلى تجويز الترجيح بلا مرجح، وقد أحالته بداهة العقل.

---

(١) المدة جمع مدد: البرهة من الزمان قصيراً أو طويلاً، والغاية من الزمان والمكان.

ورأس القائلين بهذا القول «ديمقراطيس»، ومن رأيه أن العالم أجمع أرضيات وسماويات، مؤلف من أجزاء صغار صلبة متحركة بالطبع، ومن حركتها هذه ظهرت أشكال الأجسام وهيئاتها بقضاء العماية المطلقة.

وذهب فريق آخر إلى أن الأجرام السماوية، والكرة الأرضية، كانت على هيئتها هذه من أزل الآزل، ولا تزال، ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات. وزعموا أن في كل بذرة نباتًا مندمجًا فيها، وفي كل نبات بذرة كامنة، ثم في هذه البذرة الكامنة نبات، وفيه بذرة، إلى غير نهاية. وعلى هذا زعموا أن في كل جرثومة من جراثيم الحيوانات حيوانًا تام التركيب، وفي كل حيوان كامن في الجرثومة، جرثومة أخرى، يذهب كذلك إلى غير نهاية. . . !

وغفل أصحاب هذا الزعم عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية، في مقدار متناه، وهو من المحالات الأولية.

وزعم فريق ثالث: أن سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع، كما أن الأجرام العلوية وهيئاتها قديمة بالشخص، ولكن لا شيء من جزئيات الجراثيم الحيوانية والبذور النباتية بقديم، وإنما كل جرثومة وبذرة هي بمنزلة قالب يتكون فيه ما يشاكله من جرثومة وبذرة أخرى.

وفاتتهم ملاحظة أن كثيراً من الحيوانات ا لناقصة الخلقة، قد يتولد عنها حيوان تام الخلقة، كذلك الحيوان التام الخلقة، قد يتولد عنه ناقصها أو زائدها.

ومال جماعة منهم إلى الإبهام في البيان، فقالوا: إن أنواع النباتات والحيوانات تقلبت في أطوار، وتبدلت عليها صور مختلفة بمرور الزمن وكر الدهور، حتى وصلت إلى هيئاتها وصورها المشهودة لنا، وأول النازعين إلى هذا الرأي «أبيقور»[١] أحد أتباع «ديوجينس الكلبي»[٢] ومن مزاعمه: أن الإنسان في بعض

---

(١) أبيقور: هو الذي وضع أصول مذهب اللذة والسرور، وهدفه الاستمتاع بلذة الحياة. وقد ولد سنة ٣٤٢ قبل الميلاد، وتوفي سنة ٢٧٠ قبل الميلاد.

(٢) ديوجينس «٤١٢ ـ ٣٢٣ق. م»: كان يقاوم العادات، ويحتقر اللياقات الاجتماعية، ولذلك سمي بالكلبي.

أطواره كان مثل الخنزير، مستور البشرة بالشعر الكثيف، ثم لم يزل يتنقل من طور إلى طور، حتى وصل بالتدريج إلى ما نراه من الصورة الحسنة والخلق القويم، ولم يقم دليلاً، ولم يستند على برهان فيما زعمه من أن مرور الزمان علة لتبدل الصور، وترقي الأنواع.

***

ولما كشف علوم الجيولوجيا «طبقات الأرض» عن بطلان القول بقدم الأنواع، رجع المتأخرون من الماديين عنه إلى القول بالحدوث، ثم اختلفوا في بحثين:

الأول: بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية، فذهبت جماعة إلى أن جميع الجراثيم على اختلاف أنواعها، تكونت عندما أخذ التهاب الأرض في التناقص، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضي، وذهبت أخرى إلى أن الجراثيم لم تزل تتكون حتى اليوم، خصوصًا في خط الاستواء حيث تشتد الحرارة.

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياةً نباتية أو حيوانية، خصوصًا بعدما تبين لهم أن الحياة فاعل في بسائط الجراثيم، موجب لالتئامها، حافظ لكونها، وأن قوتها الجاذبة هي التي تجعل غير الحي من الأجزاء حيا بالتغذية، فإذا ضعفت الحياة، ضعف تماسك البسائط وتجاذبها، ثم صارت إلى الانحلال.

وظن قوم منهم أن تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس، وهو ظن عجيب، لا ينطبق على جهلهم من أن الأرض عند الانفصال، كانت جذوة نار ملتهبة، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم، ولم تمح صورها في تلك النيران المستعرة؟!

والبحث الثاني من موضع اختلافهم: صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها، وتحولها من حالة الخداج «النقص» إلى ما نراه من الصور المتقنة، والهيئات المحكمة، والبنى الكاملة.

فمنهم قائل بأن لكل نوع جرثومة خاصة، ولكل جرثومة طبيعة تميل بها إلى

حركة تناسبها في الأطوار الحيوية، وتجتذب إليها ما يلائمها من الأجزاء غير الحية ليصير جزءًا لها بالتغذية، ثم تجلوه بلباس نوعه.

وقد غفلوا عما أثبته التحليل الكيماوي، من عدم التفاوت بين نطفة الإنسان، ونطفة الثور والحمار مثلاً، وظهور تماثل النطف في العناصر البسيطة، فما منشأ التخالف في طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها؟

ومنهم: ذاهب إلى أن جراثيم الأنواع كافة ـ خصوصًا الحيوانية ـ متماثلة في الجوهر، متساوية في الحقيقة، وليس بين الأنواع تخالف جوهري، ولا انفصال ذاتي، ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان، وحكم الحاجات والضرورات، وقضاء سلطان القواسر الخارجية.

قول دارون: «إن الإنسان كان قردًا»

ورأس القائلين بهذا القول «دارون»[1] وقد ألف كتابًا في بيان: «أن الإنسان كان قردًا». . ثم عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تتالي القرون المتطاولة، وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية، حتى ارتقى إلى برزخ «أوران أوتان»، ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الإنسان، فكان صنف اليميم[2]

(١) شارلس دارون (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م): فيلسوف وعالم إنجليزي اشتهر بنظريته في علم الأحياد «نظرية التطور»، وقد أودعها كتابه «أصل الأنواع» الذي أصدره سنة ١٨٥٩م، وأتبعه بكتاب «أصل الإنسان»، وفيه يؤكد هذه النظرية.

وقد سبق دارون في هذه النظرية العالم الإنجليزي «ولاس» والفرنسي «لامارك».

ونظرية التطور أو الدارونية، هي التي تقول بأن الكائنات الحية جميعها نشأت من «أصل واحد» وأن الكائنات المعاصرة تسللت من كائنات أبسط منها. ولم يقل دارون: «إن الإنسان كان قردًا».

(٢) اليميم: ليس بين الزنوج قبيلة ـ من أكلة اللحوم ـ تسمى بهذا الاسم. ولعل الأصل «نيام نيام» أو «نيمنيم»، وهم قبيلة من الزنوج، تعيش في المنطقة التي تمتد بين بحر الغزال على النيل الأعلى ونهر الكنغو. وقد اشتهروا بأنهم يأكلون لحوم البشر، ولكن هذه العادة بادت الآن، وهم يمارسون حاليًا الزراعة والصناعات الأولية.

وسائر الزنوج، ومن هناك عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين، فكان الإنسان القوقاسي.

وعلى زعم «دارون» هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكسر الدهور، وأن ينقلب الفيل برغوثًا كذلك.

فإن سئل «دارون» عن الأشجار القائمة على غابات الهند، والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ إلا ظنا، وأصولها تضرب في بقعة واحدة، وفروعها تذهب في هواء واحد، وعروقها تسقى بماء واحد، فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيته وشكل أوراقه، وطوله وقصره، وضخامته ورقته، وزهره وثمره، وطعمه ورائحته، وعمره؟ فأي فاعل خارجي أثر فيها، حتي خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء؟ أظن [أن] لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه.

وإن قيل له: هذه أسماك بحيرة «أورال» وبحر «كسين» مع تشاركها في المأكل والمشرب، وتسابقها في ميدان واحد، نرى فيها اختلافًا نوعيا، وتباينًا بعيدًا في الألوان، والأشكال والأعمال، فما السبب في هذا التباين والتفاوت؟ لا أراه يلجأ في الجواب إلا إلى الحصر(١).

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى - جمع بنية - والصور والقوى والخواص، وهي تعيش في منطقة واحدة، ولا تسلم حياتها في سائر المناطق، أو الحشرات المتباينة في الخلقة، المتباعدة التركيب، المتولدة في بقعة واحدة، ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتجلو إلى «تربة» تخالف تربتها، فماذا تكون حجته في علة اختلافها، كأنها تكون كسفًا لا كشفًا؟

بل إذا قيل له: أي هاد هدى تلك الجراثيم في نقصها وخداجها(٢)؟ وأي مرشد أرشدها إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على

---

(١) الحصر - بتحريك الحاء والصاد -: العجز عن البرهان والكلام.

(٢) الخداج النقصان أيضًا، وأخدج الشيء نقص.

مقتضى الحكمة، وأبدع لكل[1] منها قوة على حسبه، و[أناط][2] بكل قوة في عضو أداء وظيفة، وإيفاء عمل حيوي، مما عجز الحكماء عن إدراك سره، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه؟ وكيف صارت الضرورة العمياء، معلمًا لتلك الجراثيم، وهاديًا خبيرًا لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية؟ لا ريب أنه يقبع قبوع القنفذ، وينتكس بين أمواج الحيرة يدفعه ريب، ويتلقاه شك، وإلى أبد الآبدين.

* * *

وكأني بهذا المسكين ما[3] رماه في مجاهل الأوهام ومهامه الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والإنسان، وكأن ما أخذ به من الشبه الواهية ألهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة، وحسرات العماية، وإنا نورد شيئًا مما تمسك به:

فمن ذلك أن الخيل في سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرًا من الخيل المتولدة في البلاد العربية، وإنما علة ذلك الضرورة وعدمها.

ونقول: إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته في بقعة واحدة، لوقتين مختلفين، حسب كثرة الأمطار وقلتها، ووفور المياه ونزورها، أو هو علة النحافة ودقة العود، في سكان البلاد الحارة، والضخامة والسمن في أهل البلاد الباردة بما يعتري البدن من كثرة التحلل في الحرارة، وقلته في البرودة.

ومن واهياته ما كان يرويه «دارون»: من أن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم، فلما واظبوا على عملهم هذا قرونًا، صارت الكلاب تولد بلا أذناب، كأنه يقول: حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته.

وهل صمت أذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب، وما يجرونه من الختان ألوفًا من السنين، ولا يولد مولود حتى يختن، وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونًا إلا لإعجاز؟!

(١) في الأصل: «وإبداع كل».
(٢) في الأصل: «ونوطها».
(٣) في الأصل: «وما».

ولما ظهر لجماعة من متأخري الماديين فساد ما تمسك به أسلافهم، نبذوا آراءهم وأخذوا طريقًا جديدة، فقالوا: ليس من الممكن أن تكون المادة العارية من الشعور، مصدرًا لهذا النظام المتقن، والهيئة البديعة والأشكال المعجبة، والصور الأنيقة، وغير ذلك مما خفي سره وظهر أثره، ولكن العلة في نظام الكون علوية وسفلية، والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وأطوارها، وما يلزم لبقائها، تتركب من ثلاثة أشياء: «متيير»، و«فورس»، و«انتليجانس»، أي مادة، وقوة، وإدراك.

وظنوا أن المادة بما لها من القوة، وما يلابسها من الإدراك، تجلت وتتجلى بهذه الأشكال والهيئات، وعندما تظهر بصورة الأجساد الحية ـ نباتية كانت أو حيوانية ـ تراعي بما لابسها من الشعور، ما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع، فتنشئ لها من الأعضاء والآلات ما يفي بأداء الوظائف الشخصية والنوعية، مع الالتفات إلى الأزمنة والأمكنة، والفصول السنوية.

هذا أنفس ما وجدوا من حيلة لمذهبهم العاطل، بعدما دخلوا ألف جحر، وخرجوا من ألف نفق، وما هو بأقرب إلى العقل من سائر أوهامهم، ولا هو بالمنطبق على سائر أحوالهم، فإنهم يرون ـ كسائر المتأخرين ـ أن الأجسام مركبة من الأجزاء الديمقراطيسية، ولا ينطبق رأيهم الجديد في علة النظام الكوني على رأيهم في تركيب الأجسام.

وذلك لأنه يلزم على القول بشعور المادة، أن يكون لكل جزء ديمقراطيسي(١) شعور خاص، كما يلزم أن تكون له قوة خاصة ينفصل بها عن سائر الأجزاء؛ إذ لا يمكن قيام العرض الواحد ـ وحدة شخصية ـ بمحلين، فلا يقوم علم واحد بجزأين ولا بأجزاء، وبعد هذا فإني أسائلهم: كيف اطلع كل جزء من أجزاء المادة ـ مع انفصالها ـ على مقاصد سائر الأجزاء؟ وبأية آلة أفهم كل منها باقيها ما ينويه من مطلبه؟ وأي برلمان «مجلس الشورى»، أو أي سنات «مجلس الشيوخ» عقدت

---

(١) ديمقراطيس: فيلسوف يوناني (٤٦٠ ـ ٣٥٧ق.م). اشتهر باسم الفيلسوف الضاحك، وإليه يسند أول قول: بأن حدوث العالم مصدره مجموعة ذرات ـ لا نهاية لعددها ـ تتحرك تحركًا أبديا في فضاء لا حد له، وأن المادة مجموعة ذرات، وأن كل شيء حدث عرضًا..!

للتشاور في إبداع هذه المكونات العالية التركيب، البديعة التأليف؟! وأنى لهذه الأجزاء أن تعلم - وهي في بيضة العصفور - ضرورة ظهورها في هيئة طير يأكل الحبوب، فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته في حياته إليها؟! وإذا كانت في بيض الشاهين والعقاب، فمن أين لها العلم بأنها تقوم طيراً يأكل اللحوم، فلا بد له من منسر ومخلب يصول بهما في الصيد؛ لاقتناص ما يحتاج إليه من حيوان، ثم ينسر لحمه ليأكله؟!

ومن أين لها أن تعلم، وهي في مشيمة الكلبة، أنها ستكون على صورة أنثى الجرو، ثم تكبر حتى تبلغ حد الإدراك، ثم تكون حبلى لوقت من الأوقات، وقد تلد جراء متعددة في زمن واحد، فهي تهيئ لطبيها[١] حلمات كثيرة على حسب حاجة جرائها؟!

ومن لهذه الأجزاء المتبددة أن تدرك حاجة الحيوانات إلى القلب والرئة، والمخ والمخيخ، وسائر الأعضاء والجوارح؟!

لو عقلت هذه الطائفة ما رمى إليه سؤالي هذا لارتكست[٢] في أفكارها، وانقلبت إلى تيهور[٣] من الحيرة، لا ترفع منه رأساً، ولا تحير جواباً، إلي أن يتخبطهم شيطان الجهل، فيقولون ولا يعون: إن لكل جزء من هذه الأجزاء الديمقراطيسية، علماً بجميع ما كان وما يكون، وبجميع ما في العالم من الأجزاء، علويا كان أو سفليا، ولكل منها حرص على مراعاة نظام الكون وأركانه، فيتحرك كل منها للانضمام إلى الآخر، على وفق ما يريده من المصلحة؛ حتى لا يقع الخلل في شيء من نظم العالم، عاما كان أو خاصا، وبهذا قام العالم على ناموس واحد.

فإن أفضت بهم العماية إلى هذا القول قلنا:

---

(١) الطبي - بكسر الطاء وضمها -: واحد الأطباء، وهي حلمات الضرع، والضرع مدر اللبن، وهو كالثدي للإنسان، ولعل الأصل: «وهي تهيئ لضرعها حلمات»، وهو الصحيح.

(٢) ركس الشيء: قلب أوله على آخره، وأركسه نكسه، وارتكس المرء أو الشيء انتكس وارتبك.

(٣) والتيهور: التيه الذي يضل فيه الإنسان، على وزن «تنور».

أولاً: يلزمهم أن كل جزء ديمقراطيسي يحتوي على أبعاد غير متناهية، وهو في صغره لا يدرك ولا بالميكروسكوب «النظارة المعظمة».

وبيان اللزوم: أن العلم عندهم، إنما هو بارتسام الصور المعلومة في ذات العالم، وهو مادي في موضوعنا، فكل صورة معلومة تأخذ منه بعدًا بمقدارها، والصور العلمية على هذا الزعم غير متناهية، وكلها يرتسم في مادة الجزء العالم، فيكون في كل جزء ـ وهو متناه إلى غاية الصغر ـ أبعاد غير متناهية للصور غير المتناهية، وهذا مما تبطله بداهة العقل.

ثانيًا: إن كانت الأجزاء الديمقراطيسية بالغة من العلم هذا المبلغ، وهي من القوة على نحوه؛ إذ لا قوة إلا بها على رأيهم، فلماذا لم تبلغ الكائنات وهي هي غاية ما يمكن لها من الكمال؟ ولم تنزل بذواتها الآلام والأوصاب، ثم تعاني العناء في احتمالها أو التخلص منها؟ ولماذا قصر إدراك الإنسان، وإدراك سائر الحيوانات ـ وهو عين إدراك هذه الأجزاء على هذا المذهب ـ عن اكتناه حالها أنفسها، وعجز عن حفظ حياتها؟

وأعجب من هذا أن المتأخرين من الماديين بعدما صافحوا كل خرافة لتأييد مذهبهم، حاصوا[1] إلى الحيرة في بعض الأمور فلم يستطيعوا تطبيقها على أصل من أصولهم الفاسدة، لا أصل الطبع، ولا أصل الشعور، وذلك عندما رأوا شيئين يختلفان في الخواص، وعناصرهما تظهر عند التحليل متماثلة، ولم يجدوا المحيص عن الوقفة ـ بعدما قدموا من الترهات ـ إلا بالحكم على الأجزاء الديمقراطيسية رجمًا بالغيب، بأنها ذوات أشكال مختلفة، وعلى حسب الاختلاف في الأشكال والأوضاع كان الاختلاف في الآثار والخواص.

وبالجملة: فهذه عشرة مذاهب اختلف إليها منكرو الألوهية، الزاعمون ألا وجود للصانع الأقدس، وهم المعروفون بين شيعهم أو عند الإلهيين بالطبيعيين، والماديين، والدهريين، وإن شئت قلت: نيتشريين، وناتور اليسميين، وماتيرياليسميين.

---

(١) حاص عن كذا: حاد وعدل عنه، يقولون: «من حاص عن الشر سلم»، و«وقع في حيص بيص»؛ أي في مشكل لا مخرج منه.

وسنأتي على تفصيل مذاهبهم، ودحض حججها بالبينات العقلية، في رسالة أوسع، ولا يظن ظان أنا نقصد من مقالنا هذا تشنيعًا بهؤلاء «البياجوات[١] الهنديين». . كلا إن هؤلاء لا نصيب لهم من العلم، بل ولا من الإنسانية، فهم بعيدون من مواقع الخطاب، ساقطون عن منزلة اللوم والاعتراض.

نعم لو أريد إنشاء تياترو «ملهى» أو «كطبتلى»[٢]؛ لتمثل فيه أحوال الأمم المتمدنة، مست الحاجة إلى هؤلاء لإقامة هذه الألاعيب، وإنما غرضنا الأصلي إعلان الحق وإظهار الواقع.

والآن نعتمد الشروع في بيان المفاسد التي جلبها الماديون «النيتشريون» على نظام المدنية، والمضار التي تضعضع لها بناء الهيئة الاجتماعية، وكان منشؤها فشو «ذيوع» أفكارهم.

---

(١) البياجو: اسم «إيطالي» اشتهر في الهند لمن يقلد الماهر في اللعب بحركات غير منسقة لإضحاك الناظرين، ويعبر عنه في العربية بالخلابيس، وأصله الشيء الذي لا نظام له.
والطبيعيون في الهند يمثلون أحوال الدهريين في أوروبا تمثيلاً مضحكًا. (من كلام جمال الدين الأفغاني في الأصل).

(٢) نوع من اللعب يشخصون فيه أحوال ملوك الهند الأقدمين. (من كلام الأفغاني في الأصل).

الفصل الثاني

ألقـاب ومزاعـم

بيان المفاسد التي جلبها الماديّون على نظام المدنية، ومظاهر الماديين ومقاصدهم، وما أفاده الدين من العقائد والخصال.

تخالفت مظاهر الماديين في الأمم والأجيال المختلفة، فتخالفت أسماؤهم، فكانوا تارة يسمون أنفسهم بسمات(١) الحكماء، وينتحلون «الحكيم» لقبًا لأفرادهم، وأحيانا كانوا يتسمون بسيما: «دافع الظلم ورافع الجور»، وكثيرا ما تقدموا لمسارح الأنظار تحت لباس «عراف الأسرار وكشفة الحقائق والرموز، والواصلين من كل ظاهر إلى باطنه، ومن كلّ بارز إلى كامنه».

وقد كانوا يظهرون في أوقات بدعوى السعي في تطهير الأذهان من الخرافات، وتنوير العقول بحقائق المعلومات، وتارات يتمثلون في صور «محبي الفقراء، وحماة الضعفاء، وطلاب خير المساكين»، وكثيرا ما تجرّأوا على ادعاء النبوة، ولكن لا على سنن سائر المتنبئين الكذبة.

كل ذلك توسلا لإجراء مقاصدهم، وترويج مفاسدهم. . . كيفما ظهر الماديون، وفي أي صورة تمثلوا، وبين أي قوم نجموا، كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم، وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم، وصدعا متفاقما في بنية جيلهم، يميتون القلوب الحية بأقوالهم، وينفثون السم في الأرواح بآرائهم، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم،

---

(١) في الأصل: «بسيمات».

فما رزئت بهم أمة، ولا مني بشرهم جيل، إلا انتكث فتله، وسقط عرشه، وتبددت آحاد الأمة، وفقدت قوام وجودها. .

كان الإنسان ظلوما جهولا، وخلق الإنسان هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا. . . جبل الإنسان على الحرص، وكأنه منهوم لشرب الدماء، لم يحرم الإنسان من لطف مبدعه، فكما أبدعه ألزم الدين وجوده، فتمسك الناس منه بأصول، وانطبعوا به على خصال، توارثها الأبناء عن الآباء في قرون بعد قرون. ومهما غيروا وبدلوا كانت بقايا ما ورثوه لا تزال تشرق على عقولهم بأنوار من المعرفة، يهتدون بها إلى سعادتهم ويقيمون في ضوئها أساس مدنيتهم، ولم يبطل أثرها في تعديل أخلاقهم، وكف أيدهم عن التطاول إلى الشرور والمفاسد، وبهذا كان للأقدمين من أهل القرون الأولى، ما كان لهم من نوع الثبات والبقاء.

وطائفة النيتشرية كلما ظهرت في أمة سعت في قلع تلك الأصول، وإفساد تلك الخصال، حتى إذا لمع لها بارق من النجاح، وهت أركان الأمة، وانهارت إلى هوان[1] الاضمحلال والعدم. وهذه الطائفة هي الآن ـ كما كانت ـ تسلك منهج أسلافها الأولين، وإنا نوضح ذلك بمجمل من البيان.

ما أفاد الدين من العقائد والخصال

أكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع نفوسهم ثلاث خصال، كل منها ركن لوجود الأمم، وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية، وأساس محكم لمدنيتها، وفي كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات التكامل، والرقي إلى ذرى السعادة، وفي كل واحدة وازع قوي يباعد النفوس عن الشر، ويردعها عن مقارفة الفساد، ويصدها عن مقاربة ما يبيدها ويبددها.

العقيدة الأولى: التصديق بأن الإنسان ملك أرضي، وهو أشرف المخلوقات.

(١) في الأصل: «هوات».

العقيدة الثانية: يقين كل ذي دين بأن أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل.

العقيدة الثالثة: جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا؛ لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي، والانتقال به من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات، جديرة بأن تسمى «بيت الأحزن وقرار الآلام» إلى دار فسيحة الساحات، خالية من المؤلمات، لا تنقضي سعادتها، ولا تنتهي مدتها.

ولا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجليلة في الاجتماع البشري، والمنافع الجمة في المدنية الصحيحة، وما يعود منها بالإصلاح على روابط الأمم، وما لكل واحدة من الدخل في بقاء النوع. والميل بأفراده لأن يعيش كل منهم مع الآخر بالمسالمة والموادعة، والأخذ بهمم الأمم للصعود في مراقي الكمال النفسي والعقلي.

لكل عقيدة لوازم وخواص

العقيدة الأولى:

من البين أن لكل عقيدة لوازم وخواص لا تزايلها، فما يلزم الاعتقاد بأن الإنسان أشرف المخلوقات يرفع المعتقد ـ بحكم الضرورة ـ عن الخصال البهيمية، واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية، ولا ريب أنه كلما قوي هذا الاعتقاد، اشتد به النفور من مخالطة الحيوانات في صفاتها، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه إلى العالم العقلي، وكلما سما عقله أوفى على المدنية، وأخذ منها بأوفر الحظوظ، حتى قد تنتهي به الحال إلى أن يكون واحدا من أهل المدنية، يحيا مع إخوانه الواصلين معه إلى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة، وتلك نهاية السعادة الإنسانية في الدنيا، وغاية ما يسعى إليه العقلاء والحكماء فيها.

فهذه العقيدة أعظم صارف للإنسان عن مضارعة الحمر الوحية في معيشتها،

والثيران البرية في حالتهاو ومضاربة البهائم السائمة، والدواب الهاملة، والهوام الراشحة، لا تستطيع دفع مضرة، ولا التقية من عادية، ولا تهتدي طريقا لحفظ حياتها، وتقضي آجالها في دهشة الفزع ووحشة الانفراد.

هذه العقيدة أشد زجرًا لأبناء الإنسان من التقاطع المؤدي لافتراس بعضهم بعضا، كما يقع بين الأسود الكاسرة، والوحوش الضارية، والكلاب العاقرة، وأشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات في خسائس الصفات، وهذه العقيدة أحجى حاد للفكر(١) في حركاته، وأنجح داع للعقل في استعمال قوته، وأقوى فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل.

إن شئت فارم بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد، بل يظنون أن الإنسان حيوان، كسائر الحيوانات، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل، وإلى أي حد تصل بهم الشرور، وبأي منزلة من الدناءة تكون نفوسهم، وكيف أن السقوط إلى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية.

العقيدة الثانية:

ومن خواص يقين الأمة بأنها أشرف الأمم، وجميع من يخالفها على الباطل، أن ينهض آحادها لمكاثرة الأمم في مفاخرها، ومساماتها في مجدها، ومسابقتها في شرائف الأمور، وفضائل الصفات، وأن يتفق جميعها على الرغبة في فوت جميع الأمم، والتقدم عليها في المزايا الإنسانية، عقلية كانت أو نفسية، ومعاشية كانت أو معادية.

وتأبى نفس كل واحد عن إعطاء الدنية، والرضا بالضيم لنفسه، أو لأحد من بني أمته، ولا يسره أن يرى شيئا من العزة أو مقاما من الشرف لقوم من الأقوام، حتى يطلب لأمته أفضله وأعلاه.

---

(١) أي: أخلق وأجدر سائق للفكر.

ذلك أنه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكل ما يعد شرفا إنسانيا، فإن جادت صروف الدهر على قومه فأضرعتهم[١] أو ثلمت مجدهم، أو سلبتهم مزية من مزايا الفضل، لم تستقر له راحة، ولم تفتأ له حمية، ولم يسكن له جيشان، فهو يمضى حياته في علاج ما ألم بقومه حتى يأسوه، أو يموت في أساه.

فهذه العقيدة أقوى دافع للأمم إلى التسابق لغايات المدنية، وأمضى الأسباب بها إلى طلب العلوم، والتوسع في الفنون، والإبداع في الصنائع، وإنها لأبلغ في سوق الأمم إلى منازل العلاء، ومقاوم الشرف، من غالب قاسر، ومستبد قاهر عادل.

وإن أردت فالمح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين. . ماذا تجد من فتور في حركات آحادهم نحو المعالي؟ وماذا ترى من قصور في هممهم عن درك الفضائل؟ وماذا ينزل بقواهم من الضعف؟ وماذا يحل بديارهم من الفقر والمكسنة؟ وإلى أي هوة يسقطون من الذلة والهوان، خصوصا إذا بغى عليهم الجهل، فظنوا أنهم أدنى من سائر الملل، كطائفة «الدهير» و«مانك»؟

العقيدة الثالثة:

ومن مقتضيات الجزم بأن الإنسان ما ورد هذا العالم إلا ليتزود منه كما لا يعرج به إلى عالم أرفع، ويحل به إلى دار أوسع، وجناب أمرع؛ ليمرع واديه وتجنى حلبه.

إن من أشربت هذه العقيدة قلبه، ينبعث بحكمها وينساق بحاديها لإضاءة عقله بالعلوم الحقة، والمعارف الصافية؛ خشية أن يهب به الجهل إلى نقص يحول دون مطلبه، ثم ينصرف همه لإبراز ما أودع فيه من القوة السامية، والمدارك العقلية، والخواص الجليلة، واستعمالها فيما خلقت له، فيتجلى كماله من عالم السكون إلى عالم الظهور، ويرتقي من درجة القوة إلى مكانة الفعل، فهو ينفق ساعاته في

(١) من الضراعة، وهي الاستكانة والمسكنة والذلة.

تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل، ولا يناله التقصير في تقويم ملكاته النفسية، وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة، متنكبا طريق الخيانة، ووسائل الكذب والحيلة، معرضا عن أبواب الرشوة، مترفعا عن الملق الكلبي، والخداع الثعلبي، ثم ينفق ما كسب في الوجه الذي يليق، وعلى الوجه الذي ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، لا يأتي فيه باطلاً، ولا يغفل حقا عاما أوخاصا.

فهذه العقيدة أحكم مرشد وأهدى قائد للإنسان إلى المدنية الثابتة، المؤسسة على المعارف الحقة، والأخلاق الفاضلة، وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية، التي لا عماد لها إلا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه، والقيام على صراط العدل المستقيم.

هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم؛ إذ لا عقد لها إلا مراعاة الصدق، والخضوع لسلطان العدل في الوقوف عند حدود المعاملات.

هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزلية، تهب على القلوب ببرد السكون والمسالمة، فإن المسالمة ثمرة العدل والمحبة، والعدل والمحبة زهر الأخلاق والسجايا الحسنة، وهي غراس تلك العقيدة التي تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور، وتنجيه من متائه الشقاء، وتعاسة الجد، وترفعه إلى غرف المدينة الفاضلة، وتجلسه على كرسي السعادة.

وقد يسهل عليك أن تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة، فكم يبدو لك فيه من شقاق، وكذب ونفاق، وحيل وخداع، ورشوة واختلاس.

وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره، والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد: وكم تحس من جفاء للعلم، وعشوة عن نور المعرفة!

الخصال الثلاث

وأما الخصال الثلاث[1] التي توارثتها الأمم من تاريخ قد لا يحدّ قدما، وإنما طبعها في نفوسهم طابع الدين.

فإحداها: خصلة الحياء:

وهو انفعال النفس من إتيان ما يجلب اللائمة، وينحي عليها بالتوبيخ، وتأثرها من التلبس بما يعد عند الناس نقصا، وفي الحق أن يقال: إن تأثير هذه الخلة في حفظ نظام الجمعية البشرية، وكف النفوس عن ارتكاب الشنائع، أشد من تأثير مائتين من القوانين وآلاف من الشرط والمحتسبين؛ فإن النفوس إذا مزقت حجاب الحياء، وسقطت إلى حضيض الخسة والدناءة، ولم تبال بما يصدر عنها من الأعمال، فأي عقاب يردها عن المفاسد التي تخل بنظام الاجتماع سوى القتل؟! وقد لاحظ ذلك «سولون»[2] حكيم اليونان حيث جعل القتل جزاء كل عمل قبيح، حتى الكذبة الواحدة.

وخلة الحياء يلازمها شرف النفس، وهو مما تدور عليه دائرة المعاملات، وتتصل به سلسلة النظام، وهو مناط صحة العقول، والتزام أحكامها، ومعصم الوفاء بالعهود، وهو رأس مال الثقة بالإنسان في قوله وعمله.

---

(١) الخصلة: هي الخلة ـ بفتح الخاء ـ سواء أكانت فضيلة أم رذيلة، وقد غلبت على الفضيلة. وقد عرف الشيخ محمد عبده الفضائل في مقال له: بأنها سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها، كالحياء والسخاء والعفة.

(٢) سولون «Solon»: مشرع يوناني، وأحد حكماء اليونان السبعة، وضع لبلاده قوانين حررتها من قيود كثيرة، ورفعت مستوى الحياة الاجتماعية.

وشيمة الحياء هي بعينها شيمة الإباء، وسجية الغيرة، وإنما تختلف أسماؤها باختلاف جهاتها وآثارها في ردع النفس عن شيء، أو حملها على عمل.

والإباء والغيرة هما مبعث حركات الأمم والشعوب لاستفادة العلوم والمعارف، وتسنم قمم الشرف والرفعة، وتقوية الشوكة وبسط جناح العظمة، وتوفير مواد الغنى والثروة.

وكل أمة فقدت الغيرة والإباء حرمت الترقي، وإن تسنى لها من أسبابه ما تسنى، فهي تعطي الدنية، ولا تأنف من الخسة، وتضرب عليها الذلة والمسكنة حتى ينقضي أجلها من الوجود.

وخلة الحياء تنتهي إليها روابط الألفة بين آحاد الأمة في معاشراتهم ومخالطاتهم، فإن حبال الألفة إنما يحكمها حفظ الحقوق، والوقوف عند الحدود، ولا يكون ذلك إلا بهذه الملكة الكريمة.

هذه سجية تزين صاحبها بالآداب، وتنفر به عن الشهوات البهيمية، وتفيض روح الاعتدال على حركاته وسكناته وجميع أعماله.

وهذا هو الخلق الفرد الذي ينهض بصاحبه لمجاراة أرباب الفضائل، ويتجافى به عن مضاجع النقائص، ويأنف به عن الرضا بالجهل والغباوة، أو الضعة والضراعة.

هذا الوصف الكريم، هو منبت الصدق، ومغرس الأمانة، وهما معه في قرن[(١)].

هذا الوصف هو آلة المعلمين والقائمين على التربية، والدعاة لمكارم الأخلاق، والمولعين بترقية الفضائل ـ صورية ومعنوية ـ يستعملونها في نصائحهم، ويذكرون بها الغافل، ويحرضون الناكل، ويوقظون النائم، ويقعدون القائم، ألا ترى المعلم الحكيم كيف يعظ تلميذه بقوله: «ألا تستحي من تقدم قرينك عليك، وتخلفك عنه؟!» فإن لم تكن هذه الخصلة فلا أثر للتوبيخ، ولا نفع للتقريع، ولا نجاح

---

(١) القرن: الحبل يقرن به البعيران، أي أنهما مقترنان به وملازمان له.

للدعوة، فانكشف مما بيّنا أن هذه الخلة مصدر لجميع الطيبات، ومرجع لكل فضيلة، وسلم لكل ترق.

ويمكن لنا أن نفرض قوما هجر الحياء نفوسهم، فماذا نرى فيهم سوى المجاهرة بالفحشاء، والمنافسة في المنكر، وشوس الطباع[1]، وسوء الأخلاق، والإخلاد إلى دنيات الأمور وسفاسف الشئون، وكفى بمشهدهم شناعة أن نرى تغلب الشهوات البهيمية عليهم، وتملك الصفات الحيوانية لإرادتهم وتسلطها على أفعالهم.

والخصلة الثانية: الأمانة:

ومن المعلوم الجلي أن بقاء النوع الإنساني قائم بالمعاملات والمعاوضات في منافع الأعمال، وروح المعاملة والمعارضة إنما هي الأمانة، فإن فسدت الأمانة بين المتعاملين بطلت صلات المعاملة، وانبترت حبال المعاوضة، فاختل نظام المعيشة، وأفضى ذلك بنوع الإنسان إلى الفناء العاجل.

ثم من البيّن أن الأمم في رفاهتها، والشعوب في راحتها وانتظام أمر معيشتها، محتاجة إلى «الحكومة» بأي أنواعها: إما جمهورية، أو ملكية مشروطة، أو ملكية مقيدة.

والحكومة ـ في أي صورها ـ لا تقوم إلا برجال يلون ضروبا من الأعمال، فمنهم حراس على حدود المملكة، يحمونها من عدوان الأجانب عليها، ويدافعون الوالج في ثغورها، وحفظة في داخل البلاد، يأخذون على أيدي السفهاء، ممن يهتك ستر الحياء، ويميل إلى الاعتداء من فتك أو سلب أو نحوهما.

ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون، يجلسون على منصات الأحكام لفصل الخصومات والحكم في المنازعات.

---

(١) شاسَ شَوَسًا: نظر بمؤخر عينيه تكبرًا وتغيظًا، أو كان شديدًا جريئًا في القتال، وخطوب شوس: شديدة.

ومنهم أهل جباية الأموال، يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج، مع مراعاة قانونها في ذلك، ثم يستحفظون ما يحصلون في خزائن المملكة، وهي خزائن الرعايا في الحقيقة، وإن كانت مفاتيحها بأيدي خزنتها.

ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال في المنافع العامة للرعية مع مراعاة الاقتصاد والحكمة، كإنشاء المدارس والمكاتب، وتمهيد الطرق وبناء القناطر، وإقامة الجسور، وإعداد المستشفيات، ويؤدي أرزاق سائر العاملين في شئون الحكومة؛ من الحراس والحفظة وقضاة العدل وغيرهم حسبما عين لهم.

وهذه الطبقات من رجال الحكومة الوالين على أعمالها، إنما تؤدي كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم «الأمانة»، فإن خربت أمانة أولئك الرجال ـ وهم أركان الدولة ـ سقط بناء السلطة، وسلب الأمن، وزاحت[١] الراحة من بين الرعايا كافة، وضاعت حقوق المحكومين، وفشا فيهم القتل والتناهب، ووعرت طرق التجارة، وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة، وخوت خزائن الحكومة، وعميت على الدولة سبل النجاح، فإن حزبها[٢] أمر سدت عليها نوافذ النجاة.

ولا ريب أن قوما يساسون بحكومة خائنة، إما أن ينقرضوا بالفساد، وإما أن يأخذهم جبروت أمة أجنبية عنهم، يسومونهم خسفًا[٣]، ويستبدون فيهم عسفا[٤]، فيذوقون من مرارة العبودية ما هو أشد من مرارة الانقراض والزوال.

ومن الظاهر أن استعلاء قوم على آخرين، إنما يكون باتحاد آحاد العالين، والتئام بعضهم ببعض، حتى يكون كل منهم لبنية قومه كالعضو للبدن، ولن يكون هذا الاتحاد، حتى تكون الأمانة قد ملكت قيادهم، وعمت بالحكم أفرادهم.

فقد كشف الحق أن الأمانة دعامة بقاء الإنسان، ومستقر أساس الحكومات، وباسط ظلال الأمن والراحة، ودافع أبنية العز والسلطان وروح العدالة وجسدها، ولا يكون شيء من ذلك بدونها.

---

(١) زالت: وتباعدت وذهبت.
(٢) اشتد عليها.
(٣) الخسف: الذل والنقيصة.
(٤) العسف: الظلم والجور.

وإليك الاختبار في فرض أمة عطلت نفوسهم من حلية هذه الخلة الجليلة، فلا تجد فيها إلا آفات جائحة، ورزايا قاتلة، وبلايا مهلكة وفقرًا معوزًا، وذلا معجزا، ثم لا تلبث بعد هذا كله، أن تبتلعها بلاليع العدم، وتلتهمها أمهات اللهم[١].

الخصلة الثالثة: الصدق:

الإنسان كثير الحاجات، غير معدود الضرورات، وكل ما يسد حاجاته ويدفع ضروراته، وراء ستار الخفاء محجوب، وتحت حجاب الغيب مكنون.

قذف بالإنسان من غيب يجهله، إلى ظهور لا يعرفه، فقام في بدء نشأته في زاوية عمياء لا يذكر اسما ولا يعهد رسما.

هذا الإنسان على ضعفه، كأنما أحفظ الأكوان قبل وجوده، فأرصدت له القتال، وهيأت له النضال، فله في كل مثناة[٢] منها كامنة بلية، وفي كل حنو[٣] رابضة رزية، وكل فوق سهمه في قسي الأدوار الزمنية ليصيب مقاتل الإنسان.

منح الإنسان خمسة مشاعر: السمع، والبصر، والذوق، واللمس، والشمّ، ولكن لا غناء بها في هدايته لأقرب حاجاته، وإرشاده لدفع ما خف من ضروراته، فأحجى ألاّ كفاء لها في استطلاع مكامن البلايا واكتشاف مخابئ الرزايا، ليأخذ حذره، ويحرز أمره، فهو في حاجة - كل الحاجة - للاستعانة بمشاعر أمثاله، من بني جنسه، والاستهداء بمعارفهم؛ ليتفادى بهدايتهم من بعض لاسعات المصائب، ويصيب من الرزق ما فيه قوام معيشته، وسداد عوزه، والاستهداء إنما يكون بالاستخبار، ولا تتم فائدة الخبر في الهداية، إلاّ أن يكون من مصدر صدق، يحدث عن موجود، ويحكى عن مشهود، وإلاّ فما الهداية في خبر لا واقع له؟!

---

(١) أم اللهيم: كنية الموت؛ لأنه يلتهم كل أحد، أو الداهية.

(٢) الطي والالتواء.

(٣) أي في كل جانب.

نعم: الكاذب يرى البعيد قريبا، والقريب بعيدا، ويظهر النافع في صورة الضار، والضار في صورة النافع، فهو رسول الجهالة، وبعيث الغواية، وظهير الشقاء، ونصير البلاء، فعلى ما تقدم تكون صفة الصدق ركنا ركينا للوجود الإنساني، وعماداً للبقاء الشخصي والنوعي، وموصل العلائق الاجتماعية بين آحاد الشعوب، ولا تتحقق ألفة مدنية أو منزلية بدونه.

وانظر فيما إذا فقدت أمة خلة الصدق، كيف ينيخ الشقاء بها رواحله، وينفذ سوء البخت فيها عوامله، وكيف ينتشر نظامها، ويفسد التئامها.



الفصل الثالث

أباطيل الدهريين

جَحَدَةُ الأديان:

هؤلاء جَحَدَة الألوهية في أي أمة، وبأي لون ظهروا، كانوا يسعون ـ ولا يزالون يسعون ـ لقلع أساس هذا القصر المسدس الشكل، قصر السعادة الإنسانية، القائم بستة جدران: ثلاث عقائد، وثلاث خصال[1]، أعاصير أفكارهم تدكدك هذا البناء الرفيع، وتلقي[2] بهذا النوع الضعيف إلى عراء الشقاء، وتهبط به من عرش المدنية الإنسانية إلى أرض الوحشية الحيوانية.

لقد وضعوا مذاهبهم على بطلان الأديان كافة، وعدها أوهامًا باطلة، ومجعولات وضعية، وبنوا على هذا: ألا حق لملة من الملل أن تدعي لنفسها شرفًا على سائر الملل، اعتمادًا على أصول دينها، بل الأليق بها ـ على رأيهم ـ أن تعتقد أنها ليست أولى من غيرها بفضيلة، ولا أجدر بمزية. ولا يخفى ما يتبع هذا الرأي الفاسد من فتور الهمم، وركود الحركات الإرادية عن قصد المعالي، كما تقدم بيانه.

قالوا: إن الإنسان في المنزلة كسائر الحيوانات، وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم، بل هو أخس منها خلقة، وأدنى فطرة، فسهلوا بذلك على الناس

---

(١) هي العقائد والخصال التي تكلم عنها قبل، وأطلق عليها ـ هنا ـ اسم القصر المسدس الشكل، ونعته بقصر السعادة.

(٢) في الأصل: «تلفي».

إتيان القبائح، وهونوا عليهم اقتراف المنكرات، ومهدوا لهم طرق البهيمية، ورفعوا عنهم معايب العدوان.

ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة، وأنه لا يختلف عن النباتات الأرضية، تنبت في الربيع - مثلاً - وتيبس في الصيف، ثم تعود ترابًا، والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظه من الشهوات البهيمية.

وبهذا الرأي الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأثم، ودفعوها إلى أنواع العدوان: من قتل وسلب وهتك عرض، ويسروا لها الغدر والخيانة، وحملوها على فعل كل خبيثة، والوقوع في كل رذيلة، وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشري، وأعدموها الرغبة في كشف الحقائق، وتعرف أسرار الطبيعة.

هذا الوباء المهلك، والطاعون المجتاح - أعني النيتشريين - لا يصيب أهل الحياء؛ لامتناع نفوسهم عن مشاكلة البهائم، وإبائهم عن وضع أقدامها في منازل الحيوانية المحضة، وأنفتها من الاشتراك في الأموال والأبضاع، وإباحة التناول مما يختص بالغير منها.

ولهذا عمد هؤلاء المفسدون إلى خلة الحياء ليزيلوها أو يضعفوها، فقالوا: إن الحياء من ضعف النفس ونقصها، فإذا قويت النفوس، وتم لها كمالها، لم يغلبها الحياء في عمل ما كائنًا ما كان، فمن الواجب الطبيعي - في زعمهم - أن يسعى الإنسان في معالجة هذا الضعف - الحياء - ليفوز بكمال القوة - قلة الحياء - وبهذه الدسيسة يخلطون بين الإنسان والهمل(١)، ويمزجونه بالهامجات(٢) من النعم، ويوحدون بين حاله وتصرفه، وبين حال الدواب والأنعام، من إباحة كل عمل، والاشتراك في كل شهوة، ويهونون عليه إتيان ما تأتيه في نزواتها.

ولا يخفى أن الأمانة والصدق منشؤهما في النفس الإنسانية أمران: الإيمان بيوم الجزاء وملكة الحياء.

---

(١) الهمل من الإبل: المتروك ليلاً ونهارًا يرعى بلا راعٍ.
(٢) المتروكة يموج بعضها في بعض كالغنم بلا راعٍ.

وقد ظهر أن من أصول مذاهب هذه الطائفة إبطال تلك العقيدة، ومحو هذه الملكة الكريمة، فيكون تأثير آرائهم في إذاعة الخيانة وترويج الكذب، أشد من تأثير دعوة داع إلى نفس الخيانة والكذب، فإن منشأ الفضيلتين ما دام في النفس أثر منه، يبعثها على مقاومة الداعي إلى الرذيلتين، فيضعف أثر دعوته، والمؤمن بالجزاء، والمبرقع بالحياء، إن سقط في الخيانة أو الكذب مرة، وجد من نفسه زاجراً عنهما مرة أخرى، أما لو محي الإيمان والحياء - وهما منشأ الصدق والأمانة - من لوح النفس، فلا يبقى منها وازع عن ارتكاب ضديهما.

ويزيد في شناعة ما ذهبوا إليه، أن فى أصولهم الإباحة والاشتراك المطلقين فيزعمون أن جميع المشتهيات حق شائع، والاختصاص بشيء منها يعد اغتصابا، كما سيذكر، فلم يبق للخيانة محل، فإن الاحتيال لنيل الحق لا يعد خيانة، ومثلها الكذب، فإنه يكون وسيلة للوصول إلى حق مغتصب - في زعمهم - فلا يعد ارتكابا للقبيح.

لا جرم[١] أن آراء هذه الطائفة مروجة للخيانات، باعثة على افتراء الأكاذيب، حاملة للأنفس على ارتكاب الشرور والرذائل، وإتيان الدنايا والخبائث.

وإن أمة تفشو فيها هذه الحوالق[٢] لجديرة بالفناء، جالية عن باحة البقاء[٣]، فقد انكشف الخفاء - بما بيّنا - عن فساد مشارب هذه الطائفة، وعن وجه سوقها الأمم والشعوب إلى مهاوى الهلكة والدمار.

وأقول: إنها من أشد الأعداء للنوع الإنسانى كافة، فإن ما هاج في رءوس أبنائها من «الماليخوليا» يخيل إليهم أن الإصلاح فيما يزعمون، ويصور لهم حقيقة النجاح في صور ما يتوهمون، فيبعثهم هذا الفساد لإيقاد النار في بيت هذا النوع الضعيف؛ ليمحو بذلك رسمه من لوح الوجود، فإن من الظاهر - عند كل ذي إدراك - أن أفراد هذا النوع يحتاجون في بقائهم إلى عدة صنائع لو لم تكن

---

(١) لا محالة ولا بد وحقا.

(٢) جمع حالقة: السنة الشديدة التي تحلق كل شيء، المنية، القول السيئ، والمعنى الأخير أنسب.

(٣) أي خارجة عن ساحة الوجود.

لأهلكتهم حوادث الجو، وأعوزهم القوت الضروري، والصنائع المحتاج إليها تختلف أصنافها، وتتفاوت درجاتها، فمنها الخسيس، والشريف، ومنها السهل، ومنها الصعب.

وهذه الطائفة النيتشرية تسعى لتقرير الاشتراك في المشتهيات، ومحو حدود الامتياز، ودرس[١] رسوم الاختصاص؛ حتى لا يعلو أحد عن أحد، ولا يرتفع شخص عن غيره في شيء ما، ويعيش الناس كافة على حد التساوي؛ لا يتفاوتون في حظوظهم، فإن ظفرت هذه الطائفة بنجاح في سعيها هذا، ولاق[٢] هذا الفكر الخبيث بعقول البشر، مالت النفوس إلى الأخذ بالأسهل، فلا تجد من يتجشم مشاق الأعمال الصعبة، ولا من يتعاطى الحرف الخسيسة، طلبا للمساواة في الرفعة، فإن حصل ذلك، اختل نظام المعيشة، وتعطلت المعاملات، وبطلت المبادلات، وأفضى إلى تدهور هذا النوع في هوة الهلاك.

نعم، إن أفكار المصابين «بالماليخوليا» لا تنتج أحسن من هذه النتيجة. ولو فرضنا محالا، وعاش بنو الإنسان على هذه الطريقة العوجاء، فلا ريب أن تمحى جميع المحاسن، وضروب الزينة، وفنون الجمال العملي، ولا يكون لبهاء الفكر الإنساني أثر، ويفقد الإنسان كل كمال ظاهر أو باطن، صوري أو معنوي، ويعطل من حلي الصنائع، وتغب عنه أنوار العلم والمعرفة، ويصبح في ظلام جهل، وبلاء أزل[٣]، وينقلب كرسي مجده، وينثل[٤] عرش شرفه، ويصحر[٥] في بادية الوحشية كسائر أنواع الحيوان، ليقضي فيها أجلا قصيرا مفعما بضروب الشقاء، محاطا بأنواع من المخاوف، محشواً بأخلاط من الأوجال والأهوال، فإن المبدأ الحقيقي لمزايا الإنسان إنما هو حب الاختصاص، والرغبة في الامتياز، فهما الحاملان على المنافسة، السائقان إلى المباراة والمسابقة، فلو سلبتهما أفراد الإنسان

(١) أي محو الاختصاص والفروق بين الأفراد.

(٢) لاق بعقول البشر: أي ناسبهم وأعجبهم وأحبوه ولصق بعقولهم وثبت.

(٣) الأزل ـ بفتح الهمزة وسكون الزاي ـ: الضيق والشدة والحبس، وبكسر الهمزة: الداهية.

(٤) يسقط وينهدم.

(٥) أصحر: خرج إلى الصحراء.

وقفت النفوس عن الحركة إلى معالي الأمور، وأغمضت العقول عن كشف أسرار الكائنات، واكتناه حقائق الموجودات، وكان الإنسان في معيشته على مثال البهائم البرية إن أمكن له ذلك، وهيهات هيهات.

مسالكهم في طلب غاياتهم

سلكوا مخالج من الطرق لبث أوهامهم الفاسدة، فكانوا إذا سكنوا إلى جانب أمن، جهروا بمقاصدهم بصريح المقال، وإذا أزعجتهم سطوة العدل أخذوا طريق الرمز والإشارة، وكنوا عما يقصدون، ولوحوا إلى ما يطلبون، ومشوا بين الناس مشية التدليس.

وتارة كانوا يحملون على أركان القصر المسدس ليصدعوها بجملتها في آن واحد، وأخرى كانوا يعمدون إلى بعضها إذا رأوا قوة المانع دون سائرها، فيجعلون ما قصدوا منها مرمى أنظارهم، ويكدحون لهدمه بما استطاعوا من حول وقوة، وقد تلجئهم الضرورة إلى البعد عن الأركان الستة بأسرها، فلا يأتون بما يمسها مباشرة، ولكنهم يدأبون لإبطال لوازمها، أو ملزوماتها؛ ليعود ذلك بإبطالها.

وقد يكتفون بإنكار الصانع - جل شأنه - وجحد عقائد الثواب والعقاب، ويجهدون لإفساد عقائد المؤمنين، علما منهم بأن فساد هاتين العقيدتين - الاعتقاد بالله، والاعتقاد بالثواب والعقاب - لا محالة يفضي إلى مقاصدهم ويؤدي إلى نتيجة أفكارهم.

وكثيرا ما سكتوا عن ذكر المبادئ، وسقطوا على ذات المقصد، وهو «الإباحة والاشتراك»، وأخذوا في تحسينه وتزيينه، واستمالة النفوس إليه، وقد يزيدون على الدعوة الإقناعية بأي وجوهها عملا جاهليا تأنف منه الطباع، وتأباه شرائع الإنسانية، وذلك أن يأخذوا معارضيهم بالغدر والاغتيال، فكثيرا ما فتكوا بآلاف من الأرواح البريئة، وأراقوا سيولاً من الدماء الشريفة، بطرق من الحيل، وضروب من الختل.

ضرر مذاهب الماديّين

متى ظهر الماديّون في أمة، نفذت وساوسهم في صدور الأشرار من تلك الأمة، واستهوت عقول الخبثاء الذين لا يهمهم إلا تحصيل شهواتهم ونيل لذاتهم من أى وجه كان؛ لموافقة هذه الآراء الفاسدة لأهوائهم الخبيثة، فيميلون معهم إلى ترويج المشرب المادي، وإذاعته بين العامة غير ناظرين إلى ما يكون من أثره.

ومن الناس من لا يساهم في آرائهم، ولا يضرب في طرقهم، إلا أنه لا يسلم من مضارها ومفاسدها، فإن الوهن يلم بأركان عقائده، والفساد يسري لأخلاقه من حيث لا يشعر؛ حيث إن أغلب الناس مقلدون في عقائدهم، منقادون للعادة في أخلاقهم، وأقل التشكيك، وأدنى الشبهة، يكفي علة لزعزعة قواعد التقليد وضعضعة قوائم العادة.

وإن هؤلاء الماديين ـ بما يقذفون بين الناس من أباطيلهم ـ يبذرون في النفوس بذور المفاسد، فلا تلبث أن تنمو في تراب الغفلة، فتكون ضريعا وزقوما[1].

ولهذا قد يعم الفساد أفراد الأمة التي تظهر فيها هذه الطائفة، وكل لا يدري من أي باب دمر الفساد على قلبه، فتشيع بينهم الخيانة والغدر، والكذب والنفاق، ويهتكون حجاب الحياء، وتصدر عنهم شنائع تنكرها الفطرة البشرية، يأتون ما يأتون من تلك القبائح مجاهرة بلا تحرج، وكل منهم وإن كان يدعي بلسانه أنه مؤمن بيوم الجزاء، وفي نفسه أن ذلك اعتقاده، واعتقاد آبائه، إلا أن عمله عمل من يعتقد ألاّ حياة بعد هذه الحياة، لسريان عقائد الماديّين إلى قلبه، وهو في غفلة عن نفسه، فلهذا تغلب عليهم الأثرة، وهي إفراط الشخص في حبه لنفسه، إلى حد أنه لو عرضت في طريق منفعته مضرة كل العالم، لطلب تلك المنفعة وإن حاق الضرر بمن سواه، ومن لوازم هذه الصفة أن صاحبها يؤثر منفعته الخاصة على المنافع

---

(١) الضريع: يبيس الشبرق، وهو نبات حجازي يؤكل وله شوك وله زهرة حمراء، فإذا يبس سُمي ضريعًا، والزقوم: كل طعام يقتل، وهو طعام كريه لأهل النار.

العامة، ويبيع جنسه وأمته بأبخس الأثمان، بل لا يزال به الحرص على هذه الحياة الدنيئة يبعث فيه الخوف، ويمكن منه الجبن، حتى يسقط به في هاوية الذل، ويكتفي من الحياة بمدها وإن كانت مكتنفة بالذل، محاطة بالمسكنة، مبطنة بالعبودية، فإذا وصلت الحال في أمة إلى أن تكون آحادها على هذه الصفات، تقطعت فيها روابط الالتئام، وانعدمت وحدتها الجنسية، وفقدت قوتها الحافظة، وهوت عروش مجدها، وهجرت الوجود كما هجرها.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع

الأمم التي ظهر فيها الدهريون

اليـــــونان:

شعب «الكريك» ـ وهم اليونانيون ـ كانوا قوما قليلي العدد، وبما ألهموا أورثوا من العقائد الثلاث، خصوصا عقيدة أن أمتهم أشرف الأمم، وبما أودعوا من الصفات الثلاث ـ خصوصا صفة الأنفة والإباء وهي عين الحياء ـ ثبتوا أحقابا[١] في مقاومة الأمة الفارسية، وهي تلك الأمة العظيمة، التي كانت تمتد من نواحي «كشغر» إلى ضواحي «إستنبول»، ذلك فوق ما بلغوه من الدرجات العالية في العلوم الرفيعة، وقد حملهم الخوف من الذل، والأنفة من العبودية، على الثبات في مواقف الأبطال، بل رسخ بهم ذلك ولا رسوخ الجبال؛ حذراً من الوقوع فيما لا يليق بأرباب الشرف، وأبناء المجد، حتى آل بهم الأمر أن تغلبوا على تلك الدولة العظيمة «دولة فارس»، وهدموا أركانها، ومدوا أيديهم إلى الهند.

وكانت صفة الأمانة قد بلغت من نفوسهم إلى حيث كانوا يرجحون الموت على الخيانة، كما تراه في قصة «تيمستوكليس»[٢]، وهو قائد يوناني نبذه أبناء جلدته وطردوه، وأرصدوا له القتل، فاضطر إلى الفرار من أيديهم، والتجأ إلى

---

(١) الأحقاب والأحقب جمع حقب: ثمانون سنة أو أكثر أو الدهر.

(٢) هو من قواد اليونان، ولد سنة ٥٣٣ (ق.م)، وتوفي سنة ٤٦٥ (ق.م)، هزم أسطول الفرس في واقعة سلامين سنة ٤٨٠ (ق.م)، ثم غضب عليه أبناء جلدته، ولكنه لم يخنهم، كما ترى.

«ارتكزيكسيس»[١] ملك فارس، فلما كانت الحرب بين فارس واليونان، أمره «ارتكزيكسيس» أن يتولى قيادة جيش لحرب اليونان، فأبى أن يحارب أمته، وإن كانت طردته، فلما ألح عليه الملك الفارسي ولم يجد محيصا، تناول السم، ومات أنفة من خيانة بلاده.

ظهور أبيقور في اليونان

ظهر أبيقور الدهري وأتباعه الدهريون في بلاد اليونان متسمين بسيماء الحكماء، وأنكروا الألوهية، وإنكارها أشد المنكر، ومنبع كل وبال وشر، كما يأتي بيانه.

ثم قالوا: ما بال الإنسان معجب بنفسه، مغرور بشأنه، يظن أن الكون العظيم إنما خلق خدمة لوجوده الناقص، ويزعم أنه أشرف المخلوقات، وأنه العلة الغائية لجميع المكونات؟! ما بال هذا الإنسان قاده الحرص ـ بل الجنون والخرق ـ إلى اعتقاد أن له عوالم نورانية، ومعاهد قدسية، وحياة أبدية، ينقل إليها بعد الرحلة من هذه الدنيا، ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء، ولذة لا يخالطها كدر، ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف، مخالفا نظام الطبيعة العادل، وسد في وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية، وحرم حسه كثيرا من الحظوظ الفطرية، مع أنه لا يمتاز عن سائر الحيوانات بمزية من المزايا في شأن من الشئون، بل هو أدنى وأسفل من جميعها في جبلته، وأنقص من كلها في فطرته، وما يفتخر به من الصنائع فإنما أخذه بالتقليد عن سائر الحيوانات، فالنسج مثلا نقله عن العنكبوت، والبناء استن فيه بسنة النحل، ورفع القصور وإنشاء الصوامع، وأخذ فيه مأخذ النمل الأبيض، وادخار الأقوات، حذا فيه حذو جنس النمل، وتعلم الموسيقى من البلبل. . . وعلى ذلك بقية الصنائع.

---

(١) «ارتكزيكسيس»: اسم لثلاثة ملوك من ملوك فارس: الأول الملقب بالطويل اليد (٤٦٥ ـ ٤٢٥ ق.م)، والثاني الملقب بحسن الذاكرة (٤٠٥ ـ ٣٥٨ق.م)، والثالث الملقب بأوكوس (٣٥٠ ـ ٣٣٨ق.م) الذي اجتاح مصر (٣٤٥ق.م).

فإن كان هذا شأنه من النص، فليس من اللائق به أن يقذف بنفسه في ورطات المتاعب والمشاق عبثا، ومن الجهل أن يغتر بهذه الحياة التي لا تمتاز عن حياة سائر الحيوانات، بل ولا جميع النباتات، وليس وراءها حياة أخرى في عالم آخر، بل أجدر به أن يلقى ثقل التكاليف عن عاتقه، ويقضي حق الطبيعة البدنية من حظ اللذة، ومتى سنح له عارض رغبة حيوانية، وجب عليه تناوله من أي وجوهه، وعليه ألا ينقاد إلى ما تخيله له أوهام الحلال والحرام، واللائق وغير اللائق. .

لبئس ما سوّلت لهم أنفسهم - نعوذ بالله - فتلك أمور وضعية - في زعمهم - تقيد بها الناس جهلا، فلا ينبغي لابن الطبيعة أن يجعل لها من نفسه محلا.

ولما امتنعت عليهم نفوس أهل الحياء من الأمة، فلم تأخذ منها وساوسهم، وجدوا تلك الصفة الكريمة سدا دون طلبتهم، فانصبوا عليها يقصدون محوها من الأنفس، وأعلنوا أن الحياء ضعف في النفس - على ما تقدم - وزعموا أن من الواجب على طالب الكمال أن يكسر مقاطر[1] العادات، ويحمل نفسه على ارتكاب ما يستنكره الناس حتى يعود من يُسهل عليه أن يأتي كل قبيح بدون انفعال نفسي، ولا يجد أدنى خجل في المجاهرة بأية هجينة كانت.

ثم تقدم الأبيقوريون إلى العمل بما يرشدون إليه فهتكوا حجاب الحياء، ومزقوا ستاره، وأراقوا ماء الوجه الإنساني المكرم، فاستحلوا التناول من مال الناس بغير إذن، وكانوا متى رأوا مائدة اقتحموا عليها، سواء طلبوا أو لم يطلبوا، حتى سماهم القوم بالكلاب. . . فإذا رأوهم رموهم بالعظام المعروفة، ومع ذلك لم تتنازل هذه الكلاب الإنسية عن دعوى الحكمة، ولم يردعها رادع الزجر عن شيء من شرورها، وكانت تنبح في الأسواق منادية: المال مشاع بين الكل، وتهجم على الناس من كل ناحية، وهذا سبب شهرتهم بالكلبيين.

فلما ضربت أفكار الدهريين في نفوس اليونان، بسعي الأبيقوريين، ونشبت بعقولهم، سقطت مداركهم إلى حضيض البلاد، وكسد سوق العلم والحكمة، وتبدّل شرف أنفسهم بالذل واللؤم، وتحولت أمانتهم إلى الخيانة، وانقلب الوقار

---

(١) جمع مقطرة: وهي خشبة فيها خروق بقدر أرجل المحبوسين.

والحياء قحة وتسفلا، واستحالت شجاعتهم إلى الجبن، ومحبة جنسهم ووطنهم إلى المحبة الشخصية.

وبالجملة: فقد تهدمت عليهم الأركان الستة التي كان يقوم عليها بيت سعادتهم، وانتقض أساس إنسانيتهم، ثم انتهى أمرهم بوقوعهم أسرى في أيدي الرومانيين، وكبلوا في قيود العبودية زمنا طويلا، بعد ما كانوا يعدون حكاما في الأرض بلا معارض.

الأمة الفارسية

الأمة الفارسية بلغت فيها الأصول الستة، أعلى مكانة من الكمال أحقابا طويلة، فكانت لها أصول السعادة، وموارد النعيم، حتى بلغ اعتقاد الفارسيين من الشرف لأنفسهم، إلى حد أنهم كانوا يزعمون أن السعداء من غيرهم إنما هم الداخلون في عهدهم، المستظلون بحمايتهم، أو المجاورون لممالكهم.

كان الصدق والأمانة أول التعليم الديني عندهم، ووصلوا في التحرج من الكذب إلى حيث كانوا إذا بلغت الحاجة مبلغها من أحدهم، لا يتقدم للاقتراض؛ خوف أن يضطره الدين إلى الكذب في مواعيد وفائه، فارتفعوا بهذه الخصال إلى درجة من العزة، وبسطة الملك، يلزم لبيانها كتاب مثل الشاهنامة(١).

قال المؤرخ الفرنسي «فرنسيس لونورمان»: إن مملكة فارس على عهد دارا الأكبر كانت إحدى وعشرين ايالة: واحدة منها تحتوي مصر وسواحل القلزم «البحر الأحمر»، وبلوخستان، والسند، وكانوا إذا ألم الضعف بسلطانهم في زمن من الأزمان، بعثتهم تلك العقائد القويمة والصفات الكريمة على تلافي أمرهم، فخلصوا مما ألم بهم في قليل زمن، ورجعوا إلى مكانتهم الأولى ومجدهم الأعلى.

---

(١) الشاهنامة: هي الملحمة العظمى التي تشتمل على ستين ألف بيت من الشعر الفارسي، ألفها الفردوسي، الشاعر الفارسي الذي احتفل بمرور ألف سنة على مولده في آسيا وأوروبا وأمريكا سنة ١٩٣٤ من الميلاد.

مزدك الدهري[١]

ظهر فيهم «مزدك» الدهري على عهد «قباد» وانتحل لنفسه لقب «رافع الجور ودافع الظلم»، وبنزعة من نزعاته، قلع أصول السعادة من أرض الفارسيين، ونسفها في الهواء وبددها في الأجواء، فإنه بدأ تعاليمه بقوله: «جميع القوانين والحدود والآداب ـ التي وضعت بين الناس ـ قاضية بالجور، مقررة للظلم، وكلها مبني على الباطل، وإن الشريعة الدهرية المقدسة لم تنسخ حتى الآن، وقد بقيت مصونة في حرزها عند الحيوانات والبهائم . . ».

أي عقل وأي فهم يصل إلى سر ما شرعته «الطبيعة»؟! وأي إدراك يحيط بمثل ما أحاط به، وقد جعلت الطبيعة حق المأكل والمشرب والبضاع، مشاعًا بين الآكلين والشاربين والمباضعين بدون أدنى تخصيص، فما الحامل للإنسان على حرمان نفسه من بضاع بنته وأمه وأخته، ثم تركهن لغيره يتمتع بهن انقيادًا لما يخيله له الوهم، مما نسميه شريعة وأدبا؟!

وأي حق يستند إليه من يدعي ملكية خاصة في مال يتصرف فيه دون سواه، مع أنه شائع بينه وبين غيره؟!

وأي وجه لمن يحجر على امرأة دخلت في عقده، ويحظر على الناس نيلها، وقد خلق الذكر للأنثى والأنثى للذكر؟!

وماذا يوجد من العدل في قانون يحكم بأن المال الشائع إذا تناولته يد مغتصب ـ بما يسمونه بيعًا وشراء أو إرثًا ـ يكون مختصا بذلك المغتصب، ثم يحكم على الفقير المحروم ـ إذا احتال لأخذ شيء من حقه والتمتع به ـ بأنه خائن أو غاصب؟!

---

(١) «مزدك»، ظهر بعد «زرادشت»، وكان ذلك في عهد «خسرو قباد» من ملوك فارس، وزعم أن الله بعثه ليأمر بشيوع النساء والأموال بين الناس كافة؛ لأنهم كلهم إخوة وأولاد أب واحد، وانقاد «قباد» إلى مذهب هذا المضلل، وأباح له أن يخلو بالملكة زوجته، إلا أن ابن «قباد» وهو «كسرى أنو شروان» حسم الأمر بقتل «مزدك» وأصحابه.

فإن كان هذا شأن تلك القوانين الجائرة، فعلى الإنسان أن يفك أغلالها من عنقه، ويطرح كل قيد عقدته القوانين والشرائع والآداب، التي لا واضع لها سوى العقل الإنساني الناقص، وليرجع إلى سنة الطبيعة المقدسة، ويقضي حق شهوته من اللذائذ التي أباحتها له بأي الوجوه، ومن أية الطرق، ويأخذ في ذلك مأخذ البهائم، وعليه أن يقاوم الغاصبين المتحكمين في الحقوق قسرًا ـ أي المالكين للأموال والأبضاع ـ فيخرجهم عن سوء فعالهم من الغصب والجور، أي حق التملك!

فلما ذاعت هذه النزعات الخبيثة بين الأمة الفارسية، تهتك الحياء وفشا الغدر والخيانة، وغلبت الدناءة والنذالة، واستولى حكم الصفات البهيمية على نفوسهم، وفسدت أخلاقهم، ورذلت طباعهم.

نعم، إن «أنو شروان» قتل «مزدك» وجماعة من شيعته، ولكنه لم يستطع محو هذه الأوهام الفاسدة بعدما علقت بالعقول، والتبست نفايتها بالأفكار، فكان علة في ضعفهم، حتى إذا هاجمهم العرب لم تكن إلا حملة واحدة فانهزموا، مع أن الروم ـ وهم أقران الفارسيين ـ ثبتوا في مجالدة العرب ومقاتلتهم أزمانًا طويلة.

الأمة الإسلامية

الأمة الإسلامية جاءتها الشريعة المحمدية السماوية، فأشربت قلوبها تلك العقائد الجليلة، ومكنت في نفوسها تلك الصفات الفاضلة، وشمل ذلك آحادهم، ورسخت بينهم تلك الأصول الستة، بدرجة يقصر القلم دون التعبير عنها.

فكان من شأنهم، أن بسطوا سلطانهم على رءوس الأمم، من جبال الألب إلى جدار الصين في قرن واحد، وحثوا تراب المذلة على رءوس الأكاسرة والقياصرة، مع أنهم لم يكونوا إلا شرذمة قليلة العدة، نزرة العدد، ولم ينالوا هذه البسطة في الملك والسطوة في السلطان، إلا بما حازوا من العقائد الصحيحة والصفات الكريمة، هذا إلى ما جذبه مغناطيس فضائلهم من مائة مليون، دخلوا في دينهم في

مدة قرن واحد من أمم مختلفة، مع أنهم كانوا يخيرونهم بين الإسلام، وشيء زهيد من الجزية لا يثقل على[1] النفوس أداؤه.

هكذا كان حال هذه الأمة الشريفة من العزة ومنعة السلطان.

ظهور الباطنية في القرن الرابع

فلما كان القرن الرابع بعد الهجرة ظهر «الطبيعيون» بمصر تحت اسم «الباطنية وخزنة الأسرار الإلهية»، وانبث دعاتهم في سائر البلاد الإسلامية، خصوصًا بلاد إيران.

علم هؤلاء الدهريون، أن نور الشريعة المحمدية ـ على صاحبها أفضل الصلاة، وأتم التسليم ـ قد أنار قلوب المسلمين كافة، وأن علماء الدين الحنيف قائمون على حراسة عقائد المسلمين وأخلاقهم، بكمال علم، وسعة فضل، ودقة نظر، فلهذا ذهب أولئك المفسدون مذاهب التدليس في نشر آرائهم، وبنوا تعليمهم على أمور:

أولاً: إثارة الشك في القلوب، حتى يتفكك عقد الإيمان.

ثانيًا: الإقبال على الشاك وهو في حيرته، ليمنوه بالنجاة منها، وهدايته إلى اليقين الثابت، فإذا انقاد لهم أخذوا منه مواثيقهم، ثم أوصلوه إلى مرشدهم الكامل.

ثالثًا: أوعزوا إلى دعاتهم أن يلبسوا لرؤساء الدين الإسلامي لباس الخدعة، وجعلوا من شروط الداعي أن يكون بارعًا في التشكيك، ماهرًا في التلبيس، مقتدرًا على إشراب القلوب مطالبه.

فإذا سقط الساقط من المغرورين في حبالة مرشدهم الكامل فأول ما يلقنه المرشد قوله: إن الأعمال الشرعية الظاهرة، كالصلاة والصيام ونحوهما، إنما فرضت على

(١) في الأصل: «عن».

المحجوبين دون الوصول إلى الحق، والحق هو المرشد الكامل، فحيث إنك وصلت إلى الحق، فإياك أن تلقي عن عاتقك ثقل الأعمال البدنية، فإذا مضى عليه زمن في عهدهم، صرحوا له، بأن جميع الأعمال الباطنة والظاهرة، وكذلك سائر الحدود والاعتقادات، إنما ألزمت فرائضها بالناقصين، المصابين بأمراض من ضعف النفوس ونقص العقول، أما وقد صرت كاملاً، فلك الاختيار في مجاوزة كل حد مضروب، والخروج من أكنان التكاليف إلى باحات الإباحة الواسعة.

ما الحلال وما الحرام؟! ما الأمانة؟! وما الخيانة؟! ما الصدق؟! وما الكذب؟! ما هي الفضائل؟! وما هي الرذائل؟!

ألفاظ وضعت لمعان مخيلة، وما لها من حقيقة واقعية في زعم المرشد، فإذا قرر المرشد أصول الإباحة في نفوس أتباعه، التمس لهم سبيلاً لإنكار الألوهية، وتقرير مذهب النيتشرية «الدهريين»، فأتى إليهم من باب التنزيه، فقال: الله منزه عن مشابهة المخلوقات، ولو كان موجوداً لأشبه الموجودات ولو كان معدومًا لأشبه المعدومات، فهو لا موجود ولا معدوم.

يعني أنه يقر بالاسم، وينكر المسمى، مع أن شبهته هذه سفسطة بديهية البطلان، فإن الله منزه عن مشاركة الممكنات في خصائص الإمكان، أما في مطلق الوجود فلا مانع من أن يتفق إطلاق الوصف عليها وعليه، وإن كان وجوده واجبًا، ووجودها ممكنًا.

وقد جدت الباطنية في إفساد عقائد المسلمين، زمانًا غير قصير أخذاً بالحيلة، ونفاذًا بالخدعة، حتى انكشف أمرهم لعلماء الدين، ورؤساء المسلمين، فانتصبوا لدرء مفاسدهم، وتحويل الناس عن ضلالاتهم، فلما رأوا كثرة معارضيهم، شحذوا شفار الغيلة، ففتكوا بكثير من الصالحين، وأراقوا دماء جم غفير من علماء الأمة الإسلامية، وأمراء الملة الحنيفية.

وبعض أولئك المفسدين عندما أمكنته الفرصة، ووجد من نفسه ريح القوة، أظهر مقاصده على منبر «الموت» ـ قلعة في خراسان ـ وجهر بآرائه الخبيثة، فقال:

إذا قامت القيامة حطت التكاليف عن الأعناق، ورفعت الأحكام الشرعية، سواء كانت متعلقة بالأعمال البدنية الظاهرة، أو الملكات النفسية الباطنة، والقيامة عبارة عن قيام القائم الحق، وأنا القائم الحق، فليعمل عامل ما أراد، فلا حرج بعد اليوم، إذ رفعت التكاليف، وخلصت منها الذم، أي أغلقت أبواب الإنسانية، وفتحت أبواب البهيمية.

وبالجملة: فهؤلاء الدهريون من أهل التأويل، أي «الناتوراليسم» من الأجيال السابقة الإسلامية، عملوا على تغيير الأوضاع الإلهية بفنون من الحيل، ودعوا كل كمال إنساني نقصًا وكل فضيلة رذيلة، وخيلوا للناس صدق ما يزعمون، ثم تطاولوا على جانب الألوهية، فحلوا عقود الإيمان بها، وبالسفسطة التي سموها تنزيهًا، ومحوا هذا الاعتقاد الشريف من لوح القلوب، وفي محوه محو سعادة الإنسان في حياته، وسقوطه في هاوية اليأس والشقاء.

فأفسدوا أخلاق الملة الإسلامية شرقًا وغربًا، وزعزعوا أركان عقائدها، وساعدهم مد الزمان على تلويث النفوس بالأخلاق الرديئة وتجريدها من السجايا الكاملة، التي كان عليها أبناء هذه الملة الشريفة، حتى تبدلت شجاعتهم بالجبن وصلابتهم بالخور، وجرأتهم بالخوف، وصدقهم بالكذب، وأمانتهم بالخيانة، ووقع المسخ في هممهم، فبعد أن كان مرماها مصالح الملة عامة، صارت قاصرة على المنافع الشخصية الخاصة، وعادت رغباتهم لا تخرج عن الشهوات البهيمية، وكان من عاقبة ذلك أن جماعة من قزم الإفرنج، صدعوا أطراف البلاد السورية، وسفكوا فيها دماء آلاف من أهاليها الأبرياء، وخربوا ما أمكنهم أن يخربوا، وثبتوا بها نحو مائتي سنة، والمسلمون في عجز من مدافعتهم، مع أن الإفرنج كانوا ـ قبل عروض الوهن لعقائد المسلمين، وطروء الفساد على أخلاقهم ـ في قلق لا يستقر لهم أمن على حياتهم وهم في بلادهم؛ خوفًا من عادية المسلمين. وكذلك قام جماعة من أوباش التتر والمغول مع جنكيزخان، واخترقوا بلاد المسلمين، وهدموا كثيرًا من المدن المحمدية، وأهدروا دماء ملايين من الناس، ولم تكن للمسلمين قدرة على دفع هذا البلاء عن بلادهم، مع أن مجال خيولهم في بدء الإسلام ـ على قلة عددهم ـ كان ينتهي إلى أسوار الصين.

وما نزل بالمسلمين شيء من هذه المذلات والإهانات، ولا رزئوا بالتخريب في بلادهم، والفناء في أرواحهم، إلا بعدما كلت بصائرهم، ونغلت نياتهم، ومازج الدغل قلوبهم، وخربت أماناتهم، وفشا الغش والإدهان[١] بينهم، ودار كل منهم حول نفسه لا يعرف أمة، ولا ينظر إلى ملة، وأصبحوا بقناة خوارة، بعد أن كانت قناتهم لا تلين لغامز، إلا أن بقية من تلك الأخلاق المحمدية، كانت لم تزل راسخة في نفوس كثير منهم، كامنة في طي ضمائرهم، فهي التي أنهضتهم من كبوتهم، وحملتهم على الجد في كشف السطوة الغريبة عن بلادهم، فأجلوا الأمم الإفرنجية بعد مائتين من السنين، وخلصوا البلاد السورية من أيديهم، وطوقوا الجنكيزيين بطوق الإسلام، وألبسوهم تيجان شرفه، ولكنهم لم يستطيعوا حسم داء الضعف، وإعادة ما كان لهم من الشوكة إلى المقام الأول، فإن ما كان من شوكة وقوة إنما هو أثر العقائد الحقة، والصفات المحمودة، فلما خالط الفساد هذه وتلك تعسر عود السهم إلى النزعة.

ولهذا ذهب المؤرخون إلى أن بداية الانحطاط في سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب والأليق أن يقال: إن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيتشرية «الدهرية» في صورة الدين، وسريان هذه السموم القاتلة في نفوس أهل الدين الإسلامي.

وليست بخاف أن فئة ظهرت في الأيام الأخيرة ببعض البلاد الشرقية، وأراقت دماء غزيرة، وفتكّت بأرواح عزيزة، تحت اسم لا يبعد عن أسماء من تقدمها لمثل مشربها، وإنما التقطت شيئًا من نفايات ما ترك دهريو «الموت» وطبيعيو «كردكوه» وتعليمها نموذج تعليم أولئك الباطنيين، فعلينا أن ننظر ما يكون من آثار بدعها في الأمة التي ظهرت بها.

---

(١) الإدهان: هو الاستسلام.

الشعب الفرنسي

الشعب الفرنسي شعب كان قد تفرد بين الشعوب الأوروپية بإحراز النصيب الأوفر من الأصول الستة، فرفع منار العلم، وجبر كسر الصناعة في قطعة أوروپا بعد الرومانيين، وصار بذلك مشرقًا للتمدن في سائر الممالك الغربية.

وبما أحرز الفرنسيون من تلك الأصول، كانت لهم الكلمة النافذة في دول الغرب إلى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحي، حتى ظهر فيهم «ڤولتير» و«روسو» يزعمان حماية العدل، ومغالبة الظلم، والقيام بإنارة الأفكار، وهداية العقول، فنبشا قبر أبيقور الكلبي، وأحييا ما بلي من عظام «الناتوراليسم» الدهريين، ونبذا كل تكليف ديني، وغرسا بذور الإباحة والاشتراك، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنساني، وجهر كلاهما بإنكار الألوهية، ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الأنبياء ـ برأهم الله مما قالا ـ وكثيرًا ما ألف «ڤولتير» من الكتب في تخطئه الأنبياء والسخرية بهم، والقدح في أنسابهم، وعيب ما جاءوا به، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنسيين، ونالت من عقولهم، فنبذوا الديانة العيسوية، ونفضوا منها أيديهم.

وبعد أن أغلقوا أبوابها، فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة «في زعمهم» شريعة «الطبيعة»، وزاد بهم الهوس في بعض أيامهم حتى حمل لفيفًا من عامتهم، أن يتناولوا بنتًا من ذوات الجمال فيهم، ويحملوها إلى محراب الكنيسة، ففعلوا، ونادى زعيم القوم: أيها الناس لا يأخذكم الفزع بعد اليوم من هدهدة الرعد، ولا التماع البرق، ولا تظنوا شيئًا من ذلك تهديدًا لكم من إله السماء، يرسله عليكم ليعظكم به، ويزعجكم عن مخالفته. . كلا فهذه كلها آثار الطبيعة «الناتور»، ولا مؤثر في الوجود سوى «الناتور»، فحلوا عن أعناقكم قيود الأوهام، ولا تقيموا لأنفسكم إلهًا من خواطر ظنونكم، فإن كانت العبادة من رغائب شهواتكم، فها هي ذي «مدموازيل» ـ أي العذراء ـ قائمة في المحراب على مثال الدمية، فاسجدوا لها إن شئتم. .

والأضاليل التي بثها هذان الدهريان «ڤولتير» و«روسو» هي التي أضرمت نار الثورة الفرنسية المشهورة، ثم فرقت بعد ذلك أهواء الأمة، وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها، فاختلفت فيها المشارب، وتباينت المذاهب، وأوغلوا في سبل الخلاف زمنًا يتبعه زمن، حتى تباين صدعهم، وذهب كل فريق يطلب غاية لا يرى وراءها غاية، وليس بينها وبين غايات سائر الفرق مناسبة، وانحصر سعي كل قبيل في التماس ما يواتي لذته، ويوافق شهوته، وأعرضوا عن منافعهم العامة، وأعقب ذلك عروض الخلل لسياستهم الخارجية شرقًا وغربًا.

نعم إن نابليون الأول بذل جهده في إعادة الديانة المسيحية إلى ذلك الشعب استدراكًا لشأنه، لكنه لم يستطع محو آثار تلك الأضاليل، فاستمر الاختلاف بالفرنسيين إلى الحد الذي هم عليه اليوم.

هذا الذي جر الفرنسيين للسقوط في عار الهزيمة، بين يدي الألمان، وجلب إليهم من الخسار ما تعسر عليهم تعويضه في سنين طويلة.

هذه الأباطيل الدهرية قام عليها مذهب «الكمون» - أي الشيوعيين - ونما هذا المذهب بين الفرنسيين، ولم تكن مضار الآخذين به ومفاسدهم في البلاد الفرنسية أقل من مضار الألمان.

ولو لم يتدارك الأمر أرباب العقائد النافعة والسجايا الحسنة، لنسف الشيوعيون كل عمران على أديم فرنسا، ومحوا مجد الأمة؛ تنفيذًا لأهوائهم، وجلبًا لرغباتهم.

الأمة العثمانية

الأمة العثمانية إنما رقت[1] حالتها في الأزمنة المتأخرة بما دب في نفوس بعض عظمائها وأمرائها من وساوس الدهريين، فإن القواد الذين اجترحوا إثم الخيانة

---

(١) ضعفت.

في الحرب الأخيرة بينها وبين الروسية، كانوا يذهبون مذهب النيتشريين «الدهريين»، وبذلك كانوا يعدون أنفسهم من أرباب الأفكار الجديدة «أبناء العصر الجديد».

زعموا ـ بما كسبوا من أوهام الدهريين ـ: أن الإنسان حيوان كالحيوانات، لا يختلف عنها في أحكامها، وهذه الأخلاق والسجايا ـ التي عدوها فضائل ـ تخالف بجميعها سنن الطبيعة المطلقة «الناتور»، وإنما وضعها تحكم العقل، وزادها تطرف الفكر.

فعلى من بصر بالحقيقة ـ على زعم أولئك المارقين ـ أن يستنهج كل طريق إلى تحصيل شهواته، واستيفاء لذاته، ولا يأخذ نفسه بالحرمان من ملاذه، وقوفًا عند خرافات القيود الواهنة، والموضوعات الإنسانية الواهية.

وحيث إن الفناء حتم على الأحياء، فما هو الشرف والحياء؟! وما هي الأمانة، والصدق؟! وأي شيء هو العفة والاستقامة..؟!

ولهذا خان أولئك الأمراء ملتهم مع ما كان لهم من الرتب الجليلة، ورضوا بالدنية، واستناموا إلى الخسة، ونسفوا بيت الشرف العثماني في تلك الحرب وجلبوا المذلة على شعوبهم بعرض من الحطام قليل.

السوسياليست «الاجتماعيون» والنهيليست «العدميون» والكمونيست «الشيوعيون»

هذه الطوائف تتفق في سلوك هذه الطريقة «الدهرية»، زينوا ظواهرهم بدعوى أنهم سند الضعفاء، والمطالبون بحقوق المساكين والفقراء، وكل طائفة منها، وإن لونت وجه مقصدها بما يوهم مخالفته لمقصد الأخرى، إلا أن غاية ما يطلبون إنما هو رفع الامتيازات الإنسانية كافة، وإباحة الكل للكل، واشتراك الكل في الكل.

وكم سفكوا من دماء، وكم هدموا من بناء، وكم خربوا من عمران، وكم أثاروا من فتن، وكم أنهروا من فساد، كل ذلك سعيًا في الوصول إلى هذه المطالب الخبيثة، وجميعهم على اتفاق في أن جميع المشتهيات الموجودة على سطح الأرض منحة من الطبيعة وفيض من فيوضها، والأحياء في التمتع بها سواء، واختصاص فرد من الإنسان بشيء منها دون سائر الأفراد، بدعة في شرع الطبيعة سيئة، يجب محوها والإراحة منها.

ومن مزاعمهم أن الدين والملك عقبتان عظيمتان، وسدان منيعان، يعترضان بين أبناء الطبيعة، ونشر شريعتها المقدسة: الإباحة والاشتراك، وليس من مانع أشد منهما، فإذن من الواجب على طلاب الحق الطبيعي، أن ينقضوا هذين الأساسين، ويبيدوا الملوك ورؤساء الأديان.

ثم يعمدون إلى الملاك وأهل السعة في الرزق، فإن دانوا لشرع الطبيعة، فخرجوا عن الاختصاص، فتلك، وإلا أخذوا بأعناقهم قتلاً، وبأكظامهم[1] خنقًا، حتى يعتبر بهم من يكون من أمثالهم، فلا يلوون رءوسهم كبرًا على الشريعة المقدسة - شريعة الطبيعة - ولا تزور أعناقهم عصيانًا لأحكامها.

نظر أبناء هذه الطوائف في وجوه الوسائل لبث أفكارهم، والإفضاء بما في أوهامهم إلى قلوب العامة، فلم يجدوا وسيلة أنجح في زرع بذور الفساد في النفوس، من وسيلة التعليم، إما بإنشاء المدارس تحت ستار نشر المعارف، أو بالدخول في سلك المعلمين في مدارس غيرهم؛ ليقرروا أصولهم في أذهان الأطفال، وهم في طور السذاجة، فتنتقش بها مداركهم بالتدريج.

فمن أولئك الدهريين من همه بناء المدارس، ودعوة الناس إليها، ومنهم متفرقون في بلاد أوروبا، يطلبون وظائف التعليم، وينالون من ذلك طلبتهم، وجميعهم يتعاونون على إذاعة خيالاتهم الباطلة، وبهذا كثرت أحزابهم، ونمت شيعتهم في أقطار الممالك الأوروبية، خصوصًا مملكة الروسية.

---

(١) الكَظَم جمعه أكظام وكِظام: مخرج النفَس.

لا جرم أن هذه الطوائف إذا استفحل أمرها، وقوي ساعدها على المجاهرة بأعمالها، فقد تكون سببًا في انقراض النوع البشري، كما تقدم ذكره. أعاذنا الله من شرور أقوالهم وأعمالهم.

مــورمـــون

هذا النبي الأخير، والرسول الممتاز بالبعثة من قبل الناتور «الطبيعة» نشأ في إنجلترا، ثم هاجر منها إلى أمريكا، وأعلن ما ألقي إليه بإلهام الطبيعة: من أن النعمة العظمى - يريد الإباحة والاشتراك - إنما يؤتاها من كان مؤمنًا بالطبيعة، وليس لغيره من الكفرة بها حق التمتع بتلك النعمة، واجتمع إليه عدد من ضعفة العقول، فألف منهم جمعيتين: إحداهما من المؤمنين، والأخرى من المؤمنات، وقال: لكل مؤمن حق التمتع بكل مؤمنة، حتى كانت إذا سئلت إحدى المؤمنات: زوجة من أنت؟ تجيب: أنها زوجة جماعة المؤمنين، وإذا سئل أحد أبنائهن: من أنت؟ أجاب: أنه ابن الجمعية، إلا أنه إلى الآن لم يصعد لهيب فسادهم من هوة الويل «هوة جمعيتهم».

الدهريون الشرقيون

أما منكرو الألوهية، أعني الدهريين الذين ظهروا في لباس المهذبين، ولونوا ظواهرهم بصبغ المحبة الوطنية، وزعموا أنفسهم طلاب خير الأمة، فصاروا بذلك شركاء اللص، ورفقاء القافلة، ثم تجلوا في أعين الأغبياء حملة لأعلام العلم والمعرفة، وبسطوا للخيانة بساطًا جديدًا، وتولاهم الغرور بما حفظوا من كلمات قليلة ناقصة غير تامة الإفادة، مسروقة من الأوهام المبطلين، وفتلوا سبالهم - شواربهم - كبرًا وعلوا، ولقبوا أنفسهم بالهادين والأدلاء، وهم في أطباق جهل

وأرتاق غباوة، وفي أهب ـ جلود ـ من دنس الرذائل، ومسوك ـ جلود ـ من قذر الذمائم، فأولئك قوم قوي فيهم الظن، بأن العقل وثمرته من المعرفة، ينحصران في تبين وجوه الغدر، وتعرف طرق الاختلاس.

وإنني لفي خجل من ذكرهم، يدافعني الحياء عن رواية سيرهم، وحكاية أعمالهم، فإن مقاصدهم من الدناءة بحيث لا تخرج عن جيوبهم، يسعون في اقتلاع أساس أمتهم لشهوة بطونهم، يحددون شفارهم لتقطيع روابط الالتئام بين بني جنسهم، لا يبتغون بذلك عوضًا، سوى حشو معدهم، وما أضيق مجال أفكارهم، إلى الآن لم يخط أحدهم خطوة خارج كرشه، ولم يمد واحد منهم رجله لأبعد من فرشه، وليس في وسع القلم أن يتحرك في هذا المجال الضيق، غير أنه يمكن أن يقال: إنهم «بياجو» لغيرهم من أهل الضلالة ـ أي سيئو التقليد لهم ـ وما بقي من أوصافهم لا يخفى على فهم القارئين.

* * *

الفصل الخامس

العقيدة الإلهية وموقف الدهريين منها

إنكار الألوهية:

تبين مما أسلفنا أن طائفة النيتشريين «الدهريين» كلما نجمت في أمة أفسدت أخلاقها، وأوقعت الخلل في عقولها، وتخطفت قلوب آحادها، بأنواع من الحيل، وألوان من التلبيس، حتى تصبح تلك الأمة وقد وهي أساسها، وتفطر بناؤها، واغتالتها رذائل الأخلاق: من الأثرة، وعبادة الشهوات، والجرأة على ارتكاب الخيانات، ولا يزال الفساد يتغلغل في أحشائها حتى تضمحل ويمحى رسمها من صفحة الوجود، أو تضرب عليها الذلة، ويخلد أبناؤها في الفقر والعبودية.

إلا أن قبيلاً من هذه الطائفة، عملوا على إخفاء مقصدهم الأصلي، وهو الإباحة والاشتراك، واكتفوا في ظاهر الأمر بإنكار الألوهية وجحود يوم الدين، يوم العرض والجزاء، وقد يظن بعض ضعفة العقول، أن في ذلك بسطة الفكر، وسعة الحرية؛ لهذا أحببت أن أبين أن هذه النزعة وحدها كافية في إفساد الهيئة الاجتماعية، وتزعزع أركان المدنية، وليس من ضروب الباطل ما هو أشد منها تأثيراً في محو الفضائل، وإثارة الخبائث والرذائل، وليس من الممكن أن يجتمع لشخص واحد، وهْم الدهري، وفضيلة الأمانة والصدق، وشرف الهمة وكمال الرجولة.

ذلك أن كل فرد من نوع الإنسان قد أودع ـ بحسب فطرته، وبناء بنيته ـ شهوات تميل به إلى مشتهيات، فشهواته تدفعه إلى تحصيل مشتهياته، ولا يستطيع تسكين

هواه، ولا كسر سورة نفسه، إلا بنيل ما يمكنه من تلك المشتهيات، كأنه يعالج ألم الطلب بما يصل إليه من المطلوب، ولم تحدد الطبيعة طريقًا معينة يسلكها الراغبون للوصول إلى رغائبهم، فسبيل حق، وسبيل باطل، وسبيل الفتنة والفساد، وسبيل الهدى والرشاد، وسبيل سفك الدماء، واغتصاب الحقوق، وسبيل الإجمال والتعفف، وكلها ميسر للطالب غير ممتنع على السالك.

فقصر النفوس على طريقة محدودة وتوقيف أهوائها عند حدود معينة، ومنعها من تجاوز حد الاعتدال في آثارها وأعمالها، وإرضاء كل ذي شهوة بحقه، وكفه عن الاعتداء والإجحاف بحقوق غيره، هذا كله إنما يكون بأحد أمور أربعة:

١ ـ إما أن يحمل كل ذي حق آلة حربه، فيخترط سيفه، ويعتقل رمحه، ويرفع ترسه، ويقوم ليله ونهاره، يقدم إحدى رجليه، ويؤخر الأخرى، دفاعًا عن حقه.

٢ ـ وإما شرف النفس، كما يزعمه أرباب الأهواء.

٣ ـ وإما الحكومة.

٤ ـ وإما الاعتقاد بأن لهذا العالم صانعًا قادرًا، محيط العلم، نافذ الحكم، وأنه يوفي كل عامل جزاء عمله، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1]، ثوابًا جزيلاً، أو عقابًا وبيلاً، في حياة بعد هذه الحياة.

١ ـ المدافعة الشخصية:

أما الأول: فبراز وضراب، ونضال وقتال، وجلاد تسيل به الأودية مهجًا، وتخضل به الربى دمًا، وتتفانى به النفوس طلبًا للحقوق أو دفاعًا عنها، وتكون الدائرة للأقوياء على الضعفاء، حتى إذا قوي الضعفاء يومًا ما ثاروا على الأقوياء، فلا يزال صاحب القوة يطحن الضعيف، والأقران يسحق بعضهم بعضًا، إلى أن يعم جمعيهم الفناء، وينقرض النوع الإنساني من وجه البسيطة.

---

(١) سورة الزلزلة: ٧، ٨.

٢ـ شرف النفس:

أما الثاني : فتقدم الكلام فيه ببيان شرف النفس ، فهي صفة تنكب بصاحبها عن إتيان ما يذم عند قبيلته ، وغشيان ما يقبح في نظر عشيرته ، وتقابلها خسة النفس ، وهي صفة لا يتأثر معها صاحبها من التشنيع ، ولا تنفعل نفسه من التقبيح .

فتلك الصفة ـ أعني شرف النفس ـ ليست لها حقيقة معينة ، ولا هي في حدود معروفة عند جميع الأمم حتى يمكنهم ـ بالمحافظة عليها ـ أن يقفوا بالشهوات عند حد الاعتدال .

ألا ترى أن كثيراً من الأمور ، يعد ارتكابه عند بعض الأمم خسة ودناءة ، وهو بعينه عند بعض آخر شرف ورفعة يستتبع المدح والثناء ، على أنه في الحقيقة شر الشرور وأعظم الفجور .

تبين ذلك من حال سكان البادية وأهل الجبال من القبائل المتبدية ، فإنهم يعدون الغارة والفتك بالأرواح ، وانتهاب الأموال ، واسترقاق الأحرار من فعال المجد ، وبلوغ الغاية منها بلوغ إلى نهاية الشرف ، وهذه الفعال بعينها ، يعدها سكان المدن وأهل الحضارة ، من لواحق الدناءة ، وعلائم خسة النفس ، وكذلك الحيلة والمكر يحسبهما قوم خسة وخبثًا ، ويحسبهما آخرون حكمة وعقلاً .



وإذا أمعنت النظر في المسألة ، وجدت أن لكل كائن في عالم الإمكان علة غائية ، والعلة الغائية لأعمال الإنسان إنما هي نفسه ، فهو لا يطلب شرف النفس ، ولا يسعى للتجمل به ، إلا لطمعه في توفير رزقه ، وتوسيع سبل معيشته ، وخوفه من ضيق مسالك العيش عليه ، فإنه يعلم أن شرف النفس يرد إلى صاحبه شوارد القلوب ، ويجعله مكان ثقتها ، ويظهره في بهاء الصدق والأمانة ، فيعظم الركون إليه ، وتكثر أعوانه ، وفي ذلك توفر أسباب المعيشة ، واتساع طرقها .

بخلاف من تلتاث نفسه بالخسة ، فذلك مقذوف القلوب ، منبوذ الطباع ، لا ينبسط إليه النظر ، ولا يحوم عليه الخاطر ، فهو قليل الأعوان ، عديم الإخوان ، ومن

كان هذا حاله، سدت عليه أبواب الرزق واكتنفته غائلات الفاقة، فيكون ميل الإنسان إلى شرف النفس، ودرجته من القوة والضعف، وتمكنه من نفسه، وعدم تمكنه، ومراتب أثره في كبح الشهوات وردها عند تخوم العدالة، إنما هو على حسب أحوال الطبقات في معائشهم، بمعنى أن كل طبقة من الناس تطلب من تلك الصفة ما ينفعها في معيشتها، ويحفظها من طارقة السوء، بل لا ترى كل طبقة أن شيئًا يعد من الشرف، إلا تلك الصفة التي تحفظ بها المنزلة، وتصان بها مواد المعيشة، وما زاد على ذلك فلا يعد فقدانه نقصًا، ولا الخلو عنه انحطاطًا، فلا تسعى لاستحصاله، وإن عده قوم آخرون من جوهر الشرف، ومن مقومات الكمال.

وإن لنا عبرة في أغلب السلاطين والأمراء، فإنهم مع أخذهم بمذاهب الشرف، لا يبالون بنقض العهود، وخفر الذمم[1]، خصوصًا مع من دونهم في السلطان، ومن لا يضارعهم في القوة، ولا يأنفون الظلم، ولا ينكرون الغدر، ولا يتجافون مذمة من تلك المذام، ولا يعدون شيئًا منها خسة، ولا يحسبونه من غاشيات الدناءة، مع أن واحدًا من هذه الفعال، لو صدر من آحاد الرعية ـ بعضهم مع بعض ـ لعد من دنيات الفعال، ورمي فاعله بخسة النفس وسقوطها عن مراتب الشرف.

ومن هذا الوجه كان الخلل يعرض لنظام المعيشة؛ حيث إن سائر الطبقات لا ينظرون إلى ما يصدر عن أمرائهم ورؤسائهم نظرهم إلى ما يصدر عن آحادهم، فهم يذهبون مذهب التأويل في أعمال الرؤساء والكبراء.

وهكذا حال الطبقات العالية بالنسبة لما دونها ـ طبقة بعد طبقة ـ أي أن كل طبقة عالية تزعم نفسها مصونة من المثالب، محفوظة من الشنائع، ومنزلتها ممن دونها تحمل الأدنين على الإقرار لها بما تزعم.

فلو كان قوام النظام في العالم الإنساني بشرف النفس، لانطلقت أيدي العدوان من الطبقات الرفيعة فيما دونها، وتفتحت أبواب الشر والفساد في وجه هذا النوع الضعيف.

هذا كله إذا فرضنا وقوف كل طالب لشرف النفس عندما يظنه شرفًا، لا يخالفه

---

(١) خفر الذمم: نقض العهود.

إلى سواه، لا خفية، ولا جهرة، لكن حيث كان الباعث على التجمل بهذا الوصف إنما هو الرغبة في تحسين المعيشة، والفرار من مضانكها[١]، فقلما يستوي ظاهر الإنسان وباطنه في هذه الصفة، فهو في معلنات أموره يسلك سبل الشرف؛ لينال حظه من ميل القلوب إليه، ثم لا يمنعه ذلك من غشيان الخيانة الخفية، وغمس يده في قذر العدوان من وراء حجاب التستر، وبسط كفه لتناول الرشوة في زوايا المحاكم؛ لأن طالب خفض العيش يعرف أن هذه الخبائث الخفية، تصل به إلى مقصده من السعة على أمن من الاشتهار بصفة الدناءة، وذلك معروف من أحوال المذاعين الظاهرين في ثياب الشرف والعفة، والله أعلم ماذا يسترون تحت ذيولهم، وما يضمرون دون جيوبهم، وما يختزنون من الأموال في زوايا بيوتهم.

فإذن لا يليق بذي عقل أن يجعل شرف النفس ميزانًا للعدل، ولا مكان للظن بأن هذه الصفة تقف بكل عند حده، وترضيه بحقه، وتكف النفوس عن غصب الحقوق، وتدفعها عن الجور، وتمنعها عن الحيف ما ظهر منه وما بطن.

فإن قال قائل: إن حب المحمدة مما أشربته قلوب البشر، وهو باعث على الاستمساك بشرف النفس لما يستعقبه من حسن الحمد، فكل ذي فطرة إنسانية يسعى لكسب المحمدة، لا بد له أن يطلب الغاية من خلة الشرف النفسي، وينزه نفسه عن جميع الرذائل، ويرفعها عن معاطاة الدنايا والخسائس، ويبتعد بها عن مخالج الحيف والعدوان، فنقول في جوابه:

أولاً: إذا تعارض موجب المدح والثناء، ومقتضى الشهوات البدنية، فقليل من الناس من يختار الأول على الثاني، والجمهور الأغلب مغلوب للشهوة، مأسور للذة، والنظر في طبقات الناس وأحوالهم على اختلافهم يثبت لنا ذلك.

ثانيًا: أن صاغة المدائح، ونساج المحامد، صنف من الناس أشباه إنسان، وأسناخ حيوان، أولئك المعروفون بالمؤرخين والشعراء الكاذبين، ولا باعث لهؤلاء على نشر المحامد ونظم القصائد، إلا نضارة الثروة في الممدوحين، ورونق الجاه والجلالة في المحمودين، من غير نظر إلى مناشئ الجاه، ولا موارد الثروة.

---

(١) عيشة ضنك: ضيقة.

فمناط الحد إحدى البسطتين، وإن حفت بالمظالم، وأحيطت باللوائم، ولهذا تنبعث نفوس كثير من الناس للوصول إلى هذه المظاهر، فيطلبون الغنى والثروة والجاه والعظمة، ولو كان ذلك من وجوه الغدر، وطرق الحيف والظلم؛ لينالوا بذلك حظهم من اللذائذ البدنية، كما يصيبون سهمهم من المدائح على ألسنة أولئك المدلسين، وليس بكثير في الناس طلاب المحمدة الحقة، اللاقطون لدرر المدائح من باحات الفضائل، وساحات المكارم، المرتادون للحمد بين حدود الحق، وأولئك الحافظون لشرف النفس، وقليل ما هم.

فلم تبق ريبة في قصور هذه الخلة ـ أعني شرف النفس ـ عن الكفاية في تعديل الأخلاق، وتحديد الشهوات، وحجب العدوان، وحفظ النظام الإنساني، اللهم إلا أن تكون مستندة إلى عقيدة في دين، وتكون حقيقتها محدودة في ذلك الدين، فعند ذلك تكون دعامة لبناء الشركة الإنسانية، ومعقداً لروابط الألفة، وسبباً لانتظام سلسلة المعاملات؛ لاستنادها على الدين، لا بنفسها مجردة، كما مرت الإشارة إليه في صفة الحياء.

٣ـ الحكومة:

ليس بخاف أن قوة الحكومة إنما تأتي على كف العدوان الظاهر، ورفع الظلم البين، أما الاختلاس، والزور المموه، والباطل المزين، والفساد الملون بصبغ من الصلاح، ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه، وأن يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل، وكامنات الدسائس، ومطويات الخيانة، ومستورات الغدر، حتى تقوم بدفع ضرره؟!

على أن الحاكم وأعوانه قد يكونون ـ بل كثيراً ما كانوا ـ ممن تملكهم الشهوات، فأي وازع يأخذ على أيدي أصحاب السلطة، ويمنعهم من مطاوعة شهواتهم المتسلطة على عقولهم؟ وأي غوث ينقذ ضعفاء الرعايا وذوي المسكنة منهم، من شر أولئك المتسلطين وحرصهم؟

لا جرم قد يكون الحاكم ـ في خفي أمره ـ رئيس السارقين، و ـ في جلي حاله ـ

قائد الناهبين، وأعوانه آلات يستعملها في الجور، وأدوات يستعين بها على الفساد والشر، فيعطلون من حقوق عباد الله، ويهتكون من أعراضهم، ويغنمون من أموالهم، يروون ظمأ شهواتهم بدماء الضعفاء، وينقشون قصورهم بمهج الفقراء، وبالجملة: يكون مبلغ سعيهم هلاك العباد، ودمار البلاد.

٤ ـ الاعتقاد بالألوهية:

فإذن لم يبق للشهوة قامع، ولا للأهواء رادع، إلا الأمر الرابع، أعني الإيمان بأن للعالم صانعًا، عالمًا بمضمرات القلوب، ومطويات الأنفس، سامي القدرة، واسع الحول والقوة، مع الاعتقاد بأنه قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه في حياة بعد هذه الحياة.

وفي الحق أن هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات، ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه، وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر، ويستأصلان مادة التدليس، وهما أفضل وسيلة لإحقاق الحق والتوقيف عند الحد، وهما مجلبة الأمن، ومتنسم الراحة، وبدون هذين الاعتقادين، لا تقرر هيئة للاجتماع الإنساني، ولا تلبس المدنية سربال الحياة، ولا يستقيم نظام المعاملات، ولا تصفو صلات البشر، من شائبات الغل، وكدورات الغش.

فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين، لسكنتها شياطين الرذائل، وسدت عليها طرق الفضائل، ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة، أو يترفع بها عن كذب، وغدر، وتملق، ونفاق؟!

وقد تقرر أن العلة الغائية لأعمال الإنسان، إنما هي نفسه ـ كما سبق ـ فإن لم يؤمن بثواب وعقاب، وحساب وعتاب، في يوم بعد يومه، فما الذي يمنعه عن ذمائم الفعال، خصوصًا إذا تمكن من إخفاء عمله، وأمن من سوء عاقبته في الدنيا، أو رأى منفعته الحاضرة في ركوب طريق الرذيلة، والعدول عن سنن الفضيلة، وأي حامل يحمله على المعاونة والمرادفة، والمرحمة والمروءة، وعلو الهمة، وما يشبه ذلك من الأخلاق التي لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها؟!

ولئن وجد في أحد الجاحدين شيء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد، أو كان أبتر ناقصًا، لفقد ما يمده من سائر صفات الكمال.

وقد تبين أن أول تعاليم النيتشريين «الدهريين» إبطال هذين الاعتقادين: الاعتقاد بالله، والاعتقاد بالحياة الأبدية، وهما أساس كل دين، وآخر تعاليمهم: الإباحة والاشتراك، فهؤلاء القوم هم الساعون في نسف بناء الإنسانية، وتذريته في ذيول السافيات(١)، يطلبون ضعضعة أركان المدنية، وفساد الأخلاق البشرية، ويقوضون بذلك ما رفعه العلم، وشادته المعرفة، فيهلكون الأمم بإطفاء حرارة الغيرة، وإخماد ريح الحمية.

هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة، وأرومات الرذالة والدناءة، وأحلاس(٢) الخسة والنذالة، وأعلام الكذب والافتراء، ودعاة الحيوانية العجماء، محبتهم كيد، وصحبتهم صيد، وتوددهم مكر، ومواصلتهم غدر، وصداقتهم خيانة، ودعواهم للإنسانية حبالة(٣)، ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة.

يخونون الأمانة، ولا يحفظون السر، ويبيعون ألصق الناس بهم، بأدنى مشتهياتهم.

عبيد البطون، وأسراء الشهوات، لا يستنكفون من الدنية، إذا أعقبتها عطية، ولا يخجلون من الفضيحة، إذا تبعتها رضيخة(٤)، لا علم عندهم بالوقار، ولا إحساس لهم بالعار، ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر، ولا وصل إليهم عن الهمة عبارة معبر، أو تفسير مفسر، الابن فيهم لا يأمن أباه، والبنت لا أمان لها من كليهما.

نعم، أي حد تقف دونه حركات طبع «الطبيعيين»؟

قد يوجد بين الناس من تغره نعومة لمس هذه الأفاعي، وتروقه رقطة جلودها،

---

(١) سفت الريح التراب: ذرته أو حملته، فهي سافية، وجمعها: سافيات وسواف.

(٢) حلس جمعه أحلاس: الملازم الذي لا يبرح، كأنهم لا يصلحون إلا للخسة والنذالة.

(٤) الحبالة: المصيدة.

(٥) الرضيخة: العطية القليلة، ومثلها الرضاخة، ورضخ: أعطى قليلاً.

وانتظام الرقش فيها، فينخدع لهم بما يلتبس عليه من أمرهم فيصغي لزخرف قولهم، ويظن أن هؤلاء القوم من طلاب التمدن والأعوان على الإصلاح، أو من الراغبين في بث المعارف، أو المنقبين عن الحقائق، أو يتخيل أن منهم من يكون عونًا عند الضيق، أو عونًا في الشدة، أو مخزنًا للأسرار عند الحاجة، فذلك المغرور بمظاهر هذه الطائفة لا محالة يبكى عليه، ويضحك منه، فالضحك عجبًا من غروره، والبكاء حزنًا على ضلاله.

فتبين مما قررناه أن الدين وإن انحطت درجته بين الأديان، ووهي أساسه، فهو أفضل من طريقة الدهريين، وأمس بالمدنية، ونظام الجمعية الإنسانية، وأجمل أثرًا في عقد روابط المعاملات، بل في كل شأن يفيد المجتمع الإنساني، وفي كل ترق بشري إلى أية درجة من درجات السعادة في هذه الحياة الأولى.

ولما كان نظام الأكوان، قد بني على أساس الحكمة، ونظام العالم الإنساني جزء من النظام الكوني، ألهم الله نفوس البشر أن تفزع إلى مقاومة أولئك المفسدين «الدهريين» في أي زمان ظهروا، ومدافعة ما يعرض من شرهم، كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة، والنفرة من الأغذية السامة، وأنهض حفاظ النظام المدني الحقيقي - وهو الدين - لبذل الجهد، وإفراغ الوسع في محو آثارهم، واستئصال ما يغرسون من[1] تعاليمهم.

لا جرم أن مزاج الإنسان الكبير - يعني عموم النوع - بما أودع الله فيه من الشعور الفطري - وهو أثر الحكمة الإلهية العامة - يمج هؤلاء الخونة، ولا يحتمل وجودهم في باطنه، فيدفعهم كما تدفع الفضلات من المعدة، أو الذنانة[2]، من المنخر، أو النخامة من الصدر. لهذا تراهم، وإن حلوا بعض منازل الأرض من زمان بعيد، وأيدهم بعض النفوس الخبيثة من ذوي الشوكة لأغراض سافلة، إلا أنهم لم يثبتوا، ولم يتم لهم أمر، بل كان عارض السوء منهم كسحاب الصيف، كلما ظهر تقشع،

(١) في الأصل: «في».
(٢) ذن المخاط: سال، الذنان: المخاط.

والنظام الحقيقي لنوع الإنسان ـ وهو الدين ـ لم يزل مستقرا راسخًا، في جميع الأجيال، وعلى أي الأحوال.

فلم تبق ريبة أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان، فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه، ولا يعرفونه، فلا ريب أنه يكون سببًا في السعادة التامة والنعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري والمعنوي، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهري، والباطني، ويرفع أعلام المدنية لطلابها، بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين.

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وهذا آخر ما دعت إليه الحاجة، من المقابلة بين مذهب الدهريين وبين الدين على وجه عام، وأثر كل من الأمرين في بنية الاجتماع الإنساني.

* * *

الفصل السادس

الدين وسعادة البشر

الإسلام يحقق السعادة البشرية، والدهريون يهدمونها ويهدمون النظام البشري.

أقيم الإسلام على أساس من الحكمة متين، ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين؛ ذلك أن عروج الأمم على معارج الحق الأعلى، وتدرج الشعوب في مدارج العلم الأجلى، وصعود الأجيال على مراقي الفضائل، وإشراف طوائف الإنسان على دقائق الحقائق، ونيلهم السعادة الحقيقية في الدارين، كل ذلك مشروط بأمور لا يتم إلا بها.

الأمور التي تتم بها سعادة الأمم

الأول: صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام، فإن عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل، لقامت حجابًا كثيفًا يحول بينه وبين حقيقة الواقع، ويمنعه من كشف نفس الأمر، بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية، وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله، فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال، ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق، وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفوس، من الوحشة وقرب الدهشة، والخوف مما لا يخيف، والفزع مما لا يفزع.

ترى الواهم المسكين يقضي حياته بين رجفة، واضطراب، يتطير من طيران الطيور وحركات البهائم، ويضطرب من هبوب الرياح، وينزعج لقصف الرعد والتماع البرق، ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له في الإخافة، وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة، ثم يكون ألعوبة في أيدي المحتالين، وصيداً في حبائل الماكرين والدجالين.

وأول ركن بني عليه الدين الإسلامي صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله متفرد بتصريف الأكوان، متوحد في خلق الفواعل والأفعال، وأن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جماد - علويا كان أو سفليا - بأن له في الكون أثراً بنفع أو ضر، أو إعطاء أو منع، أو إعزاز أو إذلال، ومن المفروض خلع كل عقيدة بأن الله - جل شأنه - ظهر أو يظهر بلباس البشر أو حيوان آخر لصلاح أو فساد، أو أن تلك الذات المقدسة نالت في بعض أطوارها شديد الآلام وأليم الأسقام لمصلحة أحد من الخلق، فضلاً عما يحف بذلك من خرافات، كل واحدة منها كافية في إعمال[1] العقول وطمس نورها.

وأغلب الأديان الموجودة لا يخلو من هذه الأوهام، إن شئت فاضرب بنظرك إلى ديانة براهما في الهند، ودين بوذا في الصين، ودين زرادشت، وكثير من أديان أخرى.

* * *

الأمر الثاني: أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف، طامحة إلى بلوغ الغاية منه، بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الإنساني، ما عدا رتبة النبوة، فإنها بمعزل عن المطمع، وإنما يختص الله بها من شاء من عباده، ولا يذهب وهم أحد من الأمة إلى أنه ناقص الفطرة، منحط المنزلة، فاقد الاستعداد لشيء من الكمالات، فإذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة - أعني الإقبال على وجوه الشرف - تسابق كل مع الآخر في مجالات الفضائل،

---

(١) كذا، والمناسب: في إخماد.

وتمادت بهم المجاراة إلى محاسن الأعمال، فبلغ كل واحد ما أتى عليه سعيه من عاليات الأمور وشرائف المراتب.

ولو أن قومًا أساءوا الظن بأنفسهم، واعتقدوا أن نصيبهم من الفطرة نقص الاستعداد وخسة المنزلة، وأن لا سبيل لهم إلى الوقوف في مصاف غيرهم من طبقات الناس، فلا ريب يسقط من هممهم على مقدار ما ظنوا في أنفسهم، وبذلك يتولى النقص أعمالهم، ويملك الخمود عقولهم، فيحرمون معظم الكمالات البشرية، وينقطعون دون كثير من مقامات الشرف الدنيوية، وتكون جولتهم في دائرة ضنكة، محيطها دون ما ظنوا بأنفسهم.

إن دين الإسلام فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس، وكشف لها عن غايته، وأثبت لكل نفس صريح الحق في أي فضيلة، وأنبأ كل ذي نطق بوفرة استعداده لأي منزل من منازل الكرامة، ومحق امتياز الأجناس. وتفاضل الأصناف، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسي لا غير.

فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة، وقد لا نجد من الأديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة، فلديك دين «براهما» قسم الناس إلى أربعة أقسام: أحدها «برهمن»، وثانيها «جهتري» وثالثها «ويش»، ورابعها «شودر»، وقرر لكل منزلة من كمال الفطرة لا يجاوزها، فأعلى منازل الكمال للبرهمن، ويليها منزلة الجهتري، والصنف الرابع أخسها وأدناها في جميع المزايا الإنسانية.

وكان هذا التقسيم سببا في انحطاط المتدينين بهذا الدين، وقصور خطاهم عن الرقي في مدارج المدنية، وانحسار أفكارهم دون الوصول إلى ما يطلبه استعدادهم من المعارف الصحيحة والعلوم الحقة، مع أنهم أقدم الأمم وأسبقها نظرا في الكون وشئونه.

ومن الأديان ما يغلب اليوم على أمم من البشر، وفي أصول[1] تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب، كشعب إسرائيل مثلا، وكتابه المعروف يخاطب أبناء ذلك الشعب بالكرامة والإجلال، ويذكر غيرهم بالتحقير والإهانة. نعم جاء

---

(١) كذا، والمناسب: وفي أصوله.

رؤساء ذلك الدين وانسلوا من هذا الحكم، وأغفل فيما بينهم، حتى كأنه لم يكن من دينهم، إلا أن ما سلبوه من الكرامة عن غيرهم انتحلو لأنفسهم، فارتفع امتياز الجنسية من بين أهل الدين، وخلفه امتياز الصنفية، فسمت منزلة الرؤساء الروحانيين في قلوب الآخذين بدينهم، حتى صار من عقائدهم أن صنفا من الناس على منزلة القرب إلى الله، بحيث لا يردّ الله له طلبه، ثم الحجاب بين الله وبين سائر الأصناف، لا يقبل الله من أحد صرفا ولا عدلا، ولا يعتد له[1]، ولا يغفر له ذنبا بتوبة، حتى يتوسط له أهل طبقة الرئاسة، فعندهم أن كل نفس ـ وإن بلغت من الكمال ما بلغت ـ ليس فيها ما يؤهلها لعرض ذنوبها على أبواب العفو الإلهي، ولا أن ترفع إليه طلب المغفرة لخطيئاتها، بل لا بد في قبول ذلك منها أن يكون بواسطة الرئيس الديني، ومن آمن بالله، وصدق به، وأخذ بأحكامه، لا ينظر الله لإيمانه، حتى ينظر إليه الرئيس الديني، ويعتده إيمانًا، واستندوا في هذه العقائد على نصوص من كتابهم، تفيد أن ما يحلونه في الأرض يكون محلولا في السماء، وما يعقدونه في الأرض يعقد في السماء، وقد جلبت هذه العقيدة على أهل هذا الدين شقاء طويلا، وألقت بهم في جهالة عمياء وذلة خرساء زمنا مديدا، حتى ظهر فيهم مجددون نقضوا ذلك العقد، وخالفوا فيه ما اشتهر من نصوص الكتاب، وقلدوا في ذلك الدين الإسلامي وسموا مذهبهم الإصلاح، ونشروه في ممالك متعددة، فلم يلبث قومهم بعد ذلك أن تكشفت عنهم جهلات[2]، وحلت من أعناقهم ربق، ونهضوا من حضيض ذلة إلى ذروة رفعة، فنطقوا بعدما صمتوا، وعلموا بعدما جهلوا، وحكموا بعدما حكموا، وسادوا بعدما سيدوا.

* * *

الأمر الثالث: أن تكون عقائد الأمة ـ وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها ـ مبنية على البراهين القوية والأدلة الصحيحة، وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون في عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها، فإن معتقدا لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة، قد لا يكون موقنا، فلا يكون مؤمنا.

---

(١) كذا، والمناسب: ولا يعتد له بعمل صالح.

(٢) جمع جهلة: بمعنى الجهل.

هذا، والأخذ في عقائده بالظن ينصب عقله على متابعة الظنون، والقانع بأن آباءه كانوا على مثل عقيدته فأولى به أن يكون عليها، يلتقي مع سابقه في مضارب الوهم وفجاج[١] الظن، وأولئك المتبعون للظن القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عند ما تعودت إدراكه، فلا يذهبون مذاهب الفكر، ولا يسلكون طرائق النظر، وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج، ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر، فيحيط بهم الشقاء، ويتعثر بهم البخت، وبئس المآل مآلهم.

فإن كان لا بدّ من الاستئناس لما نقول بقول أوروبي، فهذا «كيزو» الفرنسي صاحب تاريخ «سيڤيليزاسيون» - أي التمدن الأوروبي - قال: إن من أشد الأسباب أثرا في سوق أوروبا إلى تمدنها ظهور طائفة في تلك البلاد، قالت: إن لنا حقا في البحث عن أصول عقائدنا وطلب البرهان عليها، ولو كان ديننا هو الدين المسيحي، وعارضها كثير من رؤساء الدين، ومنعوها ما ادعت من الحق، محتجين عليها بأن بناء الدين على التقليد، فلمّا أخذت تلك الطائفة قوتها، وانتشرت أفكارها، نصلت[٢] عقول الأوروبيين من علة الغباوة والبلادة، ثم تحركت في مداراتها الفكرية، وترددت في المجالات العلمية، وكدحت لاستحصال أسباب المدنية.

إن الدين الإسلامي يكاد يكون متفردا من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكيت الخابطين في عشواء العماية والقدح في سيرتهم، هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة، وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة، وبرفع أركان الحجة لأصول من العقائد، كل منها ينفع العامة ويفيد الخاصة، وكلما جاء بحكم شرعي أتبعه ببيان الغاية منه في الأغلب، راجع القرآن الشريف.

---

(١) الفج جمعه فجاج: الطريق الواسع بين جبلين.
(٢) خرجت.

وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة.

ومن الأديان الظاهرة ما بني أعظم أركانه على أصل الكثرة في الواحدة، أو الوحدة في الكثير، وأن الواحد يكون أكثر، والكثير يكون واحدا مما تنبذه بداهة العقل. فلما أنكر العقل أصله هذا، أجمع أهل الدين على أنه فوق نظر العقل، فلا ينال الكفر دركه، لا بالكنه ولا بالوجه، ولا يهتدي لدليل عليه ولا مرشد إليه، يريدون أنه لا بد من تنكب طريق العقل ونبذ أحكامه، حى يمكن الإيمان بهذا الأصل، مع أن العقل مشرق الإيمان فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان، وإن فرقا بين ما لا يصل العقل إلى كنهه، لكنه يعرفه بأثره، وبين ما يحكم العقل باستحالته، فالأول معروف عند العقل يقرّ بوجوده، ويقف دون سرادقات عزته، أما الثاني فمطروح من نظره، ساقط من اعتباره لا يتعلق به عقد من عقوده، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟!

وأما أصول دين براهما، فمن البين لكل ناظر فيها أن أغلبها مخالف لصريح العقل، وذلك من جليات المسائل، سواء اعترف أهل هذا الدين بثبوته أو كابروا بإنكاره.

* * *

الرابع: أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة لا ينون في تنوير عقولهم بالمعارف الحقة وتحليتها بالعلوم الصافية، ولا يألون جهدا في تبيين طرق السعادة لهم والسلوك بهم في جوادها، ثم طائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيف أودها[١]، وتكشف عن الأصاوف الفاضلة وحدودها، وتمثل للمدارك فوائدها ومحاسن غاياتها، وتفضح مستور الرذائل، وتشق الحجاب عن مضارها وسوء منقلب المتدنسين بها، وتشتد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تلهيها عنهما غفلة، ولا تردها عنهما صعوبة؛ وذلك أن بداهة العقل حاكمة بأن جل المعارف البشرية والعقائد الدينية مكتسبة، فإن لم يكن في الناس

---

(١) أي تقويم اعوجاجها.

معلم قصرت العقول عن درك ما ينبغي لها دركه، وانقطعت دون الكفاية مما يلزم لسد ضرورات الحياة الأولى والاستعداد لما يكون في الأخرى، وساوى الإنسان في معيشته سائر الحيوانات، وحرم سعادة الدارين، وفارق هذه الدنيا على أتعس الأحوال.

* * *

فإذن من الواجب الديني إقامة معلم، والشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حد تقف عنده، ولا لرغائب الأنفس غاية تنقطع عندها، فإن فقد من بين الناس مقوم النفوس ومعدل الأخلاق، طغى سلطان الشهوة، واندفع إلى الحيف والإجحاف، ومن طغت بهم شهوتهم سلبوا راحة غيرهم وهتكوا ستر أمنهم، ثم هم لا ينفلتون من غائلة أعمالهم، بل يحترقون بنيران شهواتهم، فيرافقون الدنيا على عناء، ويفارقونها إلى شقاء.

فإذن لا بد من الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر القائم بتقويم الأخلاق، وإن من أهم الأركان الدينية في الديانة الإسلامية هاتين الفريضتين «نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر»، راجع القرآن الشريف: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1] وغير هذه الآيات كثيرة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[2] وسواها آيات، وقد برز دين الإسلام على غالب الأديان في العناية بهذين الأمرين.

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) التوبة: ١٢٢.

فهارس

الآيات، الأعلام، الأماكن

وملحق

فهرس الآيات

* * *

فهرس الأعـــلام

فهرس الأماكن

* * *

دربارهٔ این مجموعه
ورسالهٔ مرآة العارفین

در مقدمه عربی این کتاب نوشته ام که این جانب متجاوز از پنجاه سال است که آثار ونوشته های سید جمال الدین حسینی اسد آبادی معروف به «افغانی» رابه هر نقطه ای از جهان که رفته ام، جمع آوری نموده ام ودر همین رابطه، مقالات وکتابها، عکسها واسناد بسیاری به دستم رسیده که متأسفانه بخش عمده ای از آنها تاکنون در اختیار عموم قرار نگرفته است وبی تردیداگر قرار بگیرد، تاریخ نگاری درباره سید وشناخت مقام علمی، فلسفی وسیاسی وی، آسانتر خواهد شد وبسیاری ازنکات «تاریک شده»! روشن خواهد گردید.

برای رفع این نقیصه، نگارنده «مجموعة آثار» واسناد سید را در ده مجلد ـ حدود ۳۰۰۰ صفحة ـ وآثار دیگران را درباره سید ـ در ده مجلد وحدود ۳۰۰۰ صفحه ـ جمع آوری وآماده نشر نموده ام که با تحقیقات وتوضیحات این جانب، قرار بود در یکصدمین سال میلاد وی وبه مناسبت «انعقاد کنگرة بین المللی جمال الدین» در تهران (۱٤۱۷ هـ. ق) چاپ ونشر گرددکه متأسفانه به علت خلف وعده بعضی از دوستان فرهنگی مسئول! این آرزو جامه عمل به خود نپوشید وفقط دو جلد از مجموعه آثار عربی سید: «العروة الوثقی» و«رسائل فی الفلسفة والعرفان» به چاپ رسید که آن هم بصورت محدودی توزیع گردید.

واکنون همان دو کتاب، با تجدید نظر وإضافات ـ مثلاً افزودن ۳۲ صفحه به «رسائل فی الفلسفة والعرفان» ـ همین کتاب ـ برای بار دوم چاپ می شود، به امید

آنكه اين بار در سطح وسيع ترى توزيع گردد ودر اختيار عموم علاقه مندان در ايران وكشورهاى اسلامى ديگر، قرار گيرد.

* * *

. . . در اين كتاب، براى نخستين بار دو رساله خطى سيد ـ موجود در كتابخانه مجلس شوراى اسلامى ـ تحت عنوان «مرآة العارفين» و«الواردات فى سر التجليات» پس از تحقيق وافزودن توضيحات لازم در پاورقى ها توسط اين جانب، همراه چند رساله ديگر وى، به چاپ رسيد كه مورد توجه علاقه مندان قرار گرفت. . وخوشبختانه در استمرار همان تحقيق وبررسى درباره آثار سيد، نسخه خطى ديگرى از رسالة «مرآة العارفين» در «مركز اسناد وزارت امور خارجه» به دست آمدكه جز «مخطوطات» اين مركز است واز سوى نما يندگى دولت ايران در هند ـ حيدر آباد ـ در دهها سال پيش، به تهران ارسال شده وخوشبختانه در بين اسناد وزارتى، محفوظ مانده است.

اين رسالة خطى، در ضمن مجموعه اى «تجليد» شده، كه شامل سه رساله است:

١ ـ تحفة السفرة، إلى حضرة البررة.

٢ ـ مرآة العارفين فى ملتمس زين العابدين.

٣ ـ حقيقة الموافقة للشريعة! رسائل اين مجموعة كه به زبان عربى است واز نما يندگى إيران در «حيدرآباد» به «تهران» ارسال شده است با جلد مقوائى وروكش آبى رنگ در ابعاده ١٥ × ٢٣ سانتيمتر، داراى ٩٤ صفحه است. عناوين واشكال با مركب قرمز تحرير شده است. . اين رساله ها، بطور اجمال معرفى مى شود:

١ ـ تحفة السفرة تا إلى حضرة البررة.

تأليف: أبى الفضل محمد بن عبد الحميد بسطامى.

اين رساله در فلسفه عملى وعرفان در ٢٢ صفحه و١٠ باب تدوين شده است. باب اول درباره «توبه» است: «. . ان التوبة فى اللغة الرجوع والإنابة وهى

قسمين : توبة العوام وتوبة الخواص . . توبه خاص الخاص توبتهم عن اشتغال القلوب بغير ذكر الله (تع) وهى مقام الأنبياء والأولياء . . » .

ابواب ديگر رساله عبارت است از : الاعتقاد ، الاخلاص ، المحبة ، الشوق ، العشق ، تزكية النفس ، اطوار القلب ، الخلوة وشرايطها وادابها . المقام والحال .

۲ ـ مرآة العارفين فى ملتمس زين العابدين .

اين رساله در ۱٤ صفحه تنظيم شده ومؤلف آن ـ كه به نظر ما سيد جمال الدين حسينى است ـ آن رابه خواهش شخصى به نام «زين العابدين» نوشته است . اين رسالة عرفانى : «فى تحقيق فاتحة الكتاب التى هى ام الكتاب بلسان اهل الله» است! ومؤلف ، در توضيح مطالب خود برخى اشكال هندسى را براى تقريب ذهن خواننده وتفهيم بهتر موضوع ، ترسيم نموده است .

۳ ـ حقيقة الموافقة للشريعة .

تأليف : محمد بن فضل الله

اين رسالة از صفحة ٤۰ تا پايان مجموعة را شامل است ودر تشريح عقايد صوفيه ، در باب جهان ، وحدت وجود وشريعت تأليف شده است .

* * *

. . . رساله «مرآة العارفين» كه ما آن رااز روى نسخه خطى موجود در كتابخانه مجلس شوارى اسلامى ـ به خط سيد جمال الدين ـ چاپ كرده ايم و او را مؤلف آن ناميده ايم ، در اين نسخه كه در «مركز اسناد وزارت امور خارجه» (به شماره ۹ ـ (۲ ـ ٤۷) ، ثبت شده است ، به نام سيد جمال الدين نيست ، بلكه با خطى غير از خط متن ، ودر قسمت بالاى صفحه اول رسالة ، تأليف آن رابه امام زين العابدين (ع) نسبت مى دهد ومى نويسد : «رسالة مرآة العارفين مصنفة حضرت سيدنا امام زين العابدين رضى الله تعالى عنه»! (به سند شماره ۱ اين موخره رجوع شود) در آخر رساله هم به خط استنساخ كننده آن ، مى نويسد : «تمت هذه الرسالة مرآة العارفين فى ملتمس امام زين العابدين عن ابيه المؤلف امام الهمام ـ امير المؤمنين ـ الحسين

الشهيد ابن اسد الله الغالب كل غالب ومطلوب كل طالب، مظهر العجائب والغرايب امير المؤمنين على ابن ابيطالب كرم الله وجهه»! (به سند شماره ٢ رجوع شود).

بی تردید این رساله، نه تألیف حضرت امام حسین (ع) ونه تألیف امام زین العابدین (ع) است. زیرا: . . . اولاً: در هیچ یک از کتب ومدارک شیعه تاکنون نامی از این رساله، که تألیف یکی از آن دو بزرگوار باشد، ذکر نشده است ونسخه ای هم در هیچ کتابخانه ای در جهان شیعه از آن وجود ندارد، که نام یکی از آن دو امام بزرگوار داشته باشد!

ثانیًا: شخصی در اول رساله ـ باخطی جدا از خط متن ـ آن رابه امام زین العابدین (ع) نسبت می دهد واستنساخ کننده، آن رادر آخر رساله به امام حسین (ع) نسبت می دهد که خود عدم صحت این دونسبت را اثبات می کند.

ثالثًا: محتوای عرفانی ـ فلسفی ـ وحدت وجودی رساله، به خوبی نشان می دهد که تألیف آن مربوط به یکی دو قرن اخیراست واصطلاحات به کار رفته در آن، بی تردید در هزار ودویست سال قبل مورد استفاده نبوده است!

رابعًا: به نظر می رسد سید این رساله رابه درخواست شخصی به نام «زین العابدین» نوشته است، هما نطور که ـ رساله «نیچریه» رابه درخواست «مولوی محمد واصل» تألیف کرده ویا مطالب رساله «الواردات» را ـ طبق نوشته محمد عبده در مقدمه آن ـ به در خواست وی بیان داشته است. . ولی ظاهرًا استنساخ کننده نسخه، با دیدن نام «زین العابدین» ـ وافزودن نام امام بر آن ـ تألیف آن رابه امام حسین (ع) نسبت داده است که بدون شک صحیح نیست. . .

ودر نسخه ای که به خط خود سید جمال الدین است (نسخه کتابخانه مجلس شورای اسلامی) جملاتی که در صفحه آخر نسخه دوم (نسخة مرکز اسناد وزارت امور خارجه) آمده است، وجود ندارد وظاهرًا استنساخ کننده، با توجه به محتوای عرفانی رساله ونام «زین العابدین» ـ که مؤلف او را فرزند خود می خواند! ـ تألیف آن رابه امام حسین (ع) نسبت داده است. . .

به هرحال: ما نمونه دو صفحه اول وآخر نسخه دوم این رساله خطی رادر آخر کتاب می آوریم ودر اول این کتاب هم صفحه آخر آن راکه با خط سید وامضای وی است، نقل کرده ایم واین نسخه، جز در یکی دو مورد ـ ترسیم اشکال هندسی ـ هیچ فرقی با نسخه موجود به خط سید ندارد.

امیدواریم که خداوند این خدمت را از ما بپذیرد واگر دوستان ومحققان عالی مقام اطلاع خاصی در این زمنیه داشته باشند، انتظار می رودکه ما را از معلومات خود محروم نسازند!

* * *

این کتاب در این چاپ، شامل دو مقدمه مشروح از دکتر علی زیعور استاد دانشگاه بیروت ودکتر عبد الرحیم حسن، محقق عراقی مقیم لندن می باشدکه درباره رسائل سید بحث ویژه ای را مطرح ساخته اند. وبا این «ملحق» وفهرست آیات واعلام واماکن، در اختیار علاقه مندان قرار می گیرد.

سید هادی خسروشاهی

ـ مدیر مرکز بررسیهای اسلامی قم ـ

والسلام ـ تهران، ربیع الأول ۱٤۲۱هـ

رقم الإيداع ۲۰۰۲/۵۸۲٦

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اخرج [illegible] النون بالتدريج القلم وابرزها الى الوجود
بالوجود [illegible] وعلم بالقلم الملقب [illegible]
[illegible] الكتاب المبين ما لم تعلم
[illegible] ما في العقل [illegible]
[illegible] من يسار [illegible] من جنب آدم [illegible] تعالى الذي
خلقكم من نفس واحدة وهي العقل وجعل منها زوجها وهي النفس
وبث منهما رجالا كثيرا ونساء فهي العقول والنفوس [illegible] في الهباء
الموسوم بالهيولى [illegible] العالم [illegible] السموات والارض
الكلي [illegible] الاعظم [illegible] من عين الاعيان الفيض
[illegible] بالفيض المقدس المقدم [illegible]
[illegible] اما المسطور [illegible]
عدما [illegible] الرسالة [illegible] مرآة العارفين في ملتمس امام زين العابدين عن اسم المؤلف امام
الهمام حسين الشهيد ابن اسد الله الغالب [illegible] ومطلوب كل طالب [illegible]
[illegible] امير المؤمنين علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه
[illegible] الكتاب بعون الله الوهاب

صفحه اول و آخر نسخه موجود در مرکز اسناد وزارت امور خارجه ایران

بسم الله الرحمن الرحيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسائل والمقالات

الكتاب : **الرسائل والمقالات**
المؤلف : السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني
إعداد وتقديم : سيد هادي خسرو شاهي
الطبعة الأولى ـ القاهرة
تاريخ النشر : ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

مكتبة الشروق الدولية

القاهرة ـ كوالالمبور ـ جاكارتا ـ لوس أنجلوس

تليفون وفاكس : ٢٥٦٥٩٣٩ ـ ٤٥٤٤٤٦٧ ـ تليفون : ٤٥١٩٦٢٨

Email : adel almoalem<shoroukintl@Yahoo.com>

الآثار الكاملة

(٣)

السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني

الرسـائل والمقـالات

إعداد وتقديم

سيد هادي خسرو شاهي

مكتبة

الشروق الدولية

الفهـرسـت

الموضـــوع **الصفحة**

الموضـــوع **الصفحة**

رســائل ومقــالات

مجموعة «رسائل ومقالات» به زبان عربي، درواقع دومين مجموعة از مقالات وآثار: فكرى، فرهنگى، سياسى واجتماعى سيد جمال الدين حسينى ـ اسد آبادى است كه به تناسب زمان ودر مكان هاى مختلف از جمله: هند، ايران، مصر، افغانستان، فرانسه وانگليس، آنها رابه رشته تحرير در آورده كه در جرائد ومجلات آن دوران وآن كشورها، به چاپ رسيده است.

مجموعة اول «رسائل ومقالات» كه شامل تقريبًا تمامى مقالات ورساله هاى بدست آمده سيد به زبان فارسى است، چندى پيش تحت همين عنوان: «مجموعة رسائل ومقالات» در ۳۲۰ صفحه ودر ضمن همين سلسلة: «الآثار الكامله» ـ مجموعه آثار ـ منتشر گرديد ومورد توجه واستقبال اهل علم وفضل ودوستان حق وحقيقت واقع گرديد.

اينكـ وبراى نخستين بار مجموعة تقريبًا كاملى از مقالات ورساله هاى عربى سيد (كه هيچكدام از آنها در مجموعة فارسى نيست) در اختيار علاقمندان قرار مى گيرد و البته اين مجموعة عربى، غير از مجموعة ديگرى از چند رساله وبحث سيد به عربى است كه با توجه به موضوعات فكرى ـ فلسفى آنها، تحت عنوان: «رسائل فى الفلسفة والعرفان» با تحقيق ومقدمة اينجانب، چندى پيش چاپ ومنتشر كرديد ودر عرض مدت كوتاهى، به چاپ دوم رسيد وچاپ دوم آن، با اضافاتى (۳۲ صفحه) شامل دو مقدمه تحليلى ويكـ ملحق تحقيقى، يكـ ماه پيش از سوى «مركز برر سيهاى اسلامى» قم، انتشار يافت.

البته همانطور که اشاره شد، مقالات این مجموعه ـ رسائل ومقالات ـ تاکنون بصورت یک کتاب مستقل چاپ نشده است وبلکه بمعضی از آنها، برای نخستین باردر سالهای اخیر از زبانهای فرانسه وانگلیسی به عربی ترجمة شده ودر بعضی از مجلات عربی چاپ اروپا، منتشر گردیده است که اینك به یاری خدا، مجموعة کامل آنها، یکجا ودراین مجموعة، در اختیار عموم قرار می گیرد.

در مورد منابع ومأخذ اصلی مقالات این مجموعة، علاوه بر اشاره های گذرادر پاورقیها، بزودی در کتاب مربوط به «آثار سید» به تفصیل بحث خواهد شد واکنون به دلائلی، از ذکر آن منابع، خودداری می شود.

* * *

. . . هدف نخستین ما از نشر این آثار: «الآثار الکاملة» ـ مجموعة آثار ـ درواقع جمع آوری وحفظ مکتوبات ومقالات سید جمال الدین حسینی است که متأسفانه در گذشته، توجهی به این امر نشده ودر جمع آوری وتحقیق آنها، کوتاهی بعمل آمده است.

پس از این مرحله، امیدواریم که توفیق نقد وارزیابی، بررسی وپژوهش این آثار فرار برسد ودانشمندان وفضلای حوزه ها، این آثار را ـ «بمثابه ادبیات اسلامی» یک قرن ونیم پیش که موجب حرکتی بزرگ: انقلابی ـ اصلاحی، در اغلب کشورها شرق ویا مسلمان نشین شده است ودر واقع نشان دهنده، چگونگی اندیشه های یک متفکر بزرگ مسلمان است ـ مورد تحقیق وتدریس در حوزه ها وحلقه های درسی، قرار دهند.

استاد محمد رضا حکیمی درباره کتاب «العروة الوثقی» ودیگر آثار سید می نویسد: «این کتاب عروه اجتماعی وامثال آن، باید جزوکتب درسی حوزه ها قرار گیرد وهمینگونه روحانیت اسلام وبویره طلاب جوان باید درباره سید جمال الدین مطالعات بسیار داشته باشند. چرابايد افکار اجتماعی ـ اسلامی سید

جمال الدين در حوزه های علمیه، درسی نباشد، ومورد رسیدگی وتأسی قرار نگیرد؟».

از خدای بزرگ می خواهیم که ما رادر این کار خیر یاری دهد «ونیت» مارا «خالص» برای «خود» بدارد. انه سمیع مجیب.

سید هادی خسروشاهی

قم ـ مرکز بررسیهای اسلامی

ربیع الأول ١٤٢١هـ

الرسائل والمقالات

إن مجموعة «الرسائل والمقالات» التي نضعها بين أيديكم باللغة العربية، هي المجموعة الثانية من مقالات وآثار السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني، الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية وقد قام السيد بكتابتها فى فترات زمنية مختلفة وأماكن عديدة كالهند وإيران ومصر وأفغانستان وفرنسا وبريطانيا وتمت طباعتها ونشرها فى صحف ومجلات ذلك العصر، في البلدان المذكورة.

المجموعة الأولى التي تتضمن تقريبًا كافة مقالات ورسائل السيد الموجودة باللغة الفارسية، تم إصدارها قبل فترة تحت عنوان «مجموعة رسائل ومقالات» في ٣٢٠ صفحة بإطار سلسلة «الآثار الكاملة» وكانت محط اهتمام وترحيب أهل العلم والفضلاء ومحبي الحق والحقيقة.

والآن وللمرة الأولى، يسرنا أن نقدم للراغبين بالاطلاع على أعمال السيد، المجموعة الكاملة تقريبًا، لمقالاته ورسائله ـ غير المتوافرة في المجموعة الفارسية ـ وطبعًا تضاف هذه المجموعة، إلى مجموعة أخرى من رسائل وأبحاث السيد بالعربية، سبق وأن نشرناها قبل فترة تحت عنوان: «رسائل في الفلسفة والعرفان» مرفقة بدراسة ومقدمة وخلال فترة وجيزة قام «مركز البحوث الإسلامية ـ قم» بإصدار الطبعة الثانية منها مع إضافة ـ ٣٢ صفحة ـ تضم مقدمتين تحليليتين وملحقًا إضافيًا يتضمن دراسة جديدة حول رسالة «مرآة العارفين» والنسخة الخطية الأخرى التى وجدناها في مركز وثائق وزارة الخارجية، للجمهورية الإسلامية في إيران.

وكما أشرنا فإن مقالات هذه المجموعة ـ الرسائل والمقالات ـ لم تصدر، على شكل مجموعة واحدة وبكتاب مستقل، إذ إن بعضًا منها ترجم للمرة الأولى في

السنوات الأخيرة، من اللغتين الفرنسية والإنجليزية إلى العربية ونشر في بعض المجلات العربيــة الصادرة في أوروبا وها نحن بعون الله، نضع الآن المجموعة الكاملة منها، بين يدي القراء الأعزاء.

أما المصادر والمراجع الرئيسية لمقالات هذه المجموعة، فقد أشرنا إلى بعضها، بصورة عابرة في الهوامش وسنتناولها بالتفصيل في الكتاب الخاص الذى سنصدره حول: «آثار السيد» وقد امتنعنا عن التطرق إلى هذه المصادر، حاليًا لأسباب خاصة!

وفي الحقيقة إن هدفنا الأول من إصدار «الآثار الكاملة» لم يكن سوى جمع وحفظ الآثار والمقالات للسيد جمال الدين الحسيني والتي - ويا للأسف - لم يكترث بها العلماء في السابق ولم يجر جمعها ودراستها أو ترجمتها إلى اللغات الأخرى.

بعد هذه المرحلة، يحدونا الأمل بأن الوقت قد حان لنقد وتقييم هذه الآثار فينبرى العلماء والفضلاء في الحوزات العلمية، بدراستها أو ترجمتها وتدريسها في الحلقات الدراسية، لأنها تعتبر بحق بمثابة «الأدب الإسلامي الأصيل» الناتج من الثقافة الإسلامية الغنية والتي أدت إلى قيام حركة إسلامية - إصلاحية كبرى في أغلب بلدان الشرق والبلاد الإسلامية إذ إنها في الحقيقة عصارة أفكار أحد أبرز المفكرين الإسلاميين الكبار!

يقول الأستاذ محمد رضا حكيمي حول آثار السيد و«العروة الوثقى»: «إن هذا الكتاب - العروة الاجتماعية وأمثاله - ينبغي أن يدرس في الحوزات العلمية كما أن على رجال الدين المسلمين وخاصة الطلاب الشباب، أن يقوموا بإعداد دراسات كثيرة حول السيد جمال الدين . . . لماذا لا تدرس الأفكار الاجتماعية والإسلامية للسيد جمال الدين في الحوزات العلمية ولا تكون قدوة ونبراسًا للجيل الصاعد؟».

. . . نسأل الباري عز وجل، أن يأخذ بأيدينا لإنجاز هذا العمل الخيري وأن يجعل «نوايانا»، «خالصة» له جل وعلا. إنه سميع مجيب.

سيد هادى خسروشاهى

قم - مركز البحوث الإسلامية - ربيع الأول ١٤٢١هـ

١

العلة الحقيقية لسعادة الإنسان

العلة الحقيقية لسعادة الإنسان

إن الممكن بالإمكان الخاص (وهو الذى لا يلزم من وجوده ولا من عدمه محال) يكون وجوده بوجود علته وعدمه لعدمها، ولا ريب في أن السعادة من الماهيات الممكنة بالإمكان الخاص، وأنها العلة الغائية لحركة كل فرد من أفراد الإنسان، حسية كانت تلك الحركة أو معنوية إذ لو لوحظت مساعيه آناء الليل وأطراف النهار، وأخذه بوسائل الحرف من زراعة وصناعة وتجارة، وجده في تحصيل العلوم والفنون، وارتكابه المصاعب، في نيل المراتب والمناصب، لما وجد لها من باعث أو داع سوى طلب السعادة، مع أنك لا تجد من نالها أو دنا منها، ولو تنقل في مراتب الشئون، وتقلب في درجات التطورات، وما ذلك إلا لعدم تحقق علتها، فعلينا أن نبحث عن تلك العلة وعن الأسباب التي أوجبت عدم تحققها، حتى يتبين وجه ضلال طلاب السعادة عن أن يصيبوها فنقول:

إذن بين السعادة والصحة شبه كليّ، فكما أن صحة الجسم هي نتيجة ومعلولة للتناسب الطبيعي بين أعضاء ذلك الجسم وجوارحه وكمال الاعتدال فيما تكونت عنه تلك الأعضاء، وحسن قيام كل عضو منها بأداء وظيفته مع مراعاة اللوازم والشروط الخارجية من الزمان والمكان والمطعم والمشرب والملبس فيكون زوالها لزوال هذه الأمور كلها أو بعضها ـ كذلك سعادة الإنسان هي معلولة للتناسب الحقيقي في الاجتماعات المنزلية، وقيام كل من أركان المنزل بأداء وظيفته، وللتعادل التام في الائتلافات المدنية بأن تكون المدينة فيها من الحرف والصنائع ما يكفيها مؤنة الافتقار من دون نقص أو خروج عن حد حاجتها، مع حسن التعامل بين أرباب تلك الصنائع، وأن تكون أحكامها تحت قانون عدل تساوى فيه الصغير والكبير، والأمير والمأمور، وللارتباطات العادلة بين الدول بأن تقف كل دولة عند حدها،

ولا تتعدى على حقوق غيرها، وأن يمهد سبيل التواصل بينها وبين باقي الدول لكمال التعاون والتوازر بين نوع الإنسان وانتفاع كل من الآخر، فيكون حصولها على السعادة بحصول تلك الأمور وفقدها لفقد جميعها أو بعضها.

وهذه الأمور، وإن كانت ممكنة الحصول، وجد الناس في التماسها ما استطاعوا إلا أن هناك مانعا من الوصول إليها، وهو اعتقاد كل كمال نفسه ونقص غيره، ونظره إلى أفعاله بعين الرضى وإلى أفعال غيره بعين السخط، وزعمه أنه ما حاد عن حد الاعتدال ولا أخل بشيء من واجباته وشئونه، ولا تقاعدت همته عن أداء وظائفه في العالم الإنساني، ويتمحل لإثبات ذلك بما تسوله له نفسه من الحجج والبراهين، وإن أصابه العناء، ونزل به الشقاء، حسبهما من تعاون الغير فيما يلزمه وإهماله ما يجب عليه، مبرئا نفسه من أسباب ذلك، حتى لو أغفل شأنًا من شئونه يزعم أنه قد سدت أبواب الإمكان، وتعذر عليه القيام به، ولو انتهك محظورا من محظورات لادعى أنه لا اختيار له فيه، وإنما الضرورة هي التي ساقته إلى ارتكابه، فهو مجبور لا مختار، مع أنه لا يلتمس للغير عذرا فيما يفوته أو يقع منه، ولو كان في نفس الأمر مجبورا. ومن ثم وقع التضارب في الآراء والتدافع في الأفعال والحركات، وعمل كل على نقيض الآخر، فارتفع التناسب، وانعدم التعادل، وذهب الارتباط.

انظر إلى حال الآباء مع الأبناء، والسادات مع الخدمة، كيف أن كلا منهم، مع علمه بأن السعادة المنزلية إنما تحقق بأدائه ما يجب عليه، وجعل حركته من متممات حركات الآخر، يخالفه في أفعاله، ويضاده في آرائه، معتقدا أنه لو لم يقصر ذلك الآخر فى أداء الحقوق المفروضة عليه، لاستقرت الراحة المنزلية، وارتفع العناء إلى حال المشتركين في المدينة فإن كل واحد مع جزمه بأن الراحة والنجاح إنما يكونان بإحكام الصنعة وتهذيبها وحسن التعامل. وكف يد الشر والخيانة، وضبط العهود والمواثيق، واجتناب الكذب والاعتصام، يحبب الصدق والوفاء لا يرى نفسه مخلا بشيء من ذلك وإن أخل بجميعه، ويزعم أن زوال السعادة المدنية إنما جاء من تهاون الآخرين.

وتدبر حال الملوك مع رعاياها ترى كلا منهما يرمي الآخر بالإغراق وعدم

الاعتدال، ويتهمه بانتهاك المحارم والحقوق، ويبرئ نفسه من نسبة شيء من ذلك إليها.

فالملوك فضلا عما رسخ في نفوسهم من أن رتبتهم الملوكية، إنما هي رتبة سماوية ساقتها إليهم يد العناية الإلهية، بسبب طيب عنصرهم، وطهارة طينتهم، يعتقدون أن لا قوام للرعية بدون وجودهم، وأن لا غنى لها عنهم، إذ هم يحفظون أموالها، ويحقنون دماءها، ويوفون لكل ذي حق حقه، وينتقمون للمظلوم في أموال الرعية ودمائها، وأنه يجب عليها طاعتهم، والخضوع لسطوتهم وسلطتهم، وامتثال أوامرهم واجتناب نواهيهم، ويرمون الرعية بالتقصير فيما يجب عليها.

والرعايا يخاطبونهم قائلين: لا مزية لكم علينا كما زعمتم، ولستم أطهر عنصرا، ولا أطيب طينة، بل نراكم أناسا استولى عليكم حب الرئاسة وأسرتكم الشهوة واستعبدكم الهوى، فاستمالكم إلى سلب راحتكم وراحة رعاياكم، حرصا على التغلب، وطمعا في توسيع دائرة السلطة، وكسب الافتخار مينًا، وأما اعتقادكم أن لا قوام لنا إلا بكم فأنى لكم صدق هذا الاعتقاد وقد أصبحتم كلا[١] على كواهلنا: نحن نغرس ونحرث، ونغزل ونحوك، ونفصل ونخيط، ونبني ونشيد، ونخترع الصنائع، ونتفنن في المعارف، وأنتم تأكلون وتشربون، وتلبسون وتسكنون، وتتمتعون بلذة الراحة. وأما ما تعللتم به من حفظ أموالنا وحقن دمائنا إلى آخر ما ادعيتم، فذلك إنما نشأ عن العظمة والكبرياء اللذين تثبت أصولهما في نفوسكم، أفلا تعلمون أن الحارس والمرابط إنما هو منا، وأن الحافظ والحاقن والمنتقم إنما هو القانون والشريعة الحقة. وما أنتم إلا منوطون بحفظها، والعمل في الناس بها. فإن قمتم بذلك على وجه الاستقامة كان لكم علينا ما يقوم أودكم، فكيف ساغ لكم أن تلعبوا بأموالنا، وتعبثوا بدمائنا، وتلقوا بنا في هاوية الشقاوة، ثم تبتغوا طاعتنا و امتثالنا، وترمونا بالتقصير والتهاون فيما وجب علينا.

وذلك الذى ذكرناه فيما إذا لم يكن الملوك من المتغلبين المباينين للرعايا جنسا ومشربًا، وأما المتغلبون من الملوك، والمتغلب عليهم، فكل منهما يزعم فوق ما ذكر

(١) الكل (بفتح الكاف وتشديد اللام): التعب، أو الثقل.

أنه الوسيلة لمنفعة الآخر والواسطة لمصلحته، وأن الآخر قابل حسنته بالسيئة، ومنفعته بالمضرة.

مثلا، إن الحكومة الإنجليزية المتغلبة على الهنود تخاطبهم بقولها: إني عمرت لكم المدن كـ(بمباي) و(كراجي) وأمثالها، وزينتها بالأبنية الشاهقة، والقصور الشائقة، ووطأت شوارعها، ووسعت مسالكها، ورقشتها بالأغصان، وزخرفتها بمروج وبساتين، ومهدت لكم سبل التجارة، وسهلت لكم أسباب الزراعة، وفتحت أبواب الثروة بما مدت من الأسلاك البرقية في أرجاء بلادكم، وأنشأت من الطرق الحديدية في أنحائها، وحفرت من الترع والأنهار، ووضعت من القناطر، وكذلك أسست لكم المدارس، ورفعت عنكم ظلم النوابين وقهر الراجاوات، وأنتم مع ذلك أبيتم إلا الشقاق والنفاق، ونبذ الطاعة وسلب الراحة . . .

وان الهنود يجيبونها متظلمين مستغيثين منها قائلين لها: إنك ما عمرت تلك المدن إلا بعد أن خربت بلادا كانت زينة الأرض وفخار الأبناء: (شيو) و(وشنو) و(كهكلي) و(مرشدآباد) و(عظيم آباد) و(أكبرآباد) و(إله آباد) و(دهلي) و(رايبود) و(فيض آباد) و(لكهنو) و(حيدرآباد) وغيرها من البلدان، وإنك ما مددت الأسلاك البرقية، ولا أنشأت الطرق الحديدية، ولا حفرت الترع والأنهار، ولا وضعت القناطر، إلا لنزف مادة ثروتنا، وتسهيل سبل التجارة لساكني جزيرة بريتانيا(١) وتوسيع دائرة ثروتهم، وإلا فما بالنا أصبحنا على فقر وفاقة، وقد نفدت أموالنا، وذهبت ثروتنا، ومات الكثير منا يتضور جوعا؟ فإن زعمت أن ذلك لنقص في فطرتنا، وضيق في مداركنا، فيا للعجب من أبناء (بريتوس)(٢) الذين مضت عليهم أحقاب متطاولة يهيمون في أودية التوحش والتبربر، إذ يعتقدون النقص وعدم الاستعداد في أولاد (برهما) و(مهاديو)(٣) مؤسسي شرائع الإنسانية وواضعي قوانين المدنية.

---

(١) المقصود: بريطانيا، وقد يسميها السيد بالجزيرة تصغيراً من شأن بريطانيا الكبرى!! كما كانوا يسمونها!

(٢) أي البريطانيين.

(٣) برهما ومهاديو يشيران إلى الهنود في مواجهة البريطانيين.

وأما المدارس التي تمنين علينا بتأسيسها فلم تكن لمصلحة تعود علينا، إذ لو كانت لذلك لاحتوت على العلوم والفنون والصنائع، مع أنها لم تنشأ إلا لتعليم اللغة الإنجليزية المتعجرفة الخشنة لأبناء اللغة (السنسكريتية)، اللغة المقدسة السماوية، حتى تستميلهم في إدارة مصالحك في تلك الممالك الشاسعة.

وأما دعواك رفع ظلم النوابين وقهر الراجوات عنا، فمما يضحك الثكلى، ويبكي المستيئس الذي جاءته البشرى، فإن الظلم إذ ذاك كان قاصرا على البعض، وظلمك الآن قد عم وطم، وإن الثروة والأبهة والجلالة والشأن التي يزدهي بها الآن أهالي بريتانيا كان المتمتع بها وقتئذ أبناء وطننا، إذ النوابون والراجوات وغيرهم من الأمراء والكبراء، وحاشيتهم، وخاصتهم، كانوا من أبنائنا ومشاركينا في الجنسية. وكنا نتيه بهم فخارا على سائر الممالك والأقطار، فكيف بك أن تمني علينا بما مننت زورًا ومينًا[1]. وإنا لا نراك أيتها المتغلبة علينا إلا كالعلق[2] مصصت دماءنا، بل كالسلاخ سلخت جلودنا لتتخذيها أحذية لنعال البريطانيين. على أنك لم تكتفي بهذا وذاك بل تريدين أن تستعملي عظامنا النخرة لتصفية السكر في معاملك.

وتبصر في شأن الملوك بعضها مع بعض فإن كل واحد منهم يرى بما أقيم من الحجج القاطعة أنه على صراط العدل وحد الاستقامة لا يقدم على محاربة، ولا يحجم عنها، ولا يضع غرامة، أو يأخذ من ممالك الآخر شيئا إلا وهو في ذلك محق عادل، مثلاً: ملك الروسيين[3] يحتج لحرب العثمانيين بأن أنين النصارى من رعاياهم قد ذهب براحته، وتجافى به عن مضجعه وحرك فيه حاسة الشفقة حتى دعته الرحمة الإنسانية للأخذ بناصرهم واستنقاذهم من أيديهم، وتحريرهم من رق عبوديتهم، من . . . والعثمانيون يدحضون حجته قائلين (أولا) لو كنت ممن تحركهم الشفقة والرحمة لكان الأحق بنيلها رعاياك المتحدون معك في المذهب من أهالي (لهستان)[4]، فما دعواك هذه إلا محض الرياء والمواربة. و(ثانيًا) إننا لا

---

(١) المين: الكذب.

(٢) العلق: نوع من الديدان مصاص للدماء يعيش في الماء الآسن.

(٣) يشير إلى قيصر روسيا في حربه مع تركيا التي اشتعلت عام ١٨٧٧.

(٤) بولندة.

نعامل رعايانا إلا كمعاملة الآباء للأبناء بدون تفرقة بين مذهب ومذهب، وجنس وجنس. وأوضح دليل على ذلك بقاؤهم على مذهبهم، حافظين للغاتهم وجنسيتهم، ولو أننا كنا نفرق بين المذاهب والأجناس كما تدعي لحملناهم على رفض مذاهبهم، وتغيير لغاتهم، وكنا قادرين على ذلك في وقت لم يكن لك فيه اسم ولا رسم، بل لم تكن شيئا مذكورا.

وكذلك إمبراطور الفرنسيين بما ثبت عنده من البراهين البينة على طمع الجرمانيين وحرصهم وشرههم يرى لنفسه الحق في افتتاح الحرب عليهم. وإمبراطور الألمانيين بما تحقق لديه من كبر الفرنساويين وعجبهم، ومجاوزتهم الحد في أطوارهم، يحسب أن من الواجب عليه أن يضع عليهم غرامة باهظة، ويتسلط على قطعة واسعة من بلادهم لتذليل نفوسهم، وإضعاف قوتهم، ليدفع بذلك شرهم، ويأمن على نفسه وأمته من تعديهم.

ودقق النظر في شئون العقلاء والحكماء، وذوي الآراء والمذاهب الذين يعتقدون أن الحق واحد في نفس الأمر والواقع، لا يتعدد، كيف أنهم بعد اتفاقهم على أن القواعد المنطقية هي ميزان النظر، وبها يعرف صحيح الفكر من فاسده، قد انتهج كل واحد منهم منهجا واتخذ مشربا يناقض به الآخر، ويعتقد أن دلائله المؤدية هى المنطبقة على ذلك الميزان وأن لا انطباق لدلائل غيره عليه.

وارجع البصر إلى أحوال السارقين والقاتلين ونحوهم من مرتكبي الفواحش والشناعات في العالم الإنساني ترى أنه لا يصدر عمل من هذه الأعمال المجمع على قبحها من فاعلها إلا بسبب هذه الخلة الذاتية، أعني اعتقاده كمال نفسه والنظر إلى أعماله بعين الرضى - ضرورة أن الفعل إنما يكون بعد الإرادة، التي لا تكون إلا بعد ترجيح الفعل على الترك ورؤيته خيرا منه، وهو عين الرضى به.

ومن غرائب آثار هذه الخلة إبرازها لحقيقة واحدة بصور مختلفة في نظر شخص واحد على اختلاف مراتبه وشئونه، فإنك ترى زيدا من الناس مثلا وهو في رتبة دانية رءوفًا بالفقراء، رحيما بالضعفاء، شفيقا على المظلومين، ذاما للبخل وللشح، مادحا للكرم والسخاء، مهتما بقضاء حوائج ذوي الحاجات، مدعيا للعفة، كارهًا

للانكباب على الشهوة، مستهزئًا بذوي التكاثر والتفاخر، مبغضا للكبرياء، متنفرا عن الارتشاء، مشمئزا من الإهمال في المصالح العامة، والتهاون في الواجبات، مستهينًا بالمستبدين بآرائهم، المعجبين بأقوالهم وأفعالهم، مستقبحا تقديم المفضول على الفاضل لغرض يعود على ذاته، مستبشعًا لإعطاء المراتب لغير أهلها وحرمان مستحقيها منها، لائما على الغضب وإسراع العقوبة، مستفحشًا للسفاهة والبذاء، محبا للوطن، محاميا عن الحرية، زاعما أنه لو آل الأمر إليه لقام بصلاح العالم. وإذا ارتقى إلى رتبة سامية تجده قسي القلب على الفقراء، زاعمًا أن التكفف صناعة اتخذها أرباب السفالة والبطالة هربًا من عناء الكسب - جافي الطبع على المظلومين، مستدلا بأن المتظلمين أولو مكر ودهاء (أو رياء) يعلنون خلاف ما يسرون، ويستترون تحت حجاب المسكنة والالتجاء للتغلب على حقوق غيرهم، بخيلا، شحيحا، متمسكا في ذلك بأن من مقتضيات الحزم أن تحرز الأموال، وتودع المخازن لوقت اللزوم أو (إن الكرم والسخاء قبيحان عند السويليين من الإفرنج)، متوانيا في الأخذ بيد المحتاجين متعللا بتراكم الأعمال عليه في وظيفته المهمة، وعدم تمكنه من إسعافهم، شرها شهويا، محتجا بأنه بشرهه وانصبابه إلى الشهوة يؤدي حق الطبيعة - فخورا برتب وشئون ساعده على نيلها البخت والصدفة، بدون استحقاق. مع أنه ما أدى حقها ساعة من دهره مرضيًا نفسه في ذلك بكلمة «العبد العاجز» أو (افتخار أو لمون)[1] متكبرا، يظن أنه وقور من الواجبات، وأن عليه إقامة الحجاب على بابه، والذائدين عن أعتابه، قياما بحق رتبته ولازم شأنه - مرتشيا يقنع نفسه بأن ما يأخذه حق تبيح له الشريعة أخذه إما لأنه جعالة على عمله أو هدية من صديق، مهملا في المصالح العامة، متهاونا فيها، معتذرا بأنه من آحاد الناس، ليس في طوعه تقويمها. وما من مساعد يعاضده عليها. وقد أدى الواجب على شخصه، مستبدا برأيه، معتقدا أنه قد بلغ من العقل والدراية إلى حد تنحط دونه

---

(١) كان السيد رحمه الله يملي وقلما كتب بيده مقالا. وكان تلاميذ كاللقاني وأديب إسحق يكتبون كل ما يقوله حتى الكلم والأمثال العامية التي يمزج بها الكلام عادة كهذه الجمل في الموضعين، وكانت ذائعة في معاشري الحكام من الترك، ولكن أكبرهم الأستاذ الإمام كان يتصرف في العبارة ويجيز ذلك السيد. (هامش محمد رشيد رضا).

أما كلمة «لمون» العامية هذه فهي «ليمون» الفصيحة.

جميع أفكار العالم، ويقصر عن إدراك غايته مدى أنظارهم، مع أنه أعمى البصر والبصيرة، لا يرى ما تحت قدميه - مقدما للمفضول على الفاضل، مستندا إلى سلامة قلب ذلك المفضول ولين عريكته وطلاقة وجهه. أي أنه (يهزّ له القاوون)، وفي رواية (يمسح له جوخ) وأنه (سطري لجنابه العالي)، رافعا إلى أسنى المراتب من لا يليق لأدناها، حاسبا نفسه طبيبا روحانيا خبيرا بأخلاق العالم وطبائعهم، حكيما لا ينظر في أعماله إلا إلى المصالح العامة - غضوبا سريع العقوبة يحسبها سياسة وتدبيرا مدنيا - سفيها بذيئا، يرى أن الناس لا يستحقون سوى قبيح فعله وفحش قوله، ولا يدركون مزية الآداب، ولا يقدرون الأديب حق قدره، خائنا لوطنه، ساعيا في خرابه وإذلال أهله (كأقيا لتيس اليوناني) ويعد نفسه في ذلك مجبورا ملجأ، طالبا للاستعباد، متشبثا بأن الحرية لا تليق بالأهالي لعدم استعدادهم لها[١]، بل إنها مما يوجب فسادهم لو نالوها، آيسا من صلاح العالم[٢]؛ إذ يراهم - لنقص قريحته - ناقصي الاستعداد فاقدي القابلية، يزعم أنه لو كان لهم نوع من التهيؤ للإصلاح لأتمه لهم بسعيه واجتهاده.

ومن أغرب آثارها[٣] أن المتخلق بها، مع كونه متصفًا بأرذل الأخلاق وأشنع الخصال، يعمى عن أنه متصف بها. مثلا يكون قسى القلب، ويعتقد نفسه رحيما، ومتكبرا، ويرى نفسه متواضعا، وهكذا باقى الخصال مع أنه لو تلبس غيره بأدنى رذيلة لأدركها وشد عليه النكير فيها، حتى أنك ترى كل واحد «كأنه» قد جعل على إحدى عينيه نظارة معظمة (ميكروسكوب) ليقف على دقائق معايب معاشريه، وعلى الأخرى نظارة رصدية (تلسكوب) لئلا يفوته أعمال البعداء عنه، وعلى إحدى أذنيه موصلة الصوت (تليفون)[٤] لاستراق أخبار الناس كيلا يعزب عنه شيء من نقائصهم، وعلى الأخرى حافظة الصوت (فنوغراف) ليستحفظ

(١) الإشارة هنا قد تكون للخديو توفيق الذي صرح بمثل هذا القول.

(٢) البشر أو الناس.

(٣) الضمير هنا يعود إلى تلك الخلة، أو الاعتقاد بكمال النفس، أو ما نسميه: الغرور.

(٤) في عام ١٨٧٦ عرض الكساندر جراهام بل آلة تطورت فيما بعد إلى تليفون. ويبدو أن الأفغاني كان قد قرأ عن الاختراع في الصحف وقتها، وكذلك الحال مع الفونوغراف.

قبائحهم، لئلا يغيب عنه شيء منها، ويقتدر على استحضارها وقت الحاجة عندما يتحرك دولاب حقده وحسده، مع أن أقرب الأشياء إليه نفسه. وهو لا يرى شيئا من معايبها، فهو أعمى حديد البصر وأصم قوي السمع.

فتعسا لها من خلة قضت على نوع الإنسان بالاختلال وسوء الحال، وآذنته بالشقاء والعناء، وأوقعت الخبط في الأعمال والخبط في الأعمال والخلط في الأقوال، ولبست الحق بالباطل، والزائف بالصافي، والجيد بالرديء، وحسنت القبيح وقبحت الحسن، وأبرزت المعوج مستقيما والمستقيم معوجا.

ومن نظر بعين الحق وسبر الحقائق بنور البصيرة لا يجد لهذه الخلة (أعنى اعتقاد كل كمال نفسه ونظره إلى أعماله بعين الرضى) علة وسببا سوى حب الذات، الذي هو غشاوة على عين العقل، تمنعه من استطلاع الحقائق على ما هي عليه، ووقوفه عند حد الصواب في سير الأفكار، بل هو متغلب على جميع الإحساسات النفسانية وحاكم على كلها بالتغيير. بل لا يختص حكمه بها إذ يتعدى إلى الإحساسات الطبيعية أيضا فإنك ترى مشوه الوجه مختل الخلقة رث الثياب الذي قد تجسدت عليه الأدران والأقذار إذا نظر إلى صورته بهذه الصفة الرديئة في مرآة مثلا لا يشمئز ولا يستنكر، وإذا وقع بصره على من بلواه في ذلك أخف من بلواه، انفعلت نفسه واستنفر واستبشع.

وهذا الوصف، أعني حب الذات، الذي هو علة الشقاء والعناء من الأوصاف اللازمة لذات الإنسان مادام موجودا. فلا ينفك الإنسان عنه ولا هو يزايله، فإذن لا حيلة ولا خلاص من بلاياه ونكباته إلا باستعمال الانسان عقله ورجوعه إليه في جميع أموره، والخروج من ربقة عبودية سلطان حب الذات ورفض أحكامه. وذلك أن يحكم على نفسه بما يراها عليه في مرآة غيره لا في مرآة نفسه (ما أجملك أيها الانسان المعجب في مرآة نفسك وما أقبحك في مرآة غيرك).

وهذا الذي ذكرناه هو العلاج الحقيقي والوسيلة العظمى لوقوف كل عند حده، وسعى كل لاستكمال نفسه، اللذين هما مدار السعادة.

ولسنا نذم حب الذات بجميع أنواعه. فإن منه ما قد يعود بسعادة على طائفة من الطوائف، أو أمة من الأمم، وهو حب الذات الداعي إلى طلب المحمدة الحقة[1] وهو الذي يرتقي بصاحبه إلى توجيه أفكاره وأعماله نحو المصالح العمومية بدون أن يطلب في ذلك شيئا سوى الحمد وخلود الذكر.

والسلام على من اتبع الهدى، ورجح العقل على الهوى.

❊ ❊ ❊

(١) الحق مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع (هامش رشيد رضا).

٢

المهدية
و
المهدى السودانى

المهدية والمهدي السوداني

المهـــدية

(١)

في العام الفائت، كانت جريدة «المتصلب» «L'Intranrigeant» السباقة في تعريف الجمهور الباريسي على إحدى الشخصيات الأكثر أهمية وأحد أسمى العقول في العالم الشرقي، الشيخ الأفغاني جمال الدين، العدو اللدود الذي تلقاه إنكلترا في كل مكان، والذي يبدو أنه أدى إزاء إنكلترا قسم هنيبعل. ولنستعد هنا هذا الحدث الذي ذكره مراسلنا «فوكلان» «E. Vauquelin» في «ذكريات من الثورة المصرية». ذات مساء في مسجد الحسين في القاهرة، وأمام أربعة آلاف شخص، ألقى جمال الدين خطابا حماسيا، فضح خلاله، وبحس عميق، وقبل ثلاث سنوات، الهدف النهائي للسياسة الإنجليزية على ضفاف النيل. بعد يومين، وبناءً لطلب القنصل العام لإنجلترا، أوقف خطيب مسجد الحسين، وساقوه في مركب ونقلوه إلى جدة على شاطئ الجزيرة العربية. انكفأ جمال الدين حينها إلى داخل مقاطعة الحجاز، حيث لم يعد يسمع عنه شيء.

منذ بضعة أشهر، وصل الشيخ الأفغاني إلى باريس، وأعطانا ملاحظات ومعلومات عن الوضع في الهند التي مكث فيها عدة سنوات والتي تجول فيها من مدة قريبة، وقد أعجبنا بالفائدة المباشرة التي انطوت عليها هذه المعلومات (مقالة الأفغاني عن الهند نشرت في الصحيفة نفسها بتاريخ ٤ نيسان-أبريل ١٨٨٣).

واليوم شاء الأفغاني أن يقدم لنا دراسة عن المهدى الذي ثور الإسلام بظهوره في منطقة النيل الأبيض، والذي منذ فترة وجيزة كبد الجيش الإنجليزي-المصري، أشنع

هزيمة. هذه الدراسة ننشرها كما هي، وكما وصلت إلينا دون أية إضافة، ودون أي حذف. وليس هناك أحد أفضل من الشيخ الأفغاني المشهور، يستطيع أن يكتبها لأن أحدا لا يعرف العالم الإسلامي أفضل منه، ولأن أحدا لا يستطيع التكهن بالتبعات الخطيرة التي يمكن لأحداث السودان أن تلقاها في مصر وفي غيرها. وفيما يلي نص مقالة الأفغاني:

المهدي ليس نبيًا

«الشخص الغامض، محمد أحمد، الذي برز خلف اسم المهدي منذ عامين في السودان، والذي عبر قضائه شبه التام على الحملة العسكرية التي قادها الجنرال «هيكز» «Hicks» بدأ يشغل الرأي العام في أوروبا، ويستنفر بصورة خاصة الصحافة الإنجليزية التي تعكس، في الوضع الراهن للأمور، المشاعر الحقيقة للأمة. هذا الانتصار، الذي زرع الفوضى في وزارة الخارجية، يبدو أنه احتفظ للسيد «غلادستون» «Gladstone» في وادي النيل بنفس الثمار التي جناها اللورد «بيكونسفيلد» «Beaconsfield» في أفغانستان.

ومن ناحية أخرى، فتح هذا الانتصار الباب أمام مطامع الخديو السابق إسماعيل باشا، وكذلك أمام مطامع حليم باشا، فكل واحد منهما يعمل بنشاط للحصول على عطف إنجلترا، ولا يتوانى الواحد منهما أن يعد الإنجليز بخنق هذه الانتفاضة على شرط أن يؤكدوا له دعمهم للوصول إلى عرش الخديوية. أما بالنسبة لتوفيق فهو في وضع في غاية التعقيد وفي حالة تصبح عصيبة، يوما بعد يوم. نرى هذا الأمير البائس تحت رحمة احتمالين كلاهما مشئوم: احتلال الإنجليز النهائي لمصر، أو وصول المهدي إلى القاهرة. وتحت رحمة طموحين: طموح أبيه إسماعيل وطموح عمه حليم.

وإني أقترح أن أقدم في مقال لاحق بعض التقديرات الشخصية للمهدي من وجهة نظر سياسة، ومن زاوية مصالح القوى الاستعمارية ومصالح تركيا، وللتحدث عن الانطباع الذي يمكن أن يولده اسم المهدي في العالم الإسلامي، كما

سأتحدث عن نوايا إنجلترا إزاء هذه المسألة الخطيرة، وعن الربح الذي يأمل بتحقيقه الأشخاص الطامعون بالخديوية. لكنني سأكتفي الآن بتلخيص بعض الأحداث التاريخية التي هي من طبيعة تهم الجمهور وترشده حول المهدي، حول قوته لدى المسلمين، وحول طرائف المسلمين في الاعتقاد به، الأسباب التي أدت إلى هذه المعتقدات والأحداث ذات الطبيعة المشابهة والتي حصلت في الماضي، وأخيرا سأتحدث عما ينتظره الإسلام حاليا من المهدي.

المهدى كلمة عربية معناها: الملهم من الله لاتباع الصراط المستقيم - وهو ليس بنبي كما تزعم بعض الصحف، ولا يحظى المهدي لدى المسلمين إلا باعتباره واحدا من أبناء الرسول العظيم، تقي، ورع، تبعا للصراط الذي رسمه جده محمد، ويلتزم بالمذهب الإسلامي بأمانة. مهمته الإلهية تقوم على إلغاء البدع، والمناداة بالعدالة، وإقامة المساواة بين كل المؤمنين وبنشر اسم الإسلام، وجعله متصلا في كل أنحاء المعمورة. ويعبر عن المهدي بالعربية بعبارة: «قائم آل محمد» وهذا معناه: هو الشخص الذي من بين المنحدرين من النبي الكبير، سوف ينهض لدعم الإيمان الإسلامي. والاعتقاد بمجيء المهدي منتشر في كل الأصقاع الإسلامية دون أي تمييز بين الفرق. وهذا الاعتقاد راسخ لدى الشعوب الإسلامية إلى حد أنه مستمر منذ القرن الأول للهجرة.

الطبري وابن الأثير، المؤرخان الأكثر شهرة واحتراما لدى المسلمين ذكرا في كتاباتهما أن المؤمنين خلال منتصف القرن الأول للهجرة كانوا يقولون عن عمر بن عبد العزيز نسيب النبي وأحد خلفاء بني أمية الأكثر عدالة، بأنه إذا لم يكن المهدي المنتظر، فإنه لن يكون سوى يسوع ابن مريم الذي سيخرج قبل نهاية العالم. إن انتظار مجيء المهدي يتزايد كليا عند المسلمين في كل المرات التي يجدون فيها أنفسهم في ضيق، أو يرون أنهم مهددون في دينهم أو واقعون تحت سيطرة قوة أجنبية، وحيث يشبهون رجلا ضالا في ليلة حالكة الظلام وسط صحراء شاسعة، منتظرا بفارغ الصبر ظهور نجمة تقوده.

هذه المعتقدات مبنية على آيات وعلى أحاديث لا تمس وشديدة الاحترام،

منسوبة إلى النبي الكبير محمد (ﷺ) وقد وردت هذه الأحاديث في أكثر من كتاب، من بينها: المسند، للإمام أحمد بن حنبل السني، ومؤسس أحد المذاهب الإسلامية الأربعة، والصحيح للسيد علي الترمذي، ومسند «فردان» (كما ورد في النص الفرنسي في الجريدة: Firdano وابن ماجه إلخ. .).

كل العلماء المسلمين، باستثناء ابن خلدون في مقدمته ونفر آخر محدود من العلماء أجمعوا على الاعتراف بأصالة هذه الأحاديث وصحتها. ويظهر للعيان من خلال هذه الكتب أن النبي العظيم محمد (ﷺ) تكلم عن المهدي في أماكن عديدة، حيث يدعوه حينا باسم المهدي وحينا باسم القائم. وقد قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي». (كما ورد في صحيح الترمذي، الجزء التاسع ص ٧٤ـ٧٥. وثمة اختلاف بسيط في الترجمة الفرنسية للفقرة الأخيرة). وقال في حديث آخر: «القائم (المهدي) سيكون واحداً من ولدي وسيهبكم الخيرات بلا حساب». وفي حديث آخر: «سيمنحكم (المهدي) كنوزا رومية وستعطيه الأرض جم ثرواتها». (يمكن مقاربة هذين الحديثين الأخيرين بالحديث الذي أورده ابن حنبل في مسنده «يكون في أمتي المهدي (. . .) فتنعم أمتي في زمانه نعيما لم ينعموا مثله قط، البر منهم والفاجر، ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تدخر الأرض من نباتها شيئا ويكون المال كدوسا). وفي حديث آخر (بحسب ترجمتنا للنص الفرنسي): «إذا امتلأت الأرض ظلما وجورا، وإذا أصبح المؤمن (المسلم) أكثر سواء من عبد، فانتظروا أن يظهر واحد من صلبي، المهدي».

(هذا الحديث يمكن مقاربته بالحديث الذي أورده ابن حنبل في مسنده: «لتملأن الأرض جورا وظلما فيبعث الله تعالى رجلا مني اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي . . »). وقال أيضا: «أبشروا بالمهدي رجل من قريش من عترتي يخرج في اختلاف من الناس وزلزال فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا». وقيل في موضع آخر: «إذا استولى عليكم بنو الأصفر (يلمح النبى هنا إلى قدامى الرومان) فانتظروا القائم من أهل بيتي» (لم أجد هذا الحديث بالعربية). وهذا حديث آخر أيضا: المهدي منا، ويكون اسمه اسمي (محمد) واسم أبيه اسم أبي

(عبد الله)، واسم أمه اسم أمي (آمنة). (لم أجد أيضا هذا الحديث بصورة حرفية).

وهناك عدة أحاديث أخرى من النوع نفسه، وتقطع، بطريقة لا تقل بداهة، باليقين بقدوم المهدي. أما بالنسبة للاستشهادات، التي استخدمها العديد من القديسين والتقاة، والتي تزعم أنها تلقت الوحي الإلهي والتي تثبت بأن المهدي أو القائم سوف يظهر في الشرق أو من الغرب، من مكة أو من الكوفة، وتحدد هذه الاستشهادات هذه الفترة أو تلك موعدا لخروج المهدي، وهي كثيرة ومتعددة إلى حد أنني لم أجد لزاما ضرورة الإسهاب فيها.

كل مسلم ينتظر المهدي

لقد خرج تحت اسم المهدي أو القائم مئات الأشخاص في كل القرون وفي كل البلدان الإسلامية. وإن كان غالبية هؤلاء لم ينجحوا لكن ذلك لم يمنع بعضهم من تأسيس ممالك حافظ عليها الأتباع طيلة قرون عدة. أبو مسلم الخراساني الذي قضى على خلافة بني أمية وشيد خلافة بني العباس، لم ينجح في حشد الجماهير وفي بناء جيش مهيب في «مرو» وفي غيرها من نواحي خراسان إلا بعد أن استعمل لنفسه اسم قائم آل محمد (المهدي). وقد استطاع بهذه الوسيلة أن يلزم الجمهور بإعلان أبي العباس السفاح خليفة. وهو أول خليفة من بني العباس وأحد أحفاد العباس عم النبي الكبير محمد.

إدريس الأكبر، أحد أحفاد محمد، والذي أقام مملكة الأدارسة في زمن هارون الرشيد، وبنى مدينة فاس، لم ينجح في ذلك إلا خلف اسم قائم آل محمد، وأيضا عبيد الله جد الخلفاء الفاطميين، فإنه بصفة المهدي هذه استطاع هذا الرجل الذي احتل القاهرة وسوريا والحجاز واليمن أن يبني ممالك واسعة وأن يشيد مدينة المهدية التي ما زالت تحمل اسمه حتى أيامنا هذه.

محمد، زعيم الموحدين ـ (الذين يعتقدون بوحدانية الله) ـ لم يستطع أن يجلب

المرابطين إلى نصرة قضيته ونشر فتوحاته حتى بلاد الأندلس تاركا لخلفائه مملكة شاسعة، إلا عبر ادعائه بأنه المهدي.

بكلمة وجيزة، خلف هذا الاسم (المهدي)، كم من رجالات الإسلام أنجزوا أعمالا باهرة ومعتبرة، وقادوا الأوضاع إلى تغيير جدي في عالم المؤمنين. رغم كل الذين أطلقوا على أنفسهم اسم المهدي وتعاقبوا وصولا إلى أيامنا الحاضرة، فإن المسلمين ما زالوا ينتظرون واحدا جديدا. الشيعة الاثنا عشرية، كالفرس مثلا، والذين يؤمنون باثني عشر إماما منحدرين بتعاقب من محمد، فهم وإن كانوا يتفقون مع السنة حول الجزم واليقين بمجيء المهدي، إلا أنهم يختلفون عنهم في تعيين شخصيته. فهم (الشيعة) يقولون بأن «محمداً المهدي» هو ابن الحسن العسكري، التاسع (بل الحادي عشر) من بني أحفاد النبي الكبير، ويقولون بأن «محمداً المهدي» ولد في سامراء (مدينة قرب بغداد)، في عهد الخليفة المتوكل العباسي. وأنه ذات يوم، وخشية من الإجراءات القاسية التي اتخذها الخليفة ضده قرر محمد المهدي وهو في الخامسة من عمره، الاختباء وخلال ستين سنة بقي على اتصال بمناصريه. هذا الاختفاء يدعوه الشيعة: الغيبة الصغرى. ويرى الشيعة أيضا أنه بدءا من هذا التاريخ قام بقطع صلاته مع أتباعه الذين يعتبرونه حيا حتى أيامنا. مقدرين مدة وجوده بأكثر من ألف سنة.

وتبعا لعقيدتهم، سوف يظهر المهدي هذا بين الركن (وردت خطأ في النص الفرنسي بعبارة الكك Kick) والمقام، في مكة، وسيجعل من الكوفة (بالقرب من بغداد) مكانا لإقامته، وسينشر سيطرة الإسلام من الشرق إلى الغرب. باختصار، مهما تنوعت هذا المعتقدات من ناحية الشكل، فإنه لا يقل صحة بأن كل مسلم ينتظر المهدي، ومستعد للسير خلفه وللتضحية بحياته وبكل ما يملك. المسلمون الهنود خاصة، ونظرا لمعاناتهم اللامحدودة وتحملهم أقسى العذابات وأطولها من جراء السيطرة الإنجليزية، فإنهم الأكثر انتظارا للمهدي بفارغ الصبر.

أخيرا، فإن سطوة المهدي في أنظار المسلمين تتبع فحسب النجاح النهائي الذي يقوى على تحقيقه، على أي حال، تلك كانت حالة كل الذين سبقوه.

المهـــــدية
(٢)

المقالة الثانية عن المهدي كما نشر في جريدة «L'Intransigeant» بتاريخ ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٣ . وفيما يلي تقديم الصحيفة للمقالة الثانية :

«ننشر هنا تتمة الدراسة القيمة التي شاء الشيخ جمال الدين أن يعطينا إياها حول المهدي والنتائج المحتملة لظهوره المنتظر في السودان، ونجد لزاما علينا التذكير بما سبق وقلناه منذ ثلاثة أيام: إن هذه الدراسة نشرت كما قدمت إلينا دون أي تعديل، فالشخص الذي كتبها مسلم، وهذا ما لا يمكن تغافله. هذا الرجل المسلم، يتحدث كابن مؤمن من أبناء الإسلام؛ ولذا فكرنا أن نحفظ لهذا العمل طابعه الخاص، وأن ندع الكاتب يتكلم بحرية».

فيما يلي نص مقالة الأفغاني :

إن الهزيمة التي ألحقها محمد أحمد ـ بقواه غير المنظمة ـ منذ فترة وجيزة بالجنرال «هيكز» Hiks، أعطت نتيجتها بتبديد الشكوك التي أحاطت شخصيته من قبل سكان بعض مناطق السودان. أن انتصار «العبيد» رفع من شأن سطوته في أنظارهم إلى درجة أنهم باتوا يعتبرون ما أنجزه بمثابة معجزة.

إضافة إلى ذلك، ولد هذا الحدث لدى المصريين، الأمل بالتخلص من السيطرة الإنجليزية بمساعدة المهدي، ومن جهتهم، فإن مشايخ جامعة الأزهر بدأوا يطلبون المغفرة في أعقاب الفتوى التي تناولت محمد أحمد كدجال.

إن انتصار «العبيد» الذي كان له دوي واسع في العالم الإسلامي، أيقظ المشاعر

الدينية لدى كل شيوخ الطرق (الأخويات الدينية) مثل القادرية والنقشية (المقصود على الأرجح هو النقشبندية) والجلالية والسنوسية والشاذلية إلخ . . وهذه الأخويات تمارس سلطة كبيرة على أتباعها الكثيرين. هؤلاء الشيوخ لا ينتظرون سوى عمل إضافي باهر يمكن من وضعهم لحساب المهدي، كي يثوروا ويشكلوا قضية واحدة معه. من ناحية أخرى، فإن الجنود المصريين نظرا لكونهم مسلمين ويعتقدون تبعا لذلك بالمجيء الأكيد للمهدي، وواثقون أيضا أنهم بمقاومة محمد أحمد لا يخدمون مصالحهم ولا مصالح بلدهم، وبأن إنجلترا فقط هي التي ستستفيد بالطبع من أي خسارة قد يلحقونها به، لذلك لا يرغبون في أي حال من الأحوال بمقاتلة أي وحدة من وحدات المهدي المقاتلة.

قبل إنجاز أي مأثرة أخرى. وتلك معجزة جديدة ليست غير ممكنة، ونظرا للانتصار الذي حققه المهدي ضد عشرة الآف جندي نظامي، ونظرا للدعوات والنداءات التي أطلقها عن ذكاء إلى مشايخ القاهرة ومكة والمدينة، وقبل انتشار الهبات الدينية واستعداداتها في الشرق كما في الغرب، فإن الأتراك، برأيي، وحدهم قادرون، تحت اسم الخلافة، أن يصبحوا أسياد الموقف، وأن يستبقوا الاضطرابات الخطيرة. لكن القوى الأوروبية التي تنتهج سياسة غامضة النتيجة، وكذلك إنجلترا التي لا تخفى مقاصدها، تعارض بقوة أي تدخل تركي.

وإذا حقق محمد أحمد ـ انتصارا آخر ـ أي إذا احتل الخرطوم أو اقترب من تخوم مصر العليا، فإنه سينجم عن ذلك هبة عامة لدى كل السكان العرب الواقعين تحت السيطرة العثمانية، وستلقى تركيا صعوبة بالغة، نظرا لضغطها الحالي، في إخماد هذه الهبة.

وبدون شك، ستنشأ حركات أخرى في عدة نقاط من الأقاليم الواقعة تحت السيطرة التركية. سأذكرها هنا بدقة. من هذه المجموعات الإسلامية الجاهزة للانتفاض: الشيخ السنوسي وأتباعه، وهم كثيرون في طرابلس وبين البدو العرب القاطنين ساحل الحجاز ـ بنو حرب، وهم يشكلون قبيلة ذات شأن تقيم بين مكة والمدينة ـ العسير، بين الحجاز واليمن ـ الزيدية في صنعاء وكوكبان ـ داهي (لقب) الإسماعيليين في نجران من بلاد اليمن ـ محمد أبو (بل ابن) الرشيد في نجد، وقبائل

عنيزة وشمر على تخوم بغداد من الموصل حتى سوريا. كل هذه القبائل التي تهب في كل لحظة ضد تركيا بسبب عدم رضائهم عنهم، لن يطلبوا أحسن من انتهاز الفرصة التي يقدمها لهم المهدي في سبيل التخلص من الخليفة (السلطان). حينئذ، سيكون من المستحيل على العثمانيين الذين يعلنون اسم الخليفة ـ الوسيلة الوحيدة التي في حوزتهم لكي يحافظوا على سيطرتهم على مختلف السكان المسلمين ـ قلت سيكون من المستحيل على العثمانيين أن يخنقوا انتفاضة لا يمكن الاستهانة بنتائجها. فالمسلمون يعتقدون بالفعل أن الخلافة، شرعية كانت ـ أي في يد قريشي ـ واحد من قبيلة محمد ـ أو غير شرعية ـ أي بين يدي غاز، فإنه ينبغي لها أن تزول أمام ظهور المهدي، الذي سيكون الخليفة الحقيقي بالنسبة للمؤمنين.

إن مشايخ الأخويات الدينية، القادرية والشاذلية، هم أيضا، لن يعدموا وسيلة في هذه المناسبة كي ينظموا دعاية نشيطة، سوف يستصرخون المشاعر الدينية لأتباعهم لجرهم إلى الالتزام بالالتفاف حول المهدي هذا، الذي هو بالضبط جزء من هذه الأخويات.

هذه الانتفاضة التي ستحدث بدون أدنى شك، وبمجرد حصول انتصار آخر للمهدي، في كل البلاد العربية الواقعة تحت السيطرة العثمانية، وإن كانت تشبع رغبات إنكلترا التي تسعى إلى إضعاف هيبة الإسلام ولكنها (الانتفاضة) لن تتوانى عن وضع إنكلترا في حالة استنفار. إن مقاصد الإنجليز الخفية إلى هذا الحد أو ذاك، هي الإنهاك التدريجي لتركيا من أجل الاستيلاء بالتالي على أكبر حصة من ممتلكاتها. إن بريطانيا العظمى تغذي النوايا العازمة على تشكيل خلافة صغيرة في مكة، لصالح عشيرة بني عون وحيث إن أحد أعضائها هو حاليا شريف مكة، وذلك بهدف تمكينه من حيازة وسيلة قوية للسيطرة على كافة المسلمين. إن حصول انتفاضة مشابهة لتلك التي أتوقعها، ستكون حاملة الأذى لإنجلترا إلى حد أنها ستستدعي بالضرورة تدخل القوى الأوروبية ذات المصالح الجدية في الشرق. وعندئذ سيتاح لإنجلترا أن ترى كيف ستفقد الحصة الكبيرة التي تطمع بها عبر تقطيع أوصال الفريسة العثمانية. ولن يكون من المستحيل أن يتكون في الشرق ـ على أثر تعقيدات معينة قد تحدث في أوروبا وتمنع القوى المعنية بالأمر عن التدخل ـ مركز

خلافة مهمة للعرب. هذان الاحتمالان لا يقلان شؤما الواحد من الآخر بالنسبة للإنجليز.

ولكن ماذا؟ هل تأمل إنجلترا إذن بإجراءاتها المعتادة، أي بالخديعة والمكر، وعبر إعلانها عن الدخول إلى كل البلاد، وعبر إفصاحها المنافق عن رغبتها بجعل هؤلاء السكان سعداء، وبتوفير الأمان والرفاهية لهم، وذلك بعد أن غرست جذور الحقد في قلوب كل المسلمين، حين انتزعت من أيدي الإسلام أوسع وأغنى مملكة في العالم، أي هذه الإمبراطورية التيمورية ـ الهندية التي تضم حوالي ٢٥٠ مليون نفس، قلت هل تأمل إنجلترا بخنق صوت المهدي، الصوت الأكثر إدهاشا من كل الأصوات لأنه يتجاوز بالقوة حتى صوت الجهاد الذي يخرج من أفواه المسلمين كافة؟!

هل تعتقد إنجلترا بقدرتها على خنقه قبل أن يبلغ كل نواحي الشرق، من جبال همالايا إلى دولاغهير «Dawlaghir»، من الشمال حتى الوسط، مخاطبا مسلمي أفغانستان، وبلوشستان، والسند والهند، معلنا بصوت عال مجيء المخلص الذي ينتظره بفارغ الصبر كل طفل في الإسلام: المهدي، المهدي، المهدي!

وهل عن طريق ترك السودان للمهدي، كما تلمح إليه غالبية الصحف الإنجليزية، وعبر اتفاق سلام يعقد بين محمد أحمد والحكومة المصرية، وحيث الهدف الوحيد من ذلك هو الاستيلاء لاحقا على السودان (كما ذكره بالمناسبة قسم من الصحافة الفرنسية)، هل بهذه الطريقة تأمل إنجلترا بأن تنجح في إسكات الصوت المهيب للمهدي؟ سيكون ذلك قطعا من نسج الوهم، لأن الشخص الذي ينهض خلف اسم ديني معلنا نفسه نبيا أو المهدي، لن يتوقف إطلاقا في مسيرته، واثق تماما أنه إذا تراجع فإن الثقة التي منحها له مناصروه سوف تأخذ بالضعف وستئول حتما إلى الزوال.

إن قسمة المهدي لا يمكنها أن تكون إلا هذا: الموت أو تحقيق الهدف الذي رسمه لنفسه. وهل عن طريق الاستعانة بالفرق العسكرية الفرنسية، وهي بذلك تبرهن عن ضعفها الذي يجهله الشرقيون، تحسب إنجلترا بأنها ستخنق صوت المهدي؟ في

هذه الحالة سوف تفضح ماضيها بهذه الطريقة، وستعود إلى الوضع الذي دمرته ودون أن تشاء، سوف تعطي مصر للمصريين. وهذا ما نرغبه، مع المجازفة برؤية غلادستون البائس وهو يسقط عن عرش السلطة. وحين تيأس إنجلترا من التوصل إلى اتفاق سلمي مع المهدي، فهل ستقترح عندئذ أن تقوم بجلب الوحدات العسكرية الهندية الإسلامية إلى السودان؟ قبل كل شيء، هل هذا ممكن؟ وكيف يمكن للحكومة الإنجليزية أن تتصور بأن المسلمين، وفي سبيل تمتين سلطة عدوهم الوراثي أي الإنجليزي، سيكونون قادرين على الدخول في حرب مع الرجل الذي ظهر كي يدعم إيمانهم؟

أم أن إنجلترا تعتقد بأنها ستتوصل إلى مخادعة الهنود في هذه القضية، كما سبق وخدعتهم في قضية «عرابي»، حيث ستجعلهم يعتقدون هذه المرة أيضا، بأنها لا تفعل سوى القيام بمساعدة السلطان من أجل كبح المتمردين؟ لقد بات الهنود على يقين، بعد الذي حصل في مصر، بأن إنجلترا مصممة على أن تلعب تجاه تركيا نفس الدور الذي لعبته في الماضي تجاه السلطة التيمورية.

أم أن إنجلترا تتصور بأنها ستستدعي جنود السيخ و«الكوركو» «Kourkou»؟ لكن تدخل هذه الفئة سوف يؤدي بالنتيجة ليس فقط إلى الازدياد الخطير للحقد على الإنجليز من قبل المسلمين الهنود، الذين لن يروا بدون عناء وبدون مرارة ذهاب الهندوس إلى الحرب ضد منقذهم (المهدي) فإضافة إلى ذلك قد ينجم عن هذا الرهان تبعات أخرى لا تقل كارثية عن سابقاتها بالنسبة إلى الإنجليز، إنها تهييج السكان المسلمين الهنود إلى درجة أنهم سيستفيدون بدون شك من غياب جزء من الجيش الإنجليزي الموجود في الهند.

المهـــدية
(٣)

إذا أردنا أن نقيم حسابا دقيقا للمخاوف التي تعتري الإنجليز من جراء الانتصارات المتلاحقة لمحمد أحمد (المهدي)، فإنه لا مناص لنا من معرفة وضع الإنجليز في الهند، ومشاعر السكان الهنود تجاهها، وأخيرا النسب الحقيقية لقوتها العسكرية في هذا البلد.

إن عدد الجنود الأوروبيين الذين يمكن لبريطانيا العظمى أن تجهزهم لا يتجاوز الخمسين ألفًا. والخمسون ألفًا هؤلاء، يتتشرون على كافة نقاط الإقليم الهندي وصولا إلى برمانيا. ولا يسع إنجلترا بأي طريقة من الطرق أن تعتمد على الجنود المسلمين والهندوس، في حال حصول انتفاضة، لأنه لم يبق في الهندوستان بيت واحد كبير لم يتعرض للهدم أو للتشويه، ولم يبق قلب لم ينقبض، دون إقامة أي تمييز بين المسلمين والهندوس. لقد انتزعت إنجلترا المملكة التيمورية الواسعة من أيدي الإسلام، كما استولت عنوة على حكم «الميريت» «mirits» الذين يشكلون العدد الأكبر والأفتى بين الهندوس. لقد فتنت إنجلترا أشراف السند و«راجوات» السيخ في البنجاب. كما قضت على عظماء البنغال ولم توفر ممالك «ميسور» «Mysore» و«أود» «Awed» التي أفرغتها من السكان بواسطة المجازر. وأخيرا، قامت إنكلترا بتقطيع الأقاليم التابعة لرجاوات چيبور «Djeypour»، ودچوبتور «Djoptour» وبرودا Brouda حيث استولت على القسم الأكبر منها.

أما الراجوات وكبار النافذين، وعددهم قليل جدا على كل حال، الذين ما زالوا يحتفظون بممالكهم، فإنهم لا يشعرون بالاطمئنان إزاء مشاريع إنجلترا في

المستقبل، ويجهلون إذا كانت إنجلترا سوف تستشعر الضرورة لتركهم حائزين على أملاكهم، ويتوقعون بين يوم وآخر أن يجدوا أنفسهم وقد انتزع منهم القليل الذي بقي لهم. وليس لديهم أدنى وهم حول المصير الذي تعده لهم المطامع البريطانية. إن الإنجليز مقتنعون تماما أنه بمجرد حصول فتنة في الهند، فإن كافة الجنود المحليين، المسلمين والهندوس على حد سواء سيؤلفون قضية مشتركة مع الثائرين، وسيتحدون خلف الراية ذاتها، ولكونهم مدعومين من الرجاوات وكبار النافذين الذين يرفضون انتزاع ممتلكاتهم منهم، فإن الجنود سيثورون ضد المسيطر عليهم ودون التفتيش عن مبرر لهذه الانتفاضة، ودون أخذ الوقت للتفكير بالفائدة التي سيجنونها، ودون اختبار النتيجة التي قد يصلون إليها.

لا يبدو أن محمد أحمد (المهدي) يجهل الوضع الحقيقي للإنجليز في الهند ونواياهم المبيتة بهذا القدر أو ذاك من أجل وضع اليد على مكة، ولا يخفي المهدي علمه بأن أول مواجهة جدية يخوضها سوف تكون ضد الإنجليز في مصر. ولذا فقد أرسل بمبعوثين وبدعوات إلى علماء مكة، وبصورة خاصة إلى العلماء الذين هاجروا من هندوستان، ومن أفغانستان وبخارى، والذين استقروا في مكة.

في هذه النداءات، التي سينشر نصها في أقرب فرصة مناسبة، يدعو المهدي المسلمين إلى النهوض من أجل تأكيد الإيمان الإسلامي ومن أجل نصرته في تحقيق مهمته الإلهية. وإذا كان هؤلاء العلماء العديدون لم يعلنوا حتى هذه الساعة عن تأييدهم لمحمد أحمد، فإني لا أشك لحظة واحدة، كما سبق وقلت، بأن هؤلاء العلماء سيقفون إلى جانبه، وذلك بمجرد أن يحقق المهدي انتصارا جديدا وجديا والذي بدوره سوف ينجز أمر انضوائهم لحسابه.

إن الإنسان، بطبيعته، ميال إلى مبالغة كل الأخبار التي تأتيه من البعيد، إلى درجةأن العدد واحد المتنقل من شفة إلى شفة والمتضخم بواسطة الهرج العام، لا يني أن يتحول إلى ألف، وهكذا فإن الرابية سوف تجري مشاهدتها على أنها جبل. ولهذا، فإن الإعلان عن ظهور المهدي، سوف يملأ قلوب الذين ينتظرون الانعتاق بالوعود الكبيرة وسيفيضون أملا وفرحا.

أو أول تململ سوف يحدث على ما يبدو عند مشايخ الطرق (الأخويات) المعروفين بالشيشتية «El - Chichtia» وهم من عائلة أولران شاه «Olran - Shah» في بلوشستان، وكذلك عندا لقادرية في السند، الطقشندية والقادرية في جبال أفغانستان بقيادة ابن «اهوندسيوات» «Ahoundsiouath»، وعند الوهابين المجاهدين في أفغانستان وفي بلوشستان بقيادة أميرهم عبد الله. جميع هؤلاء سيلقون الدعم من جماعة «الميريت» القاطنة في «بونا» «Pouna» والتى بلغ عدد أفرادها منذ عام أكثر من ٥٠٠ ألف نفس. هذه الجماعة، هي أيضا، تنتظر بفارغ الصبر كي تهب.

ستحظى هذه الحركات المدهشة حتما برد معاكس في الهند، إذ سيحصل نهوض عام، وسيجد الإنجليز صعوبة بالغة في الحصول على مبرراته. وفي كل الأحوال، وبالتأكيد لن يصل الإنجليز إلى قمة غايتهم كما حصل في الانتفاضة الأخيرة. إن حدوث انتصار جدي للمهدي ـ والذي سيكون بلا جدال بمثابة معجزة جديدة في أنظار المسلمين ـ سيكون له كنتيجة حتمية ليس فقط اندلاع الانتفاضة في بلاد الإسلام الواقعة تحت السيطرة التركية كما في بلوشستان أيضا وأفغانستان والسند وهندوستان وبخارى وخوقند وخيفا ـ بل سيفضي أيضا إلى اضطرابات في طرابلس وتونس والجزائر وصولا إلى المغرب؛ لأن كل المسلمين ينتظرون المهدي الذي يعتبرون مجيئه بمثابة ضرورة مطلقة.

العلاج الوحيد، برأيي لإزالة المرض قبل أن ينتشر في كل الجسم، لا يقضي، كما تعتقد بعض الصحف الإنجليزية المهمة، بالتخلي عن السودان والتوصل إلى اتفاق سلمي يعقد بين المهدي وبين الحكومة المصرية، بل بواسطة التدخل التركي، أو بتعاون الفرنسيين مع الإنجليز من أجل تفادي حصول كارثة.

غير أن الإنجليز بعيدون جدا عن القبول بتدخل فرنسي، ولن يتنازلوا عن ذلك قبل أن ينغرز الخنجر الإسلامي في صميم قلبهم، وعندئذ سيكون العلاج بلا فعالية. بالفعل، فإن الإنجليز لم يدخلوا مصر بمفردهم وضد أماني الفرنسيين، إلا لأنهم رأوا هؤلاء قد استقروا في تونس. وقد فهموا (الإنجليز) جيدا بأنه لم يبق أمام فرنسا وهي إحدى القوى العسكرية الأكثر إدهاشا، لتحقيق الاستيلاء على باب

الهند ـ وأعني بذلك مصر ـ سوى السيطرة على طرابلس الواقعة حاليا في الأيدي الغافلة لتركيا .

لماذا لا ترغب إنجلترا ، بصدد هذه القضية ، بمجرد الكلام عن تدخل تركي؟ هل لأنها تهاب تركيا ، أم لأنها تخشى أن تقفل عليها هذه القوة (تركيا) طريق الهند؟ لا أعتقد بأي واحدة من هاتين الفرضيتين . فتركيا ، بالفعل ، وحين كانت أقوى مما هي عليه الآن ، وقبل شق قناة السويس ، ألم تدع الجنود الإنجليز يعبرون مصر لمحاربة إخوانها في الدين ـ أي الهنود المسلمين ـ وانتزاع أملاكهم وممتلكاتهم؟ إن مبرر موقف إنجلترا لا يمكن إذن ان يكون غير الحقد الصريح على المسلمين من قبل الإنجليز ، وخاصة من قبل السيد غلادستون البروتستانتي المتحمس واللاهوتي المتشدد .

إذا لم تقم فرنسا وإنجلترا ببذل كل طاقتهما لاستباق احتمالات معينة ، فإنه سينجم عن تحرك إنجلترا بمفردها في هذه المسألة الخطيرة ، كوارث بالغة ستلحق بهاتين القوتين .

أما بالنسبة للرجلين الطامحين إلى الخديوية في مصر ، أي الخديو السابق إسماعيل وحليم باشا واللذين يستفيدان من الفرصة التي يمنحها لهما المهدي من أجل الحصول على عواطف إنجلترا الطيبة ، فإنني سأكتفي ، بصددهما الآن ولكي لا أتعب القارئ ، بالتحدث عن واحد منهما ، وبأكبر اقتضاب ممكن .

إن صعود حليم باشا إلى عرش الخديوية ، سيمنح بدون شك سرورا بالغا لكل الذين يأملون بتوسيع وتقوية السلطة العثمانية . فحليم ، بالفعل ، واحد من المقربين للسلطان ، ويعده باستمرار بوضع حكومة القاهرة تحت الرعاية الكاملة لديوان الأستانة كما هي حال ولايات سوريا وحلب . . إلخ . . إلخ . . لكن ليس لحليم أي حزب في وادي النيل ، وهو معروف بصورة قليلة جدا ، والنزر اليسير من الناس الذين يعرفونه فإنهم يعتبرونه ملحدا .

وندرك بسهولة أن رجلا متهما بالزندقة من قبل المصريين العميقي التدين ، لن يكون بمقدوره أن يقف وجها لوجه أمام محمد أحمد الذي يخرج للناس خلف هيبة

لقبه الديني أي المهدي. صحيح أن عرابي باشا ذكر اسم حليم باشا، بل وصرح بأنه يقبل به كخديوى، ولكن لا ينبغي الاستنتاج من ذلك أن عرابي كان مناصرا لحليم أو أنه كان لهذا الأخير حزب في مصر.

فقط حين وضع عرابي أمام الجدار وأرغم على الإفصاح عن الرجل الذي يؤيده من بين المتنطعين إلى عرش الخديوية حينذاك وبقصد أن يقوي وضعه في مصر، أعلن عرابي تأييده لحليم.

أما بالنسبة للخديوى السابق إسماعيل، فإنني سأكرس له مقالة خاصة أقيم فيها بالتوازي، النتائج المشئومة والنتائج الطيبة التي يمكن أن يحظى بها أمر إعادته إلى عرض الخديوية.

* * *

٣

باب ما يؤول إليه أمر المسلمين فى المستقبل

باب ما يؤول إليه أمر المسلمين في المستقبل

إذا نظرنا إلى الحالة الراهنة رأينا أن ما آن الأوان للتكلم في مستقبل الإسلام فإن انحطاطه في زمن السلطان سليمان المسمى بالمشرع من يوم حصار مدينة ويانه في سنة ١٦٨٧ لم يزل شيئا فشيئًا حتى بلغ أواخر القرن الأخير أي عهد السلطان محمود الثاني الذي بلغت رجال دولته أعلى درجة في التأخير وتملكت بعد الإنكليز والمسكوا والفرنسيين على كثير من المسلمين وبقي معظم أهالي الإسلام يخبطون في الجهل منتظرين سقوط المملكة التركية تحت صواعق الإفلاس والحروب الباطنية والحروب الخارجية التي يخشى من حصول النصر فيها فضلاً عن الهزيمة على أن تلك المملكة التركيـة هي التي ورثت الملك من الخلفاء الذين دانت لهم الأرض بأجمعها وخضعت لها ممالك أوروبا بصياحها ودموعها وهي الآن حصن غير منيع لحفظ شوكة الإسلام ووقاية واهية للتجمع والالتئام .

فما ظنك الآن بما يؤول إليه أمر المسلمين وهي في ظنك من تقلب الأحوال وضيق من عدم تحقق الآمال؟! أفيخطر ببالك أن يقال إن هذا الدين يتلاشى وإنه أخذ زمنه ومضى؟! أو يخطر ببالك أن فيه الكفاية لتنظيم أحواله ويرجع إلى قوة مَنْشَئه ويكون معينا على نشر التمدن في جميع أقطار الدنيا . فهاك مسألتان خاصتان بحالَ الإسلام وما يؤول أمره إليه بالنسبة لانصلاح شئونه في المستقبل وبالنسبة لسياسة النصارى الذين تحت حكومة الإسلام ، وهاتان المسألتان لهما دخل عظيم في المسألة الشرقية التي لا تحول ولا تزول .

فلا وجه للمجاوبة عنهما بوجه الإيجاب لأن الدليل الأقوى لتعضيد كل منهما لابد من دخوله في مسألة الأديان . وقال المؤلف فونطه : إن الدين قاصر على الزمن

الذي ظهر فيه وإن الأديان سترفع من الأرض بعد أن تنتشر المروءة على وجهها وإن آخر دين أكثر تنقيحًا من باقي الأديان التي تقدمت وإن التنظيمات التي تحصل في الدنيا لابد لها من دين جديد فإذا كان هذا الدين هو دين الإسلام يلزمنا أن نتوقع زمن ظهوره على الأحوال التي حصلت في الدنيا وتضاهي قواعده الأديان المتقدمة ثم نبحث في الثمرات التي ملئت منها التواريخ ونطلع على أسباب انحطاطه في هذه الأيام وإذا تأملنا في الأسباب الموجبة للانحطاط ظهر لنا أنها ناشئة من عدم موافقة ذلك الدين للتقدم والتمدن الحاصل في هذا الزمن. فاذا أمعنا النظر في درجات تلك المسألة رأينا الإسلام ظهر بعد النصرانية بستمائة واثنتين وعشرين سنة فكانت قواعده أعلى وأمتن من دين النصرانية.

وعندنا دليل آخر وهو أن الدينين ظهرا في أرض واحدة وأن الدين النصراني سقط في بلدة يهوذا ولم يظهر بأوروبا بعدها إلا بعد أن قاسى كثيراً من الشدة واللوعة في أوروبا، وأما الإسلام فإنه أزهر وأثمر وعلا شأنه في كل بلدة دخلها وكان عدد المسلمين بعد الهجرة بقرن يبلغ مائة مليون أكثرهم كان من اليهود والنصارى ولم يبق من عبدة الأوثان شيء إلا وطغى عليه سيل الإسلام فأغرقه وكذب[1] يونس حيث قال إنه لا يبعث نبي في بلده فإن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث في بلده وظهر أمره في جزيرة العرب. ومن ادعى أن قوة السيف هي التي نشرت ذلك الدين فقد ضل ضلالاً بعيداً لأن العدد القديم من فرسان الصحابة لم يكن كافيًا في إلزام ثلث الدنيا باتباع الإسلام ونشر التمدن بين الأنام في زمن كانت فيه صولة الرومان والأروام وكان دين النصرانية كثير التشعب والمذاهب وكان الخصام واقعًا بين كثير من تلك الشعوب وحصل الاضطراب عند نقص مذهب الأرثذوكس فترتب على ذلك قلقلة الجمعيات وسفك كثير من الدماء واحتيج إلى إيجاد مرشد يصلح بين الناس ويهديهم إلى الطريق المستقيم فكان ظهور الإسلام داعيًا لسلامة الجميع و اتفاقهم على وحدانية الإله. فأحرقت معابد الأصنام وأضاء نور الإسلام بلا إله إلا الله محمد رسول الله وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمات ومحو آثار الأصنام وإزالة اعتقادات الأروام في تعدد الآلهة. وبعد

(١) كذا بالأصل «كذب»، ومعناها: «أخطأ»، وهذا ما قاله من قِبَل رأيه.

أن مهد الطرق ومكن كلمته أباح للعرب ما كان من عوائدهم موافقًا لكلمة التوحيد وأقر اليهود على دينهم والنصارى على تعظيم المسيح وأمه وقال إن المسيح من روح الله وإن مريم أحصنت فرجها، فما كانت تعتقده الروحانيون في إحصان مريم مأخوذ من الإسلام.

ولما رأى أن النصارى تكره بقية الأديان أباح حبها، وقال إن اختلافها لم يكن إلا بإرادة الله وفي القرآن: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦، ٤٧] فصح على ذلك أن دين الإسلام يقبل العوائد المتقدمة ويقبل التأويل لموافقته للعلوم المتأخرة. فإن الأقدمين كانوا يعتقدون عدم إدراك أمر الروح وذلك موافق لـ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥] ولم يخل شيء من أحكام الإسلام عن موافقته لحكم عقلية كتحريم النبيذ وبعض اللحوم والميسر لثبوت ضررها بالتجربة. وحكم الوضوء هذا أمر صحي وقال بعض المؤلفين الطاغين إن دين الإسلام اشتمل على ما كان في دين النصرانية من الأمور الموافقة للشرع والطبع وكذلك أغلب المؤلفين النصارى سلموا للعرب في التمدن وعظموه على أن التمدن لا ينسب للعرب بل للكتاب والسنة، وورد في الحديث: «اطلب العلم ولو بالصين»، وقال أيضًا: «عظموا من علمكم كلمة كتعظيم آبائكم». وسئل النبى صلى الله عليه وسلم لمن الحكم؟ فسكتوا فقال: «لأعلمكم». فكان هذا الحديث وأمثاله موجبا لازدياد الرغبة في العلم ونشره مع التمدن في البلاد المتوحشة حتى ظهرت الألفة بين سائر الناس وظهرت المعارف في بلاد الأكراد وغرناطة وسبتة والقيروان من أعمال كسرى الأندلس ثم بدمشق والعراق والموصل وبغداد وأصفهان وبخارى وسمرقند والهرات وقابول وكندهار ودهلي من بلاد الهند وأشرقت شموس العلم بالإسلام في سائر النواحي وكانت بلاد النصرانية وقتئذ من الجهل في ظلمات بعضها فوق بعض، ومن اطلع على

التاريخ علم أن الروم والرومان إن كانوا قد ابتدأوا في نشر التمدن فإن المسلمين أتموا نشره في عهد المأمون بن هارون الرشيد.

ولقد كانت عادة المسلمين أنهم إذا ملكوا بلداً بادروا في تعليم أهلها وجعلوا في كل قرية مدرسة، وتلك آثارهم تدل عليهم لأنك إذا نظرت إلى مسجد من مساجد صدر الإسلام رأيت بجواره مدرسة وسبيلا وشتان بين تعليم تلك الأيام وتعليم أيامنا هذه. ومن شروط الإسلام المساواة بين الصغير والكبير والقوى والحقير فإن طفيل بن عمر أتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له: إذا أسلمت كيف تكون مرتبتي عند الناس؟ فقال: «الناس كأسنان المشط» أي في الاستواء. وقصة حيلة بن الأسهم من ملوك العرب لما أسلموا في عهد عمر بن الخطاب، وحجّ داس على بردته أعرابى فلطمه حيلة فشكاه الأعرابي لعمر فدعى حيلة ليقتص منه فقال: فكيف يكون ذلك وأنا من ملوك العرب وهذا صعلوك؟! فقال: قد سوى الإسلام بينكما.

وكانت المناصب في صدر الإسلام بغير مقابل؛ إذ كان الأمير يعيش من الجملة فكان على صهر النبى صلى الله عليه وآله وسلم عاملاً وكان عمر يضرب الطوب ويعيش منه وكان السلطان محمود الأول صائغًا ومحمود الثاني خطاطا يأكل من عمله.

وناهيك بالعدل فإنه كان طبيعة للخلفاء والملوك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال سليمان: القوة تزيد في اتساع الممالك والعدل يحفظها وأقوى دليل على عدل المسلمين أنهم كانوا يحسنون معاملة النصارى من رعاياهم، ولما رأى ملوك الروم ملوك المسلمين لا يخرجون عن كتاب الله ولا ينفذون الأحكام إلا بفتوى من شيخ الإسلام صاروا يتحاكمون عندهم في قضاياهم. وحكي أن السلطان بايزيد الثاني كان حاضراً بالمجلس الشرعي وأراد أن يتكلم فمنعه القاضي فينار زاده وقال: إنه غير عدل لعدم حضوره في المسجد يوم الجمعة كما هي عادة الخلفاء والملوك. ومن يسب النساء في الإسلام (ويمارس)[١] الاستعباد فقد أخطأ فإن المسلمين يعظمون نساءهم وإن العلوم الإسلامية مروية عن عائشة وفاطمة وخديجة وغيرهن، وفي الحديث الشريف: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

---

(١) غير موجودة في النص الأصلي.

وأما تعداد الزوجات فليس حكما إلزاميا لما ورد في الكتاب المجيد ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]. وحقوق النساء عند المسلمين أكثر مما عند الأوربيين. فإن المرأة تبلغ رشدها من تسع سنين ومهرها على زوجها، فإن تزوجت لها الترف في متاعها وهي المصدقة بقولها في الشهادة على نفسها وتحريم الخمر والميسر فيه حفظ للزوجة مع تقى الزوج وورعه.

ونهاية القول فإن من ينسب الضعف للإسلام بنسبة مأخذه فقد أخطأ، لأن الكتاب والسنة سار بهما الإسلام وعلا شأنه في التمدن والتقدم مبلغًا عظيمًا من القرون. ولما أن هجر العلم وحاد المسلمون عن اتباع شريعتهم أخذت دولتهم في الانحطاط. ومن المشهور أن مبدأ انحطاط الإسلام كان من عهد السلطان سليمان وتصميمه على عدم تأويل السنة بما يوافق مواقع الإسلام حوال في أوقاتها مع أنه سئل النبى صلى الله عليه وسلم وآله سلم فيما نقول في المستقبل. أنتبع نص القرآن أم نتبع ما فسر به القرآن والأحاديث؟ فقال صلى الله عليه وآله سلم: شهادة الرجل حيا خير من شهادة عشرة من الأموات». فيفهم من ذلك أن شريعة الإسلام كالثوب المرن تقبل التمدد والتشكل بأشكال التمدن والتقدم بخلاف دين النصرانية لتحكم النفس وتشديدهم وعدم الإباحة في التأويل فبقيت غير منتخبة. وأعجب من هذا أنهم لقبوا السلطان سليمان بالمشرع مع أنه أغلق باب التفسير بالقوة والاقتدار وجعل معنى القرآن قاصراً على آخر تفسير أمر به فسقطت بهجة العلوم الإسلامية، في زمن أخذت أوروبا في أسباب التقدم والمعارف. ونرد على ذلك عيبًا في كيفية الهجاء المتبعة في اللغة التركية والعربية والفارسية وهي أن الحركات لا تعرف إلا بالشكل ويستحيل بغيره معرفة قواعد القراءة في تلك اللغات بخلاف ألف باء الأوروبية فإن حركتها تكتب حروفًا إذا تعلمها أي شخص أمكنه أن يقرأ بالصحة في أي كتاب ولو لم يفهم المعنى. ولا شك أن تقدم العلم مبني على حسن ترتيب لغته وأن النفور يتصاعد إذا لم يجد عبارة وجيزة يتكيف بها. هذا ولم يبق للمسلمين إلا الإيمان والحمية على اتباع كتاب الله فلا يخرج حبه عن قلبهم أبدا. وإن قيل لك إن النصارى لكثرة غواية الفلاسفة لهم وزحزحتهم عن دينهم شيئًا فشيئًا في مدة ثلاثمائة سنة يتركون دينهم ولا يبقى له وجود فصدقه، وأما إن قيل لك عن المسلمين شيء من ذلك فلا تصدقه مطلقًا.

وإن أمكن الإغارة على بلدة من بلاد المسلمين فإنه لا يمكن جبرهم على ترك دين الإسلام واتباع دين النصارى ولو عرضوا للهلاك بل يميلون للحكم على كره منهم فإن لاحت لهم فرصة للتخلص نفروا مهللين بالشهادتين .

والحاصل أن الحمية الإسلامية غنية عن التعبير وأن حب المسلمين في نبيهم وتفضيله عن باقي الرسل أمر لم تقلقله سياسة الدول إلى الآن . وحيث ثبت أنه من القوة البالغة الحدة وأنه لا يمكن إزالته فالأولى موافقته بالعلوم المتأخرة والانتفاع به . وإن دول فرنسا وإنجليزا[1] والروسيا لم يعتدوا إلى الآن بطريقة في حكوماتهم توافق دين الإسلام ، فتراهم يتبعون أنفسهم في رد المسلمين عن دينهم فلم يمكنهم ذلك . ويستعملون الظلم والقسوة التي لا تفيد شيئًا . ومما يشبه الأوروبا والممالك المتقدم ذكرها في معاملة المسلمين السلطان محمود لأنه لما شرع فى التعليمات الحربية الأفيركية أدخلها على المسلمين بوجه أفهمهم أنه شارع في تغيير قواعد الدين فقامت عليه القيامة من الداخل والخارج وتقلبت عليه الأحوال فأهلكته . وأما المرحوم محمد علي باشى[2] فإنه أحيا مصر بعد العدم ونشر ذكرها بين الأمم فأخذت في أسباب التمدن واتسقت في الروه!

ولا يخفى أن كافة المسلمين ينضرون من الحالة التي هم عليها الآن ويحبون تغييرها بأي وجه كان فمن ثم كان قيام أهل العلم وخلع السلطان دليلاً على تيقظ الإسلام وأن المسلمين من ابتداء مملكة مراكش إلى بلاد الهند قد قربت أن تتحد كلمتهم على نصر الدين وتحسين أحوال المسلمين سيما لما بلغهم من الصرب أنهم يريدون نصر الصليب . وأن أغلب دول أوروبا تساعدهم على ذلك فكان سعيهم من باب البغي والعدوان رحيم المرتع قليل المصرع فياليت المبالغ التي صرفتها الدولة في مشترى السفن المزرخة والآلات الحربية كانت صرفت في طلب العلم ولو في الصين كما في الحديث وكانت الأمة الإسلامية تقدمت في المعارف والفنون ، لكن نحمل ذلك على الاحتراز من بأس المعتدي ولا ضرر فيه وحيث تعين على الدولة أن توافق دول أوروبا في إعطاء الضمانات المطلوبة لراحة النصارى فلا بأس في ذلك .

---

(١) إنجلترا .

(٢) باشا .

إنما يجب على الدولة أن تنتهز الفرصة وتلتفت إلى تمدن المسلمين ونشر العلوم والفنون بينهم لأن هذا الزمان مساعد لذلك إذ لا وجود للماليك والانكشارية الذين عطلوا السلطان محمود في زمنه سيما للمسلمين الآن رغبة عظيمة في معرفة العلوم الأوروبية فإننا سمعنا مدرسة فتحت مجانًا في محروسة مصر منذ ثلاث سنوات وبلغنا عند افتتاحها أن التلامذة والراغبين هرعوا إليها ولم يكن يبقى إلا ثلاثمائة طالب فوجد عدد الذين دخلوا فيها يومئذ يبلغ سبعمائة وحصل مثل ذلك حيث أمرت الحضرة الخديوية بفتح مدرسة للبنات وكانت أول مدرسة فتحت في مصر ما كان يؤمل أنها تنجح، ففي أول يوم بلغ عدد الوارد فيها قدر المطلوب ثلاث مرات فمن نظر إلى ذلك بعين التأمل رأى نتيجة عظيمة لا تنال ولا بالقتال. فنشر التعليم خصوصًا بين النساء لا شك أنه يئول أمره إلى فصل مشكل المسألة الشرقية. ولا يحتاج الأمر فيها قتال ولا نزال لأن سيف التعليم أمضى من سيف المحاربات.

ولنضرب هنا مثلاً بالأرض المزروعة يأتيها الشتاء فيستر زرعها بالثلج فترى كالميت وإذا أتى عليها الصيف وذابت الثلوج أخرجت زخرفها وازينت. فكذلك الإسلام إذا التفت إلى معرفة العلوم والفنون دارك الدرجة العليا في التقدم كان عزمه قويا ومستقبله مرضيا. إن الله على كل شيء قدير[1](*).

---

(١) تمت بخط سيد أحمد الحكيم الأزهري البحراوي الحنفي. كتبت هذه المقالة في شهر صفر ١٢ فيه سنة ١٢٩٤.

(*) فى سنة ١٣٥٣هـ. ش (الإيرانية)، قد أعطانا نسخة من هذه المقالة للسيد جمال الدين الحسيني، أخونا السيد حسن محجوب، حيث وجدها، بين الأوراق والوثائق الخطية في مكتبة «مجلس سنا» فى طهران وكان الأخ محجوب مديرًا للمكتبة آنذاك... إلخ.

٤

الحكومة الاستبدادية

الحكومة الاستبدادية

إن طول مكث الشرقيين تحت نير استبداد المستبدين، الذين كان اختلاف أهوائهم الناشئ عن تضاد طبائعهم، وسوء تربيتهم، مع عدم وجود رادع يردعهم، ومانع يمنعهم، وقوة خارجية تصادمهم في سيرهم، سببًا أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم، بل اقتضى التصرف في غرائزهم وسجاياهم، والتغير في فطرتهم الإنسانية، حتى كادوا أن لا يميزوا بين الحسن والقبيح، والضار و النافع، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم، وما انطوت عليه من القوى المقدسة، والقدرة الكاملة، والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة والعقل الفعال الذي تخضع لديه البسائط والمركبات، ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات. وإن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة، وتستوجب المحو التام والذهول المستغرق، بل تستدعي التنزل إلى المرتبة الحيوانية، ومداومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التي تكشف عن حقيقة الإنسان، وتعلمه بواجباته وما يلزمه في معاشه، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل في الهيئة الاجتماعية، وتمكنه من دفعها، والسعي في إطفاء نورها بما ورثوه عن آبائهم من سفه القول وسخف الرأي والجدل في اضمحلال كتبها وضياع آثارها واستبدالها بما أوقعهم في ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبدا(١).

كل هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجري على قرطاس بيد شرقي في البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين

---

(١) استعمل «استبدل» هنا بما هو الشائع عند المتأخرين عامة. والذي في القرآن العزيز أن الباء بعد «استبدل» و«تبدل» تدخل على المبدل منه لا على البدل. فليتنبه له الكتاب. (هامش المنار).

بهـا . وإن المسـوسـين بهـا أعلى شـأنا وأرفع مكانة من سـائر أفـراد الإنسـان ، بل هـم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهـم ، فإن الانسان الحقيقي هو الذي لا يحكـم عليه إلا القـانون الحق المؤسس على دعـائم العـدل ، الذي رضيه لنفسه يحـدد به حركـاته وسكناته ومعـاملاته مع غيره ، على وجـه يصعـد به إلى أوج السعـادة الحـقيـقيـة ، وتصـده عن أن يرقم عـلى صفـحـات الأوراق ، مـا يكشف عن مـاهية الحكومـة المقيـدة ، ويوضـح عن فوائدهـا وثمراتهـا ، ويبين أن المحكومين بها قـد هزتهم الفطرة الإنسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية ، والترقي إلى أول درجات الكمال ، وإلقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة ، وتطلب مشاركة أولي أمرهم في آرائهم وكبح شره النهمين منهم الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم . ولهذا أضربنا صفحًا عن ذكرها ، وأردنا أن نذكر في مقالنا هذا الحكومة الاستبدادية بأقسامها فنقول :

إن الحكومـة الاستبـدادية باعتبـار عناصرها الذاتية ، وأقانيمـهـا الحقيقية التي هي عـبـارة عن أمـير أو سلطـان ، ووزراء ، ومـأموري إدارة وجـبـاية ، تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسـم الأول: الحكومة القـاسيـة وهي التي تكـون أركـانهـا ، مع اتسـامهـم بسـمـة الإمـارة والوزارة والإدارة والجبـاية ، شـبـيـهـة بقطـاع الطريق . فكمـا أن قـاطـع الطريق يقطـع طـرق السـابلـة ، ويسلبـهـم أمـوالهـم ومؤنـهـم وثيـابهـم التي تقـيـهـم الحـر والبـرد وسـائر مـواد حيـاتهـم ، ويتركهـم في البـوادي والقـفـار حفـاة عـراة جيـاعـا تقطعت بهـم حـبال الوسـائل ، ولا يلاحظ أن فـيـهـم الهـرم والصـغـيـر والعـاجز والضـعـيف الذين لا يستطيعـون التـخلص من المهالك ، ولا يقتـدرون النجـاة ، ولا يبـالي بموتهـم وهـلاكهـم عن آخرهـم ، ولا تأخذه في ذلك الشفقة والرحمة . كذلك هؤلاء الأركان يغتصبون ضـيـاع رعـايـاهـم وعـقـاراتهـم ، ويسـتـولـون على مسـاكـنهـم وبسـاتينهـم ، وينتـزعـون بالضرب والحبس والكي وغيرها من أنواع العذاب ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم ، ويدعـونهـم في مـخـالـب المصـائب ، مـعـرضين للأسـقـام والآلام ، وأهـدافـا لـسـهـام البلايا ، التي ترمـيـهـم بهـا عـواصـف الرياح الزمـهـريرية والسـمـومـية ، ولا يخـشـون

اضمحلالهم وإبادتهم بالكلية، ومحق حياتهم بالمرة[١] بل يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم، ولا يشعرون أنهم قواد السلطة وأساسها. ومن أفراد هذا القسم الحكومة الجنكيزية[٢] والتيمورية وغيرهما من حكومات التتر والبرابرة كما تشهد بذلك التواريخ.

القسم الثاني: الحكومة الظالمة. وأولياء هذه الحكومة تماثل الأخساء الذين يستعبدون أناسا خلقوا أحرارا ظلما واعتداء. فكما أنهم يكلفون عبيدهم بأعمال شاقة وأفعال متعبة، ويجبرونهم على نقر الأحجار، وخوض البحار، وفلق الصخور، وقلع الجبال، وطي المفاوز، وجوب البلاد، في صرة الشتاء وهجيرة الصيف، ويؤلمون أبدانهم بالسياط إذا لجأوا آنا ما إلى الراحة التي تجذبهم الطبيعة إليها، ويحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام حياة هؤلاء المظلومين عن مزايا جواهر عقولهم المقدسة، حيث لا يجدون فرصة من دهرهم للنظر في الآفاق، وفي أنفسهم، كي يرتقوا من الإحساس البهيمي إلى عرش الإدراك الإنساني، ويشاركوا أبناء جنسهم في اللذائذ الروحية، ويجتنوا ثمار عقولهم ليؤازروهم بنتائجها من الصنائع البديعية، والمخترعات الرفيعة، فيسعدوا مع السعداء. ومع ذلك يحرسون حياتهم، ويحرصون على استبقائها استيفاء للخدمة منهم بتقديم قوت من أردأ ما يقتات به لسد الرمق، وثياب خشنة رثة لتحفظهم من أظفار العواصف وبراثن القواصف. فلا يكون حالهم مع ساداتهم إلا كحال البهائم والأنعام الأهلية، لا يعيشون إلا لغيرهم، ولا يتحركون إلا برضاه، بل بمنزلة آلة غير شاعرة بأيدي مستعبديهم يستعملونهم كما يشاءون.

كذلك هؤلاء الولاة مع رعاياهم، فإن الرعايا لا يزالون يتحملون المتاعب والأوصاب، ويكدون أيام سنيهم، ويسهرون لياليها، مشتغلين بلا فتور بالغرس والحرث، والحصد والدرس، والندف والحلج، والغزل والنسج، مهتمين بالحدادة

---

(١) قيل لحاكم شرقي إن رعيتك يموتون في عمل السخرة الفلاني الذي كلفتهم به فلو رفقت بهم. فقال: «وهل نحن استلمناهم بالعدد فنخشى أن ينقصوا» (هامش المنار).

(٢) وضع رشيد رضا «الحكومة الإنجليزية» وحاول أن يشرح ذلك في الهامش (المصدر السابق ص ٥٨٠)، وبالرجوع إلى الأصل تبين أن الأفغاني يقصد الحكومة الجنكيزية نسبة إلى جنكيزخان.

والنجارة، والملاحة والتجارة، ساعين في حفر الأنهر وإنباع المياه، وإنشاء الجداول والجسور، متكبدين آلام التغرب في الحر المبيد والبرد المميت، كي ينالوا (أي الحكام) أرغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن، ويحوزوا الراحة والرفاهية والحظ والسعادة. وهؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعي في سلب ما بأيديهم جبراً، وغصب ثمار مكاسبهم وفوائد متاعبهم رغماً، ولا يدعون لهم مما اكتسبوه بكد يمينهم، وعرق جبينهم، سوى ما تقوم به حياتهم الدنيئة، حتى تراهم بعد اقتحام هذه الأخطار وتحمل تلك المصاعب، لا يقتاتون إلا بكسرات خبز رديئة ناشفة، يبلونها بدموعهم المنسكبة من جور ولاتهم الفاتكين، ولا يسترون أبدانهم إلا بخرق رثة مرقشة بدمائهم السائلة من سياط حكامهم الجائرين. ولا يسكنون إلا في الأكنة المنخفضة، والأخصاص الخسيسة، كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الإنسانية، ولا يشاهدون إلا بوجوه مغبرة مقشرة، وأبدان مقشفة معفرة. وتدوم عليهم هذه الحال الرديئة التي نشأوا عليها، والمعيشة الدنيئة الي اعتادوها، حتى يقنعوا بها ولا يتعلقوا سواها، بل يتنزلون بسوء تصرف هؤلاء الولاة مما منحوه من فضيلة العقل إلى رتبة البهيمة، ولا يحسون بمعيشة أكمل مما هم فيه ولا يتألمون إلا بالآلام الجسمانية.

ومن أقسام هذه الحكومة غالب حكومات الشرقيين في الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة، وكذلك أكثر حكومات الغربيين في الدهور الماضية، ومنها أيضا الحكومة الإنجليزية الآن في البلاد الهندية.

القسم الثالث: الحكومة الرحيمة وهي تنقسم إلى قسمين: **القسم الأول منها الحكومة الجاهلة.** ودعائم هذه الحكومة تحاكي الأب الرحيم الجاهل. فكما أنه يحث أبناءه على اقتناء الأموال، واكتساب الثروة، واستحصال السعادة، والاقتصاد في المعيشة، بدون أن يبين طرقها، ويمهد لهم سبلها، لعدم علمه بها، ويدعوهم رأفة إلى المجاملة والموادعة، ورفع الشقاق والنزاع من بينهم، بغير أن يحدد لهم الواجبات، ويقدر الحدود اللازمة للإدارة المنزلية[1] لقصور إدراكه عنها، فكأنه يدعوهم إلى أمر مجهول مطلق لا يهتدون إليه سبيلا.

(١) يستخدم الأفغاني هنا ـ وبعد ذلك ـ مصطلح «الإدارة المنزلية» بالمعنى القديم الذي وضعه فلاسفة الإغريق لما يعرف اليوم باسم «الاقتصاد».

كذلك حال هؤلاء الدعائم الرحماء الجهلاء يطلبون من رعاياهم السعي في المكاسب والصنائع، والتمسك بالتجارة والفلاحة، والتشبث بالعلوم والمعارف، ويغرونهم على مجاراة الجيران، ومباراة أهل العرفان، والتعلق بأسباب النجاح والفلاح، بلا تشييد المدارس المفيدة، وتأسيس المكاتب النافعة، وتسهيل طرق المعاملات، وبث فنون الزراعة، جهلاً منهم. ويريدون من أولئك الرعايا التباعد عن الشقاق والنفاق، والاحتراز عن الاعتداء والاعتصاب، والتجنب عن الفساد والعناد، والحيف والميل في الحقوق، والاحتراس عن كل ما يخل بالراحة العمومية، بلا تقنين ناموس عادل، حافظ للحقوق، معين للحدود، فاصل للقضايا، قاطع لما يطرأ من النوازل، جامع لجميع ما يحتاج إليه الإنسان في اجتماعاته المدنية. ومن أفراد هذه الحكومة سلطنة بعض سلاطين المجبولين على الشفقة المطبوعين على الرأفة، الذين كانوا يبكون على سوء أحوال رعيتهم مع جهلهم بما يصلح شأنها. والسير بذلك ناطقة.

القسم الثاني منها: الحكومة العالمة. وهي تنقسم إلى قسمين: **القسم الأول: الحكومة الأفينة.** وأقانيمها تضاهي الأب العالم المأفون[١]. فكما أن شفقة هذا الأب تسوقه إلى العناية بأحوال أبنائه، وتقسره عليها، وأن علمه بأسباب الترف والثروة وعلل المعيشة الهنيئة المرضية يقوده إلى الاهتمام بتأديبهم بأحسن الآداب، وتعليمهم الفنون، وتمرينهم على الحرف، ويجبره على أن يبين لهم قوانين العشرة، ويحدد لهم حقوقهم. ولكن بعد ذلك يتركهم وشأنهم لضعف رأيه، وقصر نظره، وجهله بأن ملازمة الشبان للآداب واجتنائهم ثمار معارفهم التي اكتسبوها، واجتهادهم في المكاسب لا تكون إلا بقوة حافظة، ما لم تحنكهم التجارب لما جبلوا عليه من الميل إلى الشهوات، والانعكاف على البطالة، والقاعد عن الفضائل، فيهوون في هاوية التعاسة، وتذهب مساعيه سدى.

كذلك هؤلاء الأقانيم[٢] يعمرون بيوت العلم، ويشيدون دور المعارف، وينشئون المعامل، ويوسعون نطاق التجارة، ويواظبون على تشريع سياسة مدنية،

---

(١) الأفين: ناقص العقل. والمأفون: ناقص العقل أيضا، والاثنان بمعنى واحد.
(٢) الأقانيم: الجواهر أو الأصول، ومفردها الأقنوم: الجوهر والأصل.

تثبيتًا للحقوق، واستتبابًا للراحة، على مقتضى ما أحاطوا به من أحوال رعاياهم، ولكنهم، لعدم تدبرهم في العواقب، وعدم تبصرهم بأن افتقار انتظام أحوال العباد، وسير أمورهم على نهج العدل، ونيلهم غاية بغيتهم من مساعيهم إلى العلة المبقية كافتقارهم إلى العلة الموجدة، لا يواظبون على أعمالهم هذه، ولا ينظرون إليها نظرةً ثانية بل ينبذونها ظهريا، ويتركونها نسيا منسيا، فيتطرق إليها الخلل، ويعتريها الفساد، ويسري إليها الانحلال، لما جبل عليه الإنسان من الحرص والشره، والميل إلى الجور والاعتداء، المستلزمة لمخالفة القانون فيقع كل في العطب والنصب والشقاء والعناء، ويستولي عليهم الفقر والفاقة ويصيرون كأرض موظوبة[١]، بتوالي تطاول أيدي جائريهم، وتعاقب اعتساف معتديهم. ويشبه أن تكون حكومة المأمون وبعض سلاجقة إيران من أفراد هذا القسم.

القسم الثاني: الحكومة المتنطسة[٢]. وأساطينها الحكماء، تضارع الأب المتدبر المتبصر، لا يبرح ساعيا في إعداد الأسباب الموجبة لسعادة أبنائه زمن حياتهم، وتهيئة معداتها القريبة والبعيدة، ولا يتجافى آنًا ما عن مواظبة دقائق حركاتهم وسكناتهم، وتفقد شئونهم واستكناه أحوالهم، ولا يتقاعد لمحة عن تأييدهم في سيرهم بآرائه السديدة وأفكاره الصائبة، خوفا من التواني والكسل والإهمال والفشل، وخشية من عروض الموانع التي تصدهم عن البلوغ للغاية.

فنجد هؤلاء الحكماء الأساطين يعلمون أن قوام المملكة، وحياة الرعايا، بالزراعة والصناعة والتجارة، ويعرفون أن كمال هذه الأمور وإتقانها لا يكونان إلا بأمرين، أحدهما وهو في الواقع علتهما الأولى: العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة، التي لا يمكن حصولها، والفوز بها إلا بمدارس منتظمة، ومدرسين ماهرين، ومتخلقين بأخلاق فاضلة، شفوقين على المتعلمين شفقتهم على أبنائهم، وثانيهما إعداد آلات الزراعة وأدوات الصناعة، وتسهيل طرق التجارة البرية والبحرية، ويفقهون أن حفظ أساس المدنية، وصون نظام

---

(١) هي التي رعيت مرارا حتى لم يبق فيها كلأ ولا نبات. (هامش المنار).

(٢) نطس: استقصى الأمر ودقق فيه النظر، وكذلك: تنطس. والمعنى هنا: حكومة الخبراء.

المعاملات، وفصل المنازعات، وكف أيدي المتعدين، ومنع المدلسين، وكبح الأشرار، وردع الفجار، لا يكون إلا بالمحاكم الشرعية والسياسية المؤسسة على دعائم العدل والإنصاف.

وإنها لا تحقق إلا بقانون حق، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة - حتى إرش الخدش[١] - إلا محفوظا بأمناء يقظين، محروسا بعدول نشطين، محفوظا بعلماء فقهين، معززا بقضاة مقسطين، مؤيدا بحكام أعفاء وأعوان بررة، يدركون ببصيرتهم الوقادة مصالح العباد، ومناهج تعمير البلاد، ووسائل درء المفاسد الداخلية، وطرق منع النوازل الخارجية، وأن القيام بذلك لا يكون إلا بضرب ضرائب عادلة عليهم يجمعها جباة عدول، تصرف في منافعهم العامة لدى الضرورة بلا حيف وميل، وانتخاب طائفة من أبطالهم الموصوفين بالصداقة وعزة النفس وعلو الهمة لحفظ الأمنية[٢] الداخلية، ودفع الأعداء الخارجية، ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة، وصيانة استقلالها، لا يكونان إلا بارتباطاتها السياسية وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى، وأنها لا تتم إلا برجال عارفين، دهاة، متبصرين، محبين لأوطانهم (لا كحسن أفندي فهمي شيخ الإسلام الأسبق في الأستانة[٣] الذي كان يقول لعدو وطنه الجنرال إغناتيف سفير الروسية فيها: إنك عيني اليمنى، وإن حيدر ابني عيني اليسرى، كما ذكره حضرة مدحت أفندي في كتابه المسمى بأس الانقلاب) متدربين محنكين بالسياسة عالمين بالحوادث قبل ظهورها، محيطين بطرق التجارة، فيقومون بواجبات ما اقتضته حكمتهم، وما أحاطوا به علما، ولا يتهاونون آنًا ما عن أداء حقوق رعاياهم، ولا يفتدون راحة أنفسهم بسعادة أولئك الضعفاء. وزد على ذلك أنهم يدرون أن غالب أفراد الإنسان طبع على الحرص، وفطر على الشر، وجبل على الشهوة، وخلق متهاونًا بواجباته متوانيًا عن إصلاح شئونه، ونشأ على المكر والحيل، وغرز فيه حب الاعتداء على حقوق الغير وعدم

(١) الإرش شرعا بدل الدم أو الجناية أو هو للأطراف كالدية للنفس. (هامش المنار).

(٢) الأمنية: الأمن.

(٣) قيل - ومصدر ذلك هو الأفغاني نفسه - إن حسن فهمي هذا كان من أعداء الأفغاني وحساده خلال إقامته في تركيا (١٨٦٩ - ١٨٧١) وأنه تسبب في طرده منها.

الاكتفاء بما ملكته يداه، وغرس فيه بغض الشرائع والقوانين، حينما يراها سدا يمنعه من سلوك سبيل الغدر، وحاجزا يردعه عن مقتضيات الشره، وغلا يكف يديه عن التطاول. وإنهم يفهمون أن كل ما يقع في العالم الإنساني من المرض والصحة والفقر والغنى والنصب[١] والراحة، بل كل ما يقتضي الشقاء والسعادة، ويوجب الصلاح والفساد، لا بد وأن يكون لإرادة الإنسان وحركاته الاختيارية فيه دخل تام، ويدركون أن الإنسان ما دام على هذه السجية والغريزة فهو كمريض تنازعته أمراض خطرة مختلفة، لا ينجو منها إلا بتمريض طبيب ماهر يعرف العلل والعلاج، ويتفقده آناء الليل وأطراف النهار، فيهتمون حكمة وشفقة بتتبع أحوال الرعايا مثل ذلك الطبيب الماهر، ولا يبرحون عن موازنة أعمالهم وأفعالهم وحركاتهم، ولا ينفكون عن مقايسة آرائهم وأخلاقهم، ولا يفترون عن تعديل ثروتهم وغنائهم، وتقويم علومهم ومعارفهم وتجارتهم وزراعتهم، وإحصاء عددهم، وتعداد أحيائهم وأمواتهم، ولا يتوانون عن مقابلة الصادر والوارد في ممالكهم، والمعادلة بين قوة حكومتهم واقتدارها واقتدار الغير وقوته، لكي يقتدروا على تدارك مصالح البلاد قبل تمكن الفساد، ويقدروا على جبر الكسر وسد الثغر، ورفو الخرق، وإزالة جراثيم الرزايا والمصائب، وإبادة أسباب الخلل والمصاعب. وإذا لم يمكنهم القيام باستقصاء دقائق التعديل والتقويم، وجزئيات الموازنة والمقايسة مباشرة، انتخبوا رجالا يقظين عارفين بأحوال الدول وقواها، متبصرين بشئون الممالك وأسباب سعادتها وشقائها، عالمين بفنون التجارة والزراعة والصناعة ولوازمها، مهندسين محاسبين لأداء هذه المصالح، وتسجيلها في السجلات بغاية الدقة والإتقان، وعرض كلياتها على هؤلاء الولاة الحكماء، مع بيان موارد النقص والخلل وإيضاح أسبابها. وغير خاف أن تسجيل المعادلات وحفظ الموازنات للدول ألزم من تقييد التاجر معاملاته في دفاتره اليومية، فإنه لا يلزم من إهمال في التقييد والتثبيت، إلا أن يضيع رأس ماله على جهل منه، ويصبح مفلسا، وهذا ضرر خاص به. وأما إهمال الدول في حفظ المعاملات وتسجيل الموازنات فيوجب

(١) النصب ـ بفتح النون والصاد: التعب والإعياء.

خراب البلاد وهلاك العباد ومن أجل هذا تجد للدول الغربية عناية تامة بهذا الشأن المسمى عندهم بالإستاتستيك[١].

فهاك يا أيها الإنسان الشرقي صاحب الأمر والنهي حكومة رحيمة حكيمة وعليك بها، والقيام بشأنها، وحفظ واجباتها، وإلا فبحياتك التي أفديتها براحة العالم أن تعفونا عن تحمل ثقل تشدقك بالرحمة والعدالة والحكمة والفطنة. أتريد أن تظلمنا ونكافئك بالشكر؟ وتغصب حقوقنا ونجاريك بالثناء؟ أو تظن أنك تقدر أن تغر كل العالم وتعمي بصائرهم؟ وأن تنزل بالملك عندهم منزلة الحق؟ وأن تجلس جورك مجلس العدل؟ وأن تقيم سيئاتك مقام الحسنات؟ وأن تقعد رذائلك مقعد الفضائل؟ ولعلك اغتررت بتمجيد المتملقين، وتعظيم المتبصبصين[٢]، وتبجيل المتزلفين أمامك. ويحك، لو كنت تعلم مقامك في النفوس، ومنزلتك لدى أرباب البصائر والعقول لودعت هذه الدنيا الخئون التي ألهتك، وفارقت حياتك العزيزة التي طالما افتديتها بالمروءة والإنسانية.

وأما أنتم يا أبناء الشرق، فلا أخاطبكم، ولا أذكركم بواجباتكم، فإنكم قد ألفتم الذل والمسكنة والمعيشة الدنيئة، واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف. صرتم كالعجائز لا تقدرون على الدرء والإقدام، والجلب والدفع والرفع. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) الإستاتستيك: علم الإحصاء، وكان علما حديث النشأة في ذلك الوقت. ومن الواضح أن الأفغاني نقل الاسم عن الفرنسية.

(٢) المتبصبص: الطامع أو الراغب في الملق.

٥

«أحرار» يقتلون الحرية

الخديوى أعار يديه للاحتلال خوفًا على العرش

مصر باب الشرق وفيها لم يخمد العصيان

«أحرار» يقتلون الحرية (١)

السيد رئيس التحرير

لقد خان الأحرار الإنكليز كل تعهداتهم التي ضمنوها برنامجهم السياسي، الذي بموجبه وصلوا إلى الحكم. . . وذلك بتدخلهم في شئون مصر، وجهودهم التي هم بصدد بذلها في سبيل السيطرة على هذا البلد.

إنهم خانوا وعودهم، بسبب تعهدهم أمام ناخبيهم للدفاع عن حق الناس وحرية الأمم في كل أنحاء المعمورة.

الأحرار فاقوا المحافظين في مجال الفتوحات والحروب الظالمة، التي انتقدوا بفصاحة اللورد بيكونسفيلد وأصدقائه، بسببها.

ومن لا يتذكر غلادستون خلال الانتخابات العامة، الذي لم يتردد في تأييد «الزولو» الذين تخطوا الحدود الانكليزية، والأفغان الذين، بتحالفهم مع الروس وحدهم، قضوا على علاقاتهم الصداقية مع إنجلترا.

وهو، غلادستون نفسه، الذي أعلن الحرب على المصريين الذين لم ينتهكوا حدود أحد، وكل ما طلبوه هو أن يعيشوا أحرارا في وطنهم. . . الذين لم يعطوا أفضلية، على صعيد التحالف، لأية دولة أوروبية، دون الأخرى. مفضلين العيش بسلام وبصداقة طيبة مع الجميع.

أهكذا، إذن، يجري اللعب على قيمة الكلمات بين الأوروپيين، وهل يجب أن نعتقد بأن الذين يزدانون بينهم بلقب الأحرار، في وطنهم، هم أسوأ أعداء الحرية لدى الآخرين.

---

(١) مجلة أوراق ـ العدد السابع (كانون الثانى/ يناير ١٩٨٤).

فضلا عن ذلك، فان فتح إنكلترا لمصر قد تم وفق موضة الفتوحات الخاصة بهذه الأمة والمتبعة منذ جيلين، فإنكلترا لا تقدم على ذلك، والسلاح باليد. إنها تحترس جيدا. وبالعكس، هي تدخل البلد الذي تطمع به، تحت كل الأشكال الأكثر مجاملة، وكل المظاهر الأكثر مودة. هناك، تنحاز أحيانًا إلى جانب الأمير ضد الشعب، وأحيانًا إلى جانب الشعب ضد الأمير. وهي تنحاز مرة لدولة ومرة لأخرى، تبعًا للظروف، ووفقًا لعروض الخدمات الملحة، واضعة تحت تصرفهم أخلص موظفيها وضباطها الذين سرعان ما يهيمنون على كامل الإدارة. وليس ما يمنعهم من الظهور بالتجرد من أية غرضية، حيث إنهم لا يقصدون إلا إنقاذ الأمير من أعدائه الداخليين، وتخليص الشعب من أعدائه الخارجيين.

هذه المسرحية، المتكررة، لعبتها إنكلترا مؤخرا، تارة إلى جانب الخديو توفيق، وطورا إلى جانب الحزب الوطني المصري، حيث لم تعد تعرف، حتى اللحظة الأخيرة، أيا من الاثنين هو تحت حمايتها نهائيا. بالنسبة للخديوى، حاولت أن تقنعه أنها الوحيدة التي تستطيع وتريد دعمه ضد الحزب الوطني، الذي يهدف فقط إلى قلبه، وهذا خطأ. وقالت للحزب الوطني وعرابي بواسطة جواسيسها السريين، إنها الدولة الوحيدة التي ترغب في الحكم الذاتي لمصر، وهذا أيضًا خطأ.

واحسرتاه! فلو كان الخديو أكثر فطنة أو أكثر ثقافة، لكان تذكر ما يترتب عادة على الأمراء والأسر المالكة، الذين يقبلون المساعدة والحماية من إنجلترا ضد مواطنيهم. في الواقع، بدأت إنجلترا في تجديد سلطتهم، معلنة أنها خادمتهم الأولى. . تلك السلطة الملكية التي وضعتها بريطانيا دائما في المقدمة، وجابهت بسببها الجميع في الداخل والخارج، ولكن شرط أن تتصرف السلطة تلك كما يحلو لها (أي لإنجلترا).

هذا ما يمكن رؤيته في الهند خلال ٨٠ سنة. فإنجلترا لديها الصبر ـ الصبر كان فضيلتها السياسية الكبرى ـ أن تظهر بمظهر الصديق المتواضع، الأكثر سعادة والحليفة الأكثر تبجيلا من عائلة تيمور المالكة، رغم أنها منذ اليوم الأول لتدخلها الصداقي لم تترك لهم، في التحديد وفي الحقيقة، غير اللقب الشرفي للشاهنشاهية، ولم

تخلع القناع وتظهر على حقيقتها: السيدة الوحيدة والمطلقة للهند، إلا منذ حوالي ثمانين سنة.

لو كان توفيق أكثر ثقافة، لأدرك أن إنجلترا، وهي تسيطر كما فعلت، بحجة الدفاع عن البلد، وعن الجيش المصري. . ستعامله، وهو الخديو، تمامًا مثلما عامل «الناباب» في «البنغال» و«لاكانو» و«كاماتاك» وغيرهم من «النابابيين» الذين هدرت دمهم وضمت بلادهم، بواسطة الجيش الذي وضع تحت رعايتها حيث أعادت تنظيمه، كما ادعت، من أجل الدفاع عن العرش.

ولو أردت أن أقيم مزيدا من المقارنة والتشابهات، لكنت لاحظت كيف أن إنجلترا حين استولت على جزيرة قبرص، قد تظاهرت بالقول إنها لم تسلخها نهائيا عن الإمبراطورية العثمانية التي سوف تعيدها إليها. ولكن حين سلخت كالكوتا من آل تيمور، لم تقل إلا الشيء نفسه.

حتى خلعها لإسماعيل واستبداله بتوفيق، ليسا شيئا فريدا في سياسة إنكلترا الشرقية. ذلك أن الاحتفال الرسمي نفسه، قد جرى برعايتها، يوم تم خلع «الناباب سراج الدولة»، واستبداله بمراد جعفر.

باختصار، إنجلترا هي بصدد تفكيك الإمبراطورية العثمانية من أجل ابتلاع الأجزاء المرغوبة منها، الواحد تلو الآخر، تمامًا بالطريقة نفسها التي ابتلعت فيها الهند، ببطء، ولكن بلا مخاطر.

غير أنها، لسوء حظها، قد اضطرت إلى التخلي عن نهج النفس الطويل في مصر، رغم أخطائه، فإن نجاحات الحزب الوطنى، الذي لم يقبل بأقل من الحكم الاستقلالي للبلد، قد دفعتها إلى التفكير الشديد. إن حكم الحزب الوطنى لمصر، كان مناقضا لما حلمت به؛ ولذلك سرعت الأحداث. والمعروف أن النتيجة المباشرة لتسريع الأحداث: قصف الإسكندرية، إبطال حياد قناة السويس، ومعركة التل الكبير، وغيرها.

ولكن الكوارث الماضية الناجمة عن تسريع الأحداث، ليست موضع اهتمامي

الآن . ما أريد التوقف عنده هو نوعية وكمية النتائج المتلاحقة التي ستنجم حتمًا عن تلك السياسة .

أولى تلك النتائج أن إنجلترا ، من الآن وصاعدا ، لن تتمكن من إخفاء لعبتها .

في شهر حزيران (يونيو) المنصرم ، تذرعت إنجلترا ، لتدخلها في مصر ، بمطلب الحزب الوطني أن يكون لمجلس الأعيان حق فحص الميزانية ، مع أن المطلب صحيح ، ومشروع ومنطقي ، جدا .

«كلا لا أستطيع الموافقة على ذلك» أجابت الحكومة الإنجليزية بإصرار . «إن مثل هذا الادعاء يمس شروط المراقبة الموضوعة عبر اتفاق دولي بين مصر ، فرنسا وإنجلترا ، اتفاق مصادق عيه ومعترف به من أوروبا . لا تمسوا شروط اتفاق المراقبة ، إنها مقدسة» .

إن ما كان مقدسًا لإنجلترا في شهر حزيران (يونيو) ، أصبح أقل قداسة بعد القصف في أيلول (سبتمبر) ، ثم انتهى تمامًا الآن . فحتى تصبح سيدة مصر سريعًا ، عمدت إنجلترا نفسها إلى إلغاء الاتفاق ، رغم احتجاج فرنسا الشديد ، والقلق القليل الذي أبدته أوروبا ، التي تنظر بحيرة إلى ما يجري في هذا المجال بين القوتين الغربيتين الأعظم .

بلا شك ، لقد استعملت كلمة غير دقيقة تمامًا ، بقولي إن إنجلترا نفسها هي التي ألغت الاتفاقية ، فهي كلفت رسميا توفيق ووزيره الأول شريف باشا ، للقيام بتلك المهمة . ولكن هذا التوكيل لم يغش أحدا ولم يثبت ، إلا أن إنجلترا ، منذ اليوم ، صار لها اسمان مصريان مستعاران بدلا من واحد .

بالنسبة لحيرة أوروبا ، فهي تفهم على ضوء الأزمة الداخلية التي تجتاح فرنسا ، ولكن من المتوقع ان الحيرة ستزول بزوال الأزمة . وإنجلترا ، عند الحاجة ، تتعهد بوضع حد نهائي للأزمة ، عبر وقاحتها الخداعة . في الواقع لا أحد يجهل ، أنها وحدها منذ شهر آب (اغسطس) ، سرقت حق الأمم بأخذها قناة السويس قاعدة لعملياتها الحربية . تحت خطر توقيف تجارة العالم بأسره . وإنجلترا نفسها اليوم ، ترفع الصوت عاليا في أوروبا ، متشكية من الأضرار التي لحقت بتجارتها الخاصة

بسبب الحرب المجرمة التي أضرمتها. وفي اليوم الذي يتسنى فيه لأوروبا أن ترى كيف يهزأون بها في مصر ويضحكون من سمو مصادقتها، فحينئذ لا يكون لها أن تسأل أو تتذكر من هي المتشكية ومن أى شيء تتشكى. وعاجلا أم آجلا، فان أوروبا ستستيقظ ذات يوم لتبلغ إنجلترا أنها ليست مادة لسخريتها. ولكن ثمة يقظة أخرى سابقة، حيث تكون نتائجها مخيفة للإمبراطورية البريطانية، وأقصد بها يقظة الهند.

أنا لا أعتقد أني أبالغ في قولي إن خشونة تدخل إنجلترا في مصر قد أفقدتها، في لحظة، كل ما نالته عبر براعة رجال الدولة عندها خلال سنوات طويلة، من ميل وثقة الهنود. لقد أصبحت إنجلترا، الآن، موضع بغض عميق من قبل الهنود المسلمين، السنة منهم، والشيعة، وسواء جاء ذلك بالغريزة أو عبر تحذير ممن لهم معرفة بالهند، فالمسلمون الهنود قد اقتنعوا الآن أن هدف الإنجليز من الاستيلاء على مصر، هو في الدرجة الأولى للتحضير من أجل فتح الحجاز ومكة. وهم يعتقدون جميعًا أن الإنجليز، في حال وضع يدهم على مهد ومركز الإسلامية، سيتوفر لهم عامل قوي من أجل القضاء على هذا الدين. ذلك أنه من المعروف أن لدى عامة الهنود فكرة عن إنجلترا مختلفة عن فكرتهم إزاء فرنسا أو روسيا مثلا، وهي أن الأولى تطلب منهم إضافة إلى الإتاوات والضرائب حيث تحاول استمالتهم إلى الديانة المسيحية. والذي يعرف الشرقيين واهتمامهم القلق عندما يهددون باعتقادهم الديني . . يتوقع حدوث كل شيء.

لقد سافرت إلى الهند خلال الحملة العسكرية الأخيرة لمصر. هناك لم ألتق مسلمًا واحدًا إلا وكلمني عن هذه الأحداث بقلق وألم عميقين. الجميع قالوا لي: «يجب أن نتضرع الآن حتى تسرع روسيا في أخذ الهند من الإنجليز، وتقلب هنا حكومتهم الشرهة . . حيث، بخلاف ذلك، ستلاقي الإسلامية، قريبا، بينهم من هم أكثر المضطهدين المبغضين. إن إرسالياتهم تريد أن تعمل منا مسيحيين، بأي ثمن».

يجب الاعتراف أن ما تنشره في تلك الحقبة جريدة «الأخبار» الهندية في لاهور، ليس بمقدوره أن يهدئ من تلك التصورات. كانت الأخبار تنشر، من دون

تعليقات، بعض المقالات نقلا عن الجرائد الإنجليزية شبه الرسمية، مثل قولها: «إنه يجب على حكومة صاحبة الجلالة أن تقرر، بسرعة، فرض المسيحية على مسلمي الهند، حيث، دون ذلك، لن تصل إلى شيء، لأن المخالفين لها دينيا، هم مخالفون سياسيا، ولا يرون في الهيمنة البريطانية إلا هيمنة غير شرعية وزائلة، حيث لا يجب أن تكون إطاعتها إلا في الحد الأدنى، إضافة إلى عدم الثقة بها. وعليه، فلا ريب أنه من الضروري أن تتصرف إنجلترا كما تصرف الفاتحون المسلمون، حيث تفرض بدورها دينها على الشعوب المغلوبة».

إني لا أقدر هذه الألفاظ حق قدرها، بالنظر إلى الاحتمال الديني الحديث. أما بالنظر إلى التدبير السياسي المألوف، فمما لا خلاف فيه، أن العبارات تلك تدعو إلى عجب الكتاب الذين لم ينسوا أن ثورة عام ١٨٧٥ نشأت عن خوف وتهديد أقل وضوحًا من هذا التغيير في الدين، وإني أعلم يقينًا أن هذا الخوف قد استولى الآن على كل أفغانستان وبلوخستان، حيث جاءوها بطريق سمرقند وأشكاباد من أملاك روسيا. وليس من الخطأ أن تتنبأ بأنه سيتم حصد مثل هذا الزرع حين تحل روسيا في «مرو»، مما لا يطول أمد انتظاره. لأن حلم الإنجليز المتعلق بدعم ألمانيا والنمسا ضد روسيا في أوروپا، بما يحولها عن الهند، هو حلم وهمي.

هاك في آسيا النتائج القريبة والأكيدة تقريبا، في مذهبي، لضلال أحرار الإنجليز في المسألة المصرية، أما في أوروپا، فمن الممكن أن لا تكون هذه النتائج في ساعة ما مخيفة. ومهما كانت تأكيدات وزارة الخارجية مطمئنة وضاحكة، بالنسبة لأفكار أوروپا الحالية في هذا الشأن، فإن أمرا واحدا متغلب على كل ذلك، وهو أن أوروپا لا يمكنها أن تنسى أن مصر كانت في مدة أجيال عديدة أرضا حرة مفتوحة لكل الأوروپيين، الذين كانوا يتمتعون فيها بمنفعة خاصة، فكانوا يتجرون فيها ويربحون بحرية. وكيفما ننظر الآن في المسألة نرى أن هذا الحق نقص ومس بالتداخل الإنجليزي، الذي تتألم منه الآن النمسا وإيطاليا، وبالأخص فرنسا التي لم يصادف نفوذها المخصب في تلك الجهات فشلا إلى تاريخ هذا التداخل، فإن مصر كانت ولا زالت على الدوام باب الشرق، ولكل أمة أوروپية عظيمة أو صغيرة مصالح وعلاقات في الشرق. فإذا كان في نية إنجلترا أن تحفظ لنفسها وحدها هذا الباب

وتضع مفاتيحه في جيبها، فكل الأمم على اختلاف أجناسها تجد بذلك إهانة واحتقارا لها، وتدفع بقوة الحوادث رغم المغايرات والمخاصمات التي تفصلها عن بعضها في جهات أخرى من الأرض، إلى تأليف عصبة واحدة ضد إنجلترا في الأرض المصرية، وهذه هي النتائج التالية المتوقعة لسياسة وزارة غلادستون المصرية.

بقي علي أن أظهر أن هذه السياسة الإنجليزية المصرية لا تصادف في أرض مصر نفسها أخطارا قليلة، لأن الأفكار بعيدة فيها عن السكون. والعصيان لم يخمد فيها بمطامعه الشرعية وغيرته الوطنية. والخديو توفيق، بإعاراته مداخلات الإنجليز أذنا صاغية، بأمل إنقاذ عرشه وبقائه بعيدا عن بعض الأخطار الناجمة من رعاياه، مما أدى إلى استدعائهم لمساعدته وفتحه أبواب البلاد لهم. غير أنه عندما يتضح له أن المدعين لحمايته ليسوا إلا عبارة عن سجانين، وعندما يعرف حقيقة هدفهم، التي ليست تعمير مصر، بل السيطرة عليها واستثمارها.. في ذلك اليوم، لا نشك أنه يرفض أن يكون أداة بأيديهم، وسيخجل من كونه قد أعار يديه للأجانب الذين احتلوا بلاده.

عندئذ، سيفعل ما فعله ملك الأفغان الشاه سودجاه، لأن توفيق ليس أقل ديانة من الملك الأفغانى، بل إنه يعادله بالوطنية والشجاعة ذلك أن توفيق يجب أن يكون ابنا جديرا بأُبُوَّة محمد علي.

إذن، مثل شاه سودجاه، سوف يصرخ: اطردوا الإنجليز، ولو اقتضى ذلك أن تدوسوا على جثتي.

عندها، سيجد توفيق والمصريون فى أوروبا حكومة مفعمة بعواطف الشجاعة والشهامة تمد لهم يد المساعدة.

«جوستيس»

٢٧ آذار ـ مارس ١٨٨٣

٦

بابيَّة

بـابيّـــة

دين ظهر في بلاد االعجم نحو سنة ١٨٦٣ بدعوة رجل من أهل شيراز يعرف بالسيد علي محمد وكان تلميذا لبعض تلامذة الشيخ أحمد زين الدين الإحسائي الذي مزج التصوف والفلسفة بالشريعة وجمع بين اعتقادات الشيعة الإمامية والأصول الفلسفية على طرز جديد وقال إن المهدي الغائب المنتظر ظهوره عند الشيعة هو الآن من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني سماه بجابلقا وجابرسا وإن أجسام سكان ذلك العالم الروحاني كأجسام الجن والملائكة المسماة بالأجسام الهورقليائية وهي من اصطلاحات الكيميا القديمة، وقد قفاه على هذا الأثر تلامذته وقاموا في مقام التعليم على هذه الطريقة وكان من أمر السيد علي محمد المذكور بعد أن حج إلى مكة أن ادعى أنه باب المهدي وأقام على تقرير هذه الدعوى مدة وأسس ذلك الدين من عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية ولقب نفسه باب الدين ثم ترك هذا اللقب ولقب نفسه النقطة أو خالق الحق مدعيًا أنه ليس نبيا بسيطًا بل هو مشخص للآلهة ومنح أحد أتباعه لقب الباب وأرسل دعاة إلى جهات مختلفة. ثم بناء على قول مقتداه الشيخ أحمد المذكور في أمر المهدي ادعى ثانية أنه المهدي بعينه وأن ذاك الجسم اللطيف الروحاني قد ظهر في هذا الجسم الكثيف المادي ولما كانت الرجعة أي رجوع بعض الأئمة السابقين وتابعيهم من الأصول الثابتة في مذهب الإمامية والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في بلاد العجم مدة طويلة كان له بقايا في النفوس فقام جماعة من أتباع هذا الرجل - أعني السيد عليا - وادعى بعضهم أنه الحسن وبعضهم أنه الحسين وبعضهم أنه غيرهما من الأئمة وتابعيهم، وأيد هذه الدعاوى عندهم رأي رآه هذا الرجل نفسه وهو أن شخصية الشخص التي باعتبارها يمتاز عن غيره وينال اسمًا خاصا به كحسن أو حسين مثلاً إنما هي صفاته وأخلاقه التي يكون عليها، فمن وجدت فيه

صفات شخص وأخلاقه وأحواله على وجه تام فهو هو في أي زمان كان. ولقرب هذه الاعتقادات من مشرب الطائفة الشيخيةً من الشيعة وهم أتباع الشيخ أحمد زين الدين المذكور آنفًا لبى دعوة هذا الرجل كثير من أهالي بلاد العجم المتمذهبين بذلك المذهب الجديد. فلما رأى إقبال الناس عليه وإجابتهم دعوته ترفع في دعواه فقال إنه هو النبي وإن الله قد أنزل عليه كتابًا يسمى بالبيان وأنه المشار إليه بقوله تعالى خلق الإنسان علمه البيان. والإنسان هو محمد والبيان هو هذا الكتاب المنزل على السيد علي. وكتابه هو يحتوي على كثير من العربي المسجع وبعض الفارسي إلا أن العربي منه كان ملحونًا فلما سئل عن سبب وقوع اللحن في هذا الكتاب المنزل مع أن اللحن نقص أجاب بأن الحروف والكلمات كانت قد عصمت واقترفت خطيئة فى الزمن الأول فعوقبت على خطيئتها بأن قيدت بسلاسل الإعراب وحيث إن بعثتنا جاءت رحمة للعالمين فقد حصل العفو عن جميع ا لمذنبين والمخطئين حتى الحروف والكلمات فأطلقت من قيدها تذهب إلى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط. ومما ينسب إليه أنه كان سريع القلم في الكتابة حتى كانت سرعة قلمه تحسب من جملة معجزاته. وقد لقب نفسه بالذكر وزعم أنه المراد من الآية ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]. ومن قوله: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٤٣]. وأمثال ذلك من الآيات القرآنية وأخذ يدعو الناس إلى دينه ولم يعلم من يجيب دعوته فتبعه جمع كثير من أهالي بلاد العجم واستفحل أمره وعلقت بقلوب الناس دعوته وأوقع تابعوه في قلوب الناس رعبًا وخوفًا إذ كانوا يقفون على سرائر الناس وخباياهم فمن كان يومئ بطعن في معتقدهم لم يلبثوا أن يقتلوه وفشا منهم التعدي والغدر حتى كانوا يتشكلون بأشكال متعددة كالسائلين ونحوهم ليتمكنوا من الفتك بمن ظنوا به أو توهموا فيه أنه يشير بسوء إلى مذهبهم فسفكوا بذلك دماء كثيرة، وكانوا شبه الناس بالفداوية الذين اشتهر أمرهم على عهد الفاطميين (راجع إسماعيلية) ثم إنهم لم يقفوا على هذا الحد بل تجاوزوه إلى أن أثاروا الفتنة على الحكومة في ثلاثة مواضع وأبرزوا من الجسارة ما لم يسمع بمثله حتى كان الرجل منهم يتزر بإزار ويأخذ سيفه ويهجم على الألوف من العساكر عريانًا ليس عليه سوى الإزار وكانوا يعتقدون أن من يموت منهم في المحاربات يقوم بعد أربعين يومًا فاشتد على الحكومة خطبهم وحاولت كبحهم فقاوموها وثبتوا

أمامها إلى أن قبض على هذا الرجل - أعني السيد علي محمد - وقتل بالرصاص على فتوى العلماء في تبريز وذلك سنة ١٨٥٠ بعد أن بقي في السجن ١٨ شهراً وقذف بجثته في خندقها وذلك فى عهد الشاه الحالي في السنة الثانية من جلوسه على كرسي المملكة. ويزعم أتباعه أن جثته قد صعدت إلى السماء، أما غير أتباعه من الأعجام فيقولون إن جثته قد أكلتها الكلاب. وبعد مضي سنة من قتله حاول ثلاثة من أتباعه قتل الشاه فرموه بالرصاص إلا أنه أخطأه فنشأ عن ذلك اضطهاد شديد فقتل جماهير من أتباع الباب في طهران وعذبوا بعذابات تقشعر لها الأبدان ومن جملتهم قرة العين الآتي ذكرها، وكان ذلك باعثًا على زيادة امتداد الباقية في العجم والهند وقسم من تركيا.

ثم إن هذا الرجل كان قد أومأ في بعض رسائله إلى أن الذي يخلفه بعد موته شاب من تلامذته يسمى يحيى ويلقب بصبح أزل، فلما وقع تشديد الشاه عليهم وتعقبهم بالقتل في جميع الأماكن هرب كثير منهم إلى بغداد من بلاد الدولة العلية. وممن خرج منهم يحيى صبح أزل وأخوه الأكبر المسمى بميرزا حسين علي الملقب ببهاء. فاختفى صبح أزل عن أعين الناس بأمر أخيه وادعى أخوه أنه حاضر بين الناس إلا أنهم لا يرونه إذ ليست الأبصار بقابلة لأن تناله. ولما وقع الاتفاق بين الدولة العلية ودولة الشاه على إخراجهم من بغداد ونقلتهم الدولة إلى ادرنه تنفس صبح أزل وأسفر على الناس قائمًا بأمر الخلافة داعيًا إلى دين أستاذه السيد علي فحسده أخوه وأنكره وادعى أنه دجال فوقع الشقاق بينهما وافترق التابعون فئتين فئة اقتدت بصبح ازل، وأخرى ببهاء والأولى تسمى أزلية والأخرى بهائية والبابية اسم لهما عام. وبعد مدة، أحست الدولة العلية منهم سوء المقاصد وأوجست منهم شرا فنفت صبح أزل إلى جزيرة قبرص فمات فيها ونفت بهاء إلى عكاء وهو الآن فيها مع جمع من أتباعه.

وأما ديانة الباب فثبت مبدأ واحدا كسائر الأديان على ما يتراءى من قول أتباعه وتحكم بصدق جميع المرسلين السابقين وتقرب من قول النصارى بحلول اللاهوت في الناسوت وتنبئ عن ثواب وعقاب للأرواح بعد مفارقة الأبدان لكن على وجه يشبه الخيال فتلتذ النفوس الطيبة بأخلاقها ومعلوماتها وتتألم النفوس الخبيثة بملكاتها

الرديئة وجهالاتها إلى أن تزول هذه الملكات عنها فتعود إلى عالم الأجسام مرة ثانية وهو ضرب من القول بالتناسخ، وتأمر بالصلاة وجوبا وهي ركعتان فقط وقت الصباح. وقد اتخذ مسجدا كبيرا في شيراز وجعله كعبة تولى الوجوه إليها في الصلاة وتفسد الصلاة بالانحراف عنها. ثم إنه جعل الشهر تسعة عشر يوما لأن هذا العدد عندهم مقدس لأن أصل وحدة اللاهوت مؤلفة على زعمهم من ١٩ أقنوما، ورئيسهم الباب فهو عندهم أعظم من محمد كما أن محمدا أعظم من عيسى، وفرض الصوم شهراً من آخر الحوت بحيث يوافق عيد فطرهم يوم النيروز وهو أول الحمل. ومن أحكامه أنه يجب تخريب جميع البقاع المقدسة كمكة وبيت المقدس وقبور الأنبياء والأولياء عند حصول أول سلطة لأحد ممن تبع دينه ويحرم شرب الخمر وكذا الدخان على عهده وحلله أتباعه من بعده ويندب شرب الشاي ندبا مؤكدا حتى أن من شربه ينال جزيل الثواب ومنها أنه يجوز العقد على اثنتين فقط والشراء والمتعة بغير حصر وعلى ما يقال إنه يجوز نكاح الأخت. ومنها ان من كذب في قول أو نادى شخصا من خلفه فقد أساء وكفارته إعطاء ثلاثة مثاقيل من الياقوت فإن لم يجد فصيام يومين، ومنها أن شهداءهم الذين قتلوا في طهران وغيرها يجب أن يبنى لهم مشاهد مكللة بأنواع الجواهر وأنه يجب على أي سلطان يكون منهم أن يضع سيفه في العالم فإما الدين أو الموت ولا يجوز أخذ الجزية. وأنه يجب على كل واحد منهم أن يكون عنده كأس من الفضة وثوب نظيف نقي، أما الكأس فيتناول بها الماء القراح الصافي وأما الثواب فيتجمل به عند الفراغ، وأنه يجوز أن يظهر بعده كامل آخر لكن بعد أن يمضي من السنين عدد حروف المستغاث، يعني ألفي سنة وكسوراً. ويحظر في مذهبهم اتخاذ السراري والطلاق واستعمال النساء للنقاب ويصح أن يقال ان دينهم إلى الآن لم يقرّ على نظام واحد بل هو كالرمال السيالة تحدث بسيرها تلا في محل ثم تنتقل وتحدث تلاً آخر بشكل آخر في محل آخر.

وكان من جملة دعاته امرأة فتية بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى باسم سلمة من بنات أحد المجتهدين في العجم، وكانت متزوجة بمجتهد آخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الإسلام وآمنت بذلك الرجل عن

غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها في مكاتباته بقرة العين فلقبت بذلك، كانت تناظر العلماء والفضلاء مكشوفة الوجه بدون حجاب ثم لما وقعت المحاربة بين البابيين وعساكر الدولة في مازندران جيشت جيشا وقادته مكشوفة الوجه وسارت أمامه طالبة إعانتهم، وفي أثناء الطريق قامت في الناس خطيبة وقالت أيها الناس إن أحكام الشريعة الأولى ـ أعنى المحمدية ـ قد نسخت، وإن أحكام الشريعة الثانية لم تصل إلينا فنحن الآن في زمن لا تكليف فيه بشيء فوقع الهرج والمرج وفعل كل من الناس ما كان يشتهيه من القبائح، ثم قبض عليها وألبست البرقع جبراً وحكم عليها بأن تحرق حية ولكن الجلاد خنقها قبل أن يشعل النار بالحطب الذي أعد لإحراقها. ومن أحكام هذا الدين أنه لا يجوز أن يضرب المعلم تلميذه أصلا وأن الزكوات والصدقات لا يجوز إعطاؤها لغير البابيين فإن فقد فقير في البابيين فتصرف على من بقي على مذهب الشيخ أحمد زين الدين الإحسائي.

وأما نسبتهم إلى الإباحية (الكمون) بهذا من لوازم مذهبهم، حيث إن كل من خالفهم في معتقدهم فدمه وماله هدر. وأما تشاركهم في الأموال فهو من مقتضيات كل دين أو مذهب جديد إذ يتعاون وأهله ببذل جميع ما بأيديهم ويرتفع الحجر والحرج من بينهم. فهذا ما رواه عنهم السيد جمال الدين الأفغاني المشهور وغيره[١].

(١) دائرة المعارف، قاموس عام لكل فن ومطلب، تأليف: المعلم بطرس البستاني، ج٥ ـ دار المعرفة، بيروت ص ٢٦ ـ ٢٨.

٧

دائـرة المعـارف

رســـــالة
من أديب إسحق إلى جمال الدين الأفغاني

سيدي الأستاذ الأعظم

لئن كـان لأدوار الزمـان قضـاء نافذ في الناس ، فلقـد حال الكمـال أنفس آحـاد الرجال عنه ، فـما تنفـعل بالحادثات ولا تؤثر فيها التقلبات ، بل هي في مقام التجرد الذي تستـوي فـيه مظاهر عبث الأيام بأبناء الزمـان . والسيـد[١] لا زال حـجـة هذا القول ، ما ترك فضيلة ولا قعد عن مكرمة ولا ضن بمنفعة ، ولكن قضاء الزمان الذي لم يؤثر فيه قد كـان نافذًا في مريديه ، فما أطاقوا الخير معروضا من جانبه ولا ذادوا الشر طارئا من جانب الأحداث وهكذا وقع من بعضـهم[٢] الإهمال في مكاتبة من راسلهم عـن السيـد من أمراء الهند ، فـانقطعت أخبـاره عن سائرهـم إلى هذه الأيام فعسى أن يعـوضـهم المستقبل مما أضاعـوه خيرا فيجد الأستاذ تحت سماء الحرية[٣] مستقرًا طيبا أمينا ، فلا تحتجب بعد ذلك أنوار أفكاره عن البصائر ، وإن احتجب ضياء وجهه عن الأبصار . وقد حمل البصير[٤] إلينا مفتتح مقالة السيد في الشرق والشرقيين[٥] فكانت مقدمته غذاء للألباب وما يليهـا مهـمازا للعزائم ولا تزال

---

(١) أي الأفغاني ، وكان يوقع بكلمة «السيد» بعض مقالاته .

(٢) ربما يقصد بعض تلامذته من المصريين ، الذين انقلبوا عليه بعد أن طردته السلطات البريطانية من مصر ، ونفته إلى الهند .

(٣) أي باريس ، حيث كان يقيم الأفغاني حين كتب أديب إسحق رسالته .

(٤) جريدة البصير لصاحبها خليل غانم ، وهو وطني لبناني لجأ إلى باريس هربًا من السلطان العثماني عبدالحميد ، وكتب هناك في كبريات الصحف الفرنسية أمثال «الديبا» .

(٥) نشر المقال في «أوراق» (العدد الثالث) نقلا عن جريدة «أبو نضارة» . وكان قد نشر في حينه في جريدة «البصير» وفى جريدة يعقوب صنوع ، في آن ، كما هو حال مقالات المشاهير من الكتاب .

الأنفس مشتاقة إلى البقية اشتياق الظماء إلى بارد الماء، فالمسئول من كرم السيد أن يرسل إلى ما طبع منها ومن سواها في البصير وغيرها من جرائد لندرة وباريس جملة، فتلك أمنية للعاجز فيها شركاء كثيرون ممن عرفوا السيد بالخبر أو بالأثر ولست أذكر للأستاذ شيئا مما لدي من أخبار مصر العمومية فإنها تصل باريس قبل ورودها إلينا، بل قبل شيوعها في مصر ولكني أحسبه مشتاقا إلى الأخبار الخصوصية عن بعض الأصدقاء فهذه أعرف منها أن عبدالسلام بك[١] على أحسن حال من السلامة والعافية على أنه منقطع في منزله اجتنابا للشبهات إلا عن بعض الأخصاء، وأن سليم أفندي النقاش[٢] سار إلى مصر بإذن حكومتها على أن يصرف أموره وأشغاله ثم يعود، فهو الآن هناك يستمنح رجال تلك الحكومة عوضا ماليا مما لحق به من الخسارة بسبب تعطيل مطبعته وجريدته بلا موجب معلوم[٣]، وأن سعيد البستاني عزل إثر الفتنة ثم أعيد إلى الخدمة بمثل الراتب الذي كان له من قبل وهو الآن على حد قول القائل: وخمول ذكرك في الحياة سلامة، أما أبو تراب[٤] فقد أبلغت إليه وعد السيد باستقدامه إلى باريس عن قريب فكاد يطير بذلك سرورا وهو مقيم هاهنا على الدعة والراحة يترصد معنا الأخبار ويعد الأيام ويستبطئ البرد، فعسى أن تجيئنا كتب السيد بما نتوقع ولا بأس في تعليلنا بالأماني فما الحياة إلا الأمل وله في تحقيقه رأيه العالي المؤيد وأمره الكريم المطاع ومني على حضرته السلام بالإجلال والإعظام.

الخادم

أديب إسحق

بيروت في ١٥ آذار (مارس) ١٨٨٣

---

(١) عبد السلام المويلحي، وهو أحد تلامذة الأفغاني.

(٢) لبناني وطني أصدر في مصر جريدتي «التجارة» و«العصر الجديد» حيث حرر فيهما إسحق، وكان صديقًا للأفغاني.

(٣) إشارة إلى التدابير القاسية التي اتخذت بحقه وبسائر أبناء بلاد الشام، الذين كانوا يصدرون دوريات في مصر من قبل حكومة عرابي باشا الثورية.

(٤) خادم الأفغاني، الذي لازمه طوال حياته.

كتاب «دائرة المعارف»

«إن اللسان يقصر عن تقديم فريضة الشكر والثناء لقطب العلماء وسيد الفصحاء، الحكيم الذي ذاع صيته في كل مكان، وحدث بفضله الركبان، القابض على عنان روح العصر، المفيض من طيب فضله في كل مصر، السيد السعيد الكريم الأصل، العميم الفضل، زبدة العلم والأدب، وأمام كل من كتب وخطب، جمال الدين الأفغاني وفقه الله إلى نوال كل مراد، ونفع به الناس في كل صقع وناد، كيف لا تتشنف الأسماع بذكراه، وهو ينبوع الفضل ومبدأه. وكم له يدا تشهد بزاهر تلك الأفضال، وبياض ما له من الأعمال، وهو صائغ هذا العقد من ألفاظه الدرية، ومفرغ أبلغ المعاني في هذه القوالب العسجدية. هذا وإننا لنشكر حضرة الأدباء أصحاب الجرائد الوطنية في الديار المصرية، وهي جريدة «الأهرام» و«مصر» و«مرآة الشرق»، بنشرهم شهادة ذلك العلامة لدائرة المعارف بين الخلق. ونسأله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بحسن النهاية كما وفقنا إلى محاسن البداية».

بطرس البستاني

قال السيد جمال الدين الأفغاني:

«ان الإنسان باعتبار أقنومية المتجاذبين المتدافعين وهما جوهره العقلي النوراني وهيكله الهيولاني الظلماني يقسم إلى قسمين: أحدهما وهو القسم الأعظم سواداً الأكثر أفرادا وهو الذي تنقلب فيه جنبته البهيمية الظلمانية على أصله العقلي الذي به قوام انسانيته فتستعمله لقضاء أوطارها من جلب الملاذ الحسية الجسدانية وتمهيد

طرق الشهوات الخسيسة الحيوانية فلا يهتم إلا بالمأكل والمشارب والتفنن فيها ولا يسعى إلا لتزيين الملابس وتشييد المساكن لا يدرك اللذائذ العقلية ولا يتطلبها ولا يسعى في تحصيلها، بل ينكرها ويسخر ويهزأ بمن يجتهد لنيلها والوصول إليها ولا يعقل الفضائل الحقيقية فيميل إلى التحلي بها ولا يفقه الرذائل فيجنح عنها ولا يشتاق إلى المحامد الحسنة فينزع إليها.

وهذا القسم وإن كان على صورة الإنسان إلا أنه في الحقيقة من البهم والعجماوات بل أحط منها منزلة فإن حيوانا ما من الحيوانات لم يهمل شيئا مما أودع الله فيه من الخواص التي تنادي به إلى كماله الواجب له بخلاف هذا القسم من الإنسان، فإنه قد أهمل أشرف خواصه وهي خاصة العقل التي بها يمتاز عن غيره من أصناف الحيوانات وقد ذهب عليه أن المأكل والمشرب والمسكن إنما هي مقاصد بالتبع لا بالذات يرام نيلها لاسبقاء الحياة كي يكتسب بها المعارف العقلية والملكات الفاضلة.

والقسم الثاني هو الذي يبتغي لذة أخرى فوق اللذائذ الجسمانية بل كثيراً ما يكف نفسه عن اللذائد الحسية ويغادرها رغبة في استحصال تلك اللذة. وهو ينقسم إلى قسمين أحدهما السلاطين والأمراء وذوو المناصب والرتب. فمن هؤلاء من يتقشف في معيشته مأكلا ومشربا وملبسا ويصرف فكرته أثناء الليل وأطراف النهار ويتجافى عن مهاد الراحة والدعة إلى وهاد التعب والمشقة ويتباعد عن السكون والطمأنينة إلى الاضطراب والحركة. بل قد يقتصر من لوازم حياته على الضروريات التي لا يمكن التعيش إلا بها ولا يبالي بفقد ما عداها من الحاجيات والكماليات فهو بالحقيقة معذب الجسم مؤلم البدن يحمل نفسه على تحمل كل ذلك سعيا في توسيع الممالك وفتح البلدان وقهر السلاطين واستحصال المراتب العالية والمناصب السامية ليمكن بذلك هيبته من القلوب وعظمته في النفوس وينال من الناس محمدة وثناء ويكون ذلك غاية لذاته ومنتهى مطلوبه ولا يعد ما سواه لذة.

وهؤلاء وإن طلبوا لذة روحانية إلا أنهم راموها من غير وجهها وأتوها من غير بابها فإن أعمالهم هذه لا توجب توقيرهم من النفوس ولا انطلاق الألسنة بالثناء عليهم خصوصا عند ذوي العقول والبصائر، لما أنه لم يترتب عليها فائدة في العالم

الإنساني ومع ذلك قد أخطأوا المرمى لأنهم قد اتخذوا لمقصدهم هذا وسائل القتل والنهب والقهر والسلب وإحقاق الباطل وإبطال الحق وتخريب البلاد وتدمير العباد، وهذه الوسائل المشئومة قد انتزعت محبتهم من القلوب وأسكنتها الضغائن والأحقاد عليهم ونفرت منهم الطباع وبدلت التعظم بالتحقر والمدح بالذم والثناء بالثلب لدى العارف والعامي والعالم والجاهل. وها هي كتب التواريخ مشحونة بمثالبهم ومعايبهم وأطلال القرى ورسوم المدن المخضبة بدماء ساكنيها تشهد بشناعة أعمالهم وقبح مساعيهم وخروجهم عن حد الإنسانية إلى خطة السبعية والافتراس حتى نرى أن أفضلهم وأنزههم لا يوصف إلا بعدم الظلم والجور والارتشاء وغير ذلك، وليس بخاف أن هذه الأعدام لا تعد مدائح إذ ليس لهم حق في التعدي حتى يمدحوا بالكف عنه على أن مادحيهم بهذه الأعدام لم يأتوا ذلك إلا رياء ونفاقا وقلبهم ينكر عليهم وما مدحهم بذلك إلا كمدح بعض الآحاد بأنه ليس بسارق ولا مختلس مثلا.

الثاني الحكماء المصنفون والعلماء المؤلفون والعرفاء المخترعون وهؤلاء هم الذين رفضوا مقتضيات الجنبة البهيمية ونزهوا أنفسهم عن الصفات الخبيثة السبعية وبذلوا راحتهم وصرفوا نفيس عمرهم في تحلية عقولهم بأنوار العلوم الحقيقية والمعارف العقلية ونفوسهم بالصفات والأخلاق كاملة، بل أبت نفوسهم الشريفة وهممهم العلية أن تقف بهم عند هذا الحد من الكمال ـ أعني تحصيل الفضائل القاصرة على ذواتهم ـ بل بذلوا الوسع وأجهدوا النفس في نشر العلوم والآداب ووضع القوانين العادلة واختراع الصنائع النافعة والفنون العالية وغير ذلك مما لا يقوم للنوع الإنساني قائم إلا به لا يختصون بذلك جنسا دون جنس ولا وطنا دون وطن ولا يبتغون بذلك سوى لذة الكمال العقلي واستحصال المحمدة الحقة بما قلدوا به أعناق أفراد النوع البشري من نتائج أفكارهم وآثار أعمالهم فصار توقيرهم في النفوس وتعظيمهم في الأفئدة فرضا على كل شخص من النوع الإنساني بالطبع، إن أنكره لسانه شهدت به جوارحه وجنانه بل حازوا السلطنة الحقيقية في المملكة الإنسانية لا يعزلون عنها بموتهم ولا تزول سلطتهم المعنوية الحقيقية ما دامت السموات. انظر إلى سلاطين اليونان والرومان والفرس والكلدان قد محيت أسماؤهم من صفحات

الأذهان لا يطلع عليها إلا المتوغلون في قراءة التواريخ وسير الأمم. وأما فيثاغورس وسقراط وأرسطو وأفلاطون وبزرجمهر وجاماسب فلا تزال الأنفس رطبة بذكراهم ناطقة بفضائلهم ومزاياهم والنفوس معترفة بعوارفهم ومذعنة بعظمتهم وأن هؤلاء العظماء الفضلاء من الشرقيين والغربيين في الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة يحتلون جميعهم من الشرف مكانا عليا واستحقاقهم للمحمدة الحقة والثناء الخالص يتفاوتون فيها على حسب تفاوتهم فيما حازوه من الفضائل وما ترتب على مؤلفاتهم ومصنفاتهم ومخترعاتهم من الآثار والفوائد، فمن كان منهم في المعارف أوسع دائرة وبالآثار أعم فائدة وأتى من الأعمال ما يقيم نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر كان أحق بالمدح وأجدر بالثناء فيجب على كل من وضع قدمه في أول درجات الإنسانية أن يقدم له الشكر والثناء على قدر طاقته قياما بأداء الحق واستنهاضا للنفوس الحاملة لأن تنال ذاك المقام الأسمى والشرف الأعلى.

ولهذا رأيت من الفرض علي أداء الشكر أصالة عن نفسي ونيابة عن كل عارف باللغة العربية الشريفة أن أنشر عطر الثناء على حضرة العالم الفاضل المتبحر بطرس أفندي البستاني بما أودعه في مؤلفه «دائرة المعارف» من الفوائد الجليلة والمنافع العميمة التي قلد بمنتها أعناقنا قائلا إن هذا المؤلف الفاضل فضلا عن سائر مؤلفاته كمحيط وقطر المحيط وغيرهما قد أتى لنا بكتاب دائرة المعارف محيطا بجميع ما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ومعاده، إذ قد حوى جميع التواريخ من سير الأمم والسلاطين وأخبار الأنبياء والحكماء والقديسين وجغرافية البلاد وعلوم الطبيعة والكيميا والنباتات والحيوانات والحساب والجبر والهندسة والفلك وغير ذلك من الفنون الجليلة فمن وهبه الله أدنى عقل غريزي وكان له أقل إلمام بمبادئ العلوم فله أن يستغني بهذا المؤلف عن تجشم الجلوس بين أيدي الأساتذة لأن صعوبة العلوم بصعوبة الوقوف على اصطلاحاتها. وهذا الكتاب قد كشف حجاب الخفاء عن جميع الاصطلاحات بأوضح بيان وألطف عبارة وأرق إشارة غير أنني مع ذلك لا أتمالك أن أظهر أسفي من أن هذا المؤلف لم يبرز بتمامه في عالم الوجود ولست أتوهم أنه من فتور في همة المؤلف لم يبرز بتمامه في عالم الوجود ولست أتوهم أنه من فتور في همة المؤلف الفاضل ولكنه لقصور في رغبة الشرقيين؛ فنوجه إليهم

الخطاب قائلين : يا أبناء الشرق أفلا تعلمون أن سلطة الغربيين وسيادتهم عليكم إنما كانت بارتفاع درجتهم في العلوم والمعارف وانحطاطكم فيها؟ فلم لا تتقد أحشاؤكم بنيران الشوق لهذا المؤلف البديع وأمثاله حتى يبرز بمعدات رغبتكم وكمال شوقكم من عالم القوة إلى الفعل؟! هل رضيتم بعدما كان لكم ذروة الشرف بواسطة العلوم والمعارف أن تدوم لكم تلك الحالة الوخيمة التي أوصلتكم إليها الجهالات والضلالات حتى عادت ترق لكم قلوب الأعداء فضلا عن الأصدقاء؟! فهلموا لاقتناء المؤلفات واقتناص صيد المعارف واعتصموا بعرى الاجتهاد في نيل العلوم واستضيئوا بسنا الحق لتسترجعوا مجدكم وتنالوا حقيقة استقلالكم فتفوزوا مع الفائزين» .

* * *

بيروت في ١٥ اذار ٨٢

سيدي الاستاذ الاعظم

لئن كان للدوار الزمان قضاء نافذ في الناس فلقد صان الكمال انفس آحاد الرجال عنه فما تنفعل بالحادثات ولا تؤثر فيها التقلبات بل هي في مقام التجرد الذي تستوي فيه مظاهر عبث الايام بابناء الزمان والسيد لا زال حجة هذا القول ما ترك فضيلة ولا قعد عن مكرمة ولا ضن بمنفعة ولكن قضاء الزمان الذي لم يؤثر فيه قد كان نافذاً في مريديه فما لاقوا الخير معروضاً من جانبه ولا ذادوا الشر طارئاً من جانب الاحداث وهكذا وقع من بعض الرجال في مكاتبة من ارسلهم عن السيد من امراء الهند فانقطعت اخباره عن سائرهم الى هذه الايام فعسى ان يعوضهم المستقبل مما اضاعوه خيراً فيجد الاستاذ تحت سماء الحرية مستقراً طيباً امينا فلا تحتجب بعد ذلك انوار افكاره عن البصائر وان احتجب ضياء وجهه عن الابصار وقد حمل البصير الينا مفتتح مقالة السيد في الشرق والشرقيين فكانت مقدمتها غذاءً للالباب وما بعدها مهمازاً للعزائم ولا تزال الانفس مشتاقة الى ابقيته اشتياق الظماء الى بارد الماء فالمسئول من كرم السيد ان يرسل الي ما طبع منها ومن سواها في البصير وغيرها من جرائد لندرة وباريس جملةً فتلك امنية للعاجز فيها شركاء كثيرون ممن عرفوا السيد بالخبر او بالاثر ولست اذكر للاستاذ شيئاً مما لدي من اخبار مصر العمومية فانها تصل باريس قبل ورودها الينا بل قبل شيوعها في مصر ولكني احسبه مشتاقاً الى الاخبار الخصوصية عن بعض الاصدقاء فهذه اعرف منها ان عبد السلام بك على احسن حال من السلامة والعافية بيد انه منقطع في منزله اجتناباً للشبهات

الصفحة الأولى من رسالة أديب إسحق إلى السيد الحسيني

الآن عن بعض الأعضاء وأن سليم أفندي النقاش سار إلى مصر بإذن حكومتها على أن
يصرّف أموره وأشغاله ثم يعود فهو الآن هناك يستمنح جناب ناظر الحكومة عوضاً مالياً
بما لحقه من الخسارة بسبب تعطيل مطبعته وجريدته بلا موجب معلوم وأن سعيداً البستاني
عُزل إثر الفتنة ثم أعيد إلى الخدمة بمثل الراتب الذي كان له من قبل وهو الآن على حد قول
القائل: وحول ذكرك في الحياة سلامة. أما أبو تراب فقد أبلغت إليه وعد السيد باستقدامه
إلى باريس عن قريب فكاد يطير بذلك سروراً وهو مقيم هاهنا على الدعة والراحة يترصد
عنا الأعضاء ويعد الأيام ويستبطئ البريد فعسى أن يجيئنا كتاب السيد بما نتوقع ولا
بأس في تعليقنا بالأماني فما الحياة إلا الأمل ولا في تحقيقه رأيه العالي المؤيد وأمره
الكريم المطاع ومني على حضرته السلام بالإجلال والإعظام

[illegible]
أديب اسحق

صورة عن الصفحة الأخيرة من رسالة أديب إسحق إلى الأفغاني

٨

خطبة بالإسكندرية

(زيزينيا)

خطبة بالإسكندرية

(زيزينيا)

يا أيها السادة ويا أيتها السيدات.

أرى من الواجب أولا أن أثني على الجراثيم الشريفة الشرقية التي مضت عليها الدهور ومرت العصور وهي في حالة الكمون، لمنع الموانع الخارجية وقسر القواسر الداخلية، ومع ذلك لم تفقد مزاياها العالية، ولم تقدم سجاياها السامية، بل برزت ونمت، فرأينا أصولها الشريفة سادة شرفوا هذا المحضر، لإعلاء كلمة العلوم ورفع منار المعارف، وتأييد أمر الفضل اعتقاداً أن العلم سلطان عادل حكيم، إذا حل ببلد قوم تبعه الغنى والثروة لأنهما لا يحصلان إلا بالتجارة والزراعة التى لا تحصل إلا بالعلم، ولزمه الطمأنينة والراحة لأنه يعين الحدود ويبين الحقوق، فيكون لكل من الناس خط لا يتخطاه، وحد لا يتعداه، ووليته الحرية لأنه يبين للإنسان مقدار نفسه، فيعرف بذلك قدر غيره، ولا يخضع لمن يتوهم فيه السيادة خضوعا أصم، ولا يطيع لمن يعتقد به الرئاسة طاعة عمياء، فلا يؤخذ إلا بالقانون ولا يدين إلا للشريعة، وتلته الشفقة لأنها لا تحصل إلا بأن يدرك الإنسان ما ألم بغيره من المصائب إدراكًا يجسم ذلك في خياله، حتى كأنه يشعر بألمه. وهذا الأدراك هو عين العلم، وعلمًا بأن الجهل سلطان غشوم جاهل يتبعه الفقر والفاقة، ويواليه الارتباك والاضطراب، ويألفه الذل والعبودية، وتلزمه القسوة والشراسة. ولذلك فإنى أقدم الشكر للأفاضل الكرام الأرومات، الشرفاء الأصول، الذين اجتمعوا في هذا المقام لإحياء العلم الموجب لتلك المزايا، ودفع الجهل الداعي لهذه المعاني.

وثانيًا، إنه لمعلوم أن الأمة المؤلفة من طبقات الناس تماثل الشخص الواحد

المؤلف من الأعضاء والجوارح. فكما أن قوام الأعضاء ونموها يكون بالقوة الحيوية، تقوى بازديادها وتضعف بضعفها على نسبة واحدة، كذلك جسم الأمة لا تحصل لطبقاته القوة إلا بروحه الحيوية التي هي عبارة عن الميل إلى المعالي والشوق إلى الكمالات. وليس بخاف عنكم ما ألم بروح الجنسية في الأمم الشرقية من الضعف والوهن المستلزم لضعف سائر الطبقات، فلا تؤاخذوا من قام فيكم خطيبا، إن رأيتم في صوته تهدجا وفي عباراته قلقا، وفي معانيه اضطرابا، فما الخطباء إلا من طبقات الأمة التي ألم بها الضعف بروحها الكلي فسرى إلى طبقاتها وأعضائها؛ ولهذا فإذا رأيتم في خطابتي نقصا، فلابد من التجاوز عنه لكوني رجلا شرقيا.

وإذ تقرر لي ذلك فإني أشرع في بيان المطلب، فأقول: لا أريد أيها السادة أن أذكركم بمجد آبائكم الكرام، وأنكم إما أن تكونوا من أبناء المصريين أو من حفدة الفينيقيين، أو من سلالة الكلدانيين. وإن المصريين قد بلغوا من الهندسة ذروتها، ومن الحساب غايته، ومن المساحة قاصيتها ومن فن جر الأثقال منتهاه، وعلموا اليونان الحكمة والفلسفة. بل إن شخصا واحدًا منهم قد بعث في اليونان روح المعرفة وعلمهم فن تدبير المنزل على حين كانوا همجا متوحشين، وأبان لهم كيفية الزراعة والصناعة على حين كانوا يتعيشون بالصيد والقنص، وأن جل علمائهم ومعظم حكمائهم لم ينالوا الفلسفة إلا بما تعلموا في مدرسة مصر العظيمة.

ولا أذكركم بالفينيقيين وأنهم وضعوا أصول الصناعة، وخاضوا عباب البحار. وكانت إنجلترا واليونان من مستعمراتهم. ولا تزال أسماء بلاد إسبانيا وسلافينا شاهدة بأنهم رفعوا على تلك الأقطار ألوية تمدنهم، وأن أهلها كانوا لا يعرفون الصناعة ولا التجارة. بل كانوا يقدمون لجدودكم كنوز الطبيعة، ومعادنها الثمينة، ليأخذوا منهم الأقمشة والآلات وسائر ما يحتاجون إليه، وأنهم علموا اليونان الخط. وكان أعظم حكمائهم منسوبا إليهم وهو تاليس[١] الصوري.

ولا أعيد ذكر الكلدانيين جدودكم الأول الذين أنشأوا صناعة النحت، وقسموا

(١) طاليس الفيلسوف الإغريقي، وينسب إلى صور في لبنان.

الفلك بالدوائر، وعرفوا معدل الأنهار ومنطقة البروج ودائرة نصف النهار، ووضعوا الأسطرلاب وعرفوا القطب واخترعوا الكرة ذات الحلقتين.

لا أذكركم بجميع ذلك لأنكم تعلمونه علم اليقين، ولا تخافون فيه منكرًا أو معترضا، فإن الهرمين، والمسلات، وأعمدة الكرنك، تفقأ بأصابعها الدهرية أعين المعترضين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية والنقص في الفطرة، وإن تلول نينوى، وأطلال صور وبعلبك ومنفيس وثيبة(١)، ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار المنكرين الذين ينظرون إلينا بعين الاستخفاف والاحتقار، وإنما أريد أن أعطف نظركم إلى حالتنا الحاضرة، فإنكم تعلمون بما حصل لنا من الانحطاط، وما حاق بنا من الذل والهوان، وأن النوائب قد خفضت منارنا والأجانب اقتسمت ديارنا. ولا شك أن هذا حادث من الحوادث فلا بد له من علة يوجد بها ويعدم بعدمها. وبعبارة ثانية إنه قد وضع في دائرة الوجود عوالم متعددة، ولكل منها مركز يكون بمنزلة شمس تجذب توابعها بحبال الجذبات اللستيكية التي تدفع تارة وتجذب أخرى، وترسل إليها رسل الأشعة حاملة عناصر الحياة، وإنه قد وضع في كل نبات وفي كل حيوان من التغذية ما هو حافظ لنفسه، ومن التوليد ما هو حافظ لنوعه. ولا شك أن ما وضع فينا من قوى الإدراك لم يكن إلا لننال مرادنا من السعادة. فلابد أن يكون لحرماننا من تلك الأمنية مانع. وإذا سبرنا الموجودات سبرًا فلسفيا فلا نجد لتأخرنا غير سببين أصليين، وهما التعصب والاستبداد.

فأما الأول فهو عبارة عن سوء استعمال الدين. فإنا إذا نظرنا بعين التأمل البصير إلى الشارعين من عهد (مهادبو) إلى زرودشت إلى موسى، إلى عيسى، إلى محمد (ﷺ) لا نجد في شرائعهم إلا الدعوة لمعرفة مبدأ الحق، وهو الله، والحث على الفضائل، وفعل الخير، والزجر عن الرذائل والشرور. وبعبارة ثانية لا نلقى بها إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنا إذا نظرنا إلى الكثير من الذين تبعوهم، فإنا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق والنفاق، واتخذوها وسائط لإضرام الفتن ووسائل لإلقاء الإحن حتى أمكن للشاعر العربي أن يقول:

---

(١) ثيبة هي طيبة المدينة المصرية القديمة.

إن الديانات ألفت بيننا إحنًا وأودعتنا أفـــانين العـــداوات

ومـا مثل هؤلاء إلا كـمثل رجل قلد السـيف لقـتل الأعـداء فاسـتعـمله في قـتل الأحباء، فبئس ما كانوا يفعلون.

وأما الاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأي واحد من الناس لا تتحرك إلا بإرادته ولا تفعل إلا لرضاه. فإذا كانت الأمة على هذه الصورة لزمها لا محالة أن يصرف كل منها ما أودع فيه من العقل والذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون الكل فانيًا فيه. ومن المعلوم أن الرجل الواحد، ولو انفرد في العقل والذكاء والهمة وعلو النفس، لا يستطيع جلب السعادة لنفسه فضلا عن جلبها لأمة كبيرة. وها هنا يمكن لي أن أبشركم بأن قد زال عنا هذا المانع بما نلناه من الحكومة الشورية. فلم يبق إلا أن تسعوا في صيانتها وتأييدها، ولا تكتفوا بمجرد حصولها إذ لا يخفى عنكم أن الحكومة هى كسائر الأجسام الطبيعية والاجتماعية بما يطرأ عليها من التحليل.

وحيث إنا شعرنا بالألم، وعلمنا بسقوطنا في هذه المهواة، وأن أنفسنا تميل إلى الخروج منها، فلا بد لنا من البحث عن الدواء الحقيقي لهذا الداء الحادث، فإذا رجعنا إلى بصيرتنا النورانية وفطرتنا الأصلية علمنا بأنه لا يمكن الخروج عن هذه الخطة إلا بالسبب. فإن المتحرك لا يسكن والساكن لا يتحرك إلا بالعلة. ولا أرى لخروجنا من علة سوى الغيرة. فهي المحركة للنفوس الداعية إلى المجاراة والمباراة، والباعثة على الاهتمام والأقدار، وعلى قدرها تأتي العزيمة وترتفع القيمة. وعلى حسب تأصلها في الأنفس وضعفها يكون صعود الأمم إلى معارج العز والثروة، وهبوطها إلى دركات الذل والفاقة.

ولا شك أن الغيرة لا تحصل إلا بحزب من الوطنيين يعلمون أن لا شرف لهم إلا بجنسهم، ولا قوة إلا بأمتهم، ولا فخر إلا بوطنهم، وأنهم إذا أرادوا تحصيل الشرف بالانتماء إلى غيرهم يكونون بمنزلة الرقعة في الثوب الجديد، أو بمنزلة العبد الذي يفتخر بسيده. ولهذا أرجو منكم يا أيها السادة أن تقيموا حزبًا يصون لوطنكم حقوقه ويحفظ عليه بهاءه. على أني لا ألومكم على انتماء بعضكم إلى الأجنبيين،

فإن ذلك لم يكن إلا فرارا من الظلم وحرصا على الحقوق الإنسانية والمدنية. ولكني أؤمل منكم أن تؤيدوا أمر الوطن وتشيدوا فيه ا لحكومة الشورية ليستقيم به أمر العدل والإنصاف، فلا يعود بكم من حاجة إلى حماية الأجنبي، بل تمزقوا أوراق الانتماء، وتذاكر الحمايات، حتى يكون شرفكم منكم وإليكم، وحمايتكم في ظل قوانينكم، ولا تكونوا رقعة بالية في ثوب الأجنبي الجديد.

ولا شك أنكم تعلمون أن الحزب الوطني لا تحصل له القوة، ولا يكون له البقاء، ما لم يكن لأهل الوطن لغة جامعة، مهذبة التراكيب جيدة الأسباب، فإن لم يكن لهم ذلك لا تستقر لهم المعارف ولا تقيم بأحيائهم العلوم، وإن ذهب جماعة كثيرة منهم إلى أوروپا وتعلموا اللسان الأجنبي، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال، ووطنهم يكون كالبلد الذي لا ماء فيه، يجلب لأهله الماء من ضواحيه، فهو عرضة للظمأ وسوء الحال، وأهله على شفا الاضمحلال.

فإن سأل سائل: كيف يمكن بث الغيرة وإنشاء الحزب الوطني وإحياء اللغة؟ قلنا إن أعظم الأسباب الموجبة لحصول هذه المزايا هو إنشاء قاعة للخطابة يقوم فيها الخطباء الألباء، وينطقون عن الغيرة والحمية بما يبين لنا الحقوق ويعين الواجبات، ويذكرنا بمجد آبائنا وذل أبنائنا، ويرينا حالة الأجنبيين، وما هم عليه من القوة والثروة والمجد والسطوة، فنعلم أسباب السقوط ووسائل الهبوط، ويتبع ذلك إنشاء الجرائد الحرة القائمة بأمر الوطن الآخذة بأطراف الحق، فإنها تقرب الأقصى باللفظ الموجز، وتنبئ بأخبار السلف، وتبين لنا أحوال جيراننا، فترينا المصالح والمفاسد لنجتلب تلك ونجتنب هذه. ولا شك أنه لا بد في عالم المدينة من كل منهما، ولا يمكن البلوغ إلى غاية السعادة إلا بهما. ولا فرق بينهما إلا أن الخطابة تحرك الدم بحركة الخطيب وقوة المشافهة، وأن الجرائد تثبت المطالب في الأذهان بإعادة النظر إلى ما لا أثبت في الصحائف.

ولكني أجلكم يا أيها السادة عن أن تحسبوا أنكم تنالون مزايا المدنية، وتحوزون المعارف والعلوم، وتستكملون أسباب التقدم والسعادة، وتبلغون ذروة المجد والشرف، إن كان العلم فيكم مقصوراً على الرجال. بل أعيذكم من أن تجهلوا أنه لا يمكن لنا الخروج من خطة الخسف والجهل، ومن محبس الذل والفاقة، ومن

ورطة الضعف والخمول، مادامت النساء محرومات من الحقوق، وغير عالمات بالواجبات، فإنهن الأمهات اللواتي تصدر عنهن التربية الابتدائية والأخلاق الأولية. ولا شك أن أول ما ينقش في لوح ذهن الإنسان يكون ثابتًا صعب الزوال. وقد قيل: العلم في صغر كالنقش في الحجر. وأقول إن هذا النقش هو السبب الأصلي في اختلاف المذاهب، وتنوع المشارب، فإن وجدت فيه الكدورة، فلا صفاء في الذهن ولا سلامة في المشرب، ولكن إذا كانت الأمهات عالمات، عارفات بحقوق الإنسانية، متأدبات على ما تقتضيه أحكام الشرف والمدنية، فلا شك أن أولادهن يتخلقون بأخلاقهن، ويكتسبون منهن تلك المزايا الفاضلة. وعندي أنه إذا حصل التساهل في تربية المرأة، وكانت رجال الأمة جميعًا راسخين في العلم والمعارف، مترقين في درجات الكمال، فلا يمكن بقاء الأمة على تلك الحال المكتسبة إلا مدة بقاء أولئك الرجال. فإذا انقرضوا، وخلفهم الأبناء المتخلقون بأخلاق أمهاتهم على ما بهن من النقص في الكمالات العلمية، رجعت أمتهم إلي ما كانت عليه من الخسف وسوء الحال.

أقول هذا وفي يقيني أن حلمكم يقيني الملام، وأن تلطفكم يضمن لي حسن الختام.

* * *

٩

السياسة الإنجليزية في الممالك الشرقية

السياسة الإنجليزية في الممالك الشرقية

بلغنا أن الحكومة الإنجليزية قد عرضت لائحة في المسألة المصرية على الدولة العثمانية تسكينا لروعها، وتطمينا لبالها، تذكر فيها أنها ما قصدت الاستيلاء على مصر، ولا تود وضع اليد عليها، ولكن سوف تبقى العساكر الإنجليزية في البلاد النيلية إلى مدة زوال القلاقل، وحصول الراحة، وتشكيل المجالس والمحاكم. ولا تود الدولة البريطانية أن تمس حقوق الحضرة السلطانية بمداخلتها في مصر.

نعم، هذه هي السياسة الإنجليزية في جميع البلاد الشرقية، عملت بها في الممالك التي أرادت الاستيلاء عليها، وقد حذقت فيها وجربتها مرات عديدة، حتى إذا خاض العاقل فيها رأى أن لا سياسة للإنجليز سواها كأنها عرفت عقول الشرقيين، وعلمت ما فطروا عليه من السذاجة وشدة الاعتقاد بمواعيد عرقوب، فتأخذهم على غرة وتستلب بلادهم، وهم في أمن منها يثقون بعهودها، ولا يعرفون أن هذه الحكومة إنما تقتنص بأوهاق الإيمان[١] ولا تسلك في فتوحاتها إلا مسلك الوداد، حتى إنها قل ما تملكت بلدًا بالقوة القاهرة. وإن الشر لا يأتي إلا من معاهداتها.

أليست هي التي أزالت السلطنة التيمورية التي كانت منبثة في جميع أرجاء الهند بمداخلتها الودادية ومواعيدها المؤكدة؟ أليست هي التي نقضت الحكومة النظامية في بنغالة بعساكرها التي وضعتها للمحافظة على تلك البلاد؟ أليست هي التي أزاحت السلطنة الكهنورية بنفس جنودها الذين أقامتهم لتوطيد الراحة فيها؟ أين ذهبت

(١) الوهق: محرك ويسكن الجبل يرمى في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان. الجمع أوهاق. (هامش المنار).

حكومات أمراء الكرناتك ومدارس التي كانت مطمئنة بالعساكر الإنجليزية ومعتمدة على معاهداتها؟ أين حكومَة بنجاب وممالك أمراء السند؟ أين حكومَة المراتيين في بونه؟ ذهبت كلها لاعتماد أهلها على وعود الإنجليز وحماية عساكر الملكة. وما أبادهم، لعمري، سوى تلك العساكر نفسها التي وضعت لصيانتها من الفساد الداخلي، فاحذروا يا أهل الديار النيلية من أن يحل ببلادكم ما حل بغيرها، ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده.

وقد بلغنا منذ قدمنا لوندن[١] أن معظم الأوامر التي يجريها الخديو تكتب أولا في الوزارة الخارجية بلوندرة، ثم ترسل إلى المندوب الإنجليزي بمصر، والمذكور يقدمها لحضرة الخديو ليجريها كأنها صادرة عن أمره باختياره، ولا أمر له فيها ولا اختيار، وربما هذا كان الباعث على استقالة رياض باشا من الوزارة.

هذه هي السياسة الإنجليزية التى كشفت عنها غطاءها التجارب، وبهذه السياسة جالت في ميدان جميع فتوحاتها، فلا أظن أنها تتمكن بعد الآن من احتلال عقول الشرقيين بهذه المواعيد[٢]. وما أظن أن السلطان ورجال دولته بعد ما علموا نبأ معاهدات الإنجليز في الهند أن يعتمدوا عليها، ويثقوا بأصحابها، ولا ريب أنهم قد اطلعوا على المعاهدات الإنجليزية التي طبعت في أربعة مجلدات بمطبعة (نول كشور) في بلدة لكناهور. ومنها علموا كيف يستولي الإنجليز على البلاد بحرفة العهود الفارغة والمواثيق الباطلة، وفيما قلناه عبرة لمن يعتبر، وسوف نعود إلى الخوض في هذا الموضوع متصلا.

---

(١) كذا في الأصل المطبوع. وهي لندن.

(٢) إن أمير مكة حسين بن علي وأولاده قد خيبوا امال السيد جمال الدين فانخدعوا بالوعود الإنجليزية على قول الذين يحسنون الظن فيهم بغباوتهم، والذين يدافعون عنهم. ويرى اخرون أنهم خائنون لأمتهم لا مخدوعون، فإنهم يطلبون الملك، ولم تسم هممهم إلى طلبه إلا من طريق الإنجليز، فساعدوهم على أخذ البلاد العربية ليشتركوا معهم وتحت ظلهم في التمتع بحكمها. (هامش المنار).

١٠

أسباب الحرب بمصر

أسباب الحرب بمصر

لقد ذهب الناس مذاهب شتى في أسباب الحرب التي قدحت الإنجليز زنادها على المصريين، فمنهم من زعم أن الطمع في الاستيلاء على البلاد النيلية الخصيبة كان الباعث على ذلك، ومنهم من اعتقد أن مصالح بريطانيا في خليج السويس حملت الإنجليز على فعل ما فعلوا، وظن قوم أنهم اندفعوا إلى تجشم تلك الخسائر الباهظة غيرة على حفظ نفوذهم السياسي والتجاري بالديار المصرية، والتأمين على استيفاء ديونهم، وهلم جرا.

تلك، لعمري، تعليلات سارت بها الجرائد رجمًا بالغيب أو تمويهًا على عيون الناس.

أما أسباب الحرب الحقيقية فهي ما كان ثبت في عقول الإنجليز والفرنسيين من أن جلالة السلطان عبد الحميد قد سعى منذ تولي الخلافة والملك في جمع كلمة المسلمين المنتشرين في أقطار الهند وإفريقيا وسورية والعراق واليمن والحجاز ومصر، وغيرها من البلاد لكي يجعلهم عصبة مستمسكة بعروة الخلافة الوثقى، وأمة تتساند بعضها إلى بعض كالبنيان المرصوص، وأن يكون السواد الأعظم من المسلمين في يد أمير المؤمنين يستنجدهم في الملمات لمقاومة دول أوروبا إذا طمعوا في سلب بلاد المسلمين. فكان الفرنسيون يقاومون نفوذ السلطان وخلافته في مسلمي الجزائر وتونس، مخافة أن يكون ذلك وبالاً عليهم، وكانت الانجليز تحاذر من انقياد مسلمي الهند إلى دعوى الخلافة ومن الانضمام إلى العصبية الإسلامية. وكانت تلك الدولة القيصرية قد بلغها أن الحضرة السلطانية بعثت برجال الدين إلى المسلمين ليدعوا إخوانهم إلى طاعة أمير المؤمنين، وينشروا بينهم رسائل تولد في

عقولهم فروض الانقياد إلى الراية النبوية إذا نشرها السلطان ودعاهم إلى التشمير عن ساق الجد لنصرته والجهاد في سبيل الملك والدين.

وما زاد في طنبور الإنجليز نغمة إلا النشرات التي كان السيد (نصرت علي) ينشرها في دهلي بإيعاز السلطان، فلما أخذت مشروعات السلطان ومندوبيه تضرم نار الغيرة الدينية، وتثير الحمية الإسلامية في نفوس بعض من الهنود، اضطرت الحكومة الإنجليزية بالهند إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع سريان تلك العدوى. وعثرت في أثناء ذلك على رسائل منتشرة بين المسلمين كانت قد طبعت في القسطنطينية بدار الطباعة الشاهانية، وأرسلت إلى الأقطار الهندية لإنهاض همة المسلمين، فألقت القبض على كثيرين من الذين وجدت عندهم من تلك الرسائل وحاكمتهم، ومن ذلك الوقت شرعت إنجلترا تتوجس في تلك المقدمات نتائج وخيمة في ممالكها الهندية، فكمنت بالمرصاد تترقب الفرصة الملائمة لتمزيق شمل تلك العصبية الإسلامية التي يصفها الإفرنجيون باسم (بانسلاميزم)[1] وفيما كانت تضرب أخماسا في أسداس، وتقدم رجلا وتؤخر أخرى، بلغها أن الحضرة السلطانية قد باشرت تنفيذ مشروعاتها بالديار المصرية، وضم مسلمي تلك البلاد أيضًا إلى العصبية الإسلامية، بواسطة الشيخ محمد ظافر، والسيد أحمد سعيد المدني، وبسيم بك، وراتب بك، وأحمد عرابي وأحزابه، فأصدرت الدولة البريطانية أمرها إلى مندوبها بمصر بأن يستقصي حقيقة الخبر.

أما ذلك المندوب فكان بادئ ذى بدء يعتقد أن الحرب الأهلية عبارة عن عصبية عسكرية جل سعيها في إصلاح شئونها وطرد الضباط الشركس من مصاف الجهادية المصرية، ولكن خيل إليه بعد ذلك أن الحضرة السلطانية قد اغتنمت من ثروة العساكر المصرية، واتخذت عرابي باشا آلة لقضاء أغراضها، وتوطيد نفوذها في القطر المصري وضم المصريين إلي العصبية الإسلامية، فرفع المندوب الإنجليزي تلك الأخبار إلى لورد جرانفيل، وأثبت وجود عصبية دينية قد تردت برداء عصبية سياسية وطنية، تدعي تحرير الفلاحين من ربقة المرابين والأجانب. وفي الحقيقة

---

(١) Pan Islamism: الجامعة الإسلامية.

ليست سوى عصبية إسلامية دينية تحت قيادة السلطان أمير المؤمنين، غرضها الوحيد مقاومة دول أوروبا وإنهاض همة المسلمين في الهند والجزائر وتونس وبلاد العرب، فتداركت إنجلترا العواقب، وصممت على إذلال تلك العصبية الإسلامية قبل أن يستفحل أمرها، لأن الإنجليز تعتقد أن مصر باب الهند وخليج السويس دهليزها فإن استفحل أمر عرابي باشا وحزبه لحق بهم المصريون على اختلاف أجناسهم، وتبعهم السوريون والعرب، وأنشئوا أمة عظيمة الشأن شديدة البأس تضر الإنجليز ومستعمراتهم في الهند. فرسخ في عقول رجال السياسة البريطانية أن منع إفشاء الوباء خير من علاجه بعد انتشاره، وصمموا على إخراج عرابي باشا وأحزابه من الديار المصرية، إما بالحسنى وإما بالإكراه، طمعًا في إطفاء نار الفتنة، وتمزيق شمل العصبية الإسلامية المتظاهرة بشعار الوطنية، فلما أيسوا من إخراجهم بالحسنى، عولوا على إذلالهم بالأساطيل المدرعة، والمدافع المثمنة، والجنود البحرية والبرية، وما انثنوا حتى فتكوا بهم في ملحمة التل الكبير، وكانت القاضية على عرابي باشا وأحزابه، وقد ثبت في عقول كثيرين أن إذلال عرابي وأنصاره قد أذل العصبية الإسلامية إذلالاً لا عز بعده ما توالى الفرقدان.

* * *

١١

الحق والباطل

أو نتائج سياسة الإنجليز في مصر

الحق والباطل

ما اختلف رأيان في أمر إلا كان أحدهما حقا والآخر باطلا . إن الحق أوسع الأشياء تواصفًا ، وأجلاها برهانًا ، وأوضحها بيانا . ولقد صنف الحكماء فيه كتبا ، وبينوا سننه ، وذكروا شواهده ، وقسموه إلى أقسامه من حقوق الملل والدول والرعاة والرعايا ، وشرحوا في مصنفاتهم أن الحق قوام الاجتماعات الإنسانية ، منزلية كانت أو مدنية ، وأن مدة دوام الاجتماعات وبقاء الدول بمقدار دوام الحق فيها وبقائه ، لأن بالحق يحصل التكافؤ بين القوى المجتمعة لاكتساب الأمنية والسعادة اللتين هما غاية سير الأمم في حياتهم .

فإذا حصل الانحراف عنه زال التكافؤ فاضمحل الاجتماع ، ووقفت الأمم دون بلوغ غايتها .

ولو تأمل البصير في زوال الأمم الغابرة لا يرى له سببا سوى الحيدان عن الحق . وأن الحق مهما كان لديه من الظهور والبروز ، وسعة المجال في التواصف ، أضيق الأشياء تناصفًا وتعاملا ، وأخفى الأمور عمن أراد أن يسلك مسالكه ، ويزن بميزانه أعماله وأفعاله ، لأن الحق يكون للإنسان وعليه . فإذا كان عليه فحينئذ يشاب إدراكه المتبجس من محض عقله بالحاسات الطبيعية ، ويمتزج بالأوهام الناشئة عن عاداته ، فيخفى عليه محجته ، ويسلك مدحض الباطل ، ظنا منه أنه على الحق ، غير حائد عنه ، وهذا هو السبب لاختلاف الأمم في آرائهم ومسالكهم . ولا يعرف الحق بنفسه إلا من انقادت طبيعته لعقله ، وأزال ناشئة العادات عن لوح ضميره ، فصار عقلاً صرفًا ، يخضع لحكمه ويهتدي بنوره ، لا يجد الباطل فيه سبيلا ، ولا يضل عن رشده أبدًا .

وقليل من يتحقق في الإنسان بهذه الصفة وإن كانت حماة الحق كثيرة .

انظر إلى الحزب الحر[١] في الحكومة الإنجليزية كيف كانوا يحامون عن حرية الأمم، ويحثون الدول على إطلاق ربق العبودية عن الشعوب، ويدافعون عن الأيرلنديين، ويجاهرون بدمائهم الحزب المحافظ، ويذكرون شنائع أعمالهم في حرصهم على الفتوحات عند اعتزالهم عن الحكم. وكانوا يندّدون على دزرائيلي في إقدامه على حرب الأفغانيين، قائلين له إن شير علي خان[٢] حر في بلاده، له أن يقبل سفير الروس ويرفض سفير الإنجليز، وليس لأحد أن يعارضه في أمره هذا، مع أنه كان لدزرائيلي أن يقيم الحجة عليهم قائلا إن رفض شير علي لسفير الإنجليز واستقباله لسفير الروس ـ وقد كان مصادقًا لنا ومعاهدا إيانا ـ دليل على اتفاقه مع الروسية، ومحالفته لها، فيجب علينا أن نتدارك هذا الأمر قبل ظهور نتائجه الوخيمة كي لا نجلب بأيدينا مضرة على البلاد الهندية. ولما آل الأمر إليهم، وأخذوا زمام الحكم بأيديهم، ما حرروا بلادا، ولا أعتقوا عبادًا ولا أطلقوا رقابًا، بل صاروا على الأمم أشد من الحزب المحافظ، وزادوا في التحريج والتضييق وأحكموا حلق العبودية، وشددوا ربق الرقبة، وضيقوا المجال على النفوس التي تهوى الحرية وتميل إليها.

وها هو صراخ الأيرلنديين ينبئك عن سيرهم في سياحة سياستهم، وسلوكهم في مذهب إدارتهم.

وأعجب من كل هذا أن المصريين بأجمعهم، ولا أستثني منهم أحدًا، أرادوا أن يضعوا في بلادهم أساس الحرية، بتشكيل مجلس النواب، تملصا من ربقة الاستبداد الذى يستجلب الوبال على المستبد ومن استبد عليه كليهما، وخروجا من مضيق العبودية التي نشأت من الإيثار والاستيثار بلا ملاحظة المنافع والمضار، وطلبا للانخراط في سلك الأمم المتمدنة، رجاء أن يحظوا من السعادة بما حظيت به الأمم، واتفق معهم خديوهم لما أن رأى صدق نياتهم وإصابة رأيهم، وأن حكومته لا تقوى إلا باتفاق كلمة الأمة، وهو نتيجة المجلس الذي تسعى الأمة في تشكيله.

---

(١) المقصود هو حزب الأحرار الذي تزعمه في ذلك الوقت غلادستون.

(٢) أمير أفغانستان.

ولما رأى الحزب الحر في الحكومة الإنجليزية ميل المصريين إلى الحرية، وسيرهم إليها، وسعيهم في طلب أسبابها، ما ونوا أن جبهوهم بالرد، وعارضوهم بالعنف، ودافعوهم عن الوصول إليها، وأوجبوا الشقاق بين الراعي والراعية، علما منهم أن اتفاق كلمة المصريين لإصلاح بلادهم بالإدارة الشوروية[1] يصد الحكومة الإنجليزية عن نجاحها في مقاصدها المشطة، ويمنعها عن استملاك تلك الأقطار بمداخلتها الودادية، كما فعلت من قبل بالممالك الهندية. وألقوا في روع الخديو، ودسيسة منهم، أن هذه المساعي ليست لتأسيس الحرية ونصب دعامة المدنية، وإنما هي لتغيير الحكومة واستبدالها وساعدهم على ذلك بعض وزرائه الذي جلب إليه الجهل العجب بنفسه والاستبداد برأيه. والخديو، لسلامة قلبه، ظن أن هؤلاء لا يريدون إلا تشييد حكومته، ولا يبتغون إلا تأسيس مباني إمارته بمقاومة المعارضين، ومصادمة المقاومين من أهل الوطن، فأصغى إليهم، واعتمد بكله عليهم، وجاهر أعوانه الذين كانوا يسعون في إصلاح البلاد، ونجاح العباد، وصون حكومته عن دخل الأجانب بالمقاطعة والمناوأة، فاضطر أعوانه لما أن رأوا حيدانه عنهم وميله إلى الذين لا يريدون إلا ختل المملكة، واختلاسها من أيدي مالكيها، أن يقابلوه بما قابلهم به.

وبعد أن خلبوا قلب الخديو بموارباتهم، لاحظوا ما للأمة الفرنساوية من الحقوق في تلك الأقطار، فعلموا أن نجاحهم في مقاصدهم لا يكون إلا باتفاقها معهم في الرأي دون العمل، فوجدوا منه مقتحمًا، بذل جهده في إمالة آراء الأمة إليهم، بلا ترو، في أن حالتها الحاضرة تمنعها من مشاركتهم في الأعمال.

ثم لما علم الحزب الحر في الحكومة الإنجليزية أن سهام موالستهم قد أصابت، جندوا الجنود، وألبوا العساكر، وساقوهم لفتح الديار المصرية، متظاهرين بأن الغرض تأييد الخديو في حكومته، ودفع المفسدين الذين يريدون خلعه، وكأنهم أرادوا بسيرهم هذا أن يجعلوا جزيرة قبرص في البلاد العثمانية بمنزلة كلكتا، وخلع إسماعيل باشا ونصب توفيق باشا كخلع سراج الدولة من البنجالة ونصب

(١) الصواب هو الشورية من الشورى، ولكن صحف ذلك العهد كانت ترسم الكلمة على هذا النحو مع كثير غيرها.

مير جعفر، فيفعلوا في هذا فعلهم في البلاد الهندية. ولا غرو في ذلك فإنه قد سبقهم إلى مثله أسلافهم من قبل. وإنما العجب أن يصدر هذا الفعل من الذين رفعوا لواء الحرية، ونادوا بأعلى صوتهم بفك رقاب الأمم عن العبودية كأنهم عن انعزالهم ما كانوا يحامون عن حرية الأمم، إلا لأن يأخذوا زمام الحكومة بأيديهم، فجعلوا المحاماة عن الحق آلة للوصول إلى باطلهم، أو عموا عن معرفته بعدما استقروا على منصة الحكم، واستبدوا بالأمر، كما هو دأب كل من لم يخلص عقله عن شوب الهوى واتباع العادات. بل يمكن أن يقال إن هؤلاء في حرصهم على استلاب حقوق الأمم مع دعوى حماية الحرية عجزوا أن يلبسوا باطلهم بلباس الحق، وأن يقيموا دليلا سفسطيا على مداخلتهم في القطر المصري، حتى وقعوا في المتناقضات وأتوا بالمتضادات. فإنهم رأوا وجوب الحرية على المصريين لطلبهم عرض ميزانية المراقبين على مجلس النواب، مستدلين بأن هذا إجحاف بحقوق المراقبين ونقض للعهود المبرمة بين الحكومة الخديوية وبين الحكومتين الفرنسية والإنجليزية في أمر المراقبة. ثم إنهم حرصا على استملاك مصر رفعوا المراقبين بلا استشارة من الحكومة الفرنسية ولا موافقة منها، وتشبثوا فيه بأمر الخديو، وطلب شريف باشا. ولا شك أنهما لم ينطقا إلا بما لقنوهما مما يؤسسون عليه أساس تملكهم.

متى كانت الحكومة الإنجليزية تصغي إلى الخديو وتأتمر بأوامر شريف باشا، حتى يظن أن رفع المراقبين كان مبنيا على مجرد الامتثال والائتمار لا غير؟! فيا له من برهان ما أدحضه، ومن دليل ما أضعفه، ومن عذر ما أنكره! ثم إنهم هم الذين هتكوا حقوق الأمم، وأوجبوا العطلة فى تجارتها بإقامة الحرب في ترعة السويس. والآن، إغفالا للدول، وتسكينا لجأشها، تراهم يشكون من وقوع الخل في التجارة أيام الحرب لشغلهم الترعة بسفنهم الحربية، بأمر الخديو على حسب دعواهم، فكأنهم يشكون من أنفسهم، ويسخرون بأقوالهم هذه من عقول الأمم، ويتلاعبون بالخديو ورجاله لاستلاب ملكه.

وليت أن صدر هذا الإجحاف بحقوق المصريين عموما، وحقوق الخديو خصوصا، من الحزب المحافظ، حتى لا يقال إنه لا يوجد في الإنجليز حزب يحامي عن الحرية، ويدافع عن حقوق الأمم. وما تظاهر بعض رجالها بهذا الاسم إلاَّ رياءً،

وسمعة مكيدة منهم، حتى ينتهزوا الفرصة، ويستلبوا البلاد على حين غرة من أهلها. ودع الآن دعوى محاماة هؤلاء المجازفين عن الحرية بالباطل، حتى نتكلم في النتائج التي ترتبت على مداخلة الإنجليز في مصر، وما يمكن أن يترتب عليها، فنقول إن مداخلة الحكومة الإنجليزية في القطر المصري أوجبت نفور مسلمي الهند عنها قاطبة، سنيين كانوا أو شيعيين أو وهابيين. وقد انتشر بينهم، وقر في أذهانهم إمّا من استنباط أنفسهم أو بدسائس الدول التي لها مآرب في الهند، أن غرض الحكومة الإنجليزية وبغيتها الحقيقية من الاستيلاء على مصر أن تجعل هذا الاستيلاء مدرجة لوضع اليد على الحجاز وإدخال مكة المكرمة في حوزتها. وإذا استتب لها الأمر في تلك البلاد التي هي محتد الديانة الإسلامية، ومغرس شريعة المسلمين، وركن دينهم، فحينئذ تهتم في إزالة هذا الديانة عن وجه الأرض. واعتقدوا بعد دخول العساكر الإنجليزية في مصر أن هذه الحكومة في فتوحاتها لا تقنع بالضرائب والجبايات التي تقتنيها من الذين تستعبدهم كالحكومة الروسية، بل تحرص على تبديل الديانات وتكدُّ في تغيير الشرائع فحصل لهم قلق واضطراب شديد، كما هي عادة الشرقيين في الحرص على صيانة ديانتهم، والخوف من وقوع الخلل فيها، وكل ينتظر نجاة، ويطلب خلاصا، ويرى أن بقاء دينه مصونا عن الفساد لا يكون إلاّ بيد أجنبية، وكنت عند استمرار الحرب في مصر، وأنا أسوح في الهند، لا أرى رجلا من مسلمي هذه البلاد إلا قد استولى عليه الحزن والأسف وأيقن أن غرض الإنجليز وضع اليد على الأراضي الحجازية.

ولقد أحكم هذه العقيدة في نفوسهم ما كتبه أثناء الحرب صاحب جريدة «**أخبار عام**»[1] بلاهور نقلا عن جريدة إنجليزية طلب محررها أن تسعى في إحالة الديار الإسلامية إلى النصرانية، قائلا إن مسلمي الهند ما داموا على ديانتهم لا يثقون بالحكومة الإنجليزية، ويحسبونها حكومة أجنبية غير شرعية، لا يجب طاعتها ولا الاستسلام لها، فإذن يجب عليها أن تعطف نظرها إلى هذه الديانة، وتسرع لرسوخ أساسها إلى معالجة ما أوجب هذه العقيدة، وبالجملة فإن الحكومة الإنجليزية بمداخلتها في مصر قد ضيعت ما اكتسبته المدد الطويلة بحسن سياسة رجالها من ميل

(١) إحدى صحف الهند في ذلك الوقت، كانت تصدر بمدينة لاهور.

قلوب مسلمي الهند إليها وثقتهم بها، حتى لا ترى أحدا منهم في هذه الأوقات إلا قد أصر أذنيه نحو مرو وهراة، وشخص بصره إلى عشق آباد يظن أن ديانته لا تصان من الخلل والفساد بالروسيين الذين بغيتهم مصادمة هذه الحكومة. ولا يخفي على المتدربين في سياسة الشرق من الإنجليز ما يمكن أن يترتب على هذه الخيالات الجائلة في مخيلة مسلمي الهند. وأظن أنهم ما نسوا النتائج السيئة التي نشأت في سنة ١٨٥٧ من هذه الأوهام الدينية. وهذه الظنون، على ما علمت، تمكنت من قلوب الأفغانيين والبلوجيين أيضا، ولا أدري أسرت إليهم من الهند أو فشت منهم فيها. والظاهر أن هذه الأقاويل قد انبعثت من سمرقند وعشق آباد، وطافت بالأفغانستان والبلوجستان، ثم ملأت أرجاء الهند، وتمكنت من قلوب أهلها. وأن أثرها إنما يظهر عندما يتخذ الروس بلدة من مرو معسكرا لهم، وليس هذا ببعيد. وعند ذلك فلا علاج. وأما ما يمني به الإنجليز أنفسهم من قهر الجرمانيين الروسية (روسيا) باتفاق مع النمسة فتسلم الهند من مهاجمتها، فهو أضغاث أحلام. لأن النمسة (النسما) أحلم وأحزم من أن تصير سببا لضعف دولة يستلزم ضعفها زوال نفسها كلية.

هذا ما يمكن أن يكون من المضرة على الحكومة الإنجليزية في آسيا. وأما في أوروپا فلا يرتاب أحد في أن أرض مصر كانت بمنزلة حق مشاع بين جميع الإفرنج، يرتعون فيها ويتنعمون بنعمها. فمداخلة الإنجليز تغيظ الكل، لأنهم يعدونها إجحافا بحقوقهم، خصوصا الأمة الفرنسية التي لها في مصر من الحقوق ما لا يمكن أن تنساه.

وإن مصر باب للشرق، ولكل دولة من الدول الغربية مأرب فيها، فإذا وضعت الحكومة الإنجليزية يدها على مصر، فقد أخذت بمخنق الكل، وضيقت عليها في تجاراتها وفتوحاتها. فالدول مع ما بينها من المنافسات والضغائن لا يستبعد اتفاقها، صونا لمصالحها، على معارضة هذه الحكومة في مداخلتها في أرض مصر.

وبعد هذا وذاك، إن النفوس في مصر ما قرت، وإن هيجان القلوب ما همد، والفتنة ما أطفئت، والخديو ما استظهر بالحكومة الإنجليزية ـ لما تمكن في باله من الوساوس التي ألقاها في روعه أهل الدسائس لنيل أغراضهم، إلا لأن يستقل

بالأمر ، ويصان منصبه من آفات يمكن أن تطرأ عليه من الحزب الوطني . وأما الآن ، وقد انكشفت له حقيقة مظاهرة الإنجليز ، وظهر لديه أن كل هذه الوساوس كانت دسائس منهم للمداخلة في القطر ، وتملكه باسم المراقبة والمحافظة ، فلا شك أنه لا يرضى أن يصير هو السبب لمداخلة الأجانب فى وطنه ، وأن يجعله الإنجليز آلة للتصرف في مصر فيفعل كما فعل شاه شجاع الأفغاني ، لما رأى أن الإنجليز يريدون أن يتخذوه وسيلة لاستملاك الأفغانستان ، فطلب عظماء الأفغانيين سرا ، وقال لهم إن الإنجليز قد أنشبوا أظفارهم في بلادكم ، ولست أنا إلا آلة في أيديهم فأنقذوا بلادكم ، وإن كان فيه هلاكي . وتوفيق باشا ليس أضعف منه دينا ، ولا أقل حمية ، فمن الواجب أن يقتدي به . وحينئذ لا يعدم المصريون دولة تقوم بمساعدتهم ؛ لأنه قد أزيحت اللبسة ، وارتفعت الشبهة ، وظهرت مقاصد الحكومة الإنجليزية لدى كل الدول .

❊ ❊ ❊

١٢

شباب الإسكندرية

شباب الإسكندرية

كثيراً ما كنت أجيل أفكاري، وأردد خواطر اعتباري في أحوال الشرقيين الذين هم آلى وبنو آبائي، وسعادتي بسعادتهم، وشقائي بشقائهم، وما وصلوا إليه من رداءة الأحوال وغاية الانحطاط، والتردي في مهاوي الشقاء، وانفتاح أفواه طمع الغربيين لالتقامهم، والتهام ما بأيديهم، وامتداد سلطتهم في بلادهم، وكنت في حيرة أطلب الوسائل لخلاص أهالي تلك البلاد مما هم فيه والارتفاع بهم من تلك الدركات إلى أعلى الدرجات، فكانت تعييني الحيل، وتنقطع بين يدي الأسباب، وكان أسفي يزداد عندما أنظر ذاك المجد القديم الذي كانت تلك البلاد متوجة به، وتيجانها مكللة بفخره، وكان يأسي يغالب رجائي، وقنوطي يغالب أملي، والأولان يغلبان، إلى أن اتفق لي السفر إلى مدينة الإسكندرية من بضعة أيام، فلما وردت إليها وجدت شبانها على غاية من الفضل والكمال وكرم الأخلاق، ولطف السجايا، وشدة الشوق إلى المعالي. والتولي إلى نبيل المجد الحقيقي، وفي أسمى درجات الشغف بإحياء الوطن، وإعلاء كلمة الأمة، ورفع لواء مجدها وفخرها مع ما هم فيه من الغنى والثروة وتوفر دواعي الترف والانغماس في النعيم وغير ذلك من الأسباب التي لو اجتمعت لشيخ عمر ألف سنة لاجتذبته إلى اعتناقها، وألهته عن النزوع لسواها فضلا عن فتيان هم في عنفوان شبابهم، فقد غضوا أبصارهم عن جميع ما يملكون من القصور المشيدة، والجواهر الثمينة والأموال الوافرة، وولوا وجوههم نحو اكتساب الشرف وبقاء الذكر الجميل، وتعالت هممهم عن أن تميل إلى اللذات الفانية، والزخارف البالية، وأخص من بينهم شبان آل بيت منشة، وآل بيت الكونت زغيب، وآل بيت المخلع، وآل بيت قطة، وآل بيت سرسق، وهم من قد بلغوا من المجد ذراه، ومن الفخار والفضل قصاراه، ومن حسن التربية أعلى

درجاتها، ومن الهمم العلية أقصى غاياتها، فعند ذلك استظهر رجائي على يأسي، وأملي على قنوطي، وظننت بل أيقنت أن سيكون للأمة الشرقية شأن في أقرب زمان، فليستبشر الوطن وبنوه بالظهور بعد الخمول والصعود بعد الهبوط، وبالسعادة بعد الشقاء، بل بالبعثة بعد الفناء، ولا أشك أن الشرقيين بما ينالون من نتائج مساعيهم، وما يجتنون من ثمرات جدهم واجتهادهم، سيقيمون لهم تماثيل على أطلال مدينة منفيس بمصر وربوات صور وتدمر، وعلى هضاب نينوى وبابل تخليداً لأسمائهم، وتذكاراً لآثارهم ومجد آبائهم وأسلافهم.

ورجاؤنا أن يقتدي سائر الشباب الشرقيين بهؤلاء العظماء الفضلاء وأن يتخذوهم قدوة لأنفسهم كي يفوزوا مع الفائزين.

* * *

تعـــليق:

نشرت جريدة «مرآة الشرق» في العدد رقم (٢٧) ما يأتي:

إن ضيق المقام في العدد الماضي من المرآة فوّت عليها أمراً عظيما وهو أن تشفع نبذة أستاذنا ومولانا الأجل «السيد جمال الدين» فيما شاهده من شبان الإسكندرية من علو الهمة بما يناسب المقام من الثناء على أولئك الشبان خصوصا من خص بالذكر منهم، فإنهم أولى بثناء الجرائد الأهلية، بل أخلق بأن تشكرهم الإنسانية وبنوها على تلك الهمة التي صرفوها في تحسين أحوال وطنهم، وتخليص بنيه من ورطة الانحطاط، شأن الأعاظم الذين علموا معنى الوطن وما هي محبته، ، فقاموا بما وجب عليهم له، ولقد كان في نشر ما شاهده أستاذنا منهم باعثا بعث في أبناء المحروسة من الغيرة التي هي أساس الأعمال ما حملهم على أن يجاروهم، ويحذوا حذوهم. . . جزا الله أولئك الشبان عن الإنسانية أحسن الجزاء، فإنهم وفوا بحث رعايته، وقاموا بغرض خدمتها، فنثنى عليهم ثناء، كما أثنت عليهم هممهم العالية.

١٣

المخاطبة بين الإنسان والهرَّة

المخاطبة بين الإنسان والهرّة

إن هرَّة خطفت حمامة لإنسان وأكلتها؛ فغضب الإنسان غضبًا شديدًا، فأخذ عصا وهجم عليها، وضربها ضربًا أليمًا وقال:

الإنسان: يا أيها الحيوان الخسيس الدنيء الخائن.

الهرة: يا أيها الإنسان، هل يليق بك أن تذكرني وتناديني بهذه الأوصاف القبيحة، إلا أن تكون متصفًا بضدها. فإنه لا يذم شخص غيره بشيء إلا إذا كان طاهرًا منه، وتاركًا له تمامًا ومتصفًا. وأين أمانتك وشرفك؟ وأي آثار ترتبت عليك حتى لا تكون شريفا غير خسيس ولا دنيء؟

الإنسان: العجب من وقاحتك، ألا تنظرين إلى عظم الإنسان كيف بإنارته قد عمر الدنيا، وتسلط عليها، وأدخل جميع الحيوانات تحت رق عبوديته؟

الهرة: يا أيها الإنسان، إنك لم تبين ما هو الشرف، وإنما افتخرت، وتمدحت بحرصك وطعمك وظلمك وعددك، وأنا سألتك عن الفضائل الحقيقية والصفات الجميلة.

الإنسان: أيتها الهرة، أفلا تنظرين إلى الإنسان كيف اخترع العلوم ودونها، والصنائع وأتقنها، وإن في تفصيل ذلك من الأمور الدقائق ما يعجز الحيوان عن الإتيان بأصغر منه، أو ليس هذا من قوة إدراكه وعلو شأنه على جميع الحيوانات؟

الهرة: اعلم أيها الإنسان أن مهندس الكون العظيم ومنظمة قد خلق الهرة والحيوانات غنية عن الإنسان وغير مفتقرة، بأن وضع فيها جميع ما تحتاج إليه في تحصيل سعادتها مدة حياتها. وألهمها من الإدراك ما تميز به ضارها ونفعها، ومن

الجلود ما تتقي به الحر والبرد، ومن الآلات البدنية كالأنياب والمخالب ما تدفع به عدوها ونحو ذلك. وأما أنت فخلقت محتاجًا «فقيرًا» من جميع الوجوه، فاحتجت إلى الاستعانة بالعلوم والصنائع على تحصيل الراحة في حياتك مثل أدنى حيوان، ومع ذلك لم تصل بعد إلى الراحة المطلوبة.

الإنسان: أفلا تنظرين إلى الإنسان كيف وضع القوانين والنظامات، وأقام المحافظين على الحقوق لتحصيل الأمن عليها، وتنفيذ أحكام القانون، حتى يتم بذلك اطمئنان كل أحد على جميع نفسه وحقوقه، فهل يوجد في طائفة الحيوانات مثل هذه النظامات؟

الهرة: أيها الإنسان، إن بيانك هذا قد دلني على أنكم أشرار قد جبلتم على الخيانة والظلم والغدر والعدوان والشقاق والنفاق وجميع الشرور. من أجل هذا احتجتم إلى وضع الحدود والقوانين والقيام بتنفيذها لدفع شر بعضكم عن بعض، حتى يكون لكم نوع ما من الإصلاح، ومع ذلك أين الإصلاح؟ أجبني.

الإنسان: أيها الحيوان، انظر إلى حكمة الإنسان، كيف أحكم الارتباط بين أفراده، حيث جعل الملوك العظام والوزراء والولاة المدبرين والرؤساء المتصرفين حتى يكون كل واحد منهم بمنزلة عقدة سلسلة لاجتماع الإنسانية، حتى ينال السعادة بالتعاون. ويكون النوع كجسد واحد يشد بعضه بعضًا بخلاف بقية الحيوانات فإنهم فرط لا رابط لهم.

الهرة: أيها الإنسان المشاغب المغالط السوفسطائي، إن بيانك قد أفاد أنكم أخساء أدنياء، طبعتم على حب العبودية والرق؛ فإن الحر يستنكف أن يكون خاضعًا لشخص واحد، وأنتم قد اجتهدتم لأن تصيروا عبيد العبيد. ومع ذلك، إن كبارَكم هؤلاء قد تسلطوا على نفوسكم وأرواحكم يبيعونها إلى الحروب والمقاتلات تقاسي من الأتعاب والمشقات ما لا يوصف حتى تموت في حضيض شقائها. كل ذلك في تحصيل شهوة سلطان أو فخر كبير. وتسلطوا على أموالكم التي تتحملون فيها المصاعب حتى تحصلوها، فيأخذونها منكم قهرًا عنكم ليصرفوها في قضاء شهوتهم وتحصيل أغراضهم، فإن أبى أحدكم أو عجز لا يجد رقة ولا رحمة. ولكن يعامل

بأشد العذاب والعقاب حتى إنهم يجردونكم من جميع ثمرات أتعابكم، فإن أبقوا لكم نعمة فما ذاك إلا لتأكلوا وتسمنوا لتصيروا أقوياء، حتى يستعملوكم في خدمتهم ويتسلطوا على أعراضكم . . . فيهتكون حرمتها إن شاءوا. أفبهذا تفتخر؟ بئس الافتخار!

الإنسان: أيتها الهرة، أفما سمعت أن مدبر الكون قد شرف الإنسان بالأنبياء والرسل الكرام العظماء الذين هم فخر الوجود بأسره؟ أيليق الجدال بعد ذلك في شرفه على جميع الأنواع؟

الهرة: آمنت وصدقت بشرفه وعلو مقامه. ولكن يا أيها الأشقياء، أين إيمانكم بهؤلاء العظماء؟ وأين اتباعكم لشرائعهم واقتداؤكم بهم في مزاياهم وفضائلهم؟ إنهم بعدما جاءوكم لم تزدادوا إلا طغيانا وفسقا وعدوانا. وقد نبذتم ما أتوا به من الحق وراء ظهوركم، ولم تشكروا نعمة الله عليكم ببعثة هؤلاء العظماء المقدسين فيكم لكي يرشدوكم إلى طرق خيركم. مع هذا إنك تعلم أن صحيح المزاج لا يحتاج إلى الطبيب، فاحتياجكم إلى المرشد هو دليل على تمكن المرض من نفوسكم، فإنكم فطرتم على المرض، إلا أنكم لا تحسون بألمه، فكيف العلاج؟ فمالك لا تقيم دليلا إلا ويكون مفضحا لك؟

الإنسان: أيتها المتمشدقة الخسيسة، إنك بهذه الشقشقة قد أخرجتني عن الموضوع، أنت لم خطفت حمامتي؟ وبأي وجه خنتيني في مالي؟

الهرة: أيها الإنسان المعجب المتكبر الجهول. أقول لك أولا إنه لا يليق بك، ولا بنوعك، أن تنسبني إلى الخيانة، مع أن مدبر الكون قد أباح لي أن آخذ من العالم ما يسد رمقي، ويدفع حاجتي بأي طريق كان. أما أنتم فكل واحد منكم ينتهز الفرصة لأخذ ما بيد الآخر، وكل قوي منكم يسلب أموال الضعيف، وينفقها في القصور المشيدة والألبسة الفاخرة والأطعمة الشهية، وما يشبه ذلك من اللذات التي لا حاجة به إليها، وإنما يحصلها بطرًا وازدراء، وأن أحدكم لا يكتفي بقرينته التي اختص بها، بل يطلب امرأة جاره وصديقه، ويخونه فيها. وقد اتخذتم الكذب والنفاق آلة لتحصيل مآربكم، حتى إن الوالد يخون ولده والولد يخون أباه، والأخ يخون

أخاه، وتظهرون المحبة والصفاء، وتعلنون الوفاء والأمانة، وتضمرون الغدر والخيانة، تحلفون وتحنثون، وتعاهدون وتنقضون، وتعدون وتخلفون، لا يرى أحدكم راحة من أخيه لمحة، بل على توالي اللحظات يحذر سوء إخوانه، ويتوقع منهم الشر. وثانيا قد نسبت إلى الخسة والدناءة، مع أنني ومن يشاركني في نوعي جبلنا على عزة النفس والشرف وارتفاع الهمة، لا يرضى أحدنا أن يدخل تحت الرق، وأن يحني الظهر إلى العبودية. ألا ترى أن أضعفنا لو هجمت عليه الألوف بالسيوف، وراموا إذلاله وخذله، وحصروه، وسدوا عليه طرق الفرار، وتقطعت أسباب خلاصه، ولم يبق له إلا سبيل الموت فإنه يجمع قوته، ويصول صولة الأسود والنمور، ومع صغر جسمه وضعف قوته يهجم على عدوه فيضرب هذا ويعض ذاك، إلى أن يموت بعزة وشرف، ويختار الموت الشريف على الحياة الدنية.
وأما أنت أيها الإنسان، ومن يشاركك في نوعك، فقد طبعتم على الذل وعلى الانكسار، وجبلتم على الحقارة والهوان، فإني أرى أن رجلاً واحداً منكم يظلم صالحكم، وعالمكم، وجاهلكم، وغنيكم، وفقيركم، وضعيفكم، وجبانكم، وشريفكم، ووضيعكم، وذليلكم، وغبيكم، وزارعكم، وصانعكم، وتجاركم، وعمالكم، وأرباب سيفكم، وأصحاب قلمكم، ويستصغرهم، ويستحقرهم، ويضيع حقوقهم، ويهتك أعراضهم، ويسلب أموالهم، ويتصرف في أرواحهم وأبدانهم، ويستخدمهم شهورا وأعواما، ولا يعطيهم مالاً يحفظون به حياتهم من القوت الضروري واللباس الكافي، وما يتعلق بذلك. بل تراهم في أدنى الضروريات، مع أن الإنسان إذا كان عنده ثور أو «حمار» يقضي عليه عمله، لا يجد مفرا من أن يطعمه ويسقيه ويأتي إليه بجميع لوازمه. وأنتم عند ذاك الرجل أدنى وأحقر من الحيوانات، لا ينظر إليكم نظرة راض، ولا يكافئ أعمالكم الشاقة وأتعابكم الدائمة بشيء، حتى إنه لا يراضيكم بكلمة معروف ولا حمد ولا شكر. ولا يلاقيكم بالترحاب والبشاشة، ولا يقطب جروح آمالكم بإظهار الممنونية.

ومع ذلك لا تزدادون إلا خضوعًا له وطاعة لأمره، ووقوفًا بين يدي إرادته. أفلا تنظر يا أيها الإنسان الغشوم إلى الأماكن التي خصصت لمنفاكم، سيبيريا أرض الزمهرير كيف جعلها محلا لنفي أبريائكم الذين لا جناية لهم؟ أولا تنظر إلى

الألوف منكم وقد سيقت لمجزرة الرجال بآسيا وأوروبا وماتت بالظمأ. أولا تنظر ما فعله الصينيون بصلحائكم وأتقيائكم بأرض كاشغره؟ فيم إذًا نفعتكم علومكم أيها العلماء، وأفادتكم آدابكم أيها الأدباء؟ وماذا صنعتم بتدبيركم وتفكيركم أيها الحكماء؟ وما الذي عاد عليكم من قوتكم وشجاعتكم أيها الأقوياء؟ وأي شيء دفعته عنكم سيوفكم وخيولكم أيها الفرسان والمدربون على الحروب والمتعودون على غوائلها، الذين قد أعددتم أنفسكم لمصارعة الموت وتهيأتهم لمعاناته، فتعسا لكم من نوع خسيس دنيء ذليل رذيل!

إن حياته عناء، وسعادته شقاء، وحريته عبودية، وعزته ذلة، ورفعته حطة، وعلوه خسة ودناءة، وشجاعته جبن، وجرأته خوف، وفخاره مسكنة (فخرس الإنسان الكاتب).

ولما رأيت حجة الهرة رميت القلم وكسرته، وطرحت المحبرة، وقطعت العهد منها، وقلت ما دام الإنسان بهذه الحالة الردية، فهو أردأ وأسوأ حالا من جميع الحيوانات.

❊ ❊ ❊

١٤

منافع الوفاق

و

مضار الشقاق

منافع الوفاق ومضار الشقاق

إن للأمم صعوداً ونزولاً، وإنها في ارتفاعها وانخفاضها تتناوبها السعادة والشقاوة، وتعتورها العزة والمسكنة. ما يطمح بصرها إلى ذرى المجد إلا وترى نفسها في حضيض المذلة، وما تشيم سيوف القهر إلا وتجندل بها، وما تمد يدها لفتح الممالك إلا وتنهب دورها، وتغصب بلادها، وتستعبد رجالها. إن الفارس (فارس) الأولى تقلص ظلها بعد بسطة الملك بفتوحات إسكندر اليوناني، وانقرضت السلطنة اليونانية الفسيحة بأيدي الرومانيين، وأباد العرب المملكة الساسانية الراسخة، وجدعوا أنف الروم، واستولى محمود الغزنوي على البلاد الهندية الواسعة بهجماته المتتالية، وجعل كلمة الإسلام عالية بقهر الوثنيين، وإزالة دولة برهما، وجث هلاكوخان شجرة الخلافة العربية التي وشجت عروقها، وامتدت فروعها شرقًا وغربًا. وفتح العثمانيون مدينة قسطنطينية، وأخنوا على الروم واليونان، ودوخوا بلادهم. وقام بعد هؤلاء أقوام تفتح البلاد، وتقهر العباد. ولقد كانت أسماؤها مطوية في طومار الدهر من قبل. أليس لهذه التبديلات من علل؟ أفلا توجد لهذه الحوادث مقتضيات؟ أفلا تكون لمقتضياتها معدات؟ بلى. إن الحوادث في عدمها تفتقر إلى علل افتقارها إليها في وجودها، وإن عللها مسببة عن مقتضيات تعدها للوجود، وتجعلها تستتبع معلولاتها.

وليست أسباب هبوط الأمم، وعروجها، طلوع نجم، وأفول كوكب كما ذهب إليه البعض، وليس جزر قوتها، ومد سلطتها مسببين عن الأسباب الطبيعية، لأننا نرى أممًا كثيرة شبت بعدما شابت، وبعثت بعدما ماتت وصارت عظامًا نخرة. والأسباب الطبيعية لا تحيد عن سننها ولا تقف عن سيرها، ولا تعتريها التبديلات، ولا يصدها عن مسالكها اختلاف الحركات. ها هي الأمة الإيطالية، أمامك فانظر

إليها يظهر لك صدق مقالي. ولا تغض النظر عن إسبانيا متدبرًا فيما كانت عليه، معتبرا فيما آلت إليه. وإن الأمم، ما صعدت إلا بنفسها، وما هبطت إلا من نفسها، وفيها سعادتها ومنها شقاوتها، وإنها هي السبب الموجب لضعف قوتها، ورفع سلطتها وخراب بلادها، وإنها هي التي تجعل نفسها بنفسها عبيدًا أذلاء للأجانب، يحكمون فيها كيفما شاءوا، ويستعملونها في منافعهم بما أرادوا. إن الإنسان بجبلته لا يسعى إلا إلى سعادته، ولا يدأب إلا لجلب الخير إلى نفسه، ودفع الشر عنها، حيث إنه المتصرف في عالمه، وبيده سعادته وشقاوته، فما الذي يهوي به إلى مهواة الشقاء ويقوده إلى الهلاك؟ وما الذي يعوقه عن النجاة، ويمنعه من الخروج من الورطات، ولو نسبنا شقاوة إنسان إلى القوة القاسرة، وعزونا حرمانه إلى المزاحمات التي قلما يخلو عنها الإنسان في سيره في مسالك سعادته، فما الذي يمكننا أن نقيمه دليلا على انحطاط أمة قاومت الدول القديمة وغالبت الأمم العظيمة، وفتحت البلاد، وقهرت العباد؟ وما السبب الذي يوجب ترعرع أمة، وهي لقلة العَدد فاقدة العدد، ويجعل لها يدا عالية وقوة قاهرة؟ هنا يلزم السبر والدوران.

إن الأمة العربية (في) صدر الإسلام ما كان عددها يزيد عن المليونين. وإنها مع الفقر المدقع وقتئذ، وخلوها عن العلوم والصنائع قد أرغمت الأكاسرة ودمغت القياصرة. والآن بلغ عددها ٣٠ مليونا وهي قاصرة عن إدارة نفسها عاجزة عن صيانة بلادها.

إن العثمانيين، مع قلة العدد، قد أرعدوا الدول الغربية، وأذلوا الجبابرة. وتراهم من نصف قرن، مع سعة بلادهم، وكثرة رجالهم، يسترحمون ملوك الإفرنج، ويحتمون بهم، ويزعمون أن لا حياة لهم على البسيطة إلا بهم.

وإذا رجع البصير إلى نور بصيرته، فقد يحكم بأن هاتين الأمنين قد فقدتا الآن أمرًا كان هو السبب لعلو شأنهما وبسطة سلطتهما ورفيع منزلتهما، فيجب علينا أن نسبر حركاتهما الفكرية وأخلاقهما النفسانية، حتى نقدر أن نجد الأسباب الحقيقية التي أوجب وجودها جلب علو كلمتهما وانعدامها أوجب انحطاطهما، فنقول:

لا يمكن أن تنال أمة من الأمم سعادة ما إلا بالتئام آحادها التئام أعضاء الجسد

بعضها ببعض. ولا يحصل لها علو الكلمة، وبسطة الملك إلا أن تصير مسالك حركات أفرادها كأنصاف الدائرة منتهية إلى نقطة سعادة الكل، غير خارجة عن محيط الجنسية، وأن يلاحظ كل منها منفعة الكل أولا وبالذات، وينظر إلى منفعة نفسه ثانيًا وبالعرض، حتى يكون خير الكل كينبوع تتشعب منه جداول خيرات الآحاد. وحينئذ يجذب كل الآخر عند دفعه إياه، ويقبل عليه عند إعراضه عنه، فيرتفع الشقاق ويزول النفاق وتعتدل الأخلاق، لأن كلا يعلم إذ ذاك أن الآخر لا يسعى إلا له ولا يدأب إلا في إيصال المنفعة إليه. وليس له أن ينال الخير إلا به، فهو بمنزلة نفسه، ومنه سعادته، وبه يذود الشر، فيحبه محبة ذاته ويعامله معاملة نفسه. وإذا بلغ كل مع الآخر إلى هذه المنزلة من الالتئام، فلا يمكن أن يتحقق في الأمة فساد الأخلاق، لأن منشأ الأخلاق الرذيلة المزاحمة في المنافع، والمنازعة فيها. فمن ذا الذي يوالس الساعي في خيراته، ومن يغش الباعث على سعادته، ومن يخون قوام حياته؟ ولهذا تلتئم الأفكار، وتتحد الآراء، وتأتلف الأهواء، وتترادف الأيدي، وتتناصر السيوف، وتجتمع القوى، فتصير الأمة التي حازت هذه الدرجة من الوحدة مقومة في نفسها، متمكنة من صيانة حوزتها، قديرة على قهر الأمم التي تغالبها، كما وقع للعثمانيين وللأمة العربية من قبل.

وكون كل من آحاد هذه الأمة المتلبسة بالوحدة ناظرًا إلي ما يجلب الخير والسعادة إلى الكل، يبعث كلا على الأفعال الشريفة التي يستفيد من نتائجها مجموع الأمة فتكثر بينها الصنائع النافعة، وتنتشر العلوم الحقيقية والمعارف الصادقة، وترتقي بها إلى ذروة المدنية، وأوج المجد، متمتعة بثروتها، متنعمة بثمار مساعيها، يحف بها الأمن وتكتنفها الرفاهية، وهي تسود ولا تساد، ولا تضرب دون نفاذ مقاصدها الأسداد، كالأمة العربية في الأزمان السابقة.

ولما ظهر أن علة صعود الأمم هي اتفاق الكلمة والاتحاد التام بين أفرادها، علم أن سبب النزول (هو) التفرق وعدم الاتحاد، وعن تفرق الكلمة ينظر كل إلى نفسه، ويسعى لمنفعة شخصه، فتختلف جهات حركات الآحاد، وتتغاير مسالك المنافع فيكثر النفاق، ويزيد الشقاق، ويروج سوق الخيانة والكذب والافتراء، وتتمكن العداوة والبغضاء، وتتشتت الآراء، وتتنافر القلوب، وتتفلق الآحاد، ويستولى

الكسل، وتغلب الجبانة وتحصل الوحشة فتضعف الهمم وتقنط النفوس. وحينئذ تندثر العلوم، وتندرس المعارف، وتنطمس مسالك النجاة، وتخفى محجة الحق، فتهبط الأمة عن ذروتها، وتتناثر طبقاتها، وتتلاشى أعضاؤها، وتنحل عقدتها، فلا يمكنها أن تسوس نفسها، ولا تقدر أن تذود عن حوزتها، فتصبح مملوكة، بعدما كانت مالكة، تخضع لكل قاهر، وتنقاد لكل آمر.

ولقد أوجب هذا التفرق انقسام السلطنة العربية أولا واضمحلالها ثانيا. وقد كانت ممتدة إلى جبال بريني[1] وشعاب هيمالايا، والسلطنة التيمورية العظيمة في الهند ما زالت إلا بهذا السبب بعينه، وإن ضعف العثمانيين في هذه الأيام ما نشأ إلا عن تزعزع أركان الاتفاق الحقيقي بينهم. نعم، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

ونحن نكتب فيما بعد مقالة نبين فيها الأسباب التي يمكن بها إيجاد الاتفاق وإعادته بعد زواله ونشرح الباعث على حصول الخلل منه والموجب لاضمحلاله. لعل الله يهدي بها من يشاء من عباده.

❊ ❊ ❊

(١) جبال بريني: جبال البرانس في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا.

١٥

الإنجليز في الهند ومصر

الإنجليز في الهند ومصر

إن من تتبع حركات الإنجليز في السنين الأخيرة رأى أنهم يهتمون مزيد الاهتمام بالاستيلاء على جميع الطرق المؤدية إلى البلاد الهندية. فقد حاولوا منذ مدة أن يضبطوا مضايق أفغانستان وبلوجستان. وهم الآن يريدون البقاء في مصر والتسلط عليها.

وسبب اتباعهم هذه السياسة حرصهم على ممالكهم الهندية، وخوفهم أن تنتزع من أيديهم في زمن ربما كان قريبا. وما وقع في روعهم من هذا الخوف بعثهم على نهج مسلك يصادمون فيه أمما أخر، والتمسك بمقاصد ومطامع تذهل رجال السياسة وتهيج الغيرة في صدور الدول.

وإن الإنجليز يعلمون لا محالة أن سكان الهند على اختلاف أجناسهم، وتباين مذاهبهم، وتفاوت مراتبهم، يكرهون ظلمهم كرها شديداً، وإن صوت مدفع قريب في إحدى جهات سواحلهم، أو في بعض أنحاء تخومهم يكفي لإثارة حرب عمومية تمتد نارها من سيلان إلى أحصنة هملايا.

وإنهم لا يجهلون ضعف سلطتهم ووهن قوتهم، وقد تحققوا عدوان رعيتهم الهندية، وتأكدوا من عدم كفاءة عساكرهم في أوقات الحاجة، ولذلك صاروا يريدون إفراد الهند، وعزلها عن سائر العالم، بأن يضربوا حولها شبه سور من الموانع التي يلقونها في سبيل السياح من أي أمة كانوا، مخافة أن يكشف الأجانب سر ضعفهم المحجوب بستار قوة ظاهرية. ومع أن جهدهم مبذول في حفظ ملكهم المترجرج، لم يتخذوا من الوسائل السديدة ما يقوي شوكتهم، ويوطد دولتهم، إذ ليس من عادتهم أن يوالوا الأمم ويستميلوا الشعوب، بل دأبهم غيظها والإساءة

إليها، والاعتداء على حقوقها والاستخفاف بمصالحها. ألا ترى أنهم ملكوا الهند منذ مائة سنة ونيف، وأن الهنود صاروا من ثم عبيدا محرومين من حقوق الإنسانية، لا ينالون مرتبة حربية ولا منصبا سياسيا. وقد فقدوا حرية الضمير، وهي أشرف الحريات وأقدسها. وكان الواجب على الإنجليز أن يخففوا الضرائب، ويقللوا المكوس، كي يبقى للأهالي بعد أداء الرسوم شيء من ثمرة أتعابهم ينفقونه في حاجاتهم وتحسين أقواتهم اليومية، فما التفتوا إلى ذلك، بل عطلوا تجارة الهند وشلوا صناعتها، بما يقذفون إليها من مصنوعاتهم الأوروبية، وقطعوا الاتصالات بينها وبين جيرانها الأفغان، بحرب جائزة شهروها عليهم بغيا وعدوانا، فكسبوا منها وبالاً وخسرانا.

وقد نشأ عن هذه الحرب التي ركب فيها المعتدون متن الشطط والغواية أن الأفغان صاروا أعداء ألداء للإنجليز، وحالفوا الدولة الروسية على التناصر والتآزر حين تجيء الساعة.

وإذ حبط سعيهم في أفغانستان، وأخذهم الحسد الشديد من حلول الفرنسيين في تونس، وشعروا بتفاقم كره الهنديين لهم وميلهم إلى إعانة أي دولة تريد مغالبتهم على أجمل أملاكهم الآسيوية، وقع في قلوبهم خوف شديد أعمى بصائرهم عن الهدى فارتكبوا غلطا جديدا ترتبت عليه نتيجتان لا بد أن تضراهم في الاستقبال.

وأما الغلط فهو تداخلهم في مصر بالمكر والاحتيال وهما سلاحهم القوي في جميع الأحوال، وإضمارهم مد سلطتهم إلى عبر البحر الأحمر وإنشاب أظافرهم في ولايتي اليمن والحجاز.

والنتيجة الأولى التي جرها تدخلهم في مصر أنهم غاظوا كثيرا من الأمم الأوروپية، ولا سيما فرنسا. فإن لها في وادي النيل مصالح لا ريب في أهميتها، ولا خلاف في سابقيتها. ولو تبصروا لعلموا، مع ما هم عليه من الاغترار بقوتهم، أن صداقة الأمة الفرنسية ضرورية لهم فيما عسى أن يطرأ على الشرق من الحوادث الجسيمة، والانقلابات الفعلية، حال كون فرنسا تستغنى عن ودادهم ولا تفتقر إلى

ولائهم، فلا جرم أن الإساءة إليها غلطة من أعظم الغلطات التي وقع بها كبير وزرائهم.

والنتيجة الثانية التي تضر بإنجلترا أيضًا هي أن تداخلها الشنيع في مصر أوجب مزيد الغضب للمسلمين عموما، ولمسلمي الهند خصوصا. ولا يخفى أن مسلمي الهند يحترمون سلطان العثمانيين، ويغارون على ممالكه، ويدعون له في جوامعهم. فلما دخل الإنجليز البلاد المصرية حدثت ثورة خفيفة في ميريت فأخمدوها بما أشاعوا من أنهم لم يتصدوا لقتال عرابي إلا لعصيانه، ولا دخلوا مصر إلا طاعة لأوامر السلطان.

ولولا هذا الخداع لانتشرت الثورة في جميع الهند الإسلامية غير أن الرجوع إلى مثله في الاستقبال يكون خاليًا من الفائدة، عاريًا عن النفع، خصوصًا إذا تأكد الترك أن إنجلترا تريد استملاك مصر، وهي أهم أملاكهم الإفريقية، بقصد أن تستولى فيما بعد على الحجاز واليمن. وذلك لأن حصول مثل هذا اليقين في أذهان العثمانيين، مع اعتقادهم ميل مسلمي الهند إليهم يبعثهم على تأييد سياسة الدولة العظيمة، الطامحة إلى الأقطار الهندية، وإن لم يكن لهم فيه منفعة حقيقية، لأن قلوبهم تتشفى من غيظها بكبح أمة تحاول تقسيم بلادهم. ومحافل السياسة في إنجلترا تعلم أن التمادي في الاعتداء على حقوق السلطان يسوقه إلى مظاهرة خصومهم في الهند. وحسبه في ذلك أن يغري علماء مكة المكرمة بالحث على مناوأتهم والخروج عن طاعتهم، أو أن يبث إلى الهنديين رسلا يدعونهم إلى نبذ نيرهم والتخلص من ربقهم.

ولو صرفنا النظر عما عسى أن ينهج الترك في الاستقبال من المسالك السياسية، لوجدنا مجرد حلول الإنجليز في مصر، مع ما أضمروا من بسط سلطتهم على الحجاز واليمن، مهد الإسلام وحصنه الحصين سببًا كافيًا لحمل المسلمين في الهند على إعانة كل دولة قصدت بلادهم محاربة الإنجليز.

ومن الخطأ المبين أن يتكل الإنجليز على مساعدة الطوائف غير الإسلامية، لأن مظالمهم شملت سكان الهند جميعا. فإذا جاء يوم المحاسبة، وحان وقت المطالبة،

يشترك الكل في العمل اشتراكهم في الذل المضروب عليهم، ويتفقون على فك سلاسل أسرهم اتفاقهم على بغض ظلمهم. وشواهد ذلك كثيرة أجتزئ منها بأن نانا صاحب[١]، وهو من غير المسلمين، جاهر الإنجليز سنة ١٨٥٧، بعداوة شديدة أشد من العداوة التي لقوها من فيروز شاه وبكم صاحب[٢].

وربما شك قوم في ائتلاف الطوائف الهندية، وميلها إلى التعاون والتضافر لجهلهم سير الإنجليز في حكم الهند ومعاملة أهلها وسلب ثروتها؛ ولذلك سأكتب مقالات يزول بها الريب، ويحصل اليقين.

* * *

(١) أحد أمراء الهند وقواد ثورتها على الإنجليز سنة ١٨٥٧.
(٢) من زعماء حركة العصيان الهندي ضد الإنجليز.

١٦

المسألة الهندية

المسألة الهندية

أكسبني الاطلاع على جريدتكم، علمًا برغبتكم في البحث عن دقائق السياسة في البلاد الشرقية وإقدامكم على نشر ما تقفون عليه منها، خدمة لأوطانكم وتأييدًا لاعتدال سيركم وهذا ما بعثني أن أكتب إليكم بعض ما وصل إلي في مسألة من أهم المسائل المنظور فيها لهذا الوقت وهي المسألة الهندية، وربما ترون من المفيد نشر ما أقدم لكم من ذلك.

كأني بالحال في بلاد الهند وقد أشبهت الحال في كثير من البلاد الشرقية عندما تضطرب راسياتها، وتهتز ثوابتها، وتتنفس صوامتها، إعدادًا لزلزال يوجب الانقلاب فيها، غير أن المألوف في تلك الأحوال أن تكون متالف الانقلاب ومضاره مهلكة للشرقي لتساهله وسوء تصرفه، وفوائده وثمراته غنيمة للأوروبي لحزمه وتجويد الرأي فيما يفعله. والمنتظر في الهند على خلاف المألوف فقد تسقط بتبدل الأحوال فيه دولة من أعظم الدول الأوروبية. وأحذقها في السياسة الخارجية، وتنهض دولة أو دول شرقية تعضدها دولة أوروبية، هذا ما تفترق به هذه المسألة عن سائر المسائل.

لا يفوتكم العلم بأن البلاد الهندية على سعتها تسكنها طوائف مختلفة تتباين في العقائد والأخلاق حتى يخيل للناظر في أطوارها أنها أجناس متباينة، غير أن هذا الاختلاف قلما كان يظهر أثره في الروابط السياسية إذا تولت طائفة منهم أمر الحكومة في باقيها ما دامت خصائص الطوائف محفوظة. ولما دالت الدولة للإنجليز فيهم سكنوا إليها زمنًا ثم نبذتها طباعهم فهموا بالتملص منها فلم يمنعهم الاختلاف الفكري والديني من الاجتماع تحت لواء الجنسية العامة وحملوا بغارة واحدة على

الإنجليز في سنة ١٨٥٧ غير أنهم لم يوفقوا للنجاح فيما هموا به، بل ظفرت بهم الدولة الحاكمة.

ومن ذلك الوقت أخذت الدولة الإنجليزية حذرها فرفعت بناء سياستها على أساسين الأول توليد الشقاق بين الطوائف وإيغار صدور كل طائفة من الأخرى وآلتها في ذلك أصل الخلاف الموجود بينهم وأدركت بعض النجاح في سعيها هذا وظهر بعض أثره في بلاد البنجالة بين الوثنيين وبين المسلمين، وفي أواسط الهند بين الطوائف الوثنية بعضها مع بعض. والأساس الثاني سد نوافذ الأخبار عن الهنديين قاطبة حتى لا يقفوا على المشاكل السياسية والورطات الحربية التي تقع فيها إنجلترا، ولا تكون بينهم وبين الأوروبيين صلة سياسية يلجأون إليها إذا هموا بمثل عملهم السابق، ولا يطرق آذانهم صيحة من صيحات الحوادث التي تنبههم لطلب حال خير مما هم فيه. قطعتهم عن العالم فهم بمعزل عن معرفة شيء من أحواله ليستمر بهم الإذعان بأن لا قوة إلا بإنجلترا، ولا ملجأ منها إلا إليها، ولا حيلة في الإدبار عنها إلا الإقبال عليها، ولا شفيع من جورها إلا جبروتها الأعلى. وهذه أحكم سياسة يقوم بها سلطان الغالب على المغلوب، وليس في نظر العقلاء أجود منها لولا تصاريف القدرة الإلهية مما لا يطاوله بناء، ولا يعاجله دهاء.

وانتقض الأساس الثاني فانصدع له ركن عظيم من قوة الدولة. لم يكن في حسبان أحد من حكام الهند أن يزحف جيش الروس على حدود الأفغان، بل كانوا في غرة الأمن من وقوع مثله، فإذا الحادث فاجأهم فطار طائر الأخبار بغتة حتى جثم على قمم جبال الهند، وصاح بالخبر المفزع فلم يبق هندي إلا وبلغ منه الخبر حد اليقين، فذلك قد أعجل الدولة عن التدبير في كتمانه، فتراجعت العقول من غيبتها، وانطلقت الآمال من محابسها، وخيل للنفوس أن المعارك أصبحت على حدود بلاد الهند.

علم ذوو الرأي من أهل الهند أن دولة أوروبية شديدة البأس سامية القوة ستصبح جارة لهم ولها من المصلحة في بلادهم ما يضارع مصلحة الدولة الحاكمة، فلو تقربوا منها شبراً لتقربت منهم ذراعًا. ومذاهب المتغلبين في السيادة على المغلوبين وإن كانت مشابهة إلا أن من أحكام العادة أن يكون في سيرة الجديد لين إلى أمد

حتى يتمكن من السلطة، ويكون من أحوال البلاد على خبرة، فلهم في تقليب الحال متنفس. بل تعالت أفكارهم إلى أسمى من ذلك فظنوا أن لا طاقة للروسية لو تقدمت إلى الهند أن تضبطها بقوة السلاح دفعة واحدة، فمن المحتوم عليها أول العمل أن تعيد الملك لطلابه من أهالي البلاد وتمدهم بالمعونة على سالبه منهم لتكون البلاد عونًا لها على بلوغ غايتها من فتح أبواب التجارة الهندية لأبناء جلدتها، ثم إن شاءت بعد ذلك غالبتهم، وفي هذا متاع من الاستقلال إلى حين، وفسحة من الزمان ربما تمكنهم من صون ما يصل إليهم. هذا ما يرتفع إليه الخبال في رءوس الهنديين على اختلاف طوائفهم ولا أظنهم يخطئون فيما يظنون، ولا تجد طائفة منهم عونًا على ما تؤمل إلا في الاتحاد مع الأخرى.

وقد ضعف الأساس الأول فيوشك أن يتضعضع البناء. همدت نيران الضغائن التي كان يسعرها الحكام في البنجالة بين المسلمين والوثنيين، وبعد أن كانوا متدابرين يذهب كل منهم إلى حيث لا يلتقي مع الآخر أبد الآبدين، انعطف كل في سيره إلى ما يقارب الآخر فلا يمضي كثير من الزمن إلا وقد عادوا متقابلين.

لا يفتر الحكام عن إمداد اللهيب بوقود الفتن كأنهم خلفاء الفرس الأقدمين في عبادة النار إلا أن الآمال المقبلة تصب عليها ماء باردًا فلا تلبث أن تصير بردًا وسلامًا. قبائل (المرتة) في أواسط الهند هزت مناكبها نحو مطلوبها القديم، هذه من أقوى قبائل الهند وأشدها تمسكا بعوائدها وأحرصها على الاستقلال. أرغموا من زمن على الدخول تحت السلطة الإنجليزية، ولكنهم لم يؤدوا من رسوم الطاعة شيئًا سوى الخراج، فقد تحالفت هذه القبائل على وفرة عددها أن لا ترتفع من أمرها شيئًا جزئيًا كان أو كليًا إلى حاكم إنجليزي، واتفقت على أن يكون تدبير شئونها مفوضًا لرجال منها ينتخبون بالاقتراع، وما كان عاما من شئونها خصته بمجلس عام يشبه مجالس النواب في البلاد المتمدنة، وما كان خاصا كالفصل في الخصومات جنائية كانت أو قضائية ناطته بقضاة منها لا ينازع في حكمهم، ولا يدافعون في قضائهم، ولو أن مرتبًا رفع أمره في خصومه إلى القاضي الإنجليزي لأعدموه حياته وذهب دمه هدرًا لا يطالب به أحد. كل ذلك ولا يستطيع حاكم من حكام الإنجليز أن يقف

على شيء من أحوالهم الداخلية . بل حرموا على أنفسهم الانتفاع بشيء من مصنوعات أوروپا وثبتوا على صنائعهم ورجوها بينهم، وبذلوا الجهد في ترقيتها حتى صار لهم من الصنائع ما يشبه صنائع الأورپيين في كل نوع، ولا يوجد في بيت واحد منهم أو على بدنه مصنوع إلا من عمل أيديهم .

فهذه القبائل الرفيعة الهمة الأبية النفس أخذت الأهبة في هذه الأيام لما أعده لها استعدادها . ولست بالواهم إن قلت بتواتر رسلها وكتبها إلى الحدود الشمالية لتجاذب حبال الصلة بينها وبين رؤساء المنفذين في زعمها .

حكومة حيدرآباد ملت سيطرة الإنجليز عليها، ونظرت إلى قوتها العسكرية واجتماع رعاياها على بغض المتحكمين في شأنها، الآخذين على يديها، وجاءها خبر الزحف الروسي، فشدد عزيمتها، وزاد في حرصها على الخلاص من عنف السيطرة الإنجليزية، وقبائل (السيك) في بنجاب من شمال الهند شمروا للخوض في لجج الفتنة متى اشتبكت حرب في بلاد الأفغان، ليعيدوا مجدهم الأول، ويأخذوا بالحق لأنفسهم ممن أباح دماءهم، وفتك بأشرافهم . ولم يمض على ذلك الزمن الطويل فينسى، ولم يأتهم عوض عما فقدوا فيتسلوا عنه .

أحست حكومة الهند بمبادئ الاضطراب، فأخذت الطرق على كل سائر إلى جهة الشمال، منعًا للمواصلات بين الهنديين والروس، ومنعت تجار الأفغانيين من الجولان في البلاد الهندية، وصدت كل عربي يدخل إلى الهند من الشخوص إلى حيدرآباد لكثرة أبناء العرب فيها، واشتدت في التضييق على كل طارق غريب يرد إلى أرض الهند، وعلى كل وطني يصل إلى الحدود الشمالية، وأخرست الجرائد عن التكلم في حوادث التقدم الروسي، وأنطقتها قهرًا بما يغشي وجه الحقيقة، ويصرف الأفكار عما شغلت به من إعداد العدد وتحويل مراكز الجند، وحشد الجيوش، وتوفير الذخائر في مواقع المخافة، وأرسلت عيونها على موارد البريد، ورسمت بفتح المغلقات، وأخذت بكل احتياط . ومع هذا كله ضاقت سلطة الحكومة عن سد أبواب الهند المفتوحة، وقطع طرقها الواسعة، وتسوير حدودها الممتدة . فالأخبار بين أمراء الهند وبين الروسية متواصلة، وقد علم رجال الحكومة

أن الحال في هذه الأزمان الأخيرة غيرها في سنة ١٨٥٧[1] حيث أمكن للحكام في تلك الأوقات كتمان سر الفتنة عند اشتباكهم في الحرب مع دولة إيران، وكتمان خبر الحرب عن رؤساء، الفتنة، حتى تم الأمر لحكومة إنجلترا في إهماد الثورة وإنهاء الحرب على شروط توافقها. أما الآن فليس يخفى على الروسية أدنى حركة تكون في الهند، ولا يخفى على الهنديين أقل عمل يكون من الروسية.

وإن الأخبار الخصوصية الواردة من الهند تفيد أن الأمر في تلك الأقطار أشد مما تدل عليه أخبار الجرائد. أما ما زعموا من أن بعض النوابين والرجوات عرضوا أنفسهم وجيوشهم لمساعدة إنجلترا عندما طاش ميزانها مع الروسية، فذلك مما يعجب خبره! ويضحك معجبه. فإن رجالا من الإنجليز سعوا عند بعض الضعفاء من الأمراء وأغروهم أن يتقدموا بعرض أنفسهم لمساعدة الحكومة لتوهم بذلك أنها معضدة من رعاياها، ففعلوا على أن ينالوا أجراً على فعلهم ثم خابت آمالهم فانقلبوا على أعقابهم. ولو فرض صحة ما زعموا فهو كثير الوقوع في كثير من البلاد عند بداية الحوادث يظهر الضعيف أنه نصير القوي، فإذا حم الصداع كان أول خاذل له، خصوصاً إذا أحس بل توهم الانقلاب بالهزيمة.

بقي شيء في مجمل خبرنا نذكره تتميما للبحث وهو أن للدولة العثمانية شأناً في المسألة الهندية لايسوغ إنكاره، فإن لها عدة كافية، وقوة وافية، يمكنها أن تستخدمها لآرائها السياسية متى شاءت، ويسهل عليها أن تستفيد منها إذا أقبلت عليها بشيء من التدبير. تلك قوة خمسة وأربعين مليوناً من المسلمين أهل السنة يعتقدون أنها دولة الخلافة، وأنها مرمى آمالهم في تخليصهم من أيدي الأجانب، ومكانتها من قلوبهم أعلى من مكانة حاكميهم، وأوصال أعمالهم معقودة بأوامرها. ولو أن لدولة أخرى قوة مثل هذه القوة لرأينا جوادها المجلي في هذه المجاراة. ولكن مما يوجب الأسف أن هذه العدة ربما تتبدد، وتلك القوة تضمحل، ولا يكسب رجال الدولة من إهمالها إلا ما يكسبه باذل ماله لعدوه وفقهم الله للسداد في آرائهم، والصلاح في أعمالهم.

---

(١) يعني سنة ثورة الهند.

يقول رشيد رضا : لم نعثر للأستاذ رحمه الله تعالى على مقالة في جريدة مصرية بعد عودته من باريس إلى سورية وترك جريدة «العروة الوثقى» إلا هذه المقالة ، وهي تشبه مقالات العروة الوثقى السياسية التي كانت من نفثات السيد جمال الدين فى قلم الأستاذ . وكان الحكيمان يرجوان من تحرش الروسية بالهند في تلك السنين أن يفضي إلى ترك الإنجليز لمصر والسودان ؛ فلذلك كانا يعظمان شأن ذلك التحرش .

* * *

١٧

الشرق والشرقيين

الشـــرق والشرقيين (١)

الإنسان إنسان بعقله وبنفسه، ولولا العقل والنفس لكان الإنسان أخس جميع الحيوانات وأشقاها؛ لأنه في مبوته (غير مفهومة والمرجح أنها حيوته أي حياته) أضيق مسلكًا وأصعب مجازًا وأوعر طريقًا، منها قد حفت به المكاره وأحاطت به المشاق واكتنفت به الآلام. لا يمكنه بمعاشه، وهو منعزل عن أبناء نوعه، ولا يطيق الحر، ولا يتحمل ألم البرد، ولا يقدر على الذود عن نفسه، وليس له من الآلات الطبيعية ما يثقف به معيشته، وهو محتاج في ضروريات حيوته (حياته)، ومفتقر في الكمال فيها إلى الصناعة، ولا يمكن الحصول عليها، إلا بإجالة الفكرة والتعاون بمن يشاركه في العقل من النوع البشري.

والعقل ما به تستنبط المسببات من أسبابها، ويستدل بالعلل على معلولاتها، وينتقل من الملزومات إلى لوازمها، وتستكشف الآثار حين ملاحظة مؤثراتها، وتعرف العواقب ضارها ونافعها، وتقدر الأفعال بمقاديرها، على حسب ما يمكن أن يطرأ عليها من الفوائد والخسائر في عاجلها وآجلها، ويتميز الحق من الباطل في الأعمال الإنسانية نظرًا إلى مهيع السعادة ومنهج الأمن والراحة، لا يضل من استرشد ولا يغوى من استهداه، ولا يحوم الشقي حول من ركن إليه، ولا يعثر في المداحض من اعتمد عليه.

ولا يلتبس الحق بالباطل على من استنار بنوره، وأن الخير كله به، وليس الشر إلا

---

(١) هكذا وردت كلمة «الشرقيين» في عنوان المقال المنشور في جريدة «أبو نظارة زرقا» وكان يجب أن تكون الشرقيون. ولكن ربما يعود ذلك إلى أن ناقل المقال بخط يده، الذي هو صاحب الجريدة المصري يعقوب صنوع، كان يحرر معظم مقالاته بالعامية المصرية

بالحيدان عن صراطه القويم. من فقده فاتته السعادة لا محالة، ولو أخرجت له الأرض أفلاذها، وأسبغت عليه الدنيا نعيمها، وأن الأمم ما سادت إلا بهدايته. وما ذلت بعد رفيع مقامها وعظم منزلتها إلا بعد أن أعرضت عن خالص نصحه، وتوغلت في بيداء غوايتها، واستعملته في مسالك ضلالتها.

واستخدمته لقضاء أوطار طبائعها الخسيسة التي تجلب عليها الشنار، وتوجب المعرة والصغار ـ والنفس هي منشأ أخلاق كريمة، وأوصاف عقيلة (أي عاقلة) هي قوام الاجتماعات المدنية والمنزلية، وأساس التعادل في المعاملات، وميزان التكافؤ في المؤازرات، ومقياس التوافق في المعاونات، ولا يمكن التألف بين القوى المتفرقة، لاقتناء ما يقوم به حيوة (أي حياة) الإنسان، إلا بها. ولا تلتئم أهوية النفوس المختلفة، لاكتساب ضروريات معاشها، إلا بسببها. وهي التي تجعل الأفراد الإنسانية، مع تضاد طبائعها، بمنزلة شخص واحد يسعى بأعضائه، المتخالفة في أشكاله وجوارحه، المتباينة في هيئاتها، إلى مقصد واحد لا يمكن الوصول إليه إلا باستعمالها، بحركات قد اختلفت مع وحدة جهتها أو ضلعها، وسيادة الأمم الغابرة والحاضرة، هي من أخص نتائجها، لأنها لا يمكن حصولها إلا باتفاق كلمة آحادها، واجتماع آراء أفرادها. ولا تتفق الكلمة عن بعد (أي عندما، كما يرجح) تجتمع الآراء، إلا بالتكافؤ في المساعي، والتوازن في تحمل المشاق، والاشتراك في المنافع، والمساواة في الحقوق، والتعادل في التمتع بثمرات الأعمال بلا تفاضل ولا استيثار (استئثار). وكل هذه، في وجودها وبقائها، تحتاج إلى الأخلاق الكريمة والأوصاف العقيلة، التي بها يعرف الإنسان حقه ويقف عنده ـ ولا تشتتت أمة. . ولا ذل قوم. . ولا اضمحلت سلطنة. . ولا تفرقت جمعية. . إلا بفساد أخلاقها، وتطرق الخلل في سجاياها. . لأنها بفسادها، وتطرق الخلل فيها، توجب تخالف الأيدي، وتباعد الأهواء، وتضارب الآراء، وتبائن (أي تباين) الأفكار، فيستحيل حينئذ الاجتماع، ويمتنع الاتفاق، وإذا أمعن البصير في حقيقة الأخلاق الرذيلة، يعلم، أنها بذاتها تبعث على التفرق والاختلاف، وتمنع عن الاجتماع والايتلاف (الائتلاف). وما ينشأ عن ذات الشيء، لا يمكن زواله، وما دامت ذاته باقية. فإذا تمكنت الأخلاق الرذيلة من أمة، فلا يرجى لها نجاح، ولا يحصل لها فلاح، ما لم

تسع في مديلها (غير مفهومة، يرجح أنها تعديلها)، ولم تدأب في تقويمها. ويمكن أن يقال إن بين كمال العقل، وطهارة النفس، وتخلقها بالأخلاق الفاضلة، تلازمًا. لأن العقل إذا بلغ كماله يقهر الطبيعة. فحينئذ تسلم النفس عن سوراتها، وتخلص من عكر مذماتها، فتنقاد للعقل مستسلمة له، خاضعة لحكمه. ويستعملها العقل على نهج الحق والعدل. وليست الأخلاق الفاضلة، إلا أن تزن النفس أعمالها بميزان العدل، ولا تحيد في هواها عن صراط الحق.

وبعد هذه المقدمة، يمكن لنا أن نقول إن الشرق، بعدما كان له من الجل الرفيع، والمقام المنيع، والسلطنة العظيمة، وبسطة الملك، وعظيم الشوكة، وكثرة الصنائع والبدائع، ووفور الأمتعة والبضائع، ورواج سوق التجارة، وذياع العلوم والمعارف، وشيوع الأدب والفنون. . ما هبط عن جليل مرتبته، وما سقط عن رفيع منزلته، ولا استولى الفقر والفاقة على ساكنيه، ولا غلب الذل والاستكانة على عامرية، ولا تسلطت عليه الأجانب، ولا استعبدت أهله لأباعد، لإعراض الشرقيين عن الاستنارة بنور عقولهم، وتطرق الفساد في أخلاقهم، فإنك تراهم في سيرهم كالبهائم لا يتدبرون أمرًا، ولا يتقون في أفعالهم شرا، ولا يكدون لجلب النافع، ولا يجتنبون عن الضار. . طرأ على عقولهم السبات، ووقفت أفكارهم عن الإجالة في إصلاح شئونهم، وعميت بصائرهم عن إدراك النوازل التي أحاطت بهم. . يقتحمون المهالك، ويمشون المداحض ويسرعون في ظلمات أهوية نفوسهم التي نشأت عن أوهامهم المضلة، ويتبعون في مسالكهم ظنونًا قادهم إليها فساد طبائعهم. . لا يحسون المصائب قبل أن تمس أجسادهم. وينسونها كالبهيمة بعد زوال آلامها واندمال جراحها. ولا يشعرون لاستيلاء الغباوة على عقولهم، واكفهرار ظلمات غشاوة الجهل على بصائرهم اللذائذ التي خص الإنسان بها من حب الفخار وطلب المجد والعز وحسن الصيت وبقاء الذكر، بل لاستيلاء الغفلة على عقولهم. يحسبون أن يومهم دهرهم. والتقمقم كالسارحة شأنهم لا يدرون عواقبهم، ولا يدركون مآل أمرهم، ولا يتداركون ما فاتهم، ولا يحذرون ما يتربصهم من أمامهم ومن خلفهم. ولا يفقهون ما أكمن لهم الدهر من الشدائد والمصاعب؛ ولذا تراهم قد رئموا (أي راموا) الذل وألفوا الصغار وأنسوا الهوان،

وانقادوا للعبودية، ونسوا ما كان لهم من المجد المؤثل والمقام الأمثل. وبعد انحدارهم عن ذروة العقل، الذي لا كرامة للإنسان إلا به، غلبت عليهم الخسة والنذالة. ورانت على قلوبهم الجفاء والقسوة، وتمكن من نفوسهم الظلم والجور. واستولى عليهم العجب، لا عن جاه يدعو إليه، ولا عن فضيلة تبعث عليه. وتظاهروا مع الذل المتمكن من قلوبهم بالكبر والعظمة، وفشا بينهم الشقاق والنفاق. وتلبسوا بالغدر والخيانة. واستشعروا الحسد والنميمة وتسربلوا بالحرص والشره. وتجاهروا بالوقاحة والشراسة، واتسموا بالخشية والجبانة. وانهمكوا في الشهوات الدنية، وخاضوا في اللذات البدنية، وتخلقوا بالأخلاق البهيمية، متوسدين الكسالة والفشل، وأتصفوا بصفات الحيوانات الضارية يفترس قويهم ضئيلهم. ويستعبد عزيزهم ذليلهم، يخونون أوطانهم، ويظلمون جارهم، ويستلبون أموال ضعفائهم، ويخوسون (ربما المقصود يحنثون) بعهودهم، ويسعون في خراب بلادهم، ويمكنون الأجانب من ديارهم لا يدفعون ذمارا، ولا يخشون عارا، عالمهم جاهل، وأميرهم ظالم، وقاضيهم خائن، ليس لهم هاد، فيرشدهم إلى سبيل نجاتهم، ولا زاجر، فيكفهم عن التمادي في غيهم. ولا وازع، يقدع (أي يمنع) الجائرين عن نهش عظام فقرائهم، وصاروا جميعًا، بسخافة عقولهم، وفساد أخلاقهم، عرضة للهلاك، وأشرفوا على الزوال. تأمل فيما أقص عليك من أعمال الشرقيين من قبل، حتى تعلم أنهم هم الذين، بحيدانهم عن سنة العقل، قد أوقعوا أنفسهم في الذل الدائم، وجلبوا، بعدم تدبرهم في عواقب أمورهم، الخراب والدمار إلى بلادهم، وأضعفوا، بسوء سياستهم، سلطنتهم القوية. ومكنوا أعداءهم من بلادهم، جهلا منهم بنتائج أعمالهم ـ وها هو ذا ـ.

إن العثمانيين قد اتفقوا مع الروس على مقاسمة البلاد الإيرانية حينما تغلب الأفغانيون على أصفهان أيام شاه سلطان حسين. ولو نظروا بنظارة التدبر إلى الأمة الروسية، وما لها من العلاقات مع اليونانيين والرومانيين والسربيين والبلغاريين وغيرهم من رعايا السلطنة العثمانية، وما يمكنها أن تحوزه في مستقبل أمرها من القوة والبسطة، لما اختلجت ببالهم محالفتها.. ولا خطرت في أذهانهم مؤامرتها، بل كانوا يسعون في قلع أسها قبل استحكامه، وقطع شجرتها قبل أن تشج عروقها.

وأنهم جاهروا الإيرانيين بالحرب من طريق بايزيد. وقد كان عباس مرزا بجيوشه يقاومون الروسية ويدفعونها عن بلادهم، فوهنت قوتهم، وضعفت مريرتهم (عزيمتهم) واستملك الروس، بسبب هذا الاقتحام، أكثر بلاد أذربيجان. ولو استشار العثمانيون عقولهم وقتئذ لأشارت عليهم بأن ضعف الإيرانيين وقوة الروس هما معا علة لتزعزع أركان السلطنة التركية. ولكنهم اتبعوا خطرات أنفسهم. وتزينت لهم أوهامهم، وظنوا أنهم يحسنون صنعًا، فأسرعوا في هلاك أنفسهم، وهم لا يشعرون. وكان عليهم، اهتداء بنور العقل وسلوكًا في مسلك السياسة الحقة، أن يلاحظوا الجامعة القوية التي بينهم وبين السلطنة الإيرانية. . فيتفقوا معها على كبح شره الروسية، وإضعاف قوتها، أمنًا من غوائلها، وحذراً من آفات مطامعها، وأنهم، أي العثمانيين، جبهوا سفير (تبو سلطان) سلطان (ميسور) بالرد، حين عرض عليهم من طرف سيده، استبدال (البصرة) ببعض البلاد الهندية التي كانت في حوزته. فامتعضوا من هذا الطلب، وردوا السفير خائبًا ـ وكان غرض (تبو سلطان) من طلبه هذا، أن يكسر سورة الإنجليز، ببسط السلطة العثمانية في الهند وتمكنها منها ـ. وذهل العثمانيون تهاون (الحرف الأخير محذوف والمرجح أنها تهاونًا) منهم عن العلاقات التامة بينهم وبين الهنديين. وأن سلطنتهم لو امتدت إلى تلك الممالك لذهل جميع حكامها بلا معارضة تحت لوائهم. وقدروا حينئذ على قدع الحكومة الإنجليزية عن تطاولاتها في الهند وسدوا عليها طرق فتوحاتها في ا لمشرق. وما شعروا تساهلا في السياسة، وتغافلا عن منهج العقل، أن بسطة الحكومة الإنجليزية في الآسيا، توجب تحكمها في بلادهم، وطمعها في الاستيلاء عليها، كما وقع الآن. . حتى مكنوا عساكرها مدة طويلة من شق الأراضي المصرية، ذاهبة إلى أقاصي الشرق للتغلب عليها، وإن شاه إيران (فتحعلى شاه)، إرضاء للإنجليز، هدد الأفغانيين بالحرب، وقتما أرادوا أن يزحفوا إلى الهند لانتزاعها من أيدي الإنجليز. ولو استنار الإيرانيون وقتئذ بنور عقولهم، لانكشف لهم، أن قوة الإنجليز في الهند، إذلال لهم، وخطر على بلادهم. ولعلموا أنهم والأفغانيين، أغصان شجرة الإيران قد تشعبوا من أصل واحد. ونشأوا في أرض واحدة تجمعهم وحدة الجنسية. وتؤلفهم الأخوة الحقيقية؛ لأنهم متساهمون في العز والشرف. ومتشاركون في الذل والهوان، وما فرقت كلمتهم إلا أوهام واهية

نشئت (أي نشأت) عن الظنون الدينية - وليس منها في شيء -. ولو راجع كل عقله لرأى وجوب اتفاقهم تحت راية الوحدة استرجاعًا لمجدهم السابق، وتداركًا لما فاتهم بسبب الشقاق من الشرف والفخار وعلو الكلمة بين الأمم، وأن الأمير (دوست محمد خان) أمير الأفغان قد جعل بلاده تعام منه (أي تكرهه) عرضة لهجمات الإنجليز. فإنه بعد المحالفة مع (رنجيت سنك) ومعاهدته على مقاومة الإنجليز، قد تركه، اغترارًا بالمواعيد الإنجليزية، في ميدان الحرب وحيدًا. وتقهقر بعساكره فانهزمت جيوش (رنجيت سنك). وتغلب الإنجليز على جميع أراضي البنجاب المتاخمة للأفغانستان. ولو استهدى الأمير (دوست محمد خان) إذ ذاك عقله، وسلك في سياسته سلوك بصير (الأصح سلوكًا بصيرًا) يتدبر نتائج أفعاله، قبل أن يشرع فيها . . لتحقق لديه، أن صيانة بلاده عن هجمات الإنجليز، إنما تكون ببقاء الحكومة البنجابية حريزة، حتى تكون سدا مانعًا بين أفغانستان وبين الحكومة الإنجليزية. فكان يدافع عنها كما يدافع عن حكومته، وأن نواب البنجالة، ونواب الكرناتك، قد مهدا للإنجليز سبل دخولهم في الأراضي الهندية، وأن نواب لكهنو (اسم مقاطعة) مقاصدهم في إذلال السلطنة التيمورية، وأن نواب دكن قد أعانهم على إبادة حكومة (تيبو سلطان) وإذلال كراجة (برودة) وقهر الذين قاموا سنة ١٨٥٧ لإنقاذ بلادهم ودفع شر المتغلبين عليها من الإنجليز. وكل هئلاء (هؤلاء) جهلا منهم بمنافعهم، وعميًا عن نتائج أفعالهم المضرة، مكنوا الحكومة الإنجليزية ثقة بمواعيدها من الأراضي الهندية، وجعلوا على أعناقهم نير العبودية، وما عقلوا أن قوام كل بالآخر، وأن بقائه (بقاءه) قد نيط ببقائه. وأن كلا للآخر بمنزلة العضو من الجسد. فإذا تمكن الداء من عضو، سرى في الجميع ولزم منه انحلال البدن كلية. والآن ترى الإنجليز، بعد استعبادهم، وسلب أموالهم، ونزع أيديهم عن الملك، تعارضهم في ديانتهم. وتزاحمهم في تجارتهم، وتعاقبهم على نياتهم، وتعاتبهم على أعمال آبائهم. وإن أهل بخارى فرحوا بتسلط الروسية على قوقند والتركمان تبجحوا من غلبتها على بخارى والأفغان والفارس قد سرا (المقصود سروا) من استيلائها على التركمان. وكل هذا غفلة منهم عن المضار التي تنشأ عن قوة الروسية وبسطة سلطتها في تلك الأراضي وقد ألقاه (هي ألقاهم) جهلهم بمصالح أنفسهم، وإغضائهم عن الاستنارة بأنوار عقولهم في التهلكة وأشرفوا

كلهم، بغرورهم، على الزوال والاضمحلال، وأن مدحت باشا[1] وأعوانه، لو نظروا ببصيرتهم إلى أركان سلطنتهم المتداعية إلى السقوط.. وشعروا بهداية عقولهم، أن دعائم حكومتهم كادت أن تنهد، بما ألم بها من المصائب.. وعلموا بتدبرهم أن البلايا تترصدهم من جوانبهم.. لما تقحموا غروراً وضلالة في خلع عبد العزيز وقتله، وقتما تترقب الأعداء سقطاتهم، وتغتنم هفواتهم. ولكنهم، اعتماداً على واهي آرائهم، واغتراراً بدسائس الحكومة الإنجليزية، قد جلبوا الهلاك والاضمحلال على أمتهم.. ويظنون أنهم هم المصلحون، وأن إسماعيل باشا[2] حبا بالاستقلال، وعمي عن نتائج أفعاله السيئة التي نشئت (نشأت) عن حرصه باسم الملك، قد ألقم الإفرنج جميع أموال مصر، وما استدانه من صرافي الأوروپا بالأرباح الباهظة. ثم سعى الإفرنج في خلعه عن الملك، ونفيه عن الديار المصرية إرادة استملاكها، ووضع اليد عليها. ولو تروى في حالة الشرقيين، وتأمل فيما أصابهم من الذل والصغار لأجل تفرق كلمتهم، لازداد خضوعاً لسلطانه. وسعى، صيانة لنفسه، في تشييد مباني سلطنته، ونزع عن قلبه حب الاستقلال. وعلم، أن الذين لا يفترون عن السعي في فتح الممالك، لا يمكن أن يساعدوه في مقاصده، وأن وزراء توفيق باشا، جهلا بمقدار أنفسهم، وعجبًا بآرائهم الفاسدة، وإثباتا لأوهامهم الباطلة، قد جلبوا الإنجليز بغاية جهدهم إلى القطر المصري، وملكوهم إياه، وهم يظنون أنهم يستظهرون بهم على أعداء الخديو. فلو تدبروا في سياسة الحكومة الإنجليزية ورأوا أطماعها في أرض مصر، لما جلبوا هذا المصيبة على أنفسهم، وعلى خديوهم، وعلى سلطانهم، ولما ألقوا أنفسهم في فم الأسد، خوفًا من وعوعة الكلب.

فقد ظهر، من كل ما ذكرته من سير الشرقيين قدمًا في حالاتهم، أنهم ما سلكوا

---

(١) كان مدحت في منصب الصدر الأعظم، ثم عين واليًا على بغداد ثم على سورية، في أواخر السبعينات من القرن الماضي، بعد ذلك أعفي من منصبه واستدعي إلى الأستانة. وإثر الإعفاء، اتهم مدحت بمحاولة قتل السلطان عبد العزيز، فحوكم وحكم عليه بالإعدام.

(٢) إسماعيل باشا كان خديو مصر، في أوائل الربع الأخير من القرن الماضي. وقد اشتهر أثناء بناء الأوبرا المصرية، حيث دعا ملوك أوروپا وأمراءها إلى حفل الافتتاح، وأنفق في سبيل ذلك مبالغ باهظة.

في سياستهم الرشد والهدى، وما استفادوا من عقولهم شيئًا، ولا تدبروا في عواقب أفعالهم ونتائج أعمالهم، ولا نظروا بنور البصيرة في حالهم ومآلهم. بل تاهوا جهلاً منهم بمنافعهم في بيداء الغواية. وصاروا عميا عن غاية مسيرهم في تيه الضلالة. حتى خربوا بأيديهم ديارهم، وأبادوا بسوء تصرفهم بلادهم. . ومكنوا الأجانب بمساعيهم الفاسدة من رقابهم. . وكان الواجب على أحفادهم الذين احترقوا بنارهم، وتدنسوا بعارهم، أن يعتبروا بالمصائب التي جلبتها إليهم غفلات أسلافهم. . وأن يتقوا البليات التي قادتها الغباوة إلى آبائهم. . وأن يسعوا في جمع الكلمة. . وأن يتحذروا من الشتات والتفرقة. . ويجتنبوا الأغراض الشخصية. . ويعرضوا عن دواعي الخطرات الوهمية. . ويتنحوا عن مضال الاستبداد والاستئثار. ولكن تراهم، لسبات عقولهم، يقتفون آثارهم، ويتبعون أغلاطهم، معرضين عن العقل وإرشاده، جاحدين للحق وآياته، ارتفعت عنهم الأمانة. . وفشت بينهم الخيانة. . وانقطعت بينهم عرى الوداد. . وانحلت عقدة الجنسية. كل ينظر إلى نفسه ويسعى لنفعة شخصه، جهلا منه أن سعادته منبثة في جميع آحاد الأمة. . ولا يمكنه أن يفوز بها إلا بسعادة الكل. ولذلك قد صاروا، بعد العبودية، فقراء لا يملكون شيئًا. . حائرين في معاشهم. . ضالين عن رشدهم في مبدئهم ومعادهم. وكاد أن يقضي عليهم بذل أبدي، وموت دائمي، بتلاشي جنسيتهم وتناثر جمعيتهم. ومع كل هذا، ما فاتهم أوان التدارك، ولا ضاق عليهم زمان، ولا سدت عليهم الأبواب، ولا انقطعت دونهم الأسباب، ولكن قد تمكن منهم القنوط، وغلب عليهم اليأس، وفترت هممهم، وضعفت عزائمهم، واستكت (بمعنى أغلقت) آذانهم عن استماع النصائح، وعميت أبصارهم من رؤية الحق، وقست قلوبهم عن الإذعان له. فتراهم، امتداداً في غيهم، يريقون دماء هداتهم. . ويتبعون المرء غواتهم. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

عن جريدة «أبو نظارة زرقا»

العدد الثاني ـ ٩ شباط ـ فبراير ١٨٨٣ باريس



السيد جمال الدين الحسيني الافغاني

جريدة « ابو نظارة زرقا » المتضمنة مقال الافغاني

١٨

العُجب

العُجب

إن العجب يدعو الناس إلى الكبر ، والكبر يصير سببًا للنظر إلى سائر الناس بالحقارة ويعمل أفعالاً غير مطبوعة . والعجب من خواص (ال) نفوس الصغيرة . ومن لوازم عقول ضاق دائرة إدراكها . لأن من يكون إدراكه واسعًا وأفكاره عالية يعلم أن مراتب الإنسان في كل مزية من المزايا معنوية كانت أو صورية ، غير متناهية . ولما انكشف هذا الأمر على أحد في كل مرتبة كان لما ينظر إلى ما فوقه لم يحصل له إلا القصور والاعتراف على انفعاله . إن الإنسان لم يكن لعلمه اعتمادا ولا لقوته نهاية ولا لغنائه وثروته غاية ، ثم إن يكن أحد بقي معجلاً بنفسه لتسيل (لتصل) إلى بعض من المراتب لم يكن سببه إلا عما به شيئًا وعمشه لأنه يزعم أن عقله فوق جميع العقول فلهذا يفوق نفسه على غيره . وضعف مزاجه وانحطاط نفسه يصير سببًا إلى نيله ببعض من المزايا الإنسانية ويحصل له النشوان (النشوة) والسكر بحيث يفعل أعمالاً غير مستحسنة ويحقر ويوهن سائر الناس ما دام بمقام هذا العجب والكبر . وما يحصل للإنسان بسببه المضرة أن أول مضرته أنه يمنع الإنسان من وصوله إلى مدارج كمالات غير متناهية ويزر النفوس والعقول من طلب المعالي . ومتى يوجد في الإنسان هذين (هاتان) الخصلتان يجبره على الوقوف . ومضرة أخرى أنه يدعو جميع الناس لى على العداوة و(غير مفهوم) يقطع سلسلة (غير مفهوم) هي أسالى حياته . وهو بواسطة هذه السجية الدنيا في زاوية الوحشة والوهشة مغلول اليدين يحبس . والعجب أننا نرى في بلدنا كثيراً من الناس من التكبر لا يمكنهم القيام في عالم ويمن (يمنون) من الفجر والعظمة على السماء والأرض . ومع هذا لا يوجد فيهم مزية داعي (تدعو) إلى هذه الخلة .

ألا تنظر إلى هؤلاء الجالسين في الكروان واضعين رجلهم على رجلهم

يتجاوزون من الأزقة والسوق. وألا تنظر إلى الذين يركبون على الفرس ووضعوا قلنسوتهم على رأسهم عوجًا وينظرون متبكرًا (متكبرين) في حين العبور على اليمين واليسار. لأي سبب يفعلون هذا هل فتحوا مملكة وهل اخترعوا أمرًا بديعًا وهل أوجدوا علمًا جديدًا؟!

وهل كشف سرا من الأسرار سبحان الله؟! هل هو مارشال ملك وهل هو (كروكرام) أم هل هو كريبالدى أم بسمارك أم هل هو (بال ملستان) أم هو عرز كف أونيطى أم هو كفلرا والجليلو (غاليله) أم لايل اخترع سلك البرق أو أنشأ السكة الحديد يده؟ هذا العجب وهذا التكبر الذى لا أصل له، وإن كان للإنسان شعوراً أو كان له غيرة بثوب (يذوب) في الخجلة وأما يخفي نفسه في زاوية حتى لا يعرفه غيره وهذه السجية السيئة توجد قليلاً إلا في الشرق.

* * *

١٩

نبذة من مناظرة خيالية

نبذة من مناظرة خيالية

إنكم قد ضللتم عن رشدكم، وتهتم في بيداء غوايتكم، وما يقوم لكم دليل في تقاعسكم عن الذود عن أوطانكم، ولقد غلب عليكم الجبن، واستولى عليكم الضعف، وأضعف جنانكم الخوف والخشية، ألا ترون أن كل أمر صعب عند الشروع فيه؟ أفلا تشعرون أن صعوبة المسالك بمقدار عظم المقاصد؟ وأن الراحة محفوفة بالمشاق، وأن أفضل الأعمال أحمزها؟ أفترضون بالعبودية للأجانب، والاستكانة للأباعد، وإن موت المرء خير من بقائه في هذه الدنيا مع قلة مدتها وسرعة زوالها، رقا لا يملك من الأمر شيئًا؟ أتظنون أن هذا التعلل يدفع عنكم غضب رب الجنود؟ لا وحقه. إنكم إن لم تدافعوا عن أوطانكم بنفوسكم وأموالكم لا تنالون منزلة لديه، ولا تجدون مخلصا من سخطه، وتبقون في ذل العبودية ما دامت الأرض باقية، وكل عذاب دونه لحقير، فتشجعوا وثبتوا أقدامكم، وسكنوا روعكم، واعلموا أن الظفر مقرون بالصبر، وأيقنوا أن الراحة والسعادة في أثر المشقة، وأن سنة الله قد جرت من الأزل، أن لا ينال الإنسان مرغوبه إلا بعد التعب، فلا تقدموا هذه الحجج الداحضة، ولا تظهروا الفشل في طلب حقوقكم، ولا تتسربلوا بالجبن فإن كل جبان محروم، فاسعوا في اتفاق كلمتكم، واجعلوا صدوركم مجنا لسهام أعدائكم، مجدين في خلاص بلادكم، واعلموا أن الأمم الغابرة والحاضرة ما نكست رقابها، ولا كسرت أطواق العبودية، إلا بتحمل المشاق والخوض في غمرات الموت.

٢٠

الرد على رينان

الـرد عـلى رينـان (١)

يندر أن نجد مقالة لا تتعدى كلماتها الألفين وخمسمائة كلمة حققت الشهرة الواسعة واللغط الشديد مثل مقالة جمال الدين الأفغاني التي حملت عنوان: «الرد على رينان» والمنشورة بالفرنسية على أعمدة جريدة «جورنال دي ديبا» في الثامن عشر من أيار عام ١٨٨٣م.

إن هذه المقالة ـ الرد ـ أثارت، ولا تزال تثير بعد مرور ما يناهز القرن على نشرها، جدلاً ولغطًا كبيرين في أوساط المثقفين العرب والمسلمين، ولعل ما ضاعف من الجدل واللغط أن الأصل العربي للنص اختفى منذ أن دخل إلى مكاتب الـ «جورنال دي ديبا»، ولا تزال ترجمته الفرنسية (التي جاءت مشوهة ومحرفة في كثير من المواقع حسب بعض الباحثين المعاصرين) هي النص المعتمد من قبل الكثيرين، وبل من قبل الجميع، حيث إن الحكم على آراء الأفغاني وأفكاره يتم من خلالها.

إن «الرد على رينان» الذي كتبه الأفغاني بالعربية حيث إنه لم يتقن الفرنسية (وقد نشر في الصحيفة الفرنسية بنفس العنوان Répose á Renan) جاء في ترجمته الفرنسية، وكأن كاتبه يؤيد أرنست رينان في تلك الآراء والمواقف التي ضمنها محاضرته في السوربون وتمحورت حول علاقة الدين الإسلامي والمسلمين بالعلوم والفلسفة. وإذا كنا ندرك جميعًا أن معنى الرد، أي رد، إنما ينطوي على موقف سلبي ومضاد تجاه رأي أو قضية مطروحة. فكيف صار رد الأفغاني، في نصه الفرنسي، متوافقًا مع محاضرة أرنست رينان في العديد من وجهات النظر! ثم لماذا ضاع النص العربي للرد وهو القول الفصل في هذه المسألة؟ ولماذا لم يسمح

---

(١) هذه الدراسة والمقدمة، للأستاذ سمير أبو حمدان، وترجمة النص ـ للرد ـ هي للدكتور علي شلش. (خ).

للأفغاني، وربما بإيحاء من الحكومة الفرنسية، بكتابة مقال آخر في الـ«جورنال دي ديبا» بعدما بلغه أن أقواله في الرد على رينان قد شوهت؟ وأخيراً لماذا قطع جمال الدين علاقته بالجريدة المذكورة وراح ينشر مقالاته في صحيفة فرنسية أخرى هي الـ«إنتر أنزيجان»؟

الظروف المحيطة بالرد

هذه الأسئلة تقودنا إلى معرفة الظروف والمعطيات التي تحيط برد الأفغاني وكذلك بمحاضرة رينان؛ إذ إن معرفة هذه الظروف والمعطيات ربما أفضت بنا إلى معرفة حقيقة الرد ومضمونه الصحيح وهما شيئان يتناقضان مع ما كتب عنهما حتى الآن.

سوف ننطلق، هنا، من البداية وتحديداً من المرحلة الهندية الثانية في حياة الأفغاني وهي التي تمتد من عام ١٨٧٩ وإلى عام ١٨٨٢م. ففي هذه المرحلة، وقد كانت منفى اضطراريّا، قضى الرجل أيامه متنقلاً من مدينة هندية إلى أخرى هاديًا ومرشداً المسلمين إلى حقيقة الدين الإسلامي. ويصف بعض الباحثين هذه المرحلة بأنها من أخصب مراحل حياته حيث صرف معظم أوقاته في الكتابة والخطابة والنقاش. وبالرغم من ذلك فإن الأفغاني في هذه المرحلة آلمه شيئان: رقابة الإنجليز له، والشعور العميق بالغربة. ومن أجل ذلك قرر الخروج من الهند بعد أن سمح له الإنجليز بذلك وتوجه إلى باريس. وقد اختار العاصمة الفرنسية مقرا جديداً له لأسباب عدة بينها الخلاف الذي كان ناشبًا وقتذاك بين لندن وباريس حول سياسة كل منهما في الشرق، وبينها ابتعاد باريس من سلطة الأتراك وتدخلاتهم عكس ما هو حاصل في لندن، وبينها أيضًا أن باريس كانت في ذلك الوقت تحتضن عدداً من زملاء الأفغاني المناهضين للسياسة البريطانية مثل يعقوب صنوع (١٨٣٩ ـ ١٩١٢م) وخليل غانم (١٨٤٦ ـ ١٩٠٣م)، وهذا الأخير عرف بعدائه غير المحدود للعثمانيين «وكان الأفغاني قد عرف صنوع في القاهرة، وربما عرف خليل غانم في الأستانة أو القاهرة. وكان صنوع قد غادر مصر غير مرغوب فيه عام ١٨٧٨م. وأعاد في

باريس إصدار صحيفته «أبو نظارة». وكان الآخر عمل مترجمًا في بيروت ودمشق والأستانة ثم اختير نائبًا عن سورية في أول برلمان عثماني عام ١٨٧٦م. فلما ألغى السلطان عبد الحميد البرلمان بعد قليل، هرب غانم، بعد مطاردته إلى مصر، حيث أصدر أول كتاب في العربية عن الاقتصاد السياسي عام ١٨٧٩م. ولكن سرعان ما شد رحاله إلى باريس حيث أقام وتجنس بالجنسية الفرنسية، وأصدر صحيفة «البصير» عام ١٨٨١م بتشجيع الحكومة الفرنسية ودعمها. ولما توقفت هذه الصحيفة المعادية للعثمانيين والإنجليز عام ١٨٨٣م، ساهم غانم في بعض الصحف الفرنسية الأخرى وأهمها «جورنال دي ديبا» (Journal des débats) أي «صحيفة المناظرات» التي نشرت رد الأفغاني على رينان»[١].

وثمة من يرجح من الذين ترجموا لحياة الأفغاني أنه كان على اتصال مستمر مع هذين الرجلين، خلال وجوده في الهند، وقد أقنعهما بتسهيل وصوله إلى باريس والاستحصال له على تأشيرة دخول وذلك لأجل متابعة حملته، وبالتعاون معهما، على الإنجليز والعثمانيين. هذا شيء، أما الشيء الآخر الذي كان وراء طموحه للاستقرار في باريس فهو أن العاصمة الفرنسية كانت على صلة بأهل الشرق عمومًا والشرق العربي الإسلامي على وجه الخصوص. وقد وجه الأفغاني، وهو في طريقه إلى باريس، رسالة إلى رئيس وزراء مصر مصطفى باشا يتضح لنا فيها مقدار المعاناة التي كان ينوء تحتها الأفغاني. ومما جاء في الرسالة: «.. فلما رأيت أن المصائب كل يوم تكشر عليَّ عن أنيابها، وأن البلايا تفتح كل ساعة بابها، تفكرت بالرزايا التي جلبتها علي الغباوة والقسوة وترويت في أمري، وعلمت أني لو أذهب إلى بلدي وفي العين قذى، وفي الحلق شجى، وفي الكبد أوار، وفي القلب نار، مما أصابني، لا أجد بين أهله (..) من إذا قصصت قصتي وكشفت عن عمتي يئن علي ويتوجع لي ويأسف على مصابي (..) فعزمت أن أذهب، وإن كنت صفر اليدين خالي الراحتين، إلى بلاد فيها عقول صافية وآذان واعية وقلوب شفيقة وأفئدة رفيقة، حتى أقص عليهم ما يجري على ابن آدم في الشرق، وأخمد النار

(١) الأزمنة، المجلد الأول، العدد ٦، دراسة بعنوان «جمال الدين الأفغاني في رده على أرنست رينان»، علي شلش، أيلول (سبتمبر) / تشرين الأول (أكتوبر)، ١٩٨٧م، ص ٥٠.

الملتهبة في قلبي من هذه البلايا، وأضع حمل هذه الهموم التي أنقضت ظهري.. وهذا هو سبب ذهابي إلى بلاد الإفرنج»[١].

تاريخ هذه الرسالة هو كانون الأول ١٨٨٢م. وقد كتبها على متن السفينة التي أقلته إلى باريس لدى رسوها في ميناء القاهرة، وقد سلمها باليد إلي أحد تلاميذه المصريين الذي عرف بقدوم الأفغاني على متن سفينة قادمة من الهند وجاء لتحيته. وطلب الأفغاني من تلميذه أن يبلغها سرا إلى مصطفى باشا. وأبحرت السفينة إلى لندن حيث مكث الأفغاني فترة تمكن في خلالها أن يستحصل على تأشيرة دخول إلى باريس التي بلغها في حدود العاشر من كانون الثاني ١٨٨٣م. وكان أول المرحبين به يعقوب صنوع الذي استضافه في منزله لأيام عدة وقال في جريدته «أبو نظارة» وهو يزف خبر قدوم الأفغاني، (وذلك في التاسع عشر من كانون الثاني ١٨٨٣م): «أيها الإخوة، وصل إلى باريس جمال الدين والعلم، معلمنا وأستاذنا الأفغاني». أما ثاني المرحبين فكان خليل غانم الذي نشر في جريدته «البصير» (٢٥ كانون الثاني ١٨٨٣م) خبر قدوم الأفغاني على النحو التالي: «قدم باريس في الأسبوع الماضي حضرة العلامة العامل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني الذي طار صيته في الآفاق، فعرفه القاصي والداني وشهرة اسمه تغنيان عن وصف علمه. ولكنا نقول إن بمثله يحق للشرق أن يتيه افتخاراً وينافس الغرب علنًا وجهاراً. كان حرس الله كماله في الهند يجوب بلدانها ويستطلع أحوال أهلها ويلاحظ عاداتهم ويدرس تاريخهم ويجتلي معارفهم». ويضيف الخبر: «ثم خرج منها قاصداً لوندرة (لندن) لزيارة بعض أصدقائه فيها. وبعد أن أقام بها أيامًا قليلة، أتى إلى باريس على جناح اليمن والإقبال، والمظنون أنه يبقى فيها مدة غير قصيرة».

ولم يقتصر الترحيب بالأفغاني على هاتين الصحيفتين العربيتين وإنما شمل أيضًا الصحف الفرنسية، فقد رحبت به صحيفة اليسار الفرنسي في ذلك الوقت الـ«الإنترأنزيجان» (L'intrnsigeant) واصفة إياه بأنه أحد «أشهر شخصيات

---

(١) راجع في هذا المجال، بالفارسية: «إسناد ومدارك چاپ نشده درباره سيد جمال الدين» مطبوعات جامعة طهران، ١٩٦٣م، ص ٣٧. وقد حقق هذه الرسالة إلى مصطفى باشا، علي شلش ونشرها في كتابه «الأفغاني وتلاميذه»، المركز العربي للإعلام والنشر، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٢٩ـ٥١. ونشرناه في هذه المجموعة «الآثار الكاملة» قسم الوثائق الخاصة بالسيد.

الشرق» . كما لصحيفة يسارية أخرى كلمة في قدومه . فقد تحدثت عنه «لاجستيس» (La Justice) واصفة إياه بالشيخ الورع المتزهد الذي يقطن شقة متواضعة في شارع دوسيز ويشغل نفسه بتعلم الفرنسية[١] .

إن الأشهر الأولى من وجوده في باريس صرفها جمال الدين في الكتابة والاطلاع على تاريخ فرنسا والغرب وصب اهتماماً خاصا على إتقان الفرنسية من أجل تأهيل نفسه، مثلما فعل في مصر والهند والأستانة من قبل، على الانخراط في الوسط الثقافي الفرنسي . وفي كل ذلك كان صديقاه يعقوب صنوع وخليل غانم خير معينين له، بالإضافة إلى صديق آخر هو أرنست فوكيلان الذي تعرف إليه الأفغاني في مصر وقد عاد فوكيلان إلى موطنه باريس بعد فشل الثورة العرابية وسيطرة الإنجليز على مصر .

ومما يذكر أن خليل غانم صاحب جريدة «البصير» أسهم بشكل فعال في تعريف الأفغاني إلى عدد من الشخصيات الثقافية والإعلامية الفرنسية . فقد عرفه إلى المستشرق ديولافوا وإلى المؤرخ أرنست رينان الذي كانت بينه وبين الأفغاني، فيما بعد، مناظرة غاية في الأهمية على صفحات الـ «جورنال دي ديبا» .

وقد تعرف الأفغاني في باريس أيضاً إلى الشاعر الفرنسي الشهير ڤيكتور هوغو . وتم هذا التعارف من طريق صديق مشترك هو الصحافي جان مير . كما عرفه صديقه الفرنسي فوكيلان إلى روشفور مسئول التحرير في جريدة الـ «الإنترأنزيجان» . أما جورج كليمنصو الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء فرنسا، وقد نشأت بينه وبين الأفغاني علاقة من الود والاحترام، فلا نعرف حتى الآن من قدم الأفغاني إليه، والجدير بالذكر أن كليمنصو كان مديراً لتحرير «لاجستيس» . وقد «كانت لقاءات الأفغاني بهؤلاء مؤثرة إلى حد بعيد وتركت انطباعات قوية لدى بعضهم، مثل روشفور ورينان، وجعلت روشفور وكليمنصو يستكتبانه في صحيفتيهما»[٢] .

---

(١) علي شلش، استناداً إلى :

Homa Pakdaman, Djamal ed-Din Assad Abadı, Paris, Maisonneuve et Larose, 1969, pp. 77 - 78.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٩ـ ٨٠ .

وعلى الرغم من أن جمال الدين كتب العديد من المقالات الهامة في الصحف العربية «أبو نظارة» و«البصير» والفرنسية (لاجستيس وإنترأنزيجان)، غير أن مقالته الأهم والتي تحققت شهرته البارسية على أساسها فهي التي تمثلت في رده على محاضرة رينان . . فما هي هذه المحاضرة؟ وما هو هذا الرد؟

محاضرة رينـــان

يذهب بعض المؤرخين للفكر الفرنسي في القرن التاسع عشر إلى أن أرنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م) واحد من أهم كتاب عصره. فهو أكثرهم إثارة وقد كان ميالاً لخوض المعارك الفلسفية والفكرية مع عدد من المثقفين والكتاب الفرنسيين. وإذ بدأ حياته الفكرية بدراسة اللاهوت، تحول فيما بعد من اللاهوت إلى الفلسفة، وتحديدًا عندما أدرك أن المسيحية لا تستطيع أن تلبي طموحاته، كما أن اللاهوت ليس بإمكانه استيعاب طاقته المتفجرة. وقد خرجت من بين يدي رينان ثلاثة من الكتب الهامة التي عرفتها الحياة الثقافية الفرنسية في القرن التاسع عشر، وهي: «تاريخ أصول المسيحية» وهو يقع في سبعة أجزاء و«تاريخ بني إسرائيل» و«ابن رشد ومذهبه».

وقد صرف رينان حيزًا مهما من دراساته للبحث في طبيعة العلاقة بين الدين والعلم. فكان لقاؤه بالأفغاني الذي يصفه رينان بـ «الملحوظ الذكاء» و«الآسيوي المستنير»، فرصة لمناقشته في أمر محدد وهو علاقة الإسلام بالعلم. وكانت هذه العلاقة محور المحاضرة التي ألقاها رينان في السوربون في التاسع والعشرين من آذار ١٨٨٣م.

وحتى الآن لا أحد يعرف متى تم اللقاء بين الأفغاني ورينان على وجه التحديد. فلا الأفغاني تحدث عنه ولا رينان حسم لنا زمان ومكان اللقاء، بل إن الأخير يخبرنا بأنه تم على يد صديقهما المشترك خليل غانم، وأن جمال الدين، مثلما يدعي رينان، هو من أوعز إليه بإلقاء محاضرة في السوربون يكون محورها الإسلام والعلم.

وأقصى ما نستطيع قوله عن تاريخ هذا اللقاء إنه تم في بداية أو منتصف شهر آذار من عام ١٨٨٣ م وهو الشهر الذي ألقى فيه رينان محاضرته الشهيرة.

ويبدو أن شخصية الأفغاني أحدثت تأثيراً كبيراً في نفس رينان حيث تخيله واحداً من (الملاحدة الكبار)! وأنه ابن سينا أو ابن رشد وقد بعث حيا من جديد! يقول رينان: «قليلون هم الذين تركوا في نفسي انطباعًا أقوى مما تركه هو. وقد ساقني حديثي معه إلى اتخاذ قرار باختيار الصلة بين الروح العلمية والإسلام موضوعًا لمحاضرتي في السوربون. فالشيخ جمال الدين الأفغاني متحرر، إلى أبعد درجة، من «الأهواء» الإسلامية (!!) وينتمي إلى تلك الأجناس الإيرانية (!) النشطة التي تعيش قرب الهند حيث ما تزال الروح الآرية[١] متقدة تحت القشرة المصطنعة للإسلام الرسمي، وهو يشكل أفضل برهان على صحة البدهية العظيمة التي طالما نادينا بها وهي أن الأديان تقيم بالأجناس التي تعتنقها. وقد جعلني تحرر تفكيره وشخصيته النبيلة الوفية أتمثله، وأنا أتحدث إليه، واحداً من معارفي القدامى وقد عادت إليه الحياة مثل ابن سينا أو ابن رشد أو سواهما من أولئك الملاحدة[٢] الكبار الذين قاموا بتمثيل تقاليد العقل البشري على مدى خمسة قرون. ويالها من مفارقة شديدة حين رحت أقارن بين ظهوره المثير هذا وما يدور في البلاد الإسلامية الواقعة على ذلك الجانب من بلاد فارس، حيث يندر وجود الفضول العلمي والفلسفي (!). فالشيخ جمال الدين إنما يشكل أبلغ حالات الاحتجاج العرقي - التي يمكن التنويه بها - على الفتوحات القائمة على الدين».

❊ ❊ ❊

---

(١) هذه العبارة تشير، وبما لا يرقى إليه الشك، إلى اتجاه عرقي عند رينان للتمييز بين الأجناس، وتفضيل جنس على آخر حيث يحط هنا من شأن الجنس السامي مقابل إعلاء الجنس الآري.

(٢) لا نعرف بالتحديد ماذا عنى رينان بكلمة ملاحدة، فلا ابن سينا ولا ابن رشد في القرون البعيدة ولا الأفغاني في العصر الحديث أدلوا برأي أوبموقف فكري قد نستشف منه دليلاً على الإلحاد. والأرجح أن رينان يقصد بالملحدين الفلاسفة. والكلمة هنا تحمل معنى مجازيا. وقد انطلق رينان من مقولة إن الفلسفة تتعارض في كثير من المواقف مع الدين. وهو في هذا تحديدًا ينطلق من تجربة الفلسفة الأوروبية التي لاقت الأمرين على يد الكنيسة.

على أي حال فنحن نعمل هنا على تسليط الضوء مرة أخرى على ما قاله رينان في محاضرته. لقد ألقيت المحاضرة، مثلما نوهنا قبل قليل، على منبر السوربون في التاسع والعشرين من آذار ١٨٨٣م، وفي ذات اليوم نشرت في صحيفة الـ «جورنال دي ديبا».

يدشن رينان محاضرته بالكلام على أحوال الأقطار الإسلامية فيلاحظ أنها تعيش في العصر الحديث خواء فكريا وثقافيا. وهذا عائد إلى الحكم الإسلامي في هذه الأقطار. فالمسلمون مقتنعون، منذ الصغر، بأنهم مكتفون ذاتيا من ناحية العلوم والمعارف «حتى أن الطفل المسلم ينشأ على التعصب معتقداً أنه وصل إلى الحقيقة المطلقة سعيدا بذلك كأن نقصه وتخلفه امتياز يرتجى، وهذا الغرور الجنوني هو العيب الجوهري للمسلم. فالبساطة الظاهرة في دينه توحي إليه باحتقار الأديان الأخرى، وبذلك يحتقر الثقافة والعلم وكل ما يتعلق بأوروبا»[1].

ويطرح رينان تساؤلاً في وجه الذين كانوا يصيخون السمع إليه فيقول: هل هناك ما يمكن أن نطلق عليه علمًا إسلاميا، وإلى أي مدى يمكن أن يسمح الإسلام بهذا العلم ويتسامح معه؟ وإذا عمل على الإجابة عن تساؤله عاد إلى التاريخ الإسلامي ليقر بأن بلاد المسلمين لم تخل يومًا من أبرز العلماء والفلاسفة. وقد حدد تاريخًا يقع بين القرن الثامن والثالث عشر إذ في هذه الفترة الواقعة بين هذين التاريخين شهد العالم الإسلامي نهضة علمية وفكرية متقدمة، كما أن العالم الإسلامي، في تلك الفترة، تفوق حضاريا على العالم المسيحي. بل إن العالم الإسلامي، إبان تلك الفترة، لم يكن في سائر أرجاء المعمورة ما يناظره ويماثله في نهضته الفلسفية والعلمية.

غير أن هذه النهضة العلمية والفلسفية، كما يلاحظ رينان، سرعان ما ذهبت أدراج الرياح، فأصبحت كلمة فلسفة ترادف كلمة زندقة، وأن لقب فيلسوف يعرض صاحبه للملاحقة والاضطهاد. ولم يبق هذا السقوط الحضاري منحصراً في

(١) جمال الدين الأفغاني في رده على أرنست رينان، الأزمنة، مصدر مذكور سابقًا، وذلك نقلاً عن نص المحاضرة التي نشرتها الـ «جورنال دي ديبا» فى كراس خاص من ٢٤ صفحة بعنوان:
L'islamisme et la Science, Paris, C. Levy, 1883.

الشرق الإسلامي بل تعداه إلى الأندلس حيث أصيبت نهضتها المماثلة بالسقوط والاندثار.

ولكن رينان ينصف العرب المسلمين قليلاً إذ يعقب على هذا السقوط الحضاري بالقول: «ومع ذلك ما كانت أوروبا لتعرف شيئًا عن العلم والفلسفة عند الإغريق لولا الترجمات العربية. وما كان الغرب ليعرف شيئًا عن اليونان لولا ابن رشد الذي مات حزينًا مهجورًا في الغرب»(١).

ولفت رينان نظر المستمعين إلى محاضرته إلى أن الفلسفة لاقت الاضطهاد في البلدان التي تدين بدين الإسلام إلى درجة أنه تم منعها في العام ١٢٠٠م. وسرعان ما برز الأتراك على المسرح حيث طمسوا كل ما يتعلق بالفلسفة والعلم.

وهنا يصل رينان إلى طرح سؤال آخر، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا الرجل كان يضمر موقفًا مسبقًا، سلبيا في جوهره ومضمونه، إزاء العرب وحضارتهم. فهو يتساءل: «هل العلم العربي، عربي بالفعل؟».

والجواب الذي قدمه رينان ينطوي على كثير من المغالطات، إذ إنه يقول في الشق الأول من جوابه بأن الفتوحات الإسلامية فرضت (!) اللغة العربية على البلدان المفتوحة. أما الشق الثاني من الجواب فينكر فيه على فلاسفة من مثل ابن رشد وابن سينا أن يكونوا عربًا، وذلك على الرغم من أنهم كتبوا بلغة العرب. وعلى هذا فإن اللغة التي يستخدمها الفيلسوف أو العالم في كتاباته لا تكفي لنسبته إلى جنسية معينة. فأساس هذه النسبة هي الجنس والموطن الأصلي ويذهب رينان إلى اعتبار الكندي هو الوحيد الذي يمكن أن نطلق عليه لقب «الفيلسوف العربي» على حين أن ما تبقى من أولئك الفلاسفة المنسوبين، خطأ، إلى العرب، إما من فارس أو من آسيا الوسطى أو من إسبانيا «وهؤلاء لم يكونوا عربًا في دمهم ولا كانوا عربًا في روحهم، بل إن اللغة العربية لم تصلح للميتافيزيقيا، وكان فلاسفة العرب عمومًا، كتابًا غير لامعي الأسلوب في العربية»(٢).

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٣.

وانطلاقًا من موقفه المسبق إزاء العرب والمسلمين يتساءل ما إذا كان هذا العلم إسلاميا بعد أن (أكد) على عدم عروبته (ولكن دون أن يقنع أحدًا وحتى من الفرنسيين أنفسهم كما سنرى بعد حين). وجواب رينان، في هذا الإطار، يمكن أن نلخصه على الوجه التالي: فالإسلام، بما هو روحي وزمني، فرض سلطته على العلوم والفلسفة، وكانت الاثنتان مضطهدتين في ظله. لكنه يميز بين فترتين في تاريخ الإسلام: تمتد الأولى منذ ظهور الدعوة الإسلامية وحتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي. وقد شهدت هذه الفترة ازدهارًا على صعيد الفلسفة والعلوم والمعارف الأخرى. لكن هذا الازدهار جاء على يد الفرق والشيع المختلفة، وأيضًا على يد المعتزلة الذين كانوا يمثلون في ذلك الوقت نزعة إصلاحية (پروتستنتية).

أما الفترة الثانية فتمتد من بداية القرن الثالث عشر حتى الوقت الحاضر (أي منتصف القرن التاسع عشر) حيث ساد الحكم المطلق للإسلام فطمس ما عداه انطلاقًا من أنه يمثل في المجتمعات التي دانت به كلاً من السلطتين الروحية والزمنية. وهذه الفقرة من حديثه يختمها رينان بالقول: «. . . وحكم العقيدة الجامدة (!) هو أثقل قيد عرفته البشرية»(١).

ولعل هذا التمييز الذي لاحظه رينان في تاريخ الإسلام حيث انتصفه إلى نصفين، نصف مؤيد للعلوم والفلسفة ونصف آخر مضطهد لهما، إن هذا التمييز لجهة التاريخ يتبعه بتمييز آخر يتعلق بالإسلام نَّفسه. فالإسلاَّم إبان عصوره الأولى كان ضعيفًا وغير متماسك، ومن أجل ذلك فقد أبدى تسامحًا إزاء المعارف المختلفة ومن بينها العلم والفلسفة. هذا ما كان في العصور الوسطى وما قبلها. أما عندما أشتد ساعده وأصبح متماسكًا في بنيته وفي دولته، فقد لجأ إلى اضطهاد هذه المعارف والحد من نشاطها.

* * *

هذا موجز ما قاله رينان في محاضرته، بل أهم ما قاله. ولعل نظرة ممعنة في مضمون هذه المحاضرة تجعلنا وجهًا لوجه مع عدد من الحقائق. أولى هذه الحقائق

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٣.

أن أرنست رينان يعتبر رمزًا لتيار فكري انتشر في فرنسا والغرب إبان القرن الماضي. أما مضمون هذا التيار فهو التمييز بين الأمم والشعوب على أساس عرقي. وهذا ما يبدو واضحًا في تمييزه بين الفرس (الآريين) القادرين على أن ينهضوا بأمور العلم والفلسفة، وبين العرب (الساميين) الذين لم يمن عليهم الله بهذه النعمة!

ثاني هذه الحقائق أن رينان يطلق لقب الملاحدة على أناس لا ينطبق عليهم في أي حال من الأحوال. وعلى الرغم من المعنى المجازي لهذه الكلمة فإن أرنست رينان تسرع كثيرًا في استخدامها لأنها تشير إلى أناس يحملون أفكارًا تتناقض مع الدين، الأمر الذي لا ينطبق لا على ابن رشد ولا على ابن سينا أو الأفغاني. وهذا دليل، من بين أدلة أخرى، على أن رينان غير مطلع بما فيه الكفاية على الفكر الفلسفي لكل من هؤلاء، علمًا أن هؤلاء الثلاثة انطلقوا في عملية التفلسف من الخلفية التي أمنها لهم الدين الإسلامي. ولا بد أن نذكر في هذا المجال المجهود الفذ الذي بذله ابن رشد للتوفيق فيما بين الدين والفلسفة والبرهنة على عدم تعارضهما، وذلك في دراسته الشهيرة بعنوان: «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال»[١]. ولعلنا لا نغلو في القول إن التيار الذي أسس له ابن رشد، وهو تيار التوفيق بين الدين والفلسفة أو بين الحكمة والشريعة، لا يزال مفعوله ساريًا إلى الآن في بعض الأدبيات الفلسفية المعاصرة.

ثالث هذه الحقائق أن اضطهاد الفلسفة والعلم في البقعة العربية الإسلامية لم يأت نتيجة علة في الإسلام نفسه، مثلما صورها لنا أرنست رينان (وهو ينطلق هنا من رأي جاهز ومسبق ومعاد لأي دين بوصفه خصمًا ومنكلاً بالفلسفة، وذلك انطلاقًا مما حل بالفلسفة الأوروبية على يد الكنيسة) وإنما في السلطة السياسية، في فترات تاريخية معينة، وهي التي نكلت بالفلسفة والعلم حفاظًا على مصالحها لا على مصالح الإسلام. وهنا لا بد من روية خلل آخر في محاضرة رينان. فهو لم يرجع إلى النصوص الإسلامية الرسمية (من قرآن وحديث) لمعرفة ما إذا كانت تحض على العلم وحرية التفكير أم لا. بل إن رينان استسهل الأمر وبنى حديثه على

---

(١) راجع هذا الكتاب والدراسة المرفقة به للدكتور محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م، ١٠٢ صفحة.

فترات في التاريخ الإسلامي شهدت ضموراً في الخطاب العلمي والفلسفي، وعلى هذا فقد تناسى الأساسي والثابت وركز على المتغير والمتحول.

رابع هذه الحقائق أن أرنست رينان اعتبر في محاضرته أن العلم في تاريخ المسلمين لم يزدهر إلا على يد الفرق والشيع (وعلى يد النزعة البروتستنتية المتمثلة بالمعتزلة). وكأنا به يريد أن يقول بأن مثل هذه الأمور، من فلسفة ومعارف وإصلاح ديني، يعود الفضل فيها إلى تلك الفرق التي ظهرت وعاشت في كنف الإسلام. وهي، مثلما نعرف، فرق ذات جذور وخلفيات غير عربية. وهذا تأكيد مرة أخرى على نظرته العرقية وذلك في تمييزه بين العرق السامي والعرق الآري.

رد الأفغاني على رينان

على أي حال فإن الصدى الذي أحدثته محاضرة أرنست رينان عن «الإسلام والعلم» كان كبيراً جدا سواء وسط المثقفين الفرنسيين أو بين الكتاب والمثقفين العرب والمسلمين المتواجدين، آنذاك، في العاصمة الفرنسية. والحقيقة أن الأفغاني لم يعلم بأمر المحاضرة إلا بعد أيام عديدة. فقد لفت انتباهه مقال في جريدة «البصير» كتبه أحد الفرنسيين الجزائريين وفيه رد عنيف على رينان. وهذا الرد الذي يقول الأفغاني عن كاتبه بأنه «أحد أفاضل الفرنسيس الجزائريين» وقد كتبه حرصًا على المصالح الفرنسية في الجزائر، حمل جمال الدين على الرد عليه في مقال نشرته «البصير». وحمل المقال نفس العنوان الذي اختاره رينان لمحاضرته وهو «الإسلام والعلم»، وقد افتتحه بالآية القرآنية الكريمة: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

قال الأفغاني في مطلع مقاله: «إن رينان الفيلسوف قد ألقى في باريس، كرسي الحرية، خطابًا (محاضرة) جعل موضوعه الإسلام والعلم، وأظهر فيه أفكاره التي ذهبت به إليها الشواهد التاريخية. وما حاد في خطابه عن سنة الأدب، وما تجاوز حدود الكمال الذي يقضي به وجوب احترام الأمم فيما تنتحله دينًا».

بعد هذه الكلمات المجاملة دخل الأفغاني صلب الموضوع مبينًا أن «عظماء الأمة الفرنسوية» ممتعضون جدا من (الخطاب) الذي ألقاه رينان في السوربون. ويبدو أن

مقالة الشخص الفرنسي الجزائري في جريدة «البصير» ـ وهي التي لفتت انتباهه إلى محاضرة رينان ـ قد أثلجت صدره إذ استطاع أن يفند هفوات رينان «وأقام الأدلة على سقطاته، وذاد عن الديانة الإسلامية، ودافع عن المسلمين، وأبان ما كانوا عليه من الدرجة الرفيعة في الآداب والفلسفة، ما دعاه إلى مقالته هذه إلا فضيلة مراعاة الأمم في أديانها وحسن السياسة».

وفي هذا المقال إلى جريدة البصير (عدد ٣ أيار ١٨٨٣م) عقد الأفغاني نوعًا من المقارنة بين الفرنسيين أصحاب السياسة الدينية المتسامحة، وبين الإنجليز الذين يتحكمون برقاب خمسين مليونًا من المسلمين وقد أفلتوا عليهم القسس البروتستانت دون أن يمكنوهم من الدفاع عن دينهم.

وإذ لم تكن لغته الفرنسية تسعفه على قراءة محاضرة رينان وفهم مصطلحاتها الفلسفية والدينية طالب جمال الدين بترجمتها. وبعد أن تحقق له ذلك واطلع على المحاضرة بنصها العربي كتب ردًا مسهبًا مفندًا فيه مزاعم رينان ومبينًا أخطاءه التاريخية والدينية، وهي أخطاء لا تعد. لكن الأقدار السوداء كانت تتربص بالأفغاني مرة أخرى. فقد أقنعه صديقه خليل غانم، مدير تحرير الـ «جورنال دي ديبا» (وكان أرنست رينان واحدًا من كتابها)، بنشر الرد في جريدته. وهكذا اضطر جمال الدين لدفعه إلى الترجمة وبيد خليل غانم نفسه. لكن النص الفرنسي للرد جاء غريبًا ومختلفًا كليا عن النص العربي، بل جاء وكأنه يؤيد ـ وهذا ليس من طبيعة الرد، أي رد ـ أقوال رينان ومزاعمه. علمًا أن النص العربي للرد اختفى في أدراج الـ «جورنال دي ديبا» ولا يزال مختفيًا إلى الآن.

وعلى هذا الأساس فنحن لا نملك اليوم سوى النص الفرنسي المنشور في الـ«جورنال دي ديبا» بتاريخ ١٨ أيار ١٨٨٣م، وهو النص الذي كان سببًا لحملة واسعة من التجني على جمال الدين الأفغاني. وقبل أن نورد عددًا من ردود الفعل على هذه المقالة / الرد، في العالم الإسلامي، وقبل أن نبين بعض مواطن الخلل فيها نرى أن نقتطف أبرز ما جاء فيها:

رد الأفغاني على رينان

«الإسلام والعلم»

سيدي،[١]

طالعت في عدد ٢٩ آذار (مارس) الماضي من جريدتكم الغراء خطابًا (محاضرة) عن الإسلام والعلم ألقاه في السوربون، على جمع من الفضلاء، أكبر فيلسوف في زماننا مسيو رينان الذائع الصيت الذي طبقت شهرته أرجاء الغرب ونفذت إلى أقصى أصقاع الشرق.

ولما كان هذا الخطاب قد أوحى إليّ ببعض الملاحظات، فقد أجزت لنفسي أن أصوغها في هذه الرسالة التي يشرفني أن أوجهها إليكم، راجيًا التكرم بإدراجها في أعمدة جريدتكم.

لقد أراد مسيو رينان أن يجلو نقطة ظلت مغمورة حتى اليوم في تاريخ العرب، وأن يلقي ضوءًا ساطعًا على ماضيهم قد يزعج أولئك الذين يحملون إعجابًا خالصًا لهذه الأمة التي لا يمكن الزعم أنها اغتصبت ما سبق أن احتلته في العالم من مكانة ورتبة. بل إن ميسو رينان لم يسع قيد شعرة، في اعتقادنا، إلى هدم مجد العرب الذي لا يهدم، وإنما اجتهد في اكتشاف الحقيقة التاريخية والتعريف بها لمن يجهلها، وكذلك لمن يدرس أثر الأديان في تاريخ الأمم، خصوصًا ما هو متعلق بالمدنية.

---

(١) آخر ترجمة لرد الأفغاني على رينان عن الأصل الفرنسي أنجزها الدكتور علي شلش. وقد اعتمدناها هنا ظنا منا أنها الترجمة الأدق!

وأسارع فأعترف بأن مسيو رينان أبلى أروع البلاء في هذه المهمة الشاقة حين أورد بعض الحقائق التي لم يفطن لها أحد حتى اليوم. وأجد في خطابه ملاحظات رائعة ولمحات جديدة وسحراً لا يوصف. ومع ذلك فليس أمامي سوى ترجمة أمينة تقريبًا لهذا الخطاب. ولو كنت أملك أن أطالعه في نصه الفرنسي، لاستطعت سبر أغوار أفكار هذا الفيلسوف الكبير على نحو أفضل. فإليه أزف تحيتي المتواضعة علامة الإجلال الذي هو أهله، وتعبيراً خالصًا عن إعجابي. وأقول له في مثل هذه الأحوال، في النهاية، ما قاله المتنبي، الشاعر الذي كان يهوى الفلسفة، في شخصية رفيعة المقام، مادحًا أعمالها قبل قرون:

خذ من ثناي عليك ما أستطيعه لا تلزمني في الثناء الواجبا(١)

لقد اشتمل خطاب مسيو رينان على نقطتين أساسيتين. فقد اجتهد الفيلسوف الأشهر في بيان أن الديانة الإسلامية معادية في جوهرها لتطور العلم، وأن الأمة العربية لا تميل بطبيعتها إلى علم ما وراء الطبيعة ولا إلى الفلسفة. ولعل مسيو رينان يريد أن يقول إن هذا الغرس النفيس قد ذوى على يدها، كأنما صوحه هبوب الريح في الصحراء. لكن المرء لا يملك، بعد مطالعة هذا الخطاب إلا أن يتساءل: هل صدرت هذه العوائق عن الديانة الإسلامية ذاتها فانفردت بها، أم عن الطريقة التي انتشرت بها في العالم؟ هل صدرت عن طابع الأمم التي اعتنقت هذه الديانة وأخلاقها واستعداداتها، أم عن الأمم التي أكرهت على اعتناقها(٢)؟

لا شك أن ضيق الوقت هو الذي حال بين مسيو رينان وبين توضيح هذه النقاط. لكن الضرر هنا ليس بالكثير. وإذا كان من الصعب تحديد العلل (الأسباب) بطريقة دقيقة وبراهين لا تقبل الجدل، فمن الأصعب أيضًا الإشارة إلى الدواء.

---

(١) هذا البيت من قصيدة للمتنبي يمدح فيها علي بن منصور الحاجب، ويقول مطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا

(٢) لعل هذه العبارة الواقعة في الشق الأخير من السؤال تقوم دليلاً على أن رد الأفغاني على رينان قد نشر في الفرنسية مشوهًا إذ لا يعقل أن تكون هذه العبارة قد صدرت عن مفكر من وزن الأفغاني الذي يعرف أن أحد أهم المبادئ التي انتشر الإسلام على أساسها هو أن ﴿لا أكراه في الدين﴾.

أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى، فأقول إنه لا توجد أمة قادرة، عند نشأتها، على الأهتداء بالعقل الخالص. فالأمة التي في مثل هذا الطور تنتابها مخاوف لا تستطيع الفكاك منها، فتعجز عن تمييز الخير من الشر ومعرفة ما يكون سبب سعادتها مما قد يكون المصدر الثابت لتعاستها وشقائها، وبذلك لا تدري باختصار كيف تكشف عن العلل (الأسباب) أو تفطن إلى المعلولات (النتائج).

والوقوع في هذه الهوة يعني أنه لا يمكن إنقاذ الضحية بالإكراه أو بالإقناع، ومساعدتها على ممارسة الأعمال التي قد تفيدها أو تفادي ما يضرها. ومن ثمة كان لا بد للبشر من أن يبحثوا خارج حدودهم عن ملاذ أو ركن هادئ يهجع إليه ضميرهم المعذب. وهذا ما استوجب ظهور معلم أو أشبه لم يكن يملك - كما ذكرت آنفًا - السلطة اللازمة لإكراههم على اتباع وحي العقل، فقذفهم داخل المجهول، وفتح لهم آفاقًا شاسعة سعد بها خيالهم، ووجدوا فيها على الأقل أرضًا غير محدودة لتطلعاتهم إن لم يكونوا قد وجدوا الإشباع الكامل لرغباتهم. ولما كان البشر، عند نشأتهم، لا يدركون علل الحوادث التي تقع تحت أبصارهم، وكذلك أسرار الأمور، فقد انقادوا بحكم الظروف إلى اتباع نصح معلميهم وتنفيذ أوامرهم. وتم فرض هذه الطاعة باسم الكائن الأسمى الذي نسب إليه المعلمون جميع الحوادث دون أن يسمحوا للناس بمناقشة نفعها أو أذاها. وهذه بالنسبة للإنسان، أثقل وأذل عبودية فيما أعرف. لكني لا أستطيع إنكار أن جميع الأمم ما خرجت من حال الهمجية إلا بهذه التربية الدينية، سواء اكانت إسلامية أو مسيحية أو وثنية، وما زحفت نحو مدنية أكثر تقدمًا إلا بها.

وإذا صح أن الديانة الإسلامية تشكل عقبة أمام تطور العلوم، فهل يمكن الجزم بأن هذه العقبة لن تزول يومًا ما؟ بم تختلف الديانة الإسلامية في هذه النقطة عن بقية الديانات؟ إن جميع الديانات لا تخلو من التعصب[١]، ولكل منها طريقتها الخاصة في ذلك. فالديانة المسيحية، أعني الجماعة التي تتبع أفكارها وتعاليمها الموحاة

---

(١) هذا رأي لا علاقة للأفغاني به كما نعتقد، إذ إن المطلع الجيد على أفكاره يعرف أنه يقف ضدا لهذا الرأي جملة وتفصيلاً. فهو ينبذ التعصب ويعتبره آفة كبيرة. كما أن الديانات كافة عنده براء من آفة التعصب. ونرجح أن الأفغاني أراد أن ينعت بالتعصب أصحاب هذه الديانات لا الديانات نفسها.

وتتشكل على صورتها، خرجت من الطور الأول الذي ألمحت إليه قبل قليل، وصارت حرة ومستقلة، تخطو بسرعة على طريق التقدم والعلوم. في حين أن الجماعة الإسلامية لم تتخلص بعد من وصاية الدين. ومع ذلك إذا تذكرنا أن الديانة المسيحية سبقت الديانة الإسلامية في العالم بقرون عدة، فإني لا أنفك أرجو أن تنجح الجماعة المحمدية يوما ما في تحطيم قيودها(!) والسير بعزم على طريق المدنية مقتفية خطى الجماعة الغربية التي لم تشكل لها العقيدة المسيحية أي عقبة كئود على الإطلاق على الرغم مما في هذه العقيدة من ألوان القسوة والتعصب (. .) ولم ينزع رؤساء الكنيسة الكاثوليكية الموقرون أسلحتهم بعد فيما أعلم. فما برحوا يحاربون بلا هوادة ما يسمونه روح الضلال والخطأ. وإني لمدرك جميع الصعاب التي سيكون على المسلمين تخطيها في سبيل تحقيق الدرجة نفسها من المدنية، والتوصل إلى الحقيقة بمساعدة الأدوات والطرائق الفلسفية والعلمية.

(. .) وأعرف أيضًا أن ذلك الطفل المسلم والعربي الذي يرسم مسيو رينان صورته بكلمات نابضة والذي يصبح في وقت لاحق، كما يقول: «متعصبًا مزهوا بحيازة ما يعتقد أنه الحقيقة الكاملة»، إنما ينتمي إلى جنس ترك آثار خطاه في الدنيا، لا بالنار والدم وحدهما، ولكن بأعمال فذة وخصبة تدل على تذوقه للعلوم، كل العلوم، بما فيها الفلسفة التي يجب أن أعترف بأنه عجز طويلاً عن تدبير شئونها.

عند هذا الحد أصل إلى الحديث عن النقطة الثانية التي تناولها مسيو رينان. فلا أحد ينكر أن الأمة العربية هرعت إلى طريق التقدم الفكري والعلمي بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاتها. فعلى مدى قرن من الزمن اكتسبت واستوعبت معظم العلوم التي كانت عند الإغريق والفرس، والتي طوروها تدريجًا خلال قرون على أراضيهم في الوقت الذي مدت (هذه الأمة) سيطرتها على شبه الجزيرة العربية إلى جبال الهملايا وقمة جبال البرانيس.

لعلي أقول إن العلوم، خلال تلك الفترة كلها، حققت بغير شك، تقدمًا مدهشًا عند العرب، في جميع الأقطار الواقعة تحت سيطرتهم. وكانت روما وبيزنطية عند ذاك مقر علوم اللاهوت والفلسفة والمركز المشرق الوهاج للمعارف البشرية كلها. وكان الإغريق والرومان سلكوا سبيل المدنية طوال قرون وساروا واثقين مطمئنين

على أرض العلم والفلسفة الشاسعة . ومع ذلك جاء عليهم حين من الدهر أهملت فيه بحوثهم وقطعت دراساتهم وسقطت آثارهم التي أقاموها شاهداً على العلم ، وطوى النسيان مؤلفاتهم القيمة . لكن العرب تبنوا ما أهملته الأمم المتمدنة وأضرموا ، من جديد ، نار العلوم المطفأة وطوروها وأضفوا عليها تألقًا لم تتمتع به من قبل . أوليس هذا علامةً وبرهانًا على حبهم الفطري للعلوم؟! صحيح أن العرب أخذو عن الإغريق فلسفتهم مثلما جردوا الفرس مما اشتهروا به خلال العصور القديمة . لكن هذه العلوم (. .) تطورت على أيديهم وتوسعت وتوضحت وكملت واكتملت وتناسقت بذوق سليم وبدقة وضبط نادرين .

أما الباقون ، مثل الإنجليز والألمان ، فلم يكونوا بعيدين عن روما وبيزنطية بمقدار بعد العرب عنهما يوم كانت حاضرة هؤلاء بغداد . وكان من الأيسر على أولئك (الأوروپيين) ، والحال هذه ، أن يستغلوا الكنوز العلمية التي دفنت في هاتين المدينتين العظيمتين[١] . بيد أنهم لم يبذلوا أي جهد في هذا الاتجاه ، حتى جاءت المدنية العربية فأضاءت بأنوارها ذرى جبال البرانيس ، وصبت على الغرب سناها وغناها . ورحب الأوروپيون بأرسطو الذي كان قد هاجر وصار عربيا ، لكنهم لم يفكروا فيه على الإطلاق يوم كان يونانيا وجاراً لهم . أوليس هذا برهانًا آخر لا يقل نصوعًا ، على التفوق الفكري عند العرب وارتباطهم الفطري بالفلسفة؟!

والحق أنه بعد سقوط المملكة العربية في المشرق والمغرب سقطت الأقطار التي كانت قد صارت مراكز كبيرة للعلم ، مثل العراق والأندلس ، فريسة للجهل مرةً أخرى ، وأصبحت مراكز للتعصب الديني . لكن المرء لا يمكن أن يستخلص من هذه الصورة المحزنة سوى أن التقدم العلمي والفلسفي في العصور الوسطى كان مصدره الأمة العربية التي سادت في ذلك الزمن .

إن ميسو رينان ينصف العرب في هذا . فهو يعترف بأنهم حافظوا على مشعل العلم وصانوه طوال قرون . فيا لها من رسالة نبيلة لأمة من الأمم . غير أنه في الوقت

---

(١) فات المترجم لنص الأفغاني أن روما وبيزنطية ليستا مدينتين . فنحن نقره بأن الأولى كانت بالفعل مدينة على حين كانت الثانية (أي بيزنطية) إمبراطورية عاصمتها القسطنطينية . وإذا كان قد فات المترجم هذا الأمر فنحن نستبعد أن يفوت الأفغاني . وهذا دليل آخر على خلل الترجمة .

الذي يسلم بأن الأقطار الإسلامية شهدت علماء ومفكرين نابهين للغاية منذ العام ٧٧٥ تقريبًا حتى قبيل منتصف القرن الثالث عشر، أي خلال نحو ٥٠٠ سنة، ويسلم أيضًا بأن العالم الإسلامي كان خلال تلك الفترة متفوقًا في الثقافة العقلية على العالم المسيحي، إذا به يقول إن فلاسفة القرون الأولى من تاريخ الإسلام، وكذلك رجال الدولة، كانوا في معظمهم من حران والأندلس وإيران. ولقد كان من بينهم أيضًا رجال من أبناء ما وراء النهر (أي كازخستان وتركستان)، وأحبار من نصارى الشام. ولست أبغي أن أغمط علماء الفرس حقهم من السجايا العظيمة، ولا أن أقلل من الدور الذي لعبوه في العالم العربي. ولكن لا بد من أن أقول إن الحرانيين كانوا عربًا، وإن العرب لم يفقدوا جنسيتهم (قوميتهم) حين احتلوا إسبانيا والأندلس بل ظلوا عربًا. وقد كانت العربية لغة الحرانيين قبل قرون من ظهور الإسلام. أما كونهم احتفظوا بديانتهم السابقة، وهي الصابئية، فلا يعني أن نعدهم غرباء عن الجنسية العربية، بل إن أحبار الشام أيضًا كانوا، في معظمهم، عربًا غساسنة اعتنقوا المسيحية.

وأما فيما يتعلق بابن ماجه وابن رشد وابن طفيل فلا يمكن القول إنهم أقل عروبة من الكندي لأنهم لم يولدوا في الجزيرة العربية، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار أن الأجناس البشرية لا تتميز بلغاتها، وأنه إذا اختفى هذا التمييز فلن يطول الزمن بالأمم حتى تنسى أصولها المتعددة. فالعرب الذين تكاتفوا في خدمة الديانة الإسلامية، وكانوا في الوقت ذاته من المقاتلين والصحابة، لم يفرضوا لغتهم على المغلوبين، وإنما حافظوا عليها لأنفسهم، وفعلوا ذلك بعناية غيور في كل مكان حلوا به وثبتوا أقدامهم فيه. ولا شك أن الإسلام غرس لغته وأخلاقه ومذهبه في الأقطار التي تغلغل فيها بالفتح ذي العنف المعروف. ومنذ ذلك الحين لم تستطع هذه الأقطار أن تتقي أثره، وإيران مثال على ما نقول. ولكن إذا عدنا إلى القرون التي سبقت ظهور الإسلام، لأمكن أن نجد اللغة العربية غير مجهولة تمامًا عند العلماء الفرس. والحق أن توسع الإسلام أتاح لها مجالاً جديدًا ورأى العلماء الفرس الذين اعتنقوا العقيدة المحمدية الشرف في أن يؤلفوا كتبهم بلغة القرآن.

ولا شك أن العرب لا يستطيعون أن يدعوا لأنفسهم المجد الذي جعل هؤلاء الكتاب لامعين. لكننا نعتقد أنهم ليسوا في حاجة إلى مثل هذا الادعاء. فعندهم ما يكفيهم من العلماء والأدباء المشهورين. وماذا يحدث لو عدنا إلى العهود الأولى للسيطرة العربية وتتبعنا، خطوة خطوة، أول مجموعة شكلت هذه الأمة الفاتحة التي بسطت سلطانها على الدنيا، واستبعدنا كل ما هو غريب عن هذه المجموعة أو المتحدرين منها، ولم نضع في حسباننا الأثر الذي أحدثته في العقول ولا الحافز الذي أتاحته للعلوم؟ ألا يؤدي بنا هذا، إذًا، إلى عدم الاعتراف للأمم الفاتحة بسجايا ومزايا غير تلك التي تنشأ عن الحقيقة المادية المتمثلة في الفتح؟ لو اتبعنا هذه الطريقة لأستعادت جميع الأمم المغلوبة استقلالها المعنوي الذاتي، ونسبت إلى نفسها كل المجد، ولم يبق للقوة التي احتضنت بذوره وطورتها حق شرعي في ادعاء أي نتفة منه.

بهذا المنطق ستقول إيطاليا لفرنسا إنه لا مازاران ولا بونابرت[١] ينتميان إليها، وسوف تطالب ألمانيا أو إنجلترا، بدورهما، بالعلماء الذين رحلوا عنهما إلى فرنسا وجعلوا كراسي الأستاذية فيها لامعة وزادوا تألق شهرتها العلمية. وسوف يطالب الفرنسيون، من جانبهم، بمجد أبناء تلك الأسر الشهيرة التي هاجرت إلى جميع أنحاء أوروبا عقب صدور مرسوم «نانت»[٢]. وإذا أمكن الادعاء بأن الأوروپيين جميعًا ينتمون إلى سلالة واحدة لأمكن الادعاء، عن عدل، بأن الحرانيين والشاميين - وهم ساميون - ينتمون، على قدم المساواة، إلى الأسرة العربية الكبيرة.

غير أنه يحق للمرء أن يتساءل عن سر اندثار المدنية العربية فجأة بعد أن ألقت

---

(١) يقصد الأفغاني جيل مازاران (١٦٠٢ - ١٦٦١م) وقد كان كاردينالاً إيطاليًا عينه لويس الرابع عشر وزيرًا له وكان الحاكم الفعلي، في فرنسا على مدى فترة طويلة.

ونابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) إمبراطور فرنسا، وهو من أصل إيطالي ومن كورسيكا بالتحديد.

(٢) هو المرسوم الصادر في العام ١٥٩٨م. وقد أصدره في ذلك العام هنري الرابع ملك فرنسا وسمح من خلاله بحرية العبادة للپروتستانت في فرنسا. وبعد قرابة التسعين عامًا أي في العام ١٦٨٥م عدل الملك لويس الرابع عشر هذا المرسوم، الشيء الذي حمل عشرات الألوف من الفرنسيين الپروتستانت على الهرب إلى خارج البلاد وخاصة إلى إنجلترا.

نوراً باهراً كهذا على الدنيا، وكيف لم تضأ هذه الشعلة منذ ذلك اليوم، ولماذا يعيش العالم العربي مدفوناً على الدوام في ظلمات حالكة؟

وهنا تتجلى مسئولية الديانة الإسلامية كاملة (!). فمن الواضح أنه حيثما استقر لها الأمر سعت إلى طمس العلوم. ويروي السيوطي أن الخليفة الهادي[١] أمر بقتل خمسة آلاف فيلسوف (!) في بغداد حتى يستأصل بذرة العلوم في الأقطار الإسلامية. وإذا سلمنا بأن هذا المؤرخ بالغ في تقدير عدد الضحايا، فحكمه على وقوع الاضطهاد يبقى صحيحًا على الأقل. وهذه وصمة ملطخة بالدم في تاريخ الديانة وتاريخ الأمة سواء بسواء (!) وأستطيع أن أجد في ماضي الديانة المسيحية حقائق مشابهة. فالديانات كلها متشابهة، أيا كان الاسم الذي تعرف به. وليس من الممكن تحقيق الاتفاق ولا المصالحة بين هذه الديانات والفلسفة. فالديانة (تفرض) على الإنسان تحرير عقيدتها واعتقادها، في حين أن الفلسفة تحرره من ذلك كاملاً أو جزئيا. فكيف إذاً يرجو المرء أن يحل الاتفاق بينهما؟

حين دخلت الديانة المسيحية، في أشد صورها تواضعًا وإغواءً، أثينا والإسكندرية اللتين كانتا كما يعرف الجميع، المركزين الأساسيين للعلم والفلسفة، وبعد ما ثبتت قدميها في هاتين المدينتين، كان همها الأول أن تقصي العلم والفلسفة الحقيقيين. فسعت إلى خنق هذا وتلك تحت الأشجار التي أظلت المناقشات اللاهوتية، من أجل تفسير الأسرار التي لا يمكن تفسيرها في ما يتعلق بالتثليث والتجسد والاستحالة[٢]. وهكذا الحال دائمًا. فكلما كانت اليد العليا للديانة، انقرضت الفلسفة. ويحدث العكس حين تحكم الفلسفة وتسود.

وما بقي البشر على قيد الحياة فلن يتوقف الصراع بين الجمود (!) والبحث الحر. وهو صراع بائس أخشى ألا يكون النصر فيه للفكر الحر لأن العامة تكره العقل الذي

---

(١) هل الخليفة الهادي وأمثاله فى التاريخ الإسلامى هو «الديانة الإسلامية كاملة»؟

(٢) التثليث، لدى المسيحيين، هو الاعتقاد أن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة: الأب والابن والروح القدس. والتجسد هو اتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية في يسوع المسيح. والاستحالة هي تحول الخبز والخمر في المناولة إلى جسد المسيح ودمه (انظر: علي شلش، مصدر مذكور، ص ٦٦).

لا يفقه تعاليمه إلا بعض الأذكياء من الخاصة، ولأن العلم أيضًا، بالرغم من جماله، لا يدخل الإشباع الكامل على البشر الذين يتعطشون إلى المثل العليا وينزعون إلى الغرس في المناطق المظلمة النائية.. وهذه لا يملك الفلاسفة والعلماء أن يدركوها ولا أن يرتادوها].[1]

---

(١) ترجمة مغرضة:

إن نظرة متأنية إلى رد الأفغاني على رينان تحملنا على الاقتناع بأن ثمة مكيدة أخرى تعرض لها الرجل في باريس (كرسي الحرية). ولسنا نستبعد بأن تكون إدارة التحرير في صحيفة الـ «جورنال دي ديبا» هي وراء المكيدة. وإلا لماذا لم يسمح للأفغاني بتوضيح موقفه بعد نشر الرد محرفًا ومشوهًا وقد تعرض للحذف والإضافة وهما الشيئان اللذان كان الأفغاني يشكو منهما، الأمر الذي حمل جريدة الـ «إنترأنزيجان»ـ وهي الجريدة التي انتقل الأفغاني للكتابة فيها بعد امتعاضه مما حصل له مع الـ «جورنال دي ديبا»ـ... مما حملها على تصدير مقالته المسلسلة حول المهدي (بتاريخ ٨ و١١ و١٧ كانون الأول ١٨٨٣م) بالقول إنها «تنشر هذه الدراسة كما هي دون إضافة أو حذف»؟!

ولعل الشيء الذي يجعلنا على قناعة تامة بأن الدين، ونظرًا إلى تأثيره المتفاقم في البلدان الإسلامية وصوته المسموع داخل الحركات السياسية في هذه البلدان، كانت تتربص به الأقدار السوداء في باريس مثلما تربصت به في مصر وإيران والهند والأستانة. فالمطلوب إزالة هذا الرجل. كوجود سياسي ومعنوي، وذلك لا يتم إلا بتسويد صفحته بين المسلمين. وجمال الدين، صاحب التاريخ السياسي المبني على الأيديولوجيا الإسلامية وقد ذهب إلى باريس لقربها من الشرق وكيما يساهم في نهضة ا لمسلمين ويقظتهم... إن رجلاً هذا شأنه لا يمكن أن يوافق أرنست رينان في رأيه عن الإسلام وموقفه من العلم. وقد رأينا كيف تحدث عن هذا الموضوع في مقالته القصيرة المنشورة في جريدة «البصير» عن امتعاض وغضب «عظماء الأمة الفرنسوية» مما جاء على لسان رينان بخصوص الإسلام.. فكيف عن امتعاضه وغضبه هو بنفسه؟!

إن الأفغاني، وهو الذي عرف بطيبته ونبله وثقته بالآخرين، وضع النص العربي للرد في عهدة (صديقه) خليل غانم، فكان أن حذفت أشياء وأضيفت أشياء وحرفت أشياء. وكل ذلك من أجل قطع الصلة بين الأفغاني وبين المسلمين وهو الذي أصبح ـ بعد الرد على رينان ـ متهمًا بأنه طعن بالإسلام الذي خنق الفلسفة والعلم.

ولعلّ قراءة نقدية واعية لردّ الأفغاني على رينان، بنصه الفرنسي، ربما أخرجت الكثيرين من الحيرة التي تخبطوا فيها طويلاً. فالأفغاني يتساءل في مطلع رده على رينان قائلاً: «هل صدرت هذه العوائق (المعادية للعلم بنظر رينان) عن الديانة الإسلامية ذاتها فانفردت بها أم عن الطريقة التي انتشرت بها في العالم؟ هل صدرت عن طابع الأمم التي اعتنقتها وأخلاقها واستعداداتها أم عن الأمم التي أكرهت على اعتناقها؟

=

. . . .

. . . .

= إن الملفت في هذا التساؤل ـ وقد طرحه رينان ولم يجب عليه من أجل تعميق الشك في النفوس ـ هو أن الأفغاني أيضًا طرحه في سياق تفنيد أقوال رينان ومزاعمه لكنه أيضًا، لم يقدم جوابًا. فكيف يكون الرد إذن وما عسى يكون معناه ما لم يقدم أجوبة عن الأسئلة المطروحة، علمًا بأن الأفغاني كان بإمكانه، واستنادًا إلى النصوص الإسلامية الرسمية من قرآن وحديث، تقديم جواب كاف وواف وبالشكل الذي يدحض مزاعم رينان. ونحن هنا أمام احتمالين لا ثالث لهما: فإما أن الأفغاني لم يطرح هذا التساؤل إطلاقًا في النص العربي (وإلا لكان أجاب عنه). . وقد أضيف إلى الترجمة الفرنسية، وإما أن يكون قد أجاب عنه، لكن الجواب حذف!

ولو افترضنا جدلاً أن الأفغاني طرح هذا التساؤل دون أن يجيب عنه مثلما فعل رينان، وهذا أمر مستبعد، فإنه يوضح لنا نظرة الأفغاني لهذه المشكلة، أي مشكلة الإسلام والعلم. فالأفغاني يفصل بين الإسلام والمسلمين، أو بين الديانة ومعتنقيها. فليست الديانة (الدين) هي التي عوقت العلم والفلسفة ومنعت ازدهارهما بل إن السبب يعود إلى معتنقي هذه الديانة. أما بالنسبة للبقعة العربية الإسلامية فليست الديانة هي التي عرقلت مسيرة العلم وإنما هم المسلمون أو بعضهم. أما سبب ذلك فهو ليس دينيا بقدر ما هو سياسي محض يتصل بتكريس السلطة السياسية وبترسيخ أقدامها.

ولدينا من الوقائع ما يجعل الترجمة الفرنسية للرد موضع شبهة. فالأفغاني بعد أن نشر رده مترجمًا عرف من طريق أحد المتضلعين في هذه اللغة ما أصاب مقاله من تحريف وتشويه وما تضمنه من أخطاء. ويبدو أنه عرف أيضًا بأن إدارة الـ «جورنال دي ديبا» أدارات له ظهر المجن وهي، بالتعاون مع أطراف معينة داخل باريس وخارجها، ترمي إلى تشويه صورته في العالم الإسلامي. ومن أجل ذلك أسرع الأفغاني وبعث بنسختين من العدد المنشور فيه رده والمؤرخ في ١٨ أيار ١٨٨٣م إلى تلميذه محمد عبده. وقد أرفق هاتين النسختين برسالة بخط يده يوضح فيها أن الرد على رينان أصابه تشويه كبير وتضمن أخطاء كثيرة. وظن محمد عبده أن ما يتحدث عنه أستاذه من تشويه وأخطاء إنما يتعلق باللغة وبأخطاء مطبعية وهي شيء مألوف في الصحافة، فأوكل ترجمة الرد إلى العربية إلى صديقه حسن بيهم. وبعد أن أنهى هذا الأخير المهمة الموكولة إليه عرف محمد عبده إلى ما رمى إليه أستاذه لجهة التشويه والأخطاء، فحمد الله لأن الرد لم يقع في أيد أخرى ولأنه أوكل الترجمة إلى حسن بيهم صاحب اللسان الدافئ. . وهكذا اندفع المكروه![1]. .".

. . لقد أخذ محمد رشيد رضا على المحاضر في مقالة له نشرتها «الأهرام» أنه لم يتمكن من تقديم أفكار رينان أو أفكار الأفغاني. كما أنه ارتكز في حديثه عن الأفغاني على ترجمة عربية مأخوذة في الوقت عينه عن ترجمة ألمانية لرد الأفغاني على رينان وقد تساءل محمد رشيد رضا عما إذا كان مضمون رد الأفغاني قد حافظ على حاله بعد كثرة النقل من لغة إلى لغة.

واستنادًا إلى الشيخ محمد عبده الذي يعرف فكر الأفغاني كما لا يعرفه أحد مثله تحدث رضا عن رأي الأخير في الإسلام وعلاقته بالعلم، وذلك في مقال آخر ومطول نشره في مجلة «المنار». ومما قاله: «إن الإسلام دين العقل والحكمة والفلسفة الصحيحة، وأنه لولا تأثير هدايته لما انتقل العرب من الأمية =

. . . .

. . . .

= إلى أعلى مما كان عليه جميع البشر في كل علم وكل فن وكل نظام وكل عمران، في مدة جيل واحد، حتى سادوا الفرس والروم والأوروبيين وغيرهم. وهل يعقل أن تلك الشراذم التي خرجت من جزيرة العرب حفاة عراة، لا يعرفون من العلم شيئًا غير القرآن، ولم يكن كل واحد منهم يحفظه كله، يمكن أن تدوخ كل هذه الأمم وتسودها وتسوسها، من ساحل المحيط الأطلسي إلى الشرق الأقصى، وتخضعها لدينها ولغتها بالسيف»!

ونقلاً عن الشيخ محمد عبده فيما رواه له عن موقف الأفغاني، يستطرد رضا: «لكن المسلمين ابتدعوا في الإسلام بدعًا كثيرة، لم يمكن تداركها بسبب فساد نظام الخلافة وإخراجها عن أصلها الذي يشترط فيه العلم الاستقلالي والعدالة. وبهذا الابتداع الذي صار إسلام القرآن فيه غير إسلام المنتمين إليه، أضاعوا العلم به، ثم عادوا كل علم، حتى صاروا إلى ما كان يسعى السيد (جمال الدين) لتلافيه وتداركه. فكأنه يقول لرينان: كل ما ذكرت من عداوة الإسلام للعلم، مما تكثر الشواهد عليه في التاريخ وإن كانت قليلة في عهد الإسلام بالنسبة إلى غيره من الأديان، فهو الإسلام الذي فهمه خطأ أولئك الذين عادوا العلم والعقل والحضارة، لا إسلام القرآن الذي يخاطب العقل ويرفع شأن العلم في آيات كثيرة، ويبين أن لله سننًا في الكون قام بها نظامه، وأن هذه السنن لا تبديل لها ولا تحويل»[٢].

وعمل رضا على الربط بين ما جاء في (الرد) وبين كتاباته السابقة سواء في «العروة الوثقى» أو في غيرها ليجد أن ثمة تناقضًا كبيرًا فيما بين الاثنين. ويذكر نقلاً عن محمد عبده أن جمال الدين لطالما ردد في مجالسه الخاصة بالقاهرة أن «الإسلام الممزوج بالبدع هو ذلك الذي اضطهد بعض أهله رجال العلم». وإذ اعتبر رضا أن الرد يكون تفنيدًا لا تأييدًا مثلما درجت العادة أكد على أن الأفغاني نبه رينان إلى «أن المسلمين قد وجد منهم كغيرهم في نشأة الإسلام الأعجمية في النصف الثاني من حياته ما خنق الحركة العلمية. فكل ما أسنده إلى الإسلام موافقًا لرينان يراد به الإسلام الأعجمي المشوه بالبدع، لا الإسلام العربي المنصوص في القرآن والسنن، وإلا كان كلامه متناقضًا»[٣].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن الأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٦م) وهو الذي عرف الأفغاني في أواخر حياته بادر إلى الإدلاء بدلوه، فوجه رسالة إلى رشيد رضا مؤرخة في ١٢ أيار ١٩٢٤م يشرح فيها موقفه من هذه المسألة. ومما قاله أرسلان: «. . والذي أظنه هو أن السيد جمال الدين حرر رده على رينان بالعربية، ثم دفعه إلى مترجم مثل أنيس شحادة أو غيره (تبين فيما بعد أن مترجم الرد هو خليل غانم نفسه) لأجل أن يضعه في قالب فرنسي، فالمترجم، الذي لا أقدر أن أعرف من هو، ترجم بعض كلمات جمال الدين بغير ما يجب أن يترجمها به، وتصرف في التعبير. وربما كان المترجم هو نفسه متشيعًا بفكرة رينان، غير مقتنع بكلام جمال الدين، فلم يتقيد بالمتن الجمالي التقيد الكافي، ولا أدى الأمانة في النقل حقها. فوقعت هناك ألفاظ لو فهم السيد جمال الدين حقيقة مرماها لأنكرها وغيرها في حينها. . فلا عجب أن تكون الترجمة الفرنسية التي صدرت تحت إمضاء جمال الدين تفيد أشياء لم يردها هو. ومن تأمل في كون هذه المقالة ظهرت في جريدة «الديبا»، وكان يعلم دأب هذه الجريدة من دس السم في كل =

. . . .

. . . .

= ما يتعلق بالإسلام، قل عجبه مما يكون قد ورد في مقالة جمال الدين مما لا يطابق ما سمعناه منه»(٤).

* * *

سوف نحجم هنا ـ ولكي لا نثقل على النص وعلى القارئ معًا ـ عن الإسراف في جرد كل أو أغلب الأصوات التي جاهرت بالدفاع عن جمال الدين الأفغاني. يكفي أن نضيف إلى محمد رشيد رضا وشكيب أرسلان، وهما رمزان كبيران من رموز النهضة في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن، أحمد أمين الذي كتب سلسلة من المقالات في مجلة «الثقافة» ضمنها دفاعًا موضوعيا، مدعمًا بالحجج والقرائن، عن الأفغاني(٥). ونستطيع أن نضيف أيضًا محمد حامد الله الذي كتب مقالة هامة عام ١٩٥٨م بالإنجليزية عنوانها: «أرنست رينان وجمال الدين الأفغاني: ممثلان رئيسيان لثقافتين» حيث حاول البرهنة على أن رينان (اختلق) رد الأفغاني عليه. وقد انطلق حامد الله في محاولته تلك من أن ثمة مقتطفات وعبارات فيما سمي بـ «رد الأفغاني» يستحيل أن تصدر عنه..(٦).

---

(١) الأزمنة، مصدر مذكور ص ٦٢.

(٢) مجلة «المنار» ج ٤، ص ٢٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٤) أمير البيان شكيب أرسلان، أحمد الشرباصي، مطابع الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٦٥٤.

(٥) انظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٥م، ص ٥٩ ـ ١٢٠.

(٦) سمير أبو حمدان: جمال الدين الأفغاني وفلسفة الجامعة الإسلامية، ص ١٥٧ ـ ١٧٠.

٢١

الإسلام والعلم

فاعتبروا يا أولي الأبصار

الإسلام والعلم

فاعتبروا يا أولي الأبصار

إن رينان الفيلسوف قد ألقى في باريس، كرسي الحرية، خطابا جعل موضوعه الإسلام والعلم، وأظهر فيه أفكاره التي ذهبت به إليها الشواهد التاريخية. وما حاد في خطابه عن سنة الأدب، وما تجاوز حدود الكمال الذي يقضي بها وجوب احترام الأمم فيما تنتحله دينا.

ومع ذلك فقد امتعض كثير من عظماء الأمة الفرنسية وتجهموا من مقاله، وحسبوه خروجا عن النصفة، ومروقا عن محيط العدل في الحكم، وتعديا على حقوق من يجب رعايته عليهم من المسلمين عمومًا، وسكان الجزائر وتونس خصوصًا، حتى قام من هذه الأمة الشريفة من له الكلمة العالية في الحكومة، وكتب مقالة تذمر فيها من خطاب رينان، وبين هفواته، وأقام الأدلة على سقطاته، وذاد عن الديانة الإسلامية، ودافع عن المسلمين، وأبان ما كانوا عليه من الدرجة الرفيعة في الآداب والفلسفة. وما دعاه إلى مقالته هذه إلا فضيلة مراعاة الأمم في أديانها، وحسن السياسة. وما يقدر هذا الكمال أحد حق قدره إلا إذا نظر إلى الأمة الإنجليزية، وتتبع معاملاتها مع المسلمين في الهند. إن الإنجليز تحكم خمسين مليونًا من المسلمين. ولا ترى لهم على نفسها حقا، ولا يختلج ببالها وجوب مراعاتهم، ولا احترام ديانتهم. إن قسس الأپروتستانت المغرورين يقومون في شوارع البلاد الهندية على سوقهم، ويطعنون في الديانة الإسلامية طعنا تقشعر منه الأبدان، ويفتعلون من الأراجيف ما تصطك منه الآذان، ويختلقون أقوالا يستبشعها الأوباش، وينسبون إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في رسائلهم من الشنائع

والفظائع ما تنبو عنه الطباع. وكل هذه بمرأى من الحكومة، ومسمع من الأمة الإنجليزية. وما تسمع من أحد منها إنكاراً، ولا ترى في وجوهها من هذه التعديات اغبراراً.

وميزان الحق، والمسيح الدجال[١]، وغيرهما من الرسائل المحشوة بالسب والشتم والقذف في شارع الديانة الإسلامية تنبئك عن كيفية معاملة الإنجليز مع مسلمي الهند، ونهج مراعاتهم. وإذا قام أحد من علماء المسلمين لأن يعارض هؤلاء القسس[*] بكتب رسالة، أو إلقاء مقالة يلقى عليه القبض بدعوى إثارة الفتنة، ويرسل بلا محاكمة إلى جزائر أندمان[٢]. إن المولوي رحمه الله الهندي ما هرب إلى مكة المكرمة إلا بهذه التهمة التي تسببت عن المباحثات الواقعة بينه وبين القس فندرك الأپروتستانتي. وإن جواد الساباط ما فر ليلا من الهند إلى جاوة إلا لتأليف البراهين الساباطية ردا عن دينه وردا لأراجيف القسس الإنجليزية[**].

فانظر أيها البصير إلى التفاوت الكائن بين هاتين الأمتين، وأنصف.

---

(١) ميزان الحق والمسيح الدجال عنوانا كتابين في التبشير المسيحي في الهند في ذلك الوقت.

(*) المراد: القساوسة ـ كما هو الدارج اليوم.

(٢) كانت هذه الجزر النائية في المحيط الهادي مكانًا ينفى إليه الأحرار الهنود وزعماء المسلمين.

(**) ظهرت هذه المقالة للسيد جمال الدين الحسيني. بجريدة «البصير» المصرية، فى ٣ مايو ١٨٨٣م.

٢٢

وثائق

نصوص غير منشورة بالعربية لجمال الدين الافغاني



تقدم في الصفحات الآتية، الترجمة العربية لواحدة من مقالات ثلاث منسوبة الى جمال الدين الافغاني احدى ابرز شخصيات القرن الثالث والمؤسس الحقيقي لحركة الاسلام السياسي، واحدى الشخصيات التي لعبت دورا لا نجد له مثيلا في تلك الفترة المضطربة والمعقدة من حياة العالم الاسلامي في النصف الثاني للقرن التاسع عشر.... المقالات الثلاث نشرت بالفرنسية، حاملة توقيع الشيخ الافغاني على ثلاث حلقات في جريدة «المتصلب» L'Intransigeant التي كانت تصدر في باريس بإشراف وادارة اللبناني خليل غانم. وقد خرجت هذه المقالات في الفترة ما بين ٨ و١٧ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٨٣، أي بعد عام ونيف من بدء الاحتلال الانكليزي لمصر.

المقالة الاولى

الصفحة الاولى، من مقال السيدجمال الدين، حول المهدى

مجلة «اليوم السابع» باريس ١٩٨٥ م

باب مايؤول اليه امر المسلمين في المستقبل

اذا نظرنا الى الحالة الراهنة رأينا انه قد آن الاوان للتكلم في مستقبل الاسلام فان انحطاطه
في زمن السلطان سليمان المسمى بالمشرع من يوم حصار ويانه في سنة ١٦٨٧ لم يزل يظهر
شيئا فشيئا حتى بلغ اواخر القرن الاخير اى عهد السلطان محمود الثاني الذي بلغت رجال
دولته اعلى درجة في التأخير وتملكت بعد الانكليز والمسكو والفرنساويين على كثير من
المسلمين وبقي معظم اهالي الاسلام يتخبطون في الجهل منتظرين سقوط المملكة التركية تحت
صواعق الافلاس والحروب الباطنية والحروب الخارجية التي يخشى من حصول النظر فيها
فضلا عن الهزيمة على ان تلك المملكة التركية هي التي ورثت الملك من الخلفاء الذين دانت
لهم الارض باجمعها وخضعت لهم الممالك وادبا بصياحها ودموعها وهي الآن حصن غير
منيع لحفظ شوكة الاسلام ووقاية واهية للتقهقر والانثلام
فالحكم الآن بما يؤول اليه امر المسلمين وهي في ظلمات من تقلب الاحوال وضيق من عدم
تحقق الآمال افيخطر بالكم ان يقال ان هذا الدين يتلاشى وانه اخذ زمنه ومضى او يخطر
بالكم ان فيه الكفاية لتنظيم احوال معتنقيه الى قوة منشأه ويكون معينا على نشر التمدن
في جميع اقطار الدنيا فهناك مسألتين خاصتين بحال الاسلام وما يؤول امره اليه بالنسبة
لاصلاح شؤونه في المستقبل وبالنسبة لسياسة النصارى الذين تحت حكومة الاسلام وهما
تان المسألتان لهما دخل عظيم في المسألة الشرقية التي لا تحول ولا تزول كل منهما الابد هب
فلا وجه للمجاوبة عنهما بوجه الايجاب لان الدليل الاقوى لتفنيد
دخوله في مسألة الاديان وقال المؤلف فونطه ان الدين قاصر على الزمن الذي ظهر فيه
وان الاديان سترفع من الارض بعد ان تنتشر الحرية على وجهها وان اخر دين اكثر تهذيبا
من باقي الاديان التي تقدمت وان التنظيمات التي تحصل في الدنيا لابد لها من دين جديد
فاذا كان هذا الدين هو دين الاسلام يلزمنا ان نتوقع زمن ظهوره على الاحوال التي
حصلت في الدنيا وتضاهي قواعده بقواعد الاديان المتقدمة ثم نبحث في الثمرات التي جلبتها
التواريخ ونطلع على اسباب انحطاطه في هذه الايام واذا تأملنا في الاسباب الموجبة للانحطاط
ظهر لنا انما ناشئة من عدم موافقة ذلك الدين للتقدم والتمدن الحاصل في هذا الزمن فاذا
امعنا النظر في درجات تلك المسألة رأينا الاسلام ظهر بعد النصرانية بستمائة واثنين وعشرين
سنة فكانت قواعده اعلى درجة من دين النصرانية
وعندنا دليل اخر وهو ان الدينين ظهرا في ارض واحدة وان الدين النصراني سقط في بلد

الصفحة الاولى من مقال: باب مايؤول اليه امر المسلمين

لان بهذا الزمن مساعد لذلك اذلا وجود للمماليك والانكشارية الذين
عطلوا السلطان محمود فى نهضته سيما المسلمين الآن رغبة عظيمة فى معرفة العلوم
الاوروباوية فاما منعنا مدرسة فتحت مجانا فى مصر وسته مضى منذ ثلاث سنوات
وبلغنا عند افتتاحها ان التلامذة والراغبين هرعوا اليها ولم يكن يبقى الا
ثلاثمائة طالب نوجد عدد الذين دخلوا فيها يوم مثل يبلغ سبعمائة وحصل
مثل ذلك حيث امرت الحضرة الخديوية بفتح مدرسة للبنات وكانت
اول مدرسة فتحت فى مصر وما كان يؤمل انها تنجح فلما كان يوم ... العدد
الوارد فيها قدر المطلوب ثلاث مرات فمن نظر الى ذلك بعين التأمل
راى نتيجة عظيمة لا تنال ولا بالقتال فنشر التعليم خصوصا بين
النساء لا شك انه يؤول امره الى فصل مشكل المسئلة الشرقية
ولا يحتاج الامر فيها الى قتال ولا نزال لان سيف التعليم امضى من
سيف المحاربات ولنضرب هنا مثلا بالارض المزروعة
يأتيها الشتاء فيستر زرعها بالثلج فترى كالميت واذا اتى عليها الصيف
وذابت الثلوج اخرجت زخرفها وازينت فكذلك الاسلام اذا
التفت الى معرفة العلوم والفنون ادرك الدرجة العليا فى التقدم
كان عزمه قويا ومستقبله مرضيا ان الله على كل شئ قدير.

تمت بخط السيد محمد الحكيم
الازهري البجراوي
الحنفي
كتبت هذه المقالة
فى شهر صفر الخير
سنة ١٢٩٤

نسخه فتوكپی از این مقاله سید
جمال الدین اسدآبادی به لطف
آقای حسن محجوب مدیر کتابخانه مجلس سنا
اخذ شد. این سند در بین اوراق خطی
کتابخانه مجلس سنا بدست آمده است
(۱) ۱۳۵۲/۲/۵ - تهران
خسروشاهی

الصفحة الاخيرة من: باب مايؤول...

۱. نسخه فتوکپی از این مقاله سیدجمال‌الدین اسدآبادی، به لطف آقای حسن محجوب مدیر کتابخانه مجلس سنا اخذ شد. این سند در بین اوراق خطی کتابخانه مجلس سنا به‌دست آمده است. ۱۳۵۲/۲/۵ تهران: خسروشاهی

«أحرار» يقتلون الحرية

الخديوي اعار يديه للاحتلال خوفا على العرش

مصر باب الشرق وفيها لم يخمد العصيان

السيد رئيس التحرير

لقد خان الاحرار الانكليز كل تعهداتهم التي صمموها ببرنامجهم السياسي ، الذي بموجبه وصلوا إلى الحكم .. وذلك بتدخلهم في شؤون مصر ، وجهودهم التي هم بصدد بذلها في سبيل السيطرة على هذا البلد .

انهم خانوا وعودهم ، بسبب تعهدهم امام ناخبيهم للدفاع عن حق الناس وحرية الامم ، في كل انحاء المعمورة .

الاحرار قالوا المحافظين في مجال الفتوحات والحروب الظالمة التي انتقدوا بفصاحة اللورد بيكونسفيلد واصدقاءه ، بسببها .

ومن لا يتذكر غلادستون خلال الانتخابات العامة ، الذي لم يتردد في تأييد « الزولو » الذين تخطوا الحدود الانكليزية ، والافغان الذين ، بتحالفهم مع الروس وحدهم ، لغـسوا علـى علاقاتهم الصداقية مع انكلترا .

وهو ، غلادستون نفسه ، الذي اعلن الحرب على المصريين الذين لم ينتهكوا حدود احد ، وكل ما طلبوه هو ان يعيشوا احرارا في وطنهم .. الذين لم يعطوا ا خمالية ، على صعيد التحالف ، لاية دولة اوربية ، دون الاخرى ، مفضلين العيش بسلام وبصداقة طيبة مع الجميع .

اهكذا ، إذن ، يجري اللعب على قيمة الكلمات بين الاوروبيين . وهل يجب ان نعتقد بان الذين يزدانون بينهم بلقب الاحرار ، في وطنهم ، هم اسوا اعداء الحرية لدى الاخرين .

فضلا عن ذلك ، فان فتح انكلترا لمصر قد تم وفق موضة الفتوحات الخاصة بهذه الامة والمتبعة منذ جيلين . فانكلترا لا تقدم على ذلك ، والسلاح باليد ، انها تحترس جيدا . وبالعكس ، هي تدخل البلد الذي تطمع به ، تحت كل الاشكال الاكثر مجاملة ، وكل المظاهر الاكثر مودة . هناك ، تنحاز احيانا إلى جانب الامير ضد الشعب ، واحيانا إلى جانب الشعب ضد الامير . وهي تنحاز مرة لدولة ومرة لاخرى ، تبعا للظروف ، ووفقا لعروض الخدمات الملحة ، واضعة تحت تصرفهم اخلص موظفيها وضباطها الذين ، سرعان ما يهيمنون على كامل الادارة . وليس ما يمنعهم من الظهور بالتجرد من اية غرضية ، حيث انهم لا يقصدون إلا انقاذ الامير من اعدائه الداخليين ، وتخليص الشعب من اعدائه الخارجيين

هذه المسرحية ، المتكررة ، لعبتها انكلترا مؤخرا ، تارة إلى جانب الخديوي توفيق ، وطورا إلى جانب الحـزب الوطني المصري ، حيـث لم تعد تعرف ، حتى اللحظة ، الاخيرة ، ايا من الاثنين هو تحت حمايتها نهائيا . بالنسبة للخديوي ، حاولت ان تقنعه انها الوحيدة التي تستطيع وتريد دعمه ضد الحزب الوطني ، الذي يهدف فقط إلى قلبه ، وهذا خطأ . وقالت للحزب الوطني وعرابي بواسطة جواسيسها المصريين ، انها الدولة الوحيدة التي ترغب في الحكم الذاتي لمصر ، وهذا ايضا خطأ

واحسرتاه ! فلو كان الخديوي اكثر فطنة او اكثر ثقافة ، لكان تذكر ما يترتب عادة على الامراء والاسر المالكة ، الذين يقبلون المساعدة والحماية من انكلترا ضد مواطنيهم في الواقع ، بدات انكلترا في تجديد سلطتهم ، معلنة انها خادمتهم الاولى تلك السلطة الملكية التي وضعتها بريطانيا دائما في المقدمة ، وجابهت بسببها الجميع في الداخل والخارج ، ولكن شرط ان تتصرف السلطـة تلك كمـا يحلـو لها (اي لانكلترا) .

هذا ما يمكن رؤيته في الهند خلال ٨٠ سنة فانكلترا لديها الصبر ــ الصبر كان فضيلتها السياسية الكبرى ــ ان تظهر بمظهر الصديق المتواضع ، الاكثر سعادة والحليفة الاكثر تبجيلا من عائلة تيمور المالكة . ورغم انها ، منذ اليوم الاول لتدخلها الصداقي لم تترك لهم ، في التحديد وفي الحقيقة ، غير اللقب الشرفي للشاهنشاهية ولم تخلع القناع وتظهر على حقيقتها السيدة الوحيدة والمطلقة للهند ، إلا منذ حوالي ثمانين سنة

لو كان توفيق اكثر ثقافة ، لادرك ان انكلترا ، وهي تسيطر كما فعلت ، بحجة الدفاع عن البلد ، وعن الجيش المصري .. ستعامله ، وهو الخديوي ، تماما مثلما عاملت « النايب » في « البنغال » و « لاكانو » و « كاماتاك » وغيرهم من « النايابيين » الذين هددت دمهم وضمت بلادهم ، بواسطة الجيش الذي وضع تحت رعايتها حيث اعادت تنظيمه ، كما ادعت ، من اجل الدفاع عن العرش .

ولو اردت ان اقيم مزيدا من المقارنة والتشابهات ، لكنت لاحظت كيف ان انكلترا حين استولت على جزيرة قبرص ، قد تظاهرت بالقول انها لم تسلخها نهائيا عن الامبراطورية العثمانية التي سوف تعيدها إليها . ولكن حين سلخت كالكوتا من آل تيمور ، لم تقل إلا الشيء نفسه .

حتى خلعها لاسماعيل واستبداله بتوفيق ، ليسا شيئا فريدا في سياسة انكلترا الشرقية ، ذلك ان الاحتفال الرسمي نفسه ، قد جرى برعايتها ، يوم تم خلع « النايب سراج الدولة » ، واستبداله بمراد جعفر .

باختصار ، انكلترا هي بصدد تفكيك الامبراطورية العثمانية من اجل ابتلاع الاجزاء المرغوبة منها ، الواحد تلو الآخر ، تماما بالطريقة نفسها التي ابتلعت فيها الهند ، ببطء ، ولكن بلا مخاطر

غير انها ، لسوء حظها ، قد اضطرت إلى التخلي عن نهج النفس الطويل في مصر ، رغم الخطط ، فان نجاحات الحزب الوطني ، الذي لم يقل مائلا من الحكم الاستقلالي للبلد ، قد دفعتها الى التفكير الشديد ان حكم الحزب الوطني لمصر ، كان مناقضا لما حلمت به ، ولذلك سرعت الاحداث والمعروف ان النتيجة المباشرة لتسريح

الصفحة الاولى من مقال: احرار يقتلون الحريه... مجلة «اوراق»

بابية[1]

دين ظهر في بلاد العجم نحو سنة ١٨٦٢ بدعوة رجل من اهل شيراز يعرف بالسيد علي محمد وكان تلميذاً لبعض تلامذة الشيخ احمد زين الدين الاحسائي الذي مزج التصوف والفلسفة بالشريعة وجمع بين اعتقادات الشيعة الامامية والاصول الفلسفية على طرز جديد وقال ان المهدي الغائب المنتظر ظهوره عند الشيعة هو الآن من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني سمّاه جابلقا وجابرسا وان اجسام سكان ذلك العالم الروحاني كاجسام الجن والملائكة المسماة بالاجسام الهورقليائية وهي من اصطلاحات الكيميا القديمة وقد قفاه على هذا الاثر تلامذته وقاموا في مقام التعليم على هذه الطريقة وكان من امر السيد علي محمد المذكور بعد ان حج الى مكة ان ادّعى انه باب المهدي واقام على تقرير هذه الدعوى مدة واسس ذلك الدين من عناصر اسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية ولقب نفسه باب الدين ثم ترك هذا اللقب ولقب نفسه النقطة او خالق الحق مدعياً انه ليس نبياً بسيطاً بل هو مشخص للالهة ومنح احد اتباعه لقب الباب وارسل دعاة الى جهات مختلفة. ثم بناه على قول متنداه الشيخ احمد المذكور في امر المهدي ادّعى ثانية انه المهدي بعينه وان ذاك الجسم اللطيف الروحاني قد ظهر في هذا الجسم الكثيف المادّي ولما كانت الرجعة اي رجوع بعض الائمة السابقين وتابعيهم من الاصول الثابتة في مذهب الامامية والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في بلاد العجم مدة طويلة كان له بقايا في النفوس فقام جماعة من اتباع هذا الرجل اعني السيد علياً وادّعى بعضهم انه الحسن وبعضهم انه الحسين وبعضهم انه غيرهما من الائمة وتابعيهم ولابدّ من الدعاوي عندهم رأيٌ رآهُ هذا الرجل نفسه وهو ان شخصية الشخص التي باعتبارها يمتاز عن غيره وينال اسماً خاصاً به كحسن او حسين مثلاً انما هي صفاته واخلاقه التي يكون عليها فمن وجدت فيه صفات شخص واخلاقه واحواله على وجه تامّ فهو هو في اي زمان كان. ولقرب هذه الاعتقادات من مشرب الطائفة الشيخية من الشيعة وهم اتباع الشيخ احمد زين الدين المذكور آنفاً لبّى دعوة هذا الرجل كثير من اهالي بلاد العجم المتمذهبين بذلك المذهب الجديد. فلما رأى اقبال الناس عليه واجابتهم دعوته ترقّى في دعواه فقال انه هو النبي وان الله قد انزل عليه كتاباً يسمّى بالبيان وانه المشار اليه بقوله تعالى خلق الانسان علّمه البيان. والانسان هو محمد والبيان هو هذا الكتاب المنزل على السيد علي. وكتابه هذا يحتوي على كثير من العربي المسجّع وبعض الفارسي الا ان العربي منه كان ملحوناً فلما سئل عن سبب وقوع اللحن في هذا الكتاب المنزل مع ان اللحن نقصٌ اجاب بان الحروف والكلمات كانت قد عصت واقترفت خطيئة في الزمن الاوّل فعوقبت على خطيئتها بان قيدت بسلاسل الاعراب وحيث ان بعثتنا جاءت رحمة للعالمين فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين حتى الحروف والكلمات فاطلقت من قيدها تذهب الى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط. ومما ينسب اليه انه كان

الصفحة الاولى لمقال البابية، (قسمت اول مقاله دربارهٔ بابیگری)

1. Babisme

الباب فهو عندهم اعظم من محمد كما ان محمداً اعظم من عيسى وفرض الصوم شهراً من اخر الحوت بحيث يوافق عيد فطرهم يوم النيروز وهو اول الحمل . ومن احكامه انه يجب تخريب جميع البقاع المقدسة كمكة وبيت المقدس وقبور الانبياء والاولياء عند حصول اول سلطة لاحد ممن تبع دينه ويحرم شرب الخمر وكذا الدخان على عهده وحلله اتباعه من بعده ويندب شرب الشاي ندباً مؤكداً حتى ان من شربه ينال جزيل الثواب ومنها انه يجوز العقد على اثنتين فقط والشراء والمتعة بغير حصر وعلى ما يقال انه يجوز نكاح الاخت . ومنها ان من كذب في قول او نادى شخصاً من خلفه فقد اساء وكفارته اعطاء ثلثة مثاقيل من الياقوت فان لم يجد فصيام يومين . ومنها ان شهداءهم الذين قتلوا في طهران وغيرها يجب ان يبنى لهم مشاهد مكللة بانواع الجواهر وانه يجب على اي سلطان يكون منهم ان يضع سيفه في العالم فاما الدين او الموت ولا يجوز اخذ الجزية . وانه يجب على كل واحد منهم ان يكون عنده كأس من الفضة وثوب لطيف نقي اما الكأس فيتناول بها الماء القراح الصافي واما الثوب فيتجمل به عند الفراغ وانه يجوز ان يظهر بعده كامل اخر لكن بعد ان يمضي من السنين عدد حروف المستغاث يعني الفي سنة وكسوراً . ويحظر في مذهبهم اتخاذ السراري والطلاق واستعمال النساء للنقاب ويصح ان يقال ان دينهم الى الان لم يقرّ على نظام واحد بل هو كالرمال السيالة تحدث بسيرها تلاً في محل ثم تنتقل وتحدث تلاً اخر بشكل اخر في محل اخر

وكان من جملة دعاته امرأة فتية بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى باسم سلمة من بنات احد المجتهدين في العجم وكانت متزوجة بمجتهد اخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام وآمنت بذلك الرجل عن غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها في مكاتباته بقرة العين فلقبت بذلك وكانت تناظر العلماء والفضلاء مكشوفة الوجه بدون حجاب ثم لما وقعت المحاربة بين البابيين وعساكر الدولة في مازندران جيشت جيشاً وقادته مكشوفة الوجه وسارت امامه طالبة اعانتهم وفي اثناء الطريق قامت في الناس خطيبةً وقالت ايها الناس ان احكام الشريعة الاولى اعني المحمدية قد نسخت وان احكام الشريعة الثانية لم تصل الينا فنحن الان في زمن لا تكليف فيه بشيء فوقع الهرج والمرج وفعل كل من الناس ما كان يشتهيه من القبائح ثم قبض عليها وأُلبست البرقع جبراً وحكم عليها بان تحرق حيةً ولكن الجلاد خنقها قبل ان العب النار بالحطب الذي أُعدّ لاحراقها

ومن احكام هذا الدين انه لا يجوز ان يضرب المعلم تلميذه اصلاً وان الزكوات والصدقات لا يجوز اعطاؤها لغير البابيين فان فقد فقير في البابين فتصرف على من بني على مذهب الشيخ احمد زين الدين الاحسائي .

واما نسبتهم الى الاباحية (الكمون) فهذا من لوازم مذهبهم حيث ان كل من خالفهم في معتقدهم فدمه وماله هدر . واما تشاركهم في الاموال فهو من مقتضيات كل دين او مذهب جديد اذ يتعاون اهله ببذل جميع ما بايديهم و يرتفع الحجر والحرج من بينهم . فهذا ما رواه عنهم السيد جمال الدين الافغاني المشهور وغيره

(قسمت آخر مقاله سید درباره بابیگری)

دائرة المعارف، قاموس عام لکل فن و مطلب، تألیف: المعلم بطرس البستانی، ج ۵ ـ دارالمعرفه، بیروت صص ۲۸ـ۲۶



جريدة - ابو نظارة زرقا - المتضمنة مقال الافغاني

الصفحة الاولى من مقال السيد، المنشور فى فصلية «اوراق» و فيها الصورة الاصلية لجريدة «ابو نظاره الزرقا» المتضمنة للمقال

هذه مقالة عربية [illegible]

ان العجب يدعو الناس الى الكبر والكبر يصير سببا للنظر الى سائر الناس بالحقارة وتعليل افعالها
غير مطبوعة والعجب من خواص النفوس الصغيرة ومن لوازم العقول الضيقة لانه ادراكها
لان من يكون ادراكه وسيعا وافكاره عالية يعلم ان لسلسلة مراتب الانسان في كل مرتبة من
المزايا معنوية كانت وصورية غير متناهية ولما انكشف هذا الامر على احد في كل مرتبة
كان ملاحظا لما فوقه لم يحصل له الا القصور والاعتراف على نقصانه ان الانسان
لم يكن يعلمه اعتمادا ولا القوة نهائية ولا الغناء وثروته غاية ثم ان كان احد يعجب
معجبا بنفسه ليتصل الى بعض من المزايا لم يكن سببه الا عمايته وعمهه انه يكن
يزعم سعة عقله فوق جميع العقول فلهذا الغرق نفسه على غيره وضعف هذا
وانحط بنفسه يصير سببا الى تنبيه بعض من المزايا الانسانية وتحصيل له الشئوان والكبر
بحيث يفعل اعمالا غير مستحسنة ويحقر ويوهن سائر الناس ما دام بمقام هذا العجب والكبر
وما يحصل للانسان بسبب هذه ان اول مضرته انه يمنع الانسان من وصوله الى مدارج
كمالات غير متناهية ويرد النفوس والعقول من طلب المعالي ومتى يوجد في الانسان هذه الخصلة
يجبره على الوقوف ومضرته الاخرى انه يدعو جميع الناس على العداوة ويقطع سلسلة الالفة.
هذا اساس حياته وهو بعد هذه الخصلة يصير في زاوية الوحشة والدهشة مغلول اليدين
يحبس والعجب انما نرى في بلدنا اكثر ابناء الناس من المتكبرين لا يمكنهم القيام في عالم ومكين
~~[illegible]~~ [illegible] من العجز وكثرة العظمة على السماء والارض ومع هذا الا يوجد
فيهم منزلة داعية الى هذه الكلمة الا النظر الى هؤلاء الناس في الكبر وحضيض
رجلهم على رجلهم و[illegible] في اللاذقية والسوق والانظر الى الذين [illegible]
وضعفا فلعنوهم [illegible] وينظرون [illegible] في حال العبور على السماء والارض
لا تنسب يفعلون كما [illegible] [illegible] [illegible]

العُجب ـ مقال بخط السيد...

وهل كشف نيوتن اسرار الاسرار سيان ان اهتدى بها رئيس الملك وهل هو تركهم ام
كرستيل دي ام هو بسمارك ام هو بطل الهندستان او غزولف او نيطن ام الفلك
او كالبيلو ام لا بل اخترع سلك البرق او ~~الكتابة~~ او فن الكد بعد هذا العجب
وهذا التكبر الذي لا حد له وان كان للانسان شعور اما او كان ~~له~~ ميزة يلتذ به
في الخلة واما حقيقة نفسه في زاوية حيث لا يعرف نفسه وهذه الصفة السيئة يوصف بها قليلاً
الا في الشرق

القسم الاخير عن مقال السيد حول «العُجب»

٢٣

الفهارس

الآيات، الأعلام، الأماكن

فهرس الآيات

فهرس الأعـــلام

فهرس الأمـــاكـــن

الآثار الكاملة

للسيد جمال الدين الحسيني
- الأفغاني -

دراسة وتحقيق وإعداد وتقديم :

سيد هادي خسروشاهي

١ - العروة الوثقى — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

٢ - رسائل في الفلسفة والعرفان — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

٣- الرسائل والمقالات — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

٤ - ضياء الخافقين — بالاشتراك مع آخرين

٥ - تاريخ إيران وتاريخ الأفغان

٦- الرسائل والوثائق (العربي والفارسي)

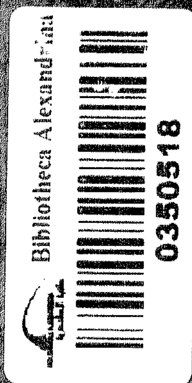
٧ - رسائل ومقالات (بالفارسية)

٨ - خاطرات - آراء وأفكار - — تقرير : محمد باشا المخزومي

٩ - التعليقات على شرح العقائد العضدية — بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده

١٠ - المستدركات (رسائل ومقالات لم تنشر حتى اليوم)

رقم الإيداع ٥٨٢٧ / ٢٠٠٢



مكتبة الشروق الدولية